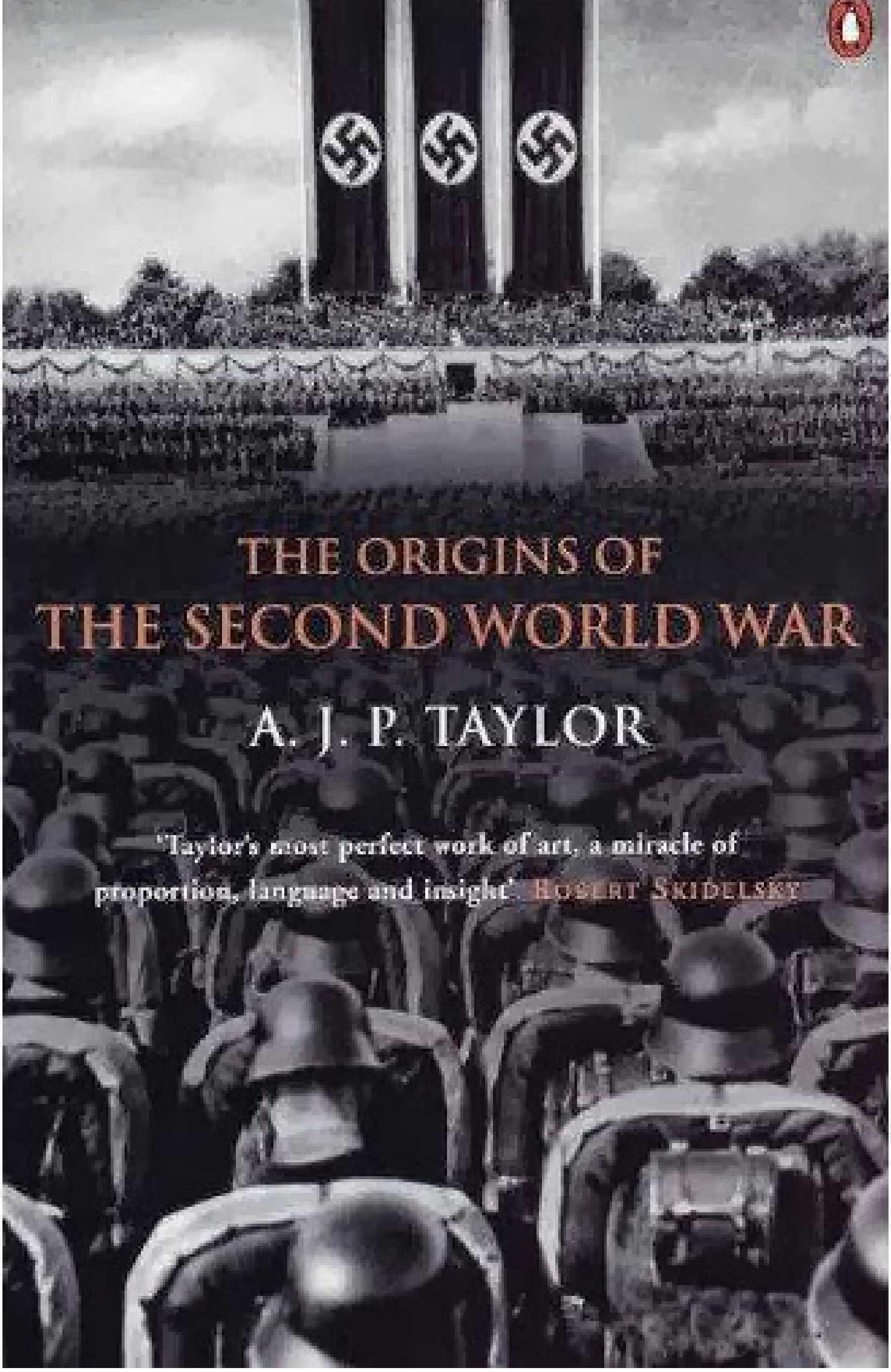

أصول الحرب العالمية الثانية

ا. ج. ب. تايلور

أصول الحرب العالمية الثانية

تأليف : أ . ج . ب . تايلور
ترجمة : مصطفى كمال خميس
مراجعة : دكتور محمد أنيس

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة : أفكار لاحقة	٧
الفصل الأول :	
مشكلة منسية	٢٧
الفصل الثاني :	
تركة الحرب العالمية الأولى	٣٩
الفصل الثالث :	
عشر سنوات تالية للحرب	٦٣
الفصل الرابع :	
نهاية معاهدة فرساى	٨٤
الفصل الخامس :	
المسألة الحبشية ونهاية معاهدة لوكارنو	١١١
الفصل السادس :	
السلام نصف المسلح (١٩٣٦/١٩٣٨)	١٢٧
الفصل السابع :	
الوحدة : نهاية النمسا	١٥٧
الفصل الثامن :	
أزمة تشيكوسلوفاكيا	١٧٧

الموضوع	الصفحة

الفصل التاسع :

سلام لستة شهور ٢١٧

الفصل العاشر :

حرب الأعصاب ٢٤٧

الفصل الحادى عشر :

الصراع على دانزج ٢٨١

الخرائط :

خريطة رقم ١ :

خريطة لألمانيا بين الحربين ٣١٧

خريطة رقم ٢ :

خريطة لأوربا بين الحربين ٣١٨

نبذة عن المؤلف

ولد ا · ج · ب · تايلور فى بركدال بلانكشير فى سنة ١٩٠٦ وأتم تعليمه فى مدرسة بوثام بيورك ، ثم فى كلية أوريل جامعة أوكسفورد · ودرس بعد ذلك لمـــدة عامين فى فينا Vienna خـــلال الايام الاخـــيرة للجمهورية النمساوية الأولى ·

وشغل منصب محاضر فى التاريخ بجـــامعة مانشستر ثم محـــاضر للتاريخ الحـــديث لمـدة خمسة وعشرين عاما بكلية ماجدالين بجـــامعة أوكسفورد ويعتبر الآن زميلا باحثا فيهـــا · وهو زميـــل فى الاكاديمية الانجليزية ، كما كان محاضر فورد فى التاريخ الانجليزى فى أوكسفورد (١٩٥٥ ــ ٥٦) ومحاضر لسلى ستيفن فى كامبردج (١٩٦٠ ــ٦١٠) ويحمل درجة «د·س·ل» D.C.L. الفخرية لجامعة برونســويك الحديثة ·

ألقى تايلور ست مسلسلات من المحـــاضرات فى التليفزيون لاقت نجاحا باهرا ، وهو المحاضر الوحيد الذى يواجه الكاميرات لمدة نصف ساعة بدون مساعدات مرئية ·

وهو يمد جريدتى «صنداى اكسبرس وأوبزرفر بمقالاته بانتظام ·

ومؤلفاته تتضمن : ملكية الهابسبورج The Habsburg Monarchy

منهج سير التاريخ الالمانى Course of German History ، بسمارك Bismark ــ صانعو الاضطراب The Trouble akers ، الصراع على السيادة فى أوربا The Struggle for Mastery in Europe ، وثلاثة مجلدات من المقالات ، وكاد أن يتم الآن تاريخا لانجلترا من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٤٥ كجزء من «تاريخ اكسفورد لانجلترا» Oxford History of England

المقدمة

أفكار لاحقة

كتبت هذا الكتاب لاشبع فضولى التاريخى ، أو فى كلمات مؤرخ أكثر نجاحا « لكى أفهم ما حدث ، ولماذا حدث ؟ »

والمؤرخون غالبا لا يحبون « ماحدث » أو يتمنون لو أنه حدث بشكل مختلفة . فانه ليس فى استطاعتهم أن يفعلوا شيئا فى هذا الأمر ، انهم لا بد أن يقرروا الحقيقة كما يرونها دون ما قلق عمـا اذا كان فى هذا ما يصدم حكمهم المتقدم أو يثبته أو يلائمه .

وربما كان فى افتراض هذا لون من البراءة أكثر ممـا يجب ، وقد أجد أنه لا بد لى من أن أحذر القـارىء أننى لا أقف من التاريخ موقف القاضى ، وأننى عندما أتحدث عن الاخلاقيات ، فأننى أستند الى المشاعر الاخلاقية السائدة فى الزمن الذى أكتب عنه ، ولا أضع أحكاما أخلاقية من عندى ؛ وعلى هـذا فاننى عندما أكتب «أن معـاهدة فرساى كان يعوزها الرسوخ الاخلاقى منذ البداية » ، فأننى أعنى فقط أن الالمان لم يعتبروها اتفاقية «عادلة» وان كثيرا من النـاس فى الدول الحليفة ـ بل سرعان ما أصبحوا الغالبية كما يبدو لى ، ـ يتفقون معهم فى هذا . ومن أنا حتى أقرر أن هذا «أخلاقى» أو «لا أخلاقى» فى صورة مجردة ؟ ثم من أى وجهة نظر ـ أهى تلك الخاصة بالالمان أم الحلفاء ، أم المحايدين ، أم البلاشفة؟

ان بعضا من صانعيها يعتقدون أنها كانت أخلاقية ، واعتقد البعض أنها كانت ضرورية ، واعتقد آخرون أنها لم تكن أخلاقية ولا ضرورية ـ ويشمل هذا الفريق الاخير الجنرال سمطس ولويد جورج وحزب العمال الانجليزى ، وعديدا من الامريكيين .

وساعدت هذه الشكوك على هدم اتفاقية السلام فيما بعد . وكذلك كتبت عن اتفاقية ميونيخ « لقد كانت أكثر تحقيقا للنصر من كل الاشياء الرائعة فى تاريخ انجلترا ، نصرا لأولئك الذين بشروا بالعدالة المتكافئة بين الشعوب ، نصرا لأولئك الذين شجبوا بشجاعة بشـاعة وقصر نظر معاهدة فرساى » . وربما تحتم على أن أضيف « نكتة هنا » على طريقة أرتيموس وارد .

على أن الأمر لم يكن نكتة بأى صـورة من الصـور ـ ولعدة سنوات مضت دلل أكثر الدارسين للمعلومات واعظمهم وعيا بالشئون الدولية على أنه لن يكون هناك سـلام فى أوربا حتى يحصل الألمان على حـق تقرير مصيرهم الذى سبق أن منح للآخرين ٠

كانت ميونخ جزئيا ـ محصلة كتاباتهم ، مهما بدا من عدم الترحيب بصيغتها ، ولاشك أن الاتفاق عليها كانسيبدو أكثر صعوبة اذا لم يصاحب ذلك شعور بأنه كان هناك شىء من العدالة فى مطلب هتلر ، وحتى فى خلال الحرب العالمية الثانية سأل أحد أتباع جماعة أول سولز All Souls الرئيس بنيز(١) بنش عما اذا كان لا يعتقد أن تشيكوسلوفاكيا كان من الممكن أن تكون أكثر قوة اذا نقص عدد الألمان فيهـا مثلا ، مليونا ونصف مليون ؟ لكم تباطات روح التهدئة ، وفى واقع الأمر أنه لم يكن هناك حل وسط : فاما أن يكون فى تشيكوسلوفاكيا ثلاثة ملايين ونصف من الألمان أو لا أحد ٠

ولقد أدرك التشيك أنفسهم هذا بطردهم للألمان بعد الحرب العالمية الثانية ، ولن يقع على عاتقى أنا تأييد دعوى هتلر أو ادانتها ، وانما على أن أوضح فقط لماذا لقيت التأييد العريض ٠ انى لآسف أن يخيب هذا أمل الألمان البسطاء الذين يتصورون أن كتابى هذا قد أيد هتلر بشكل ما ٠ ومهما يكن من شىء فلست أحس بأى تعاطف مع أولئك الذين اشتكوا ـ فى هذا البلد ـ من أن كتابى لقى ترحيبا ـ سواء أكان هذا خطأ أم صوابا ـ من مناصرى هتلر السابقين فانهذا يبدو لى حجة شائنة ضد عمل تاريخى٠ ان المؤرخ يجب ألا يتردد حتى ولو كانت مؤلفـاته تؤيد أو تريح أعداء الملكة (ولو أن مؤلفاتى ليست كذلك) ، أو حتى الأعداء الطبيعيين للجنس البشرى ٠ وفيما يختص بى ، فاننى سوف أسجل حتى تلك الحقائق التى تشرف الحكومة البريطانية هذا اذا ما وجدت شيئا يسجل (نكتة أخرى)٠ وليس خطئى ، تبعا لما هو مسجل ، أن تكون الازمة النمساوية قد أثارها تشوزنيج وليس هتلر ، وليس من خطئى أيضـا أن الحكومة البريطانية وليس هتلر تبعا لما هو مسجل أيضا ، هى التى كانت البادئة فى تقسيم تشيكوسلوفاكيا ، وليس خطئى كذلك أن الحكومة البريطانية فى سنة ١٩٣٩ أوحت الى هتلر أنها أكثر اهتـماما بالضغط على البولنديين منها بمقاومة ألمانيا ٠ فاذا كانت تلك الاشياء تقال فى صالح هتلر ، فان ذلك

---

(١) مستر أ ٠ ل ٠ راوس : كما ورد فى كتابه All Souls and Appeasement

خطأ الأساطير السابقة التي رددها المؤرخون دون تمحيص • ولقد عاشت تلك الاساطير فترة طويلة ، بل اننى لاشك فى أن أكون قد رددت بعضها، فمثلا ظللت أعتقد حتى اللحظة الاخيرة أن هتلر هو الذى استدعى هاشا الى برلين ، حتى اللحظة التى كان فيها الكتاب فى «البروفة» عندما رجعت الى التسجيلات مرة أخرى واكتشفت أن هاشا هو الذى طلب أن يحضر الى برلين وليس العكس • وليس منشك فى أن أساطير أخرى قدتسربت منى•

وليس فى تحطيم تلك الاساطير تأييد لهتلر ، انها خدمة للحقيقة التاريخية ، ويجب أن يواجه كتابى بالتحدى على هذا الأساس ، وليس على أساس الأخلاقيات السياسية التى يفضل الناس الابتعاد عنها ، وليس هذا المؤلف دعوة «لاعادة النظر» الا فى الاحساس البسيط فيما يقترح من أن هتلر استخدم طرقا مختلفة عن تلك التى كانت عادة تنسب اليه • اننى لا أجد أبدا أى تعقل فى قضية تحمل وزر الحرب أو التبرئة منها •

ففى عالم الدول الحاكمة ، تبذل كل منها أقصى مافى وسعها لفائدتها الخاصة ، ويمكن أن تعرض للنقد الى أقصى حد على أخطائها وليس على جرائمها • ولقد كان بسمارك على حق ـ كعادته ـ عندما قال عن الحرب النمساوية ـ البروسية فى ١٨٦٦ « لم تكن النمسا خاطئة فى معارضة مطالبنا بأكثر من خطئنا فى وضع هذه المطالب » • وكمواطن ذى وضع خاص فاننى أعتقد أن كل هذه المعاناة فى سبيل العظمة والسيطرة بلاهة، ولست أحب لبلادى أن تشارك فيها ، وكمؤرخ فاننى أعترف أن الدول الكبرى ستظل دولا كبرى ، وفى الحقيقة لن يستطيع كتابى أن يصنع شيئا كثيرا بالنسبة لهتلر ، وكما يبدو لى ـ فان القضية الحيوية تعنى بريطانيا وفرنسا • فلقد كانتا هما المنتصرتين فى الحرب العالمية الاولى وكان حسم الموضوع فى أيديهما • وكان من الواضح تماما أن المانيا سوف تعمل على أن تصبح دولة كبرى مرة أخرى كما وضح بعد ١٩٣٣ من أن سيطرتها سوف تكون من النوع البربرى • لماذا لم يقاومها المنتصرون ؟ ان ثمة ردودا مختلفة على ذلك : الخوف ، انعدام الرؤية ؛ الشكوك المعنوية ، وربما الرغبة فى تحويل قوة ألمانيا ضد الاتحاد السوفيتى • ومهما تكن الاجابات ، فان هذا يبدو فى نظرى هو السؤال الأهم ، وسيدور كتابى حول هذا ، ولو أنه بطبيعة الحال سيدور أيضا حول السؤال الآخر : لماذا قاوموا فى آخر الأمر ؟ ومع كل ذلك ، فلا زال بعض النقاد يثيرون ضجة كبيرة حول هتلر تحمله وحده مسئولية الحرب أو شيئا قريبا من هذا • وعلى هذا سوف أناقش موقف هتلر بقليل من التوسع وان لم يكن ذلك بروح جدلية ، وليست لدى رغبة فى الانتصار وانما كل ما أهدف اليه

هو وضع الأمور فى نصابها • ان وجهات النظر السائدة بالنسبة لهتلر ـ كما أعتقد ، اثنتان ـ ففى وجهة نظر ، أنه كان يريد حربا كبرى لذاتها ولا شك أيضا أنه فكر تفكيرا غامضا فى النتائج : ألمانيا أقوى الدول فى العالم ، وهو نفسه قاهر العالم على وتيرة الاسكندر الأكبر ونابليون ، ولكنه أساسا كان يريد الحرب للتدمير العام للبشرية وللمجتمعات التى قد تشيدها • لقد كان معتوها فوضويا ، أتيلا آخر ـ أما وجهة النظر الاخرى فننظر اليه على أنه أكثر تعقلا أو بمفهوم آخر أميل الى التشييد • وهتلر فى هذه النظرة كانت له خطة مترابطة طويلة المدى ذات طبيعة مبتكرة تابعها باصرار راسخ • ومن أجل هذه الخطة استهدف القوة ، التى شكلت كل سياسته الخارجية ، لقد عقد العزم على أن يحقق لألمانيا امبراطورية استعمارية كبيرة فى أوربا الشرقية بهزيمته الاتحاد السوفيتى وباستئصال شأفة كل سكانه وملء الفراغ فى هذا الاقليم بالألمان ، وأن هذا « الريخ » المكون من مائة أو مائتى مليون ألمانى سيبقى لمدى ألف عام • وبالمناسبة فاننى فى دهشة من أن مؤيدى هذه النظرة لم يمتدحوا كتابى • ان هتلر ، على وجه التأكيد ، اذا كان يخطط لحرب كبرى ضد الاتحاد السوفيتى فان حربه ضد الدول الغربية الكبرى كانت خطأ وبلا شك فان هناك بعض النقاط لم أفهمها •

والآن وبطبيعة الحال فان هتلر تمعن طويلا فيما كان سيفعله بالقدر نفسه الذى يحاول به الباحثون الأكاديميون أن يصنعوا الارتباط فى أعمال السياسيين المعاصرين ، وربما كان يمكن انقاذ العالم من كثير من المتاعب لو أن هتلر أعطى عملا فى مؤسسة شاتهام الألمانية اذ كان يستطيع أن يمضى بقية حياته متأملا بلا ضرر • ولكن ما حدث أن أحداث العالم جرفته، واعتقد هنا أنه تمادى فى استغلال الاحداث بأكثر من اتباعه خططا ملتزمة محكمة • وقصة وصوله الى الحكم فى ألمانيا تبدو لى موضحة لتصرفه الأخير فى الشئون الدولية ، فقد أعلن باصرار أنه يهدف الى تملك زمام القوة ، وعندئذ يصبح فى قدرته أن يصنع أشياء عظيمة ، ولقد صدقه الكثيرون•

ان المؤامرة المحكمة التى قبض بها هتلر على زمام الحكم كانت الاسطورة الاولى التى رويت عنه وكانت أيضا الاولى التى حطمت • ولم تكن هناك مؤامرة طويلة المدى ولم تكن هناك خطة للاستيلاء على السلطة • فلم يكن لدى هتلر أية فكرة عن كيفية الوصول الى الحكم ، بل اقتناع بأنه لا بد واصل اليه • ولقد تضافر بابن مع عدد قليل آخر من المحافظين فى وضع هتلر فى الحكم بالدسيسة ، معتقدين انهم جعلوه أسيرهم • ومرة ثانية استغل هو دسيستهم بلا أية فكرة عن كيفية التخلص من سيطرتهم،

بل باقتناع أنه بطريقة ما سـوف يستطيع ذلك ، ان اعادة النظر هذه لا تبرىء هتلر ، وان كانت تدين بابن ورفاقه ؛ انهـا مجرد اعادة نظر لذاتها أو بمعنى أصح من أجل الحقيقة التاريخية .

ولم يكن لدى هتلر عندما تربع على السلطة أية فكرة عن كيفية اخراج ألمانيا من البؤس ، وانما مجرد تصميم على أن يفعل ذلك ، ولقد كان معظم العلاج يرجع طبيعيا الى الانقلاب العام فى أحوال العالم التى بدأت قبل أن يحرز هتلر السلطة . ولقد أسـهم هتلر فى ذلك بأمرين ـ الاول معاداة السامية ، وهذا فى رأيى ـ كان الشىء الوحيد الذى اقتنع به هتلر باصرار وبعبقرية منذ البداية فى ميونيخ حتى أيامه الاخيرة فى القبو . وكان من الممكن أن يحرمه دفاعه عن ذلك من العون فضـلا عن السلطة فى بلد متحضر . ومن الوجهة الاقتصادية فان هذا شىء غـير متناسق وضار فى الحقيقة . أما الأمر الآخر الذى أسهم به ، فقد كان تشجيع الانفاق العام على الطرق والمبانى ، وتبعا لما جاء فى المؤلف الوحيد الذى اهتم بما حدث بدلا من الاهتـمام بترديد ما قاله هتلر وآخرون عما يحدث (١) ـ فان انتعاش ألمانيا حدث بسبب عودة الاستهلاك المحلى وأشكال الاستثمارات غير الحربية الى مسـتويات الرخاء سنة ١٩٢٨ وسـنة ١٩٢٩ ولم يكن فى استطاعة اعادة التسلح أن تفعل شيئا كثيرا فى هذا الأمر .

وحتى ربيـع ١٩٣٦ « كانت اعادة التسلح خرافة كبرى»(٢) وفى حقيقة الأمر فان هتلر لم يطبق خططا اقتصادية معدة ، وانما فعل أقرب ما فى متناول اليد .

وتتضح هذه الصورة أيضا فى قصة حريق الريخستاغ ، ان الجميع يعرفون الاسطورة . كان النـازى يريدون مبررا لفرض قوانين استثنائية للدكتاتورية السياسية ، فأشعلوا بأنفسهم الحريق فى الريخستاغ لكى يوجدوا هذا المبرر ، ربما كان جوبلز هو الذى نظم الحريق ، وربما جورنج وربمـا لم يعلم هتلر نفسه شيئا عن الخطة قبل تنفيذها ، وعلى كل فان النازيين هم الذين فعلوا ذلك بشكل ما . ولقد حلل فريتز توبياس هذه الاسطورة الآن الى جزيئيـات ، ولـكن بشىء من الخـداع فى رأيى(٣) فالنازيون لم يكن يعنيهم احراق الريخستاغ فى شىء . لقد فعل الهولندى

(١) بورتون . هـ . كلين « التحضير الاقتصادى الألمانى للحرب » سنة ١٩٥٩ وكلين هو رجل اقتصاد فى اتحاد راند التعاونى Rand Corporation

(٢) كلين ص ١٦ ـ ١٧ .

(٣) فريتز توبياس : حريق الريخستاغ ١٩٦٢ .

الشاب فان درلوب ذلك كله بمفرده كما ادعي تمـــاما ، وأصيب هتلر والنازيون الآخرون بالدهشة واعتقـــدوا بصفة مؤكدة أن الشيوعيين هم الذين أضرموا الحريق وفرضوا القوانين الاستثنائية لأنهم اعتقـدوا تماما أنهم مهددون بثورة شيوعية ٠ ومن المؤكد أنه كانت هنـــاك قائمة معدة بأسماء الذين لابد من اعتقالهم ، ولكنها لم تكن معدة بوساطة النازيين ، وانما أعدها سلف جورنج : سيفرنج الاشتراكى الديمقراطى ٠ ومرة أخرى ليس في هذا تبرير أو دفاع عن هتلر ، وانمـــا اعادة نظر فى وسائله ٠ فلقد توقع فرصة انقلاب ، ولقد قام به شخص ما ٠ ولا شك كذلك أن الشيوعيين لم يكن يعنيهم احراق الريخستاغ فى شىء ، ولكن هتلر اعتقد أنه يعنيهم ٠ ولقد كان قادرا على استغلال «الخطر الشيوعى» بدرجة كبيرة وفعالة لأنه كان مؤمنا بذلك ، وهذا يزودنا أيضا باتجاه لهتلر مواز لذلك فيما بعد فى الشئون الدولية فبينما اعتقدت دول أخرى بأنه كان يعد لحرب عدوانية ضـــدها كان هو على درجة مســـاوية فى الايمان بأن تلك الدول الاخرى تهدف الى تعويق ألمانيا عن عودتها كدولة كبرى مستقلة ٠ واعتقاده هذا لم يكن تماما على غير أساس ، فعلى أية حال غالبا ما اتهمت الحكومتان البريطانية والفرنسية بأنهما لم تبدأ الحرب الوقائية فى وقت مناسب ٠

وهنا يبدو لى أنه فى ذلك يكمن المفتاح لقضية ما اذا كان هتلر يرمى بمحض ارادته الى الحرب ٠ انه لم يرغب بهذه القوة فى الحرب كما توقع أن تحدث الا اذا كان فى استطاعته أن يتجنبها بخدعة ماهرة بمثل ماتحاشى الحرب الأهلية الداخلية وما أيسر ما ينسب ذوو النوايا السيئة نواياهم الى الآخرين ، لقد توقع هتلر أن يفعل الآخرون ما كان لا بد أن يفعله هو لو كان فى مكانهم ، فانجلترا وفرنســـا كانتـــا خصمين يعملان بوحى الكراهية ، والاتحاد السوفيتى كان يدبر لقلب الحضـــارة الاوربية وهو التباهى الاجوف الذى غالبـــا ما كان البولشفيك يرونه ، وروزفلت برز ليحطم أوربا ٠ ولقد وجه هتلر بالتأكيد قادته للتجهيز للحرب ٠ ولـكن هذا أيضا ما فعله الانجليز ، وكذلك فعلت كل الحكومات الاخرى ٠ انعمل مجموعات القادة هو التحضير للحرب والتوجيهات التى تلقوها من حكوماتهم كانت تشير الى الحرب المحتمة التى كان عليهم أن يستعدوا لها ، ولم يكن هناك دليل على أن الحكومات المعنية قد صرفت النظر عنهـــا ، ولقد كانت التوجيهات البريطانية منذ سنة ١٩٣٥ وما بعـــدها موجهة فحسب ضد ألمانيا ، أما توجيهات هتلر فكانت مركزة على جعل ألمانيا أكثر قوة فحسب وعلى هذا فاننا اذا حكمنا (خطأ) على النوايا السياسية على أساس الخطط الحربية ، فان الحكومة البريطانية تبدو فى حالة حرب مع ألمانيا ، وليس هناك طريق آخر غير ذلك ٠

ولكنا بطبيعة الحال نتلمس لسلوك حكوماتنا كرما فى التبرير لا نشمل به الآخرين • ان الناس ينظرون الى هتلر كانسان شرير وعندئذ يجدون البراهين على سوئه بأدلة لايستعملونها ضد الآخرين• لماذا يطبقون هذا المقياس المزدوج ؟ ذلك فقط لأنهم يفترضون الشر فى هتلر فى المرثية الاولى •

ان من الخطورة استنتاج الاتجاهات السياسية على أساس الخطط العسكرية ، فبعض المؤرخين على سبيل المثال استنتج من المباحثات العسكرية ـ الفرنسية قبل سنة ١٩١٤ ـ ان الحكومة البريطانية أصبحت فى حالة حرب مع المانيا ، وأنكر بعض المؤرخين ـ وهم أعقل فى نظرى ـ أن يكون هذا الاستنتاج سليما • ولقد كانت الخطط التى ناقشوها دفاعية وليست «تحضيرات للعدوان» ومع ذلك قسمت اتجاهات هتلر غالبا على هذا الأساس الأخير ، وسأعطى مثالا ملحوظا ، ففى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٨ أرسل كيتل الى ريبنتروب مسودة لمحادثات عسكرية ايطالية ـ ألمانية كان قد أعدها بتوجيه من هتلر • وتقول الفقرة الثالثة «الاسس السياسية العسكرية لمفاوضات الحرب بين ايطاليا وألمانيا ضد فرنسا وانجلترا بغرض الاطاحة أولا بفرنسا»(١) وادعى ناقد مسئول بأن هذا يعطى دليلا واضحا على نوايا هتلر ، وبذلك هدم كل نظرياتى ، ومع ذلك فماذا كان يمكن للقادة الالمان والايطاليين أن يناقشوا عند لقائهم غير الحرب ضد فرنسا وانجلترا ؟ لقد كانت تلك هى الحرب الوحيدة التى يمكن لايطاليا أن تندمج فيها ، وفى ذلك الوقت بالذات كان القادة الانجليز والفرنسيون يناقشون الحرب ضد ألمانيا وايطاليا • ومع ذلك فان هذا لا يدخل فى الحساب ضدهم وأقل من ذلك ضد حكوماتهم • ان التاريخ التالى لمسودة كيتل ينير الطريق ، فالايطاليون ، لا الالمان ، هم الذين كانوا يضغطون من أجل المحادثات العسكرية ـ وبعد أن تم اعداد مشروع المحادثات لم يحدث شيء •

وعندما احتل هتلر براغ فى ١٥ مارس ١٩٣٩ لم تكن المحادثات قد عقدت بعد ونفد صبر الايطاليين • وفى ٢٢ مارس أمر هتلر : « أن على الأسس العسكرية السياسية أن تذعن للظروف الحاضرة»(٢) وعقدت المباحثات أخيرا فى ٤ أبريل وسجل كيتل «أن المناقشات بدأت مباغتة

---

(١) من كيتل الى ريبنتروب ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٨ « سياسة المانيا الخارجية » مجموعة د ، الجزء الرابع رقم ٤١١

(٢) أمر كيتل ٢٢ مارس ١٩٣٩ : المرجع السابق ملحق ١

بعض السيىء نتيجة للضغط الايطالى » (١) • ولقد تبين أنالايطاليين ـ وهم بعيدون عن الرغبة فى الحرب ـ كانوا يرغبـــون فى التأكيد بأنهم لن يكونوا مســـتعدين للحرب حتى بداية سنة ١٩٤٢ ، وقد وافقهم ممثلو الالمان فى هذا ، وهكذا فان هذا الاتجاه العجيب يبرهن تماما (اذا كان فيه ما يبرهن على شىء) ان هتلر لم يكن راغبا فى هذا الوقت فى الحرب ضد فرنسا وانجلترا وان ايطاليا لم تكن راغبة فى الحرب على الاطلاق • وربما يبين هـــذا أن المؤرخين لا بد أن يكونوا حريصين على ألا يتمسكوا بفقرة جزئية من وثيقة دون قراءة ما بعدها •

وبطبيعة الحال فان الوضع كان من وجهة نظر الانجليز ـ أن حكومتهم كانت ترغب فى أن تحتفظ بكل شىء هادئا بينما رغب هتلر فى اهاجتها • أما بالنسبة للألمان فان «الأمر الواقع» لم يكن هو السلام وانمـ معـاهدة استعبادية • ان الأمر جميعا يتوقف على وجهة النظر ، لقد أرادت الدول الكبرى المنتصرة أن تحتفظ بكل ثمار النصر مع تعديل طفيف بالرغم من أنهم فعلوا ذلك بلا فاعلية • أما رغبة الدولة الكبرى التى تلاشت فكانت حل مشكلة هزيمتها ، وهذا الطموح الاخير ـ سواء أكان «عدوانيا» أم لا ـ لم يكن شيئا قاصرا على هتلر وحده • فلقد قسمه فيه كل السياسيين الالمان ، والاشتراكيين الديمقراطيين الذين أنهوا الحرب فى سنة ١٩١٨، وكذلك سترسمان • ولا يستطيع أحد أن يحدد بصفة مؤكدة ماذا كانت تعنيه الصحوة من الهزيمة فى الحرب العالمية الاولى ، وهذا ينطبق أيضا على هتلر • ولقد تضمن هـــذا اســـتعادة الاراضى المفقودة حينئذ وارجاع السيادة الالمانية على وسط أوربا الذى سبق وأن أعطيت بموجب التحالف مع النمسا والمجر والتى تنهى بطبيعة الحال كل تحديد للتسلح الألمانى ، ولم تكن الشروط ذات أهمية • ولقد ادعى كل الالمان ـ ومن بينهم هتلر ـ أن ألمانيا سوف تصبح الدولة الكبرى المسيطرة فى أوربا بمجرد أن تزيل آثار هزيمتها سواء حدث هذا بالحرب أم بطريقة أخرى ، ولقد كانت هناك مشـــاركة فى هـــذا الفرض فى دول أخرى ، واندمجت فكرتا « التحرير » و «السيادة» فى فكرة واحدة • ولم يعد هناك انفصال بينهما • كانتا مجرد كلمتين مختلفتين عن شىء واحد ، والاستخدام فقط لكل على حدة هو التعبير الذى يقرر ما اذا كان هتلر بطل العدالة الوطنية أو الفاتح المقتدر لاوربا •

وحديثا انتقد كاتب المـانى(٢) هتلر لرغبته فى اعادة ألمانيا كدولة

---

(١) تقرير كيتل ٤ ابريل ١٩٣٩ المرجع السابق ملحق ٣

(٢) ولفجانج سوير فى كتاب « التأميم الاتحادى القومى » ١٩٦٠ •
Die Nationalozialistische Machtergreifung

عظمى على أية صورة من الصور • ويدلل هذا الكاتب على أن الحرب العالمية الاولى قد كشفت أنه لم يكن في استطاعة ألمانيا أن تكون دولة كبرى مستقلة على النطاق العالمي ، وأن هتلر كان غبيا في محـــاولته هذه • وليس هذا بأكثر من رأى تافه • ان الحرب العالمية الاولى حطمت كل الدول العظمى التي شملتها باستثناء الولايات المتحدة التي لم يكن لها في الواقع نصيب فيها ، وربما تكون جميعا ساذجة في الاستمرار في محـــاولتها أن تكون دولا كبرى بعد هذا •

ان الحرب الجماعية هي بلا شـك فوق قدرة أي دولة كبرى وأنه وحتى في يومنا هذا فان الاستعداد لمثل هذه الحرب يهـدد بدمار الدول الكبرى التي تحاول ذلك • وليس هذا بجديد • ففي القرن الثامن عشر قاد فريدريك العظيم بروسيا الى حافة الانهيار في محاولته أن تصبح دولة كبرى ـ وهوت الحروب النابليونية بفرنســـا الى الحضيض من مكانتها المرتفعة في أوربا ولم تستطع أن تستعيد قوتها السابقة • انها دلالة غريبة ولا تقبل التبديل ، فبالرغم من أن موضوع الدولة العظمى هو قدرتها على خوض غمار حرب كبرى ، فان الطريق الوحيد لكي تظل دولة كبرى هي ألا تحارب أخرى أو أن تحاربها في نطاق محدود •

وكان هذا سر بقاء عظمة انجلترا طالما هي ملتصقة بالحروب البحرية وعدم محاولتها أن تصبح قوة عســكرية برية على النمط القاري • وليس هتلر في حاجة الى نصيحة من مؤرخ ليقدر هذا • ان عدم قدرة ألمانيا على القتال في حرب طويلة كان موضوعا ثابتا بالنسبة له ، وهكذا كان الخطر الذي هدد ألمانيا اذا ما اتحدت الدول الكبرى الاخرى ضدها • وفي الحديث على هذا النحو ، فان هتلر كان أنفذ احساسا من الجنرالات الالمان الذين تصوروا أن كل شيء سيسير على مايرام اذا ما أعادوا ألمانيا الى الوضع الذي كانت تشغله قبل مهاجمة لودندورف في مارس ١٩١٨ • وعلى كل فلم يكن هتلر هو الذي خطط للحـــكمة بأنه كان من الغبـاء لألمانيا أن تكون دولة كبرى • واقترح بدلا من هذا بأن يحل المشكلة بالحيلة طبقا لمـــا فعلته بريطانيا ذات مرة ، وبينما اعتمدت بريطانيا على القوة البحرية اعتمد هو على الخداع • كان أبعد ما يريده الحرب ، وكانت الحرب العالمية هي آخر ما يريده • كان يريد ثمار النصر الكلي بدون الحرب الشاملة ؟ وشكرا لغباء الآخرين فقد أوشك أن يحصل على ذلك ، وظنت دول كبرى أخرى أنها مواجهة بالاختيار بين الحرب الكلية أو الاذعان ، وفي أول الأمر اختاروا الاذعان، ولكنهم بعد ذلك اختاروا الحرب الكلية وذلك لدمار هتلر النهائي •

وليس فى هذا شىء من الاستنتاج ، وانما ثبت ببرهان فوق أى شك بواسطة الرقم القياسى الذى وصل اليه التسلح الألمانى قبل الحرب العالمية الثانية واثنائها ، ولقد يبـــدو من الواضح ـ منذ زمن طويل أن الناس لا يضلون السبيل بخطئين • فقبل الحرب استمعوا لما قاله هتلر بدلا من أن ينظروا لما فعله • وبعد الحرب أرادوا أن يلصقوا به جريمة كل ماحدث دون نظر الى الدليل • ولقد وضح هذا على سبيل المثـال بالاعتقاد العالمى بأن هتلر هو الذى بدأ ضرب المدنيين بالقنابل بلا تمييز فى حين بدأ هذا موجهو الاستراتيجية الانجليزية وذلك طبقا لمـــا تباهى به بعض الشرفاء منهم ـ ومهـــما يكن من شىء فان التســـجيل موجود لكل من يرغب فى استخدامه ، وقد حلله برتون كلين تحليلا هادئا ورصينا • ولقـد أوردت بالفعل نص الخاتمة التى كتبها عن السنوات الثلاث الاولى لهتلر : وحتى ربيع ١٩٣٦ كانت اعادة تسليح ألمانيا أسطورة • ولم يعن هذا فقط أن المراحل الاولى من اعادة التسلح لم تنتج قوة متزايدة كما يحدث عادة ، وانما لم تؤخذ هذه المراحل الاولى بجدية اطلاقا •

وقد خدع هتلر الدول الكبرى الاجنبية والشـــعب الالمانى بنقيض ما يفترض عادة تماما ، وأعلن هو ، أوجورنج بمعنى أصح ـ شعار «المدافع قبل الزبد » وفى الحقيقة فانه وضع الزبد قبل المدافع • وانى آخذ هنا بعض الارقام بطريقة عشوائية من كتاب « كلين » •

ففى سنة ١٩٣٦ ـ واســتنادا الى تشرشـــل ـ حددت احصائيتان مستقلتان نفقات التسليح الالمانى بمتوسط سنوى يبلغ ١٢ ألف مليون مارك (١) وكان الرقم الحقيقى أقل من خمسة آلاف مليون • وأكد هتلر بنفسه أن الحكومة النازية أنفقت تسعة آلاف مليون مارك فى التسليح قبل اندلاع الحرب • وفى حقيقة الامر ، فان مجموع الانفاق للحكومة الالمانية فى الحرب وغير الحرب لم يتعد هذا بكثير فى الفترة مابين ١٩٣٣، ١٩٣٨• وبلغت تكاليف اعادة التسلح حوالى أربعين ألف مليون مارك فى السنوات الست المالية المنتهية فى ٣١ مارس ١٩٣٩ وحوالى خمسين ألف مليون حتى اندلاع الحرب(٢) •

ويناقش «كلين» أسباب بقاء اعادة التسلح الالمـــانى فى مثل هذا النطاق المحدد ، ويحدد كسبب أول ، بأن هتلر كان ميالا الى عدم اضعاف

---

(١) تشرشل : الحرب العالمية الثانية ١ ص ٢٢٦ •
(٢) كلين : Klein صفحة ١٧ •

شعبيته بتخفيض مستوى المعيشة المدنية في ألمانيا • وكان أقصى ما فعله اعادة التسلح هو منع ارتفاعها بأسرع مما كان يحدث بدونه ، وحتى على هذا المستوى كان الالمان أفضل مما كانوا عليه في أى وقت مضى • وفيما عدا هذا فان الحكم النازى كان غير قادر وعفن ومرتبك ، وأكثر من هذا أهمية فان هتلر لم يرفع الضرائب رغم أنه كان مهددا بالتضخم وحتى اعفاء «شاخت» لم يؤد الى هز الحدود المالية رغم أنه كان من المفروض أن يؤدى الى هذا • وأهم من هذا جميعا ، فان هتلر لم يقم باستعدادات واسعة للحرب لأن مفهومه ببساطة عن عملية الحرب لم يتطلبها • وبالأحرى فانه وضع خطة حل مشكلة المجال الحيوى لألمانيا على أساس أسلوب التجزئة بسلسلة من الحروب الصغيرة(١) وهذه هى النتيجة التى توصلت اليها أيضا بشكل مستقل بدراسة السجل السياسى بالرغم من ارتيابى فى أن هتلر كان يأمل في الحصول على ذلك دون حرب على الاطلاق • انني أوافق على أنه لم يكن هناك خط فاصل واضح فى ذهنه بين المهارة السياسية والحروب الصغيرة ، كالهجوم على بولندا • وكانت الحرب العظمى هى الشيء الوحيد الذى لم يخطط له رغم نسبتها اليه •

وكان التظاهر بالاستعداد للحرب العظمى مع عدم التحضير فعلا لها جزءا رئيسيا من استراتيجية هتلر السياسية • وقام أولئك الذين أطلقوا صيحات النذير ضد هتلر ، مثل تشرشل ، بعمله من أجله ، بلا لباقة • كانت الحيلة جديدة وشملت الجميع ، ولقد انفقت الحكومات السابقة على التسلح أكثر مما قدرته ، كما لا يزال يفعل الكثير منها حتى الوقت الحاضر، وكان هذا أحيانا لخداع شعوبهم ، وأحيانا لخداع عدو محتمل • وعلى سبيل المثال ، فقد حدث فى سنة ١٩٠٩ أن اتهم كثير من الشعب الانجليزى الحكومة الالمانية بأنها أسرعت ببناء أسطول بحرى بطريقة سرية دون موافقة الرايختاغ ، ومن المحتمل أن الاتهام لم يكن صادقا ، ولكنه خلف تراثا دائما من الشك في أن ألمانيا قد تفعل ذلك مرة ثانية ، ولقد قوى التحايل الخاص باقتراح نزع السلاح فى معاهدة فرساى هذا الشك وهو الذى مارسته الحكومات الالمانية المتعاقبة ، بالرغم من قلة فائدته بعد ١٩١٩ • وشجع هتلر هذا الشك واستغله • وثمة تصوير جيد ، ففى ٢٨ نوفمبر ١٩٤٣ أنكر بلدوين Balduin قول تشرشل بأن قوة الطيران الالمانية تعادل قوة بريطانيا ، وكانت الارقام التى أعلنها بلدوين صحيحة أما تلك الخاصة بتشرشل والتى أمده بها البروفسير ليندمان فكانت

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦ •

خاطئة . وفى ٢٤ مارس ١٩٣٥ زار السير جون سيمون وانتونى ايدن هتلر ، وأخبرهم أن قوة الطيران الالمانية تعادل قوة بريطانيا ان لم تكن متفوقة عليها فى حقيقة الأمر . وصدق قوله فورا كما صدق دائما منذ ذلك الحين . كان بلدوين غير موثوق به ، وخلق الرعب . كيف كان فى امكان سياسى أن يبالغ فى تسلحه بدلا من كتمانه ؟ ومع ذلك فقد كان هذا ما فعله هتلر .

كانت اعادة تسليح ألمانيا خرافة كبرى حتى ربيع ١٩٣٦ ، ففى ذلك الوقت أضفى هتلر شيئا من الحقيقة عليها ، كان الدافع فى ذلك أساسا هو خوفه من الجيش الاحمر ، وبطبيعة الحال كانت بريطانيا وفرنسا قد بدأتا فى اعادة التسلح أيضا ، وفى حقيقة الأمر كان هتلر فى سباق مع الآخرين ولكن ليس بأسرع منهم . وفى اكتوبر سنة ١٩٣٦ أمر جورنج بأن يجهز الجيش الالمانى والاقتصاد الالمانى للحرب فى خلال أربع سنوات ، رغم أنه لم يضع أية متطلبات تفصيلية ، وفى ١٩٣٨ - ١٩٣٩ - آخر سنوات السلام ، انفقت ألمانيا حوالى ١٥٪ من مجموع انتاجها الوطنى على التسلح ، وكانت النسبة فى بريطانيا تكاد تماثل ذلك تماما ، وخفض الانفاق الالمانى عمليا على التسليح بعد ميونخ ، وظل على هذا المستوى المنخفض ، لدرجة أن الانتاج البريطانى فى الطائرات - على سبيل المثال - ارتفع عن الالمانى فى سنة ١٩٤٠ ، فعندما اندلعت الحرب فى ١٩٣٩ كانت ألمانيا تملك ١٤٥٠ طائرة مقاتلة حديثة ، ٨٠٠ قاذفة قنابل ، وكانت بريطانيا العظمى وفرنسا تملكان ٩٥٠ مقاتلة ، ١٣٠٠ قاذفة قنابل .

وكان الألمان يملكون ٣٥٠٠ دبابة ، وانجلترا وفرنسا ٣٨٥٠(١) وفى كل حالة كانت مخابرات الحلفاء تقدر القوة الالمانية بأكثر من ضعف الرقم الحقيقى وكالعادة كان الظن بأن هتلر قد خطط وجهز لحرب كبرى قائما ولم يكن فى حقيقة الأمر قد فعل هذا .

قد يقوم هنا اعتراض بأن تلك الأرقام غير مطابقة للواقع ، ومهما كان نقص السلاح الالمانى على الورق ، فان هتلر كسب الحرب أمام دولتين أوربيتين عظيمتين عندما جاء الاختبار . وقد يساق هذا ضد تصيحة ميتلاند وعلى أساس الحكم بما حدث لا بما هو متوقع أن يحدث . وبالرغم من أن هتلر انتصر فانه انتصر عن طريق الخطأ - الخطأ الذى شارك فيه . وكان الألمان بطبيعة الحال على ثقة بأنهم يستطيعون هزيمة بولندا اذا ما تركوا بلا ازعاج فى الغرب .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧

ومن هنا ، فان حكم هتلر السياسى بأنه ليس فى مقدور الفرنسيين أن يفعلوا شيئا . يبرهن على أنه حكم أكثر دقة من ادراك القادة الألمان . على أنه كان خالى الذهن من أنه سيخرج فرنسا من الحرب عندما اجتاح بلجيكا وهولندا فى ١٠ مايو ١٩٤٠ ، كانت هذه حركة دفاعية : ليؤمن الروهر من غزو الحلفاء . أما قهر فرنسا فانه كان منحة غير متوقعة ، وحتى بعد هذا ، فان هتلر لم يكن يحضر لحرب عظمى ، وتصور أنه يستطيع هزيمة الاتحاد السوفيتي دون مجهود جدى كما هزم فرنسا من قبل ، ولم ينخفض الانتاج الألمانى فى السلاح فقط فى خلال شتاء ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ ولكنه انخفض بشكل أكبر فى خريف ١٩٤١ عندما كانت الحرب ضد روسيا قد بدأت بالفعل ، ولم يحدث تغيير جدى بعد الارتداد الأولى فى روسيا ولا حتى بعد النكبة فى ستالينجراد . وبقيت ألمانيا باقتصاد حربى أشبه باقتصاد السلام ، وكان هجوم قاذفات القنابل الانجليزية على المدن الألمانية هو فقط الذى فرض على هتلر والألمان أن يأخذوا الحرب بصورة جدية . وبلغ الانتاج الحربى الألمانى ذروته فى الوقت نفسه الذى ألقى فيه الحلفاء بقنابلهم فى يوليو ١٩٤٤ ، وحتى فى مارس ١٩٤٥ كانت ألمانيا تنتج معدات عسكرية أكثر مما كانت تنتجه عندما هاجمت روسيا فى سنة ١٩٤١ ، ومن بداية الأمر حتى نهايته كانت المهارة ــ لا القوة العسكرية ــ هى سر نجاح هتلر . لقد قضى عليه حينما أصبحت القوة العسكرية هى الحاسمة ، كما كان يعتقد هو دائما أنه سيحدث له . على هذا النحو أحس أننى عادل بأخذى التقديرات السياسية كعناصر أكثر أهمية من القوة المجردة فى فترة ما قبل الحرب . لقد حدث تغيير فى التأكيدات فى صيف ١٩٣٦ حينئذ بدأت كل القوى ــ وليس هتلر وحده ــ تأخذ الحرب والاستعداد لها فى حسابها على أنها أمور أكثر جدية ، اننى أخطىء فى عدم التركيز على هذا التغير فى سنة ١٩٣٦ بوضوح أكثر وربما فى ايجاد تغيير بالغ الكثرة فى خريف ١٩٣٧ . ويوضح هذا مدى صعوبة محو الأساطير حتى فى محاولة عمل هذا . لقد خدعت بمذكرات هوسباك . ورغم أننى أشك فيما اذا كانت فى مثل الأهمية التى فسرها بها الكتاب ، فاننى لا زلت أعتقد أنه لابد أن يكون لها بعض الأهمية الى الحد الذى يستفيد منها كل كاتب بشكل كبير . كنت مخطئا ، وكان النقاد ممن أشاروا الى ١٩٣٦ على صواب ، وذلك على الرغم من أنهم لم يضعوا ذلك موضع التقدير فى وضوح ، وبعلمهم هذا ، كانوا يشككون فى مذكرات هوسباك . لقد كان الأجدر بى أن أشكك فى هذا « التقرير الرسمى » ــ كما سماه أحد المؤرخين ــ بطريقة أكثر من هذا . ان العناصر الفنية ، قد تبدو تافهة بالنسبة للقارىء العادى ، هذا بالرغم من أن

الدارسين يلمسون ــ عادة وبطريقة سليمة ــ الأهمية فى مثل تلك العناصر الفنية • وفى التجارب الحديثة ، يتطلب التقرير ثلاثة أشياء ، فأولا ــ لابد من سكرتير يواظب على أخذ مذكرات يعيد كتابتها بعدئذ فى شكل مرتب ، وبعد ذلك لابد لتلك « المسودة » أن تخضع للمشتركين للتصحيح والموافقة • وأخيرا لابد أن يوضع التقرير فى الصيغة الرسمية ، ولم يحدث شىء من هذا فيما يختص باجتماع ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧ فيما عدا مواظبة هوسباك أنه لم يأخذ أية مذكرات ، وبعد خمسة أيام كتب تقريرا مطولا عن الاجتماع من الذاكرة ، وتقدم مرتين بهذا المخطوط ليطلع عليه هتلر الذى أجاب بأنه مشغول جدا لدرجة أنه لا يستطيع قراءته • وكانت هذه معاملة فجائية وغريبة لما كان يفترض أنه « آخر رغباته ووصيته » ، وقد يكون بلومبرج قد أطلع على المخطوط • أما الباقون فلم يعرفوا أنه موجود ، وكانت الشهادة الوحيدة المعتمدة التى سجلت عليه هى توقيع هوسباك نفسه • وهناك رجل آخر رأى النسخة الأصلية وهو « بك » رئيس هيئة القادة الذى كان أكثر القادة الألمان شكا فى أفكار هتلر • وكتب « بك » ردا على حجج هتلر فى ١١ نوفمبر ١٩٣٧ ، وقدم هذا الرد فيما بعد باعتباره البداية للمقاومة الألمانية • ولقد ادعى أن هوسباك كتب المذكرات لكى يستنهض هذا الرد •

وتلك كلها جميعا تأملات ــ ففى ذلك الوقت لم يعلق أحد أهمية على الاجتماع ، وترك هوسباك الهيئة بعدئذ ووضع مخطوطه فى ملف مع أوراق أخرى متنوعة ، وأهملت ، وبحث ضابط ألمانى كونت كرخباخ الملف فى سنة ١٩٤٣ ونقل صورة من المخطوط لادارة التاريخ الحربى • وبعد الحرب وجد الأمريكيون الصورة التى نقلها كرخباخ ونسخوها بدورهم للمحاكمات فى نورمبرج • وظن كل من هوسباك وكرخباخ أن هذه الصورة كانت أقل من الأصل واستنادا لكرخباخ على الأخص ، فان الأصل كان يحتوى على انتقادات فيوراث ، بلومبرج وفرتش لحجج هتلر ، تلك الانتقادات التى أصبحت الآن غير ذات موضوع ، وقد يكون الأمريكيون هم الذين «نشروا» الوثيقة وقد يكون كرخباخ كغيره من الألمان هو الذى حاول القاء اللوم جميعا على هتلر ، وليست هناك أية وسيلة لمعرفة ذلك فلقد اختفى كل من أصل هوسباك وصورة كرخباخ ، وكل ما تبقى صورة ربما تكون مختصرة وربما معدة من نسخة لمسودة غير معتمدة • وتحتوى هذه الصورة على موضوعات اعتاد هتلر أيضا أن يخوض فيها فى خطبه العامة : الحاجة الى « المجال الحيوى » واعتقاده بأن الدول الأخرى ستقاوم نهضة ألمانيا كدولة عظمى مستقلة ، انها لم تحتو على توجيهات للعمل أكثر من مجرد رغبة فى زيادة

التسلح وحتى في نورمبرج لم تقدم مذكرات هوسباك كبرهان على جريمة هتلر فى الحرب ، فلقد افترض هذا بداهة · وكان كل ما أثبتته فى شكلها النهائى أن هؤلاء الذين اتهموا فى نورمبرج ــ جورنج ورايدر ونيوراث قد جلسوا هناك وصدقوا على خطط هتلر العدوانية ــ وكان لابد من افتراض أن الخطط كانت عدوانية لـكى تثبت أن جـريمة المتهمـين ، وعلى هؤلاء الذين يصدقون الأولى فى المحاكمات السياسية أن يستمروا فيقتبسوا من مذكرات هوسباك ولابد عليهم أيضا أن يحذروا قراءهم (كما لم يفعـل مؤلفو الوثائق فى السياسة الخارجية الألمـانية مثلا) من أن المـذكرآت وهى البعيدة كل البعد عن أن تكون « سجلا رسميا » هى أيضـا طعـام المذاق(١) ولم تكن مذكرات هوسباك هى الكتاب الرسمى الوحيد لنوايا هتلر · وفى الحقيقة ، ولـكى نحدد حكمنا مما قاله بعض المؤرخين ــ فان هتلر كان يصدر مثل تلك الـكتب باستمرار وهو بلا شـك واقع تحت تأثير طموح فى أن يكون مهندسا معماريا (تلك نكتة أخرى) · وبلغ هؤلاء المؤرخون حداً جعلهم يحتقرون حتى قدرة هتلر على الانتاج · فلقـد قفزوا قدما من « كفاحى » الى مذكرات هوسباك ومن ثم الى محادثات المـائدة المستديرة خلال الحرب الروسية(٢) ·

---

(١) تقرير هوسباخ ــ شهادة فى المحكمة العسـكرية الدولية ١١١ x ص ٢٢٨ ، وباختلافات عن هوسباخ « ومن مسئوليات القوات العسكرية فى الوقت من الحرب العالمية الثانية (١٩٤٨) ص ٢٨ نسخة كرخباخ والشكوك اللاحقة ــ ج مينغ q. Meinck هتلر والامدادات الألمانية ١٩٣٣/١٩٣٧ (١٩٥٦) ص ٢٣٦ تقرير مذكرات «بك» · ف · فورستر w. Foerster أحد الجنرالات يكافح ضد الحرب (١٩٤٩) ص ٦٢ مبتدئا بالمكافح هانز روتفلز حزب المعارضة الالمانى ضد هتلر (١٩٥١ ، ص ٧١ وفى نورمبرج أدلى جلومبرج وجورنج ونيوراث بشهاداتهم ضد صدق المذكرات واخذت شهاداتهم بلا اعتبار عموما أو ربما كانت قيمتها فيما قالته ضد هتلر ·

(٢) ويستيطيون الآن أن يرجعوا أيضا الى كتاب هتلر الثانى أو ــ كما يقال فى الطبعة الانجليزية ــ كتابه فى سنة ١٩٢٨ والذى ظل بلا نشر حتى وقت قريب ·

وبطبيعة الحال ليس هناك شىء سرى فيه ، فهو عادة تفتيت لخطبه التى كان يلقيها فى هـــذا الوقت ولم ينشر الا لمجرد أنه كان لايســـتحق النشر « والسر » نموذج للاوهام الرومانتيكية الذى يعالج كل شىء متصل بهتلر ·

وفى حقيقة الأمر كان هتلر يضع كتابا رسميا فى كل وقت يلقى فيه خطابا تقريبا ، وكانت هذه هى الطريقة التى يعمل بها عقله • وواضح أنه لم يكن هناك سر فيما يتعلق بهذه الكتب الرسمية سواء فى «كفاحى» الذى بيع بالملايين بعد أن تبوأ هتلر السلطة أو فى الخطب التى كانت تلقى للجماهير العريضة •

وعلى ذلك فليس لأحد أن يفخر بنفسه على فطنته بالتكهن بمرامى هتلر ، وبنفس هذا القدر يبدو من الواضح أن (المجال الحيوى) يظهر دائما على أنه عنصر مشترك فى هذه الكتب الرسمية • ولم تمكن هذه الفكرة من صنع هتلر ولكنها كانت شائعة فى هذا الوقت ، وعلى سبيل المثال بيع من كتاب « عالم ضال » Voere ohne Roum لمؤلفه هانس جريم ، عدد أوفر بكثير مما بيع من « كفاحى » عندما نشر سنة ١٩٢٨ •• ولهذا السبب انتشرت فى ألمانيا الخطط لاكتساب أراض جديدة ، خلال الحرب العالمية الأولى • ولقد ساد الظن بأن تلك كانت خطط قلة من واضعى النظريات الممتازين أو من المبتكرين المتطرفين • ولكننا الآن نعرف بصورة افضل ، ففى ١٩٦١ وضع أستاذ ألمانى تقريرا عن أبحاثه فى أغراض ألمانيا من الحرب(١) •

وفى الحقيقة كانت تلك « وثيقة رسمية من أجل العدوان » أو كما سماها الأستاذ الألمانى « امتلاك لزمام السيطرة على العالم » :فبلجيكا تحت السيطرة الألمانية ومناجم الفحم الفرنسية تابعة لألمانيا وعلى أوكرانيا أن تصبح ألمانية ، ثم هناك ما هو أكثر من ذلك ، فبولندا وأوكرانيا يجب أن يجلو عنها أهلها ليحل محلهم الألمان • ان هذه الخطط لم تكن فقط مجرد عمل هيئة القيادة الالمانية ، ولقد وافق عليها المكتب الألمانى للسياسة الخارجية ، ووافق عليها كذلك الألمانى الطيب « بيثمان هلويج » وكان هتلر ــ وهو أبعد ما يكون تفوقا على أسلافه المبجلين ، فى واقع الأمر ، أكثر اعتدالا منهم عندما التمس «المجال الحيوى» فى الشرق فقط ورفض فى «كفاحى» مكاسب فى الغرب ولقد اقتصر هتلر على مجرد ترديد الثرثرة العادية عن حلقات الجناح اليمينى وكغيره من جميع الديماجوجيين لجأ هتلر الى الجماهير ، ولكنه على عكس غيره من الديماجوجيين الذين التمسوا القوة فى السياسة اليسارية ، سيطر هتلر على الجماهير

(١) فريتز فيشر : اتحاد قوى ضد الاستعمار » سنة ١٩٦١ •

بالأساليب اليسارية لــكى يوجههم الى اليمين ، وهذا هو السبب الذى من أجله تركه اليمين يدخل الميدان .

ولــكن ، هل كان « المجال الحيوى » هو فكرة هتلر الوحيدة أو أنه فى الواقع هو الوحيد الذى سيطر على تفكيره ؟ لكى نحكم عن « كفاحى » نراه مدفوعا بالمعاداة للسامية التى تشغل معظم الكتاب . فقــد شــغلت فكرة « المجال الحيوى » سبع صفحات من السبعمائة صفحة . أما ما بعد ذلك وما تلا كل هذا ، فلقد وضع على أنه تبرير منطقى نهائى ، لون من « فطيرة من السماء » لتعديل ما هو مفروض أن يقدم عليه ــ وربما كان الاختلاف بينى وبين المعتقدين فى خطة هتلر الراسخة عن « المجال الحيوى » فوق مستوى الكلمات ، وبوساطة الخطة فهمت بعضا ممــا جهز ونفــذ بالتفصيل .

لقد اعتادوا أن يأخذوا « الخطة » على أنها رغبة تقية ــ أو فى هــذه الحالة على أنها فاجرة وفى مفهومى ــ لم يكن لهتلر خطة أبدا عن « المجــال الحيوى » ولم تكن هناك أية دراسة عن موارد الثروة فى الأقاليم التى كان لابد من غزوها ، ولا تحديد حتى للأقاليم التى سيتم غزوها .

ولم تكن هناك تعبئة لهيئة لتنفيذ هذه الخطط ولا يسمح للألمــان الذين يجب تحريكهم هذا فضلا عن أى تسجيل لهم . وعندما تم غــزو أجزاء كبيرة من روسيا السوفيتية وجد اداريو الأراضى التى تم غزوهــا أنفسهم يدورون فى حلقات مفرغة عاجزين عن الحصول على توجيه سواء ما اذا كان عليهم أن يفنوا السكان الأحياء أو يستغلوهم ؟ وســواء أكان عليهم أن يعاملوهم كأصدقاء أو أعداء .

لقد اعتقد هتلر بشكل أكيد أن المــانيا أكثر قابلية لأن تحقق مكاسب فى أوربا الشرقية عندما تصبح دولة عظمى مرة أخرى ، وكان هذا ، جزئيا، لايمانه « بالمجال الحيوى » . وكانت هناك اعتبارات عملية أخرى ، فلقــد ظن لمدى طويل ــ سواء أكان هذا صحيحا أم خطأ ــ أنه من الأسهل عليه هزيمة روسيا السوفيتية عن هزيمة الدول الغربية . وفى حقيقة الأمر كان يداخله الاعتقاد بأن البلشفية قد تنهار بدون حرب ، اعتقاد شاركه فيه كثير من الساسة الغربيين ، وبذلك يستطيع أن يجنى ثماره دون جهــد يبذل ، وفضلا عن هذا فانه من السهل أن يقوم « المجال الحيوى » كحرب صليبية ضد البلشفية وبذا يساعد على كسب قلوب أولئك الذين كانوا ــ فى الدول الغربية ــ يعتبرون هتلر بطل المدنية الغربية . ومهما يــكن الأمر فانه لم يكن حرفيا بالنسبة لهذا ، فهو لم يرفض المــكاسب الأخرى

عندما أتت • فبعد هزيمة فرنسا أضاف الالزاس واللورين بالرغم من تصريحاته السابقة بأنه لن يفعل ذلك كما أمات المناطق الصناعية فى بلجيكا وشمال شرقى فرنسا الى مدى كبير تماما مثلما كان فى نية « بنمان » أن يفعل قبله • وتضمنت الشروط غير الجلية التى طرحها من أجل السلام مع بريطانيا فى صيف سنة ١٩٤٠ ضمانا للامبراطورية البريطانية ولكنه أيضا كان ينوى المطالبة بالعراق وربما مصر كمجال ألمانى وهكذا ، ومهما كانت نظرياته فانه لم يتمسك علميا بالنمط المنطقى للحالة الراهنة فى الغرب والمكاسب فى الشرق • ان المتأمل التجريدى قد تحول لكي يكون أيضا سياسيا فى الحالة التى لم يقدر من قبل ماذا يصنع وكيف يصنع •

لقد بلغ أقصى مداه لأن الآخرين لم يعرفوا مايجب عمله به • وهنا أيضا اريد أن أفهم « دعاة التهدئة لا أن أزكيهم أو أدينهم • والمؤرخون يقومون دواما بعمل سيىء عندما يكتبون عن « دعاة التهدئة » كأغبياء او جبناء • لقد كانوا رجالا يواجهون مشاكل حقيقية ويفعلون كل ما فى وسعهم فى ظروف زمنهم • وكانوا يدركون أن المانيا المستقلة والقوية لابد لها من ايجاد طريقة ما لوضعها فى المكان المناسب فى أوربا • والتجارب التالية توحى بأنهم كانوا على صواب ، وعلى أية حال فاننا لازلنا نلف وندور حول المشكلة الالمانية • هل يستطيع رجل فى كامل قواه العقلية أن يفترض مثلا أن الدول الأخرى كانت تستطيع التوصل بالقوة المسلحة سنة ١٩٣٣ للاطاحة بهتلر عندما وصل الى السلطة بطرق شرعية مستندا بوضوح الى أغلبية كبيرة من الشعب الألمانى ؟ هل كان من الممكن وضع أى خطة لجعله أكثر شعبية فى المانيا ، ما عدا ما يمكن أن يكون التدخل لطرده من أراضى الراين سنة ١٩٣٦ ؟ لقد بوأ الألمان هتلر السلطة وهم الوحيدون الذين كانوا يستطيعون طرده منها • ومرة أخرى خشى دعاة التهدئة أن تتبع هزيمة المانيا سيطرة روسية على جزء كبير من أوربا • وتوحى التجربة فيما بعد بأنهم كانوا على صحة هنا أيضا ، وأولئك فحسب الذين يريدون لروسيا السوفيتية أن تأخذ مكان آلمانيا ، هم المحقون فى أن يتهموا « دعاة التهدئة » ، ولست أفهم كيف أن أغلبية من يدينونهم ساخطون الآن بالقدر نفسه من أجل النتيجة الحتمية لفشلهم •

ولم يكن أيضا من الحقيقة أن دعاة التهدئة كانوا حلقة ضيقة لقيت معارضة واسعة فى تلك الفترة • ولكى نحكم على أساس ما يقال الآن لابد للانسان أن يفترض أن كل المحافظين من الناحية الواقعية كانوا فى معارضتهم العنيفة لألمانيا فى حلف مع الاتحاد السوفيتى وان كل أعضاء

حزب العمال كانوا يصخبون من أجل التسلح · وعلى العكس ، كانت هناك أسباب قليلة أكثر شيوعا ، فلقد رحبت كل الجرائد في البلاد باتفاقية ميونخ فيما عدا جريدة « رينولد نيوز » ومع ذلك فقد بلغت هذه الأساطير حدا من القوة حتى أننى وأنا أضع هذه الجملة ـ لا أستطيع أن أصدقها الا بصعوبة ، وبطبيعة الحال فكر دعاة التهدئة في بلادهم أولا كما يفعل معظم السياسيين ، وكما هم عادة يفرطون على هذا الفعل · ولكنهم فكروا أيضا في الآخرين · كانوا يشكون فيما اذا كانت شعوب أوربا الشرقية ستنال خيرا بالحرب · وكان موقف بريطانيا سنة ١٩٣٩ بطوليا بلا شك ، ولكنها كانت بطولة على حساب الغير أساسا ، فان ما قاساه الشعب الانجليزى خلال ست سنوات الحرب يعتبر قليلا نسبيا ، فلقــد قاسى البولنديون الكارثة خلال الحرب ، ولم يستعيدوا استقلالهم بعدها ، وفى سنــة ١٩٣٨ خدعت تشيكوسلوفاكيا ، وفى سنة ١٩٣٩ أنقذت بولنده ومات ما لا يقل عن مائة ألف تشيكى خلال الحرب وقتل ستة ملايين ونصــف بولندى أيهما كان أفضل ، أن تكون تشيكيا مخدوعا أم بولنديا متحررا ؟ اننى سعيد بأن ألمانيا هزمت وأن هتلر تحطم · واننى أيضا أقدر أن البعض دفع ثمن هذا ، واعترف بشرف أولئك الذين أدركوا أن الثمن كان باهظا للغاية ·

تلك هى المسائل التى لابد أن تناقش الآن بأساليب تاريخية · انه قد يكون من السهل اقامة الدعوى على دعاة التهدئة ، وربما أكون قد فقدت الاهتمام لأنى قمت بهذا دائما من قبل فى زمن لم يكن فيه ، على قدر ماتعى ذاكرتى ، لأولئك الذين يظهرون السخط على ، نشــاط على الصعيــد السياسى · اننى أشد شغفا باكتشاف السبب فى أن الأشياء التى كنت أريدها لم تتحقق الا فى ثوب تكرار الفضائح القديمة ، واذا كان لابد لى من ادانة أية أخطاء ، فأنا أفضل ادانة نفسى ، ومهما يكن من شىء فليس جزءا من واجب المؤرخ أن يقول ما كان يجب أن يحدث · ان واجبه الوحيد هو أن يكتشف ماذا تم ولماذا حدث · ان شيئا قليلا ممكن اكتشافه طالما نحن نعزو كل شىء حدث الى هتلر · لقد أتى بعنصر ديناميكى ، ولكنه كان وقودا لآلة قائمة بالفعل · لقد كان فى ناحية خلقا من فرساى وفى الناحية الأخرى خلق الأفكار التى كانت شائعة فى أوربا المعاصرة · وأكثر من كل شىء كان باعث التاريخ الألمــانى والحاضر الألمــانى ، ولم يكن يستطيع أن يركن الى أى شىء بنفسه حتى تسير القطارات ، وملء أنابيب الجــاز بلا مساعدة · ولم يكن الأمر على هذا النحو · لقد كان هتلر هو الصوت المعبر للأمة الالمــانية · ونفذ الألوف ، كثير من مئات الألوف أوامره الشريرة بلا

تأنيب ضمير أو استفسار • ويتحمل هتلر كحاكم ألمانيا الأعلى المسئولية الكبرى للأفعال الشريرة التى لا نظير لها لتحطيم الديمقراطية الالمانية لمعسكرات التجميع ولأسوأ ما فى الجميع ـ ابادة الشعوب خلال الحرب العالمية الثانية • لقد أعطى الأوامر التى نفذها الألمان بصورة من الشر لا شبيه له ، فى التاريخ الحضارى وكانت سياسته الخارجية شيئا مختلفا ، كان يهدف الى جعل ألمانيا الدولة الكبرى المسيطرة فى أوربا وربما كهدف بعيد فى العالم كله • لقد جدت دول كبرى أخرى لبلوغ أهداف مشابهة ولا زالت تفعل • ولا زالت دول كبرى أخرى تعامل دولا أصغر كتوابع لها وبعض الدول الكبرى لا زالت تنشد الدفاع عن مصالحها الحيوية بقوة السلاح • أما فيما يختص بالشئون الدولية وليس هناك ما يؤخذ على هتلر سوى أنه كان ألمانيا •

الفصل الأول

مشكلة منسية ..

انقضى ما يزيد على اثنين وثلاثين عاما منذ أن بدأت الحرب العالمية الثانية ، وستة وعشرين عاما منذ أن انتهت • وأولئك الذين عاشوا خلالها ما زالوا يشعرون بها كجزء من تجربتهم المباشرة • وفي يوم ما سيدركون فجأة أن الحرب العالمية الثانية كسابقتها قد صارت في طي التاريخ • هذه اللحظة تعرض لأستاذ جامعي حينما يجد نفسه مضطرا الى أن يفطن الى أن طلبته لم يكونوا قد ولدوا بعد عندما نشبت الحرب ، وأنهم لا يستطيعون حتى أن يتذكروا متى انتهت • فالحرب العالمية الثانية بعيدة عنهم بقدر بعد حرب البوير عنه ، وربما يكونون قد سمعوا بعض النوادر عنها من آبائهم ، ولكن الأكثر احتمالا أن عليهم أن يدرسوها من الكتب اذا قدر لهم أن يدرسوها ، فلقد غادرت الشخصيات الكبيرة المسرح فمت هتلر وموسوليني وستالين وروزفلت وانسحب تشرشل من الزعامة قبل وفاته بفترة ولم يبق الا ديجول الذى أتيح له معاودة نشاطه لسنوات عديدة قبل وفاته أيضا • ان الحرب العالمية الثانية لم تعد من أحداث اليوم ، وانما صارت من أحداث الأمس ، وهذا يلقى بأعباء جديدة على المؤرخين • فالتاريخ المعاصر بالمفهوم الدقيق يسجل الأحداث ابان جريانها ويحكم عليها في حينها ، ويفترض تعاطفا مباشرا في القارىء • ان أحدا لن يقلل من قيمة مثل هذه الأعمال التى قام بها طراز رائع من الرجال مثل تشرشل في حياته ، ولكن سيأتى حين من الوقت يستطيع فيه المؤرخ أن يرجع الى الوراء ويستعرض الأحداث التي كانت ذات يوم من الأحداث المعاصرة بالتجرد نفسه الذى يبديه لو أنه كان يكتب عن صراع اعتلاء العرش أو الحرب الأهلية الانجليزية وعلى الأقل فانه يستطيع أن يحاول ذلك •

لقد حاول المؤرخون هذا بعد الحرب العالمية الاولى ، ولكن مع التأكيد بطريقة مغايرة • هؤلاء كانوا قليلى الاهتمام نسبيا بالحرب ذاتها ، فالنزاع على الخطط الاستراتيجية الكبرى بين الغربيين وبين الشرقيين يعتبر كأنه حرب خاصة بين لويد جورج والقادة يمر بها المؤرخ الأكاديمى دون اهتمام أما التاريخ الحربى البريطانى الرسمى ـ وهو نفسه يعتبر معاونة جدلية فى هذه الحرب الخاصة ـ فقد مضى متراخيا بحيث لم يكتمل الا فى سنة ١٩٤٨ • ولم تبذل أية محاولة لكتابة تاريخ مدنى رسمى لهـــذه الحرب الا فى وزارة الامدادات الحربية ، ومن النادر أن تجد انســـانا على وجه التقريب قد فحص محاولات التفاوض لاقرار السلام ، ولم يدرس أحد تطور أهداف الحرب ، وكان علينا أن ننتظر حتى يومنا هذا تقريبا لـكى نحصل على دراسة مفصلة لموضوع حاسم مثل سياسة ودرو ويلسون ، وكان الموضوع الضخم الذى حجب ماعداه والذى استأثر باهتمام المؤرخين هو كيف بدأت الحرب ، وقد أذاعت كل حكومات الدول الكبرى ما عدا الحـكومة الايطالية الأسرار الحقيقية من واقع سجلاتها الرســمية • ورأى المؤرخ الواعى رفوفه مكدسة بكتب من كل اللغات الأساسية ، وأحس بالأسف لأنه لا يستطيع قراءة غيرها وكرست دوريات بأكملها بالفرنسية والألمانية والروسية لهذا الموضـــوع بنوع خاص • لقد أحرز عدد من المؤرخين سمعتهم الطيبة كثقات فى أصول الحرب العالمية الأولى ، فهناك جوش فى انجلترا ، وفاى وشميت فى الولايات المتحدة ، ورينوفان وكاميل بلوخ فى فرنسا ، وثيم وبراندنبرج وفون فيجير فى ألمانيا ، وبريبرام فى النمسا ، وبوكروفسكى فى روسيا ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر •

ان بعض هؤلاء الكتاب ركز على أحداث يوليو سنة ١٩١٤ ، ورجع آخرون الى الأزمة المراكشية سنة ١٩٠٥ أو الى دبلوماسية بسمارك على أن الجميع اتفقوا على أنه هنا كان الميدان الذى يستأثر باهتمام المؤرخ الحديث وتتوقف مناهج الجامعات بغتة عند أغسطس سنة ١٩١٤ ، كما لا يزال بعضها يفعل حتى الآن ، ويتقبل الطلاب ذلك • انهم يريدون أن يسمعوا عن ويليم الثالث وبوانكريه وعن جراى وازفولسكى وتبدو برقية كروجر فى نظرهم أكثر أهمية من باستخنديلى ومعاهدة بيجوركو أكثر أهمية من اتفاقية سان جان دى مورين والحدث الأكبر الذى شكل الحاضر كان اندلاع نيران الحرب ، أما ما حدث بعد ذلك فلم يكن الا مجرد استنتاج مضطرب عن نتائج لا مفر منها ليس لها دروس أو دلالات هامة بالنسبة للحاضر • ولو أننا أدركنا لماذا بدأت الحرب ، لكان حتما أن نعرف كيف وصلنا الى ماكنا عليه ـ ثم كيف نتجنب ذلك مرة أخرى بطبيعة الحال •

أما بالنسبة للحرب العالمية الثانية فالأمر يكاد يكون على العكس تماما ، فلقد كان الموضوع الكبير الذى يثير اهتمام القارىء والكاتب على حد سواء ، هو الحرب ذاتها • انها ليست الحملات الحربية فى حد ذاتها رغم تكرار وصفها المرة تلو الأخرى ، ولقد فحصت كذلك سياسات الحرب ولا سيما العلاقات بين الحلفاء الكبار • وقد يكون من العسير أن نحصى الكتب عن الهدنة الفرنسية عام ١٩٤٠ ، أو عن اجتماعات الثلاثة الكبار فى طهران ويالتا ، ان « المسألة البولندية » فى علاقتها بالحرب العالمية الثانية تعنى المنازعات بين روسيا السوفيتية وبين الدول الغربية التى انتهت اليها الحرب وليست المطالب الألمانية بشأن بولندا التى بدأت بها • ولا تثير أصول الحرب الا اهتماما قليلا نسبيا • وهناك احساس عام بأنه مهما يظهر من تفاصيل جديدة فليس ثمة شيء له دلالته الهامة يمكن التوصل اليه • فنحن وقد صرنا بالفعل نعرف الاجابات ، لم نعد فى حاجة الى القاء مزيد من الأسئلة وان المؤلفين القياديين الذين نرجع اليهم لاحصاء أصول الحرب العالمية الثانية مثل نامير ، هويلر - بينيت ، ووسكيمان فى اللغة الانجليزية ، وبومنت فى الفرنسية نشروا كتبهم جميعا بعد انتهاء الحرب مباشرة وكلهم عبروا عن وجهات النظر التى اعتقدوها ، والحرب لا تزال دائرة الرحى أو على أقل تقدير قبل أن تنشب • وبعد عشرين عاما من اندلاع الحرب العالمية الأولى لم يكن هناك الا القليل جدا ممن يمكنهم أن يتقبلوا دون تعديل التفسيرات التى أعطيت لها فى أغسطس سنة ١٩١٤ أما بعد عشرين عاما أو أكثر من نشوب الحرب العالمية الثانية فيكاد الكل تقريبا يرضى بالتفسيرات التى أعطيت لهذه الحرب فى سبتمبر ١٩٣٩ •

ويمكن بطبيعة الحال ألا يكون هناك فعلا شيء يستحق البحث ، ولربما كانت الحرب العالمية الثانية على العكس من معظم أى من الأحداث الكبرى الأخرى فى التاريخ ذات تفسير بسيط نهائى كان واضحا لكل انسان فى حينه ولن يتغير اطلاقا نتيجة معلومات أو بحوث تالية • ولكن يبدو من غير المقبول أن المؤرخين سوف ينظرون الى هذه الأحداث بعد مائة عام من الآن مثلما كان الناس يفعلون تماما سنة ١٩٣٩ ، ولابد أن يسعى مؤرخ الوقت الحاضر الى أن يستشف أحكام المستقبل بدلا من أن يكرر تلك التى صدرت فى الماضى • والحق أن هناك أسبابا علمية دعت المؤرخين الى اهمال هذا الموضوع • ويحاول كل مؤرخ أن يكون باحثا متجردا وغير منحاز ، فيختار موضوعه ويصدر أحكامه دون أن يلقى بالا الى ما يحيط به • الا أنه من حيث هو كائن بشرى يعيش فى مجتمع ، فانه يتجاوب ولو بطريقة غير شعورية مع احتياجات عصره • وعلى سبيل المثال فان البروفسور توت

الذى غير بمؤلفه دراسة تاريخ العصور الوسطى فى هذا البلد ، قد حول من غير شك تركيزه من السياسة نحو الادارة لا لشيء سوى المعرفة المجردة ورغم هذا فانه لم يكن مقبولا أن مؤرخ القرن العشرين يدرب المرشحين للوظائف المدنية فى حين كان مؤرخ القرن التاسع عشر يدرب الساسة • وهكذا أيضا ارتبط الكتاب الذين تناولوا الحربين العالميتين باقامة وزن لما هو لا يزال مثارا من المشاكل أو اعداد الردود على ما هو مثار منها فى الوقت الحاضر • ان أحدا لا ينوى أن يؤلف كتابا فى موضوع لا يشغل اهتمام الآخرين فضلا عن كتاب لا يثير المتعة فيه •

ويبدو أن الحرب العالمية الأولى لم تقدم سوى عدد قليل من المشاكل من الناحية العسكرية • ولقد كان معظم الناس وبخاصة فى دول الحلفاء يعتبرون الحرب مباراة عنيفة أشبه ما تكون بالمبارزات التى كانت تجرى فى القرن التاسع عشر لنيل الجوائز والتى كانت تستمر حتى يسقط أحد المتبارين من الاعياء • ولم يحدث الا بعد أن شحذت عقول الناس بتجربة الحرب العالمية الثانية أن بدءوا يناقشون جديا فيما لو كان من الممكن انهـاء الحرب الأولى فى وقت مبكر عن الوقت الذى انتهت فيه نتيجة استراتيجية أو دبلوماسية أكثر تفوقا ، وبجانب ذلك فلقد افترض بصورة عامة بعد الحرب العالمية انه لن تكون هناك حرب أخرى ، وعلى ذلك فان دراسة الحرب الأخيرة بدت وكأنها لا تقدم دروسا تستفاد بها فى الوقت الحاضر • ومن الناحية الأخرى ظل الاعتقاد السائد عند انتهائها أن المشكلة الكبرى التى أدت الى نشوبها لا تزال قائمة كمشكلة دولية فى المحل الأول عندما انتهت الحرب وكانت هذه المشكلة الكبرى هى ألمانيا ، ولربما ادعى الحلفاء أن الحرب قد نشبت بسبب العدوان الألمانى وقد يرد الألمان بأن سببها هو رفض الحلفاء منح ألمانيا مكانها الجدير بها كدولة كبيرة • وفى كلتا الحالتين كان مثار النزاع هو مكان ألمانيا • وبقيت هنـاك فى العالم مشاكل أخرى غير مشكلة ألمانيا من الاتحاد السوفيتى الى الشرق الأقصى ، ولكن كان من المعقول افتراض أن هذه المشاكل يمكن حلها وأن من الممكن قيام عالم يسوده السلام لو أن الشعب الألمانى فقط عاش فى وفاق مع أعدائه السابقين • ومن هنا كانت دراسة أصول الحرب ذات أهمية ملحة وعملية ، فلو أنه أمكن اقناع شعوب الدول المتحالفة ببطلان تحميل الألمان وزر الحرب ، اذن لكانوا قد خففوا من بنود العقوبات فى معاهدة فرساى ، واعتبروا الشعب الألمانى كأنفسهم ضحايا لكارثة طبيعية • ولو أمكن اقناع الألمان من جهة أخرى بخطيئتهم فى الحرب ، لكان من المفروض أن يعتبروا هذه المعاهدة عادلة ، والذى حدث من الناحية العملية أن « اعادة النظر »

اتخذت الطريق الأول وحده ، فلقد عمل المؤرخون الانجليز والامريكيون والى حد ما المؤرخون الفرنسيون أيضا على اظهار حكومات الحلفاء مخطئة بقدر أوفر وان الحكومة الألمانية كانت أكثر براءة مما افترضه صانعو السلام سنة ١٩١٩ . وحاول قليل من المؤرخين الألمان أن يثبتوا الاستنتاج العكسي . وكان هذا امرا طبيعيا للغاية ، فانه حتى المؤرخ المتطرف فى حياده يشعر بحرارة الوطنية عندما يكون وطنه قد هزم فى حرب وقاسى الاذلال بعدها . وفى الجانب الآخر كانت السياسة الخارجية موضع جدال فى كل بلد من بلاد الحلفاء قبل اندلاع الحرب — فنقاد جراى فى بريطانيا وبوانكاريه فى فرنسا وودرو ويلسون فى الولايات المتحدة — ولا شىء يقال عن البلاشفة الروس الذين كانوا قد هاجموا حكومة القيصر — هؤلاء قد خطوا خطوات الى الأمام باعتبارهم أبطال فكرة « اعادة النظر » فى الموقف . ولم تعد أوجه الصواب والخطأ فى هذه المجادلات دولية كانت أو محلية ذات أهمية ، ويكفى القول بأنها أذكت نيران الشغف الذى أدى بالناس الى دراسة أسباب الحرب العالمية الأولى .

وهذا الوقود لم يكن كافيا كأسباب للحرب العالمية الثانية . ففى الجانب الدولى توقفت المانيا كدولة كبرى حتى قبل انتهاء الحرب عن أن تكون المشكلة الرئيسية فى القضايا الدولية . فلقد احتل الاتحاد السوفيتى مكانها ، وأراد الناس أن يعرفوا شيئا عن الأخطار التى وقعت فى معاملة الاتحاد السوفيتى أثناء الحرب وليس عن الأخطاء التى وقعت فى التعامل مع ألمانيا قبل نشوب الحرب . وفضلا عن ذلك فطالما أن كل الدول الكبرى الغربية وروسيا السوفيتية كانت تقترح جعل الاجزاء المختلفة من المانيا حليفا لها ، فانه كلما قل الحديث عن الحرب كان ذلك أفضل . وساعد الألمان بدورهم على هذا التغاضى ، فانهم بعد الحرب العالمية الأولى أصروا على أن يظلوا يعاملون كدولة كبرى . وبعد الحرب العالمية الثانية كانوا أول من أوعز بأن أوربا لم تعد هى التى تقرر أحداث العالم مع المفهوم الضمنى بأن المانيا لن تستطيع مرة أخرى أن تثير حربا عالمية ، وانها لهذا يمكن أن تترك لتشق طريقها دون تدخل أو رقابة . وكان الأمر بالمثل فى الجوانب المحلية ، فقد حدثت مجادلات عنيفة داخل معسكر دول الحلفاء قبل الحرب — والحق أنها كانت أعنف بكثير جدا من أى شىء مما عرف قبل سنة ١٩١٤ ، ولكن المتجادلين ظلوا فى مجادلاتهم أثناء الحرب وكانوا فى شوق معظم الوقت الى تنسيان هذه المجادلات بعد ذلك . واستطاع « دعاة التهدئة » السابقون أن يجددوا سياستهم القديمة بمزيد من التبرير وتخلى

دعاة المقاومة السابقون عن تحذيراتهم القديمة بالنسبة لالمانيا لحاجتهم الى مقاومة الاتحاد السوفيتى ٠

كانت أصول الحرب العالمية الثانية أقل جاذبية عندما كان الناس قد بدءوا فى دراسة أصول الحرب الثالثة ، وقد كان من المحتمل أن توجد بعض المشاحنات فى الموضوع اذا بقيت مجالات واسعة من الشك والتساؤل ولكن وجد تفسير كان مرضيا للجميع وبدا وكأنه استنفد كل جدال ، وكان هذا التفسير هو هتلر ٠ انه هو الذى وضع خطة الحرب العالمية الثانية ، وكانت ارادته وحدها هى التى سببتها ، وكان هذا التفسير بلا شك مرضيا « للمناهضين » من تشرشل الى نامير ٠ لقد أعطوه طول مدة الحرب بل قبل اندلاع الحرب بالفعل ٠ كان فى استطاعتهم أن يقولوا «اننا قد قلنا ذلك ، لم يكن هناك بديل لمقاومة هتلر منذ الساعة الأولى» ، وارضى التفسير كذلك « دعاة التهدئة » وكأنوا يستطيعون أن يدعوا أن أسلوب التهدئة كان حكمة ، وكان فى مقدوره أن يكون سياسة ناجحة اذا لم يكن فى سبيل الحقيقة غير المؤكدة بأن المانيا كانت فى قبضة رجل معتوه ٠ وأكثر من هذا أرضى هذا التفسير الالمان ما عدا قلة من النازيين غير النادمين ٠ وبعد الحرب العالمية الأولى حاول الالمان ازاحة الجريمة عن عاتقهم والقاءها على عاتق الحلفاء ، حاولوا استنتاج ألا ذنب لأحد ٠ لقد كانت مهمة ازاحة الجريمة عن الالمان الى هتلر أيسر ، فلقد مات فى أمان٠ لقد كان فى استطاعة هتلر أن يسبب لالمانيا ضررا بالغا لو أنه ظل على قيد الحياة ، ولكنه وضع نهاية لها بتضحيته النهائية فى القبو ٠ ولم يعد هناك لأى قدر من الاتهامات بعد موته أن تسىء اليه ، وأصبح فى الامكان وضع عبء اللوم عن كل شىء فوق كتفيه اللذين لم يعودا يشكوان من الحرب العالمية الثانية ، معسكرات التعذيب ، غرف الغاز ٠ وعلى أساس اعتبار هتلر مجرما يستطيع أى ألمانى آخر ان يدعى البراءة ، وتحول الآن الالمان الذين كانوا غيورين من قبل فى معارضة جريمة الحرب الى أول الدافعين عنها ٠ وقرر بعض الالمان أن يعطوا لشرور هتلر لغة خاصة أكثر فاعلية ، فما دام أنه من الواضح كان وحشا شريرا ، فقد كان من الواجب أن يقاوم بحزم ٠ ومن هنا فان أى وزر تبقى بعد أن أدين هتلر يمكن أن يتحول الى فرنسا لفشلها فى طرده من اقليم الرين سنة ١٩٣٦ أو الى تشمبرلن لاحجامه فى سبتمبر ١٩٣٨ ٠

واتفق الجميع ـ وهم سعداء ـ على سبب الحرب العالمية الثانية ، فما هى الحاجة اذن الى اعادة النظر ؟ رفعت أغلبية من المحايدين راية الشك،

وبالأخص من ايرلندا ، ولكن جرت العادة على أن المشاركة فى الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتى تسكت حتى أولئك الذين كانوا محايدين فى الحرب ضد المانيا ، وفعل اعتبار مشابه لذلك ــ فى الجانب الآخر ــ فعله مع المؤرخين السوفييت أيضا ، ولا تزال هناك مدرسة عتيدة من المؤمنين باعادة النظر باقية فى الولايات المتحدة ممن بقوا من أصحاب حملات ما بعد الحرب العالمية الأولى والذين لا زالوا يعتبرون حكومتهم أكثر لؤما من حكومة أخرى ، وأعمالهم غير متأثرة بوجهة نظر مدرسة أكاديمية، وفضلا عن هذا فان اعادة النظر هذه معنية أساسا بالحرب ضد اليابان ، ويستندون فى هذا الى سبب وجيه ، فلقد أعلن هتلر الحرب على الولايات المتحدة وليس شيئا غير هذا ، ومن الصعوبة التفكير كيف كان روزفلت يستطيع أن يلقى ببلده فى الحرب الاوربية اذ لم يكن هتلر قد أدى هذه الخدمة له • ليس هناك مجال للجدل الكثير بالنسبة لليابان ، لقد جرى القتال لسبب خارج عن هذا النطاق ، لقد كان هناك سؤال عملى ــ ذات مرة ــ عما اذا كان يتحتم على الولايات المتحدة أن تتعاون مع اليابان أو مع الصين ؟ ولقد أجيب على السؤال الآن بالأحداث ، وعلى صورة مشوشة للغاية للسياسة الامريكية • فمن المتفق عليه عالميا أن اليابان هى الصديق الوحيد الذى يعول عليه بالنسبة لأمريكا فى الشرق الأوسط ، وعلى هذا فان الحرب ضدها تبدو كخطأ بالنسبة لناحية ما وعلى الارجح لجانب اليابانيين •

ان هذه الاعتبارات فى السياسات المعاصرة تساعد على تفسير السبب فى أن أصول الحرب العالمية الثانية ليست موضوعا لجدال قوى ، ورغم هذا فهى ليست كافية لتفسير الاتفاق الذى يكاد يكون موضوع الاجماع من المؤرخين • وحتى أكثر الدارسين التزاما متأثرون بمستويات أكاديمية وهناك كثير من الدارسين غير الملتزمين بشكل كبير • فاذا ما كان الشك قد تصدع بما فيه الكفاية • فان الدارسين سرعان ما نراهم يناقشون المبرر الشائع مهما تكن درجة تقبله ، ان هذا لم يحدث لسببين واضحى التعارض ــ فهناك فى وقت واحد البراهين الكثيرة للغاية والقليلة للغاية• ومن الشواهد الكثيرة للغاية تلك التى جمعت لمحاكمات مجرمى الحرب فى نورمبرج • وبالرغم من أن تلك الوثائق تبدو مهيبة فى حجمها الذى لا حد له ، فهى مادة خطيرة بالنسبة للمؤرخ عند استخدامها • فقد جمعت بسرعة وبدون تدبير فى الغالب كأساس للخصات رجال القانون • وليس هذا ما يجب على المؤرخ أن يتبعه ، فرجل القانون يهدف الى تكوين قضية،

والمؤرخ يرغب أن يفهم ويقتنع والبرهان الذى يقنع رجل القانون يفشل فى ارضائنا ، وتبدو وسائلنا غير دقيقة لهم ، ولكن حتى رجال القانون يجب أن يكونوا الآن قد ارتابهم تأنيب الضمير بالنسبة للحجج فى نورمبرج فلم يتم اختيارها لتبرهن على جريمة الحرب بالنسبة للرجال الذين فى المحاكم فحسب ، وانما لتخفى تلك الخاصة بالدول الكبرى المدعية ، ولو أن أيا من الدول الاربع الذين أقاموا محكمة نورمبرج انفردت بمحاكم نورمبرج ، لتناثر الوحل بشكل أكثر ولأقحمت الدول الغربية بالمعاهدة النازية السوفيتية ولرد الاتحاد السوفيتى بالمثل بمؤتمر ميونيخ وبعمليات أخرى خفية وبوجود المحكمة المقامة من الدول الكبرى الاربع، كان المسلك الوحيد الممكن هو افتراض ادانة المانيا وحدها بالجريمة سلفا • لقد سبق الحكم المحاكمة ، وأعدت الوثائق لتدعيم نتيجة كانت قد اعدت من قبل • وبطبيعة الحال كانت الوثائق غير مصطنعة ، ولكنها كانت مشحونة وكل من يعتمد عليها يجد أنه يكاد يكون من المستحيل أن يهرب من العبء الذى حملت به •

فاذا ما بحثنا بدلا من ذلك عن براهين جمعت بطريقة أكثر انعزالا وأكاديمية لاكتشفنا كيف أننا أكثر سوءا من أسلافنا الذين درسوا أصول الحرب العالمية الأولى • وبعد ربع قرن أو ما يقرب من هذا من الحرب الأولى بدأت كل الدول الكبرى ـ ما عدا ايطاليا ـ فى كشف الغطاء عن تسجيلاتها السياسية للأزمات المباشرة لفترة ما قبل الحرب ، وبالاضافة الى ذلك كانت هناك مسلسلات واسعة من الوثائق المنشورة تتابع فترة طويلة الى الوراء تتفاوت قوة وضعفا • فالوثائق النمساوية ـ المجرية ترجع الى سنة ١٩٠٨ والانجليزية الى سنة ١٨٩٨ والألمانية والفرنسية الى سنة ١٨٧١ ، وكانت المنشورات الروسية وان كانت أكثر عصبية ـ كبيرة الحجم أيضا وكانت هناك بعض الفجوات الواضحة • ان فى استطاعتنا أن نشكو من نقص فى الوثائق الايطالية الذى يعالج الآن ، ونستطيع أن نشكو ، كما لا زلنا نفعل ، من نقص الوثائق ، وقد يكون هناك فى المجموعات المنشورة ـ بعض الحذف المتعمد ولن يرضى أحد من المؤرخين الواعين حتى يطلع على السجلات بنفسه ولا زال فى المستطاع ـ والكلام هنا بوجه عام ـ تتبع التكتيك السياسى لخمسة من ستة من الدول الكبرى فى تفصيل ومستوى غير متطابقين ، ولا تزال البراهين غير متمثلة حتى الآن ، وباستمرار استعراضنا لها نجد موضوعات جديدة لارتيادها ، وتفسيرات جديدة يمكن وضعها •

والتفاوت في المادة التي في حوزتنا لدراسة سنوات ما قبل سنة ١٩٣٩ محزن حقا • فلقد اختفت النمسا ـ المجر من صفوف الدول الكبرى الأوربية • ومن الخمس الباقية لم تقدم ثلاثة حتى وقت قريب سطرا أو جملة من البراهين من سجلاتها • وبدأ الايطاليون في اصلاح هذا الاهمال فقد نشروا وثائقهم من ٢٢ مايو سنة ١٩٣٩ حتى اندلاع الحرب وسوف يسبقون الجميع بارجاع نشراتهم الى سنة ١٨٦١ ولا زالت السياسة الفرنسية والروسية بلا ضوء ملقى عليها من سجلاتها تماما • وللفرنسيين بعض العذر فمعظم سجلاتهم ما بين ١٩٣٣ وبين ١٩٣٩ أحرقت في ١٦ مايو سنة ١٩٤٠ عند الانذار الألماني بالغزو في سيدان •

ويعاد الآن بنشاط تجميع الوثائق من المراكز الفرنسية في الخارج أما أسباب الصمت السوفيتي فهي ـ ككل شيء آخر في السياسة السوفيتية ـ مسألة تخمين ، هل هناك ما يشين أحيانا الحكومة السوفيتية يستدعي الاخفاء ؟ ـ هل يجفلون من التسليم بمسلكهم ، مهما تكن درجة بعده ، لامعان النظر العام ؟ ربما لا تكون هناك تسجيلات ـ على أساس أن ادارة الشئون الخارجية لم تكن أهلا لصنع أى واحد منها ؟ أم أن الحكومة السوفيتية قد تعلمت الدرس الخاص بكثير من منازعات الماضي عن الموضوعات التاريخية ، وهو أن الطريقة الوحيدة غير الناضجة لتدعيم قضية لا يكون أبدا بالتسليم بشواهد لمساندتها ؟ • ومهما تكن الاسباب المتنوعة لهذا الصمت من جانب ثلاث دول كبرى ، فان النتيجة هي أنه ليس أمامنا الا أن نتجه الى الوثائق الألمانية والبريطانية من أجل تسجيل متصل للعمليات الدبلوماسية خلال الحربين ، ومن ثم ينشأ الانطباع شبه المضلل بأن العلاقات الدولية بين الحربين كانت محاورات ثنائية انجليزية ـ المانية •

وحتى بعد هذا فان المادة أقل كفاية عما كانت عليه بالنسبة لفترة ما قبل سنة ١٩١٤ ، فقد استولى الحلفاء على السجلات الالمانية سنة ١٩٤٥ وكانوا ينوون أصلا نشر سلسلة كاملة عن الفترة ما بين سنة ١٩١٨ الى ١٩٤٥ ، ولكن رئى أخيرا اختصار ذلك بسبب النفقات الى السنوات منذ وصل هتلر الى الحكم في سنة ١٩٣٣ ، وحتى تلك الخطة لم تكن كاملة : فان فجوة لا زالت شاغرة بين ١٩٣٥ ، ١٩٣٧ ، وأعيدت السجلات الآن الى الحكومة الالمانية في بون ، وقد يؤدي هذا بطبيعة الحال الى تأجيل آخر ، وأكثر من هذا فان الناشرين من الحلفاء بوعى منهم شاركوا في وجهة نظر نورمبرج فيما يختص بجريمة الحرب • فان وزارة الخارجية الالمانية

غالبا ما ادعت أنها تعمل ضد هتلر وليس لمصلحته ، ولن نستطيع أن نكون على ثقة عما اذا كانت وثيقة من الوثائق تمثل عملية جادة ، أو عما اذا كانت قد أعدت لتكون شاهدا على سذاجة مؤلفها ، وسوف يغطى النشر الانجليزى فى نهاية الأمر المرحلة بأكملها منذ توقيع صلح فرساى حتى اندلاع الحرب سنة ١٩٣٩ ولكنه تقدم بطىء ، ففى هذه اللحظة نحن لا نملك شيئا فى الواقع عن العام التاسع عشر فى القرن العشرين ، وثغرة أخرى بين منتصف ١٩٣٤ الى مارس ١٩٣٨ ٠ والمجلدات قاصرة على السياسة البريطانية العلمية ٠ انها لا تكشف الستار عن بواعثها وذلك كما حاولت المجلدات الخاصة بفترة ما قبل الحرب العالمية الاولى أن تفعل، وهناك دقائق قليلة تبين تطور المناقشات فى وزارة الخارجية ولا تسجيلات عن المناقشات الوزارية رغم أنه من الشائن أن رئيس الوزراء ومجلس الوزراء قدروا الأمور لهذا بشكل أكثر من وزارة الخارجية بالنسبة للفترة السابقة ٠

ونحن أيضا أكثر سوءا بالنسبة الى قلة التسجيلات الرسمية ٠ لقد عاش معظم الذين أشعلوا الحرب العالمية الأولى ليكتسبوا فى اسهاب بعد ذلك بأسلوب يدعو الى الاعتذار أو التبرير ٠ وفى الحرب العالمية الثانية مات بعض القادة بينما كانت الحرب مشتعلة وبعضهم قتل فى النهاية بمحاكمة أو بدون محاكمة ، والبعض كانوا أما فخورين للغاية أو حذرين للغاية عند الكتابة ٠ انه لشىء يسبب تباينا يدعو الى الدهشة أن يتولى فى نهاية كل حرب عالمية وضع مادتها الضخمة أولئك الذين كانوا فى مواضع اصدار القرارات عند بدايتها ٠

وفيما يلى قائمة الحرب العالمية الأولى

بريطانيا العظمى : رئيس الوزراء

وزير الخارجية

فرنسا : رئيس الجمهورية

رئيس الوزراء الذى كان فى الوقت نفسه وزير الخارجية

روسيا : وزير الخارجية

ايطاليا : رئيس الوزراء

المانيا : المستشار

وزير الخارجية

ونقرأ في قائمة الحرب العالمية الثانية :

فرنسا : وزير الخارجية

وخلف وزير الخارجية الايطالية ـ الذى اغتيــل ـ مذكرات وكتب وزير الخارجية الألمانية دفاعا متقطعا أثناء انتظاره الشنق • وهناك عدد قليل من القصاصات من المراسلات كتبها رئيس الوزراء البريطاني وبضع صفحات من المذكرات الشخصية لسكرتير الشئون الخارجية البريطانى • أما بالنسبة لكل ديكتاتور من الثلاثة هتلر ، موسيلنى وستالين ، وكذلك بالنسبة لوزير الخارجية الروسية فلا يوجد سطر واحد أو كلمة واحدة أن علينا أن نمحص ما يدور على ألسنة شخصيات ثانوية ، ولمفسرين وكتبة مكاتب الشئون الخارجية والصحفيين ، رجال ممن عرفوا غالبا أكثر قليلا من عامة الناس • ومهما يكن الأمر فان المؤرخين لم يتوفر لهم مطلقا القدر من الشواهد التى ترضيهم • واننى لفى شك من أننا سنجنى الكثير من الانتظار عشر أو خمس عشرة سنة أخرى ، وربما فقدنا الكثير ، ومن المحتمل أن القلة الباقية من الحضارة قد تتخلى عن قراءة الكتب ، فما بالك بكتابتها • وعلى هذا الأساس حاولت أن أروى القصة كما قد تبدو أمام مؤرخ مقبل ، وذلك بالعمل على أساس التسجيلات • وقد تبرهن النتيجة على المدى الذى يخطىء فيه المؤرخون أو يسيئون الفهم ، كما يجب علينا أن نستمر فى كتابة التاريخ بالرغم من هذا • وعلى غرار خليفتى الذى أتخيله ، أرى لزاما على دائما أن أعترف بجهلى • ولقد وجدت كذلك أن التسجيل المقدر على أساس انعزالى غالبا ما يدفعنى نحو تفسيرات مختلفة عن تلك التى قصدها الناس (وأنا منهم) فى حينه • ولم يؤثر ذلك على بطريقة أو أخرى • اننى مهتم بفهم ما حدث لا للدفاع أو الادانة • لقــد

كنت ضد الدعوة الى التهدئة منذ اليوم الذى وصل فيه هتلر الى الحكم ، والذى لا شك فيه اننى سأكون كذلك مرة أخرى تحت ظروف مشابهة ، ولكن ليس لهذه النقطة شبيه فى الكتابة عن التاريخ • وعند الرجوع الى الماضى ، نجد أنه بالرغم من أن الكثيرين مذنبون فلا يوجد برىء واحد • ان الهدف من النشاط السياسى هو تهيئة السلام والرفاهية ، وفى هذا فشل كل سياسى مهما كان السبب •

انها قصة بلا أبطال ، وربما تكون حتى بلا أشرار •

الفصـل الثـانى

تركة الحرب العالمية الأولى

كانت الحرب العالمية الثانية ـ فى جانب كبير منها ـ صورة مكررة للأولى • وكانت هناك اختلافات واضحة ، فايطاليـا حاربت فى الجانب المضاد بالرغم من أنها غيرت ذلك الى العكس مرة ثانية قبل نهايتهـا • والحرب التى بدأت فى سبتمبر ١٩٣٩ بدأ القتال فيها فى أوربا وشمال افريقيا ثم التقت فى الوقت المناسب وان لم يكن فى المكان نفسه بالحرب فى الشرق الاقصى التى بدأت فى ديسمبر سنة ١٩٤١ واستمرت الحربان متميزتين بالرغم من أن الحرب فى الشرق الأقصى خلقت ارتباكات كبيرة لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة • ولم تربط المانيا واليابان قواتيهما بعضهما ببعض أبدا ، وكان الالتقاء الحقيقى الوحيد عندما وقع هجـوم اليابان على بيرل هاربر فانه أثار هتلر ـ وهنا وقع فى خطأ كبير ـ الى اعلان الحرب على الولايات المتحدة • وبطريقة أخرى فمن الممكن معالجة الحرب الأوربية وأصولها كقصة فى حد ذاتها بينما الشرق الأقصى يمدها باهتمامات تجرى بين الحين والآخر خارج خشبية المسرح • ولقـد حارب الحلفاء الأوربيون أنفسهم تقريبا القوى المضادة نفسها فى الحرب العالمية الثانية كما فى الأولى ، وبالرغم من أن مد المعـركة تأرجح جيئة وذهابا بقسوة أكبر ، فقد انتهت الحرب بطريقة كبيرة الشبه ـ بهزيمة المانيا • واشتدت الرابطة بين الحربين بصورة أعمق • لقد حاربت ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية خاصة لكى تغير نتيجة الأولى ولتحطم الاتفـاقية التى أعقبتها ، وحارب منافسوها وان كان بوعى أقل ، للدفاع عن هـذه الاتفاقية ، وهذا ما حققوه لشدة دهشتهم ، لقد كان هناك مثالية مفرطة

حين كانت الحرب الثانية دائرة الرحى ، ولكن فى النهاية حدث فى الواقع أن بقيت كل الحدود فى أوربا والشرق الأقصى بلا تغيير باستثناء ـ وهو مايجب الاقرار بأنه استثناء ضخم ـ بولندا والبلطيق • فاذا ما تركنا هذه المنطقة في شمال شرقى أوربا ، فان التغيير الهام الوحيد فى الخريطة فيما بين القنال الانجليزى والمحيط الهندى كان نقل استريا من ايطاليا الى يوغسلافيا • لقد حطمت الحرب الأولى امبراطوريات قديمة وأخرجت دولا جديدة الى الوجود • ولم تخلق الحرب الثانية دولا جديدة واقتصرت على تحطيم استونيا ، لاتفيا وليتوانيا • واذا ما سأل أحد السؤال الدارج نوعا : فيم كانت الحرب ؟ لكانت الاجابة الفورية هى : « لتقرير كيفيـة اعادة صنع أوربا » ولكانت الاجابة التالية مجرد « تقـرير ما اذا كانت أوربا هذه المعاد صنعها ستستمر » • ان الحرب الأولى تفسر الثانية ، بل هى التى سببتها فى حقيقة الأمر وذلك بالقدر الذى يسبب فيه حدث حدثا آخر •وبالرغم من أن حصيلة الحرب العالمية الأولى كانت اعادة صنع أوربا فان هذا كان بعيدا جدا من أن يكون سببها الأصلى أو حتى غرضهـــا المدرك • فلقد كان للحرب أسبابها المباشرة التى يتفق عليها الناس الآن فى كثير أو قليل • فاغتيال الارشيدوق فرانز فرديناند استثار (النمسا ـ المجر) لدرجة أنها أعلنت الحربعلى الصرب واستثارت التعبئة الروسية فى جانب الصرب ألمانيا لدرجة أنها أعلنت الحرب على روسيا وفرنســا حليفة روسيا واستثار الرفض الالمانى لاحترام حياد بلجيكا بريطانيا لكى تعلن الحرب على ألمانيا ، وخلف تلك الأسباب تبقى الأسباب الأعمـق التى لازال المؤرخون مختلفين حولها • فالبعض يشيرون الى النزاع بين التيوتون والسلاف فى أوربا الشرقية والبعض يدعى « انها حرب خلافة تركيا » ويلوم البعض المنافســة الامبرياليــة خارج أوربا فى حين يلوم الآخرون انهيار توازن القوى فى القارة الأوربية وقد ركز على مزيد من موضوعات النزاع الأكثر دقة التحدى الألمانى لرفعة منزلة الأسطول البحرى الانجليزى ، ورغبة فرنسا فى استعادة الالزاس واللورين وطموح روسيا فى القسطنطينية والمضايق • ان هذا التفسير السخى يوحى بأن أيا منها بمفرده ليس هو السبب الصحيح ، فالحرب العــالمية أضرمت لكل تلك الأسباب وليس لأى منها • وعلى كل فان هـــذا هو ما اكتشفته الدول الكبرى المتنازعة بمجرد أن خاضوا غمــارها • ومهمـــا تكن الخطط والمشروعات والمطامع التى كانت لديهم قبل الحرب ، فقد حاربت الدول الكبرى ببساطة من أجل النصر وللحســم على سؤال همبتى ديمبتى لمن تكون السيادة ؟ كان المتخاصمون يبحثون عن فرض ارادتهم على العدو

ـ وبالتعبير العسكرى ليومنا هذا ـ دون فكرة واضحة عن ما هية هــذه الارادة ووجد كلا الجانبين أنه من الصعوبة تحـديد أهدافهم الحربية • وعندما وضع الالمان مقدما شروط السـلام كما فعلوا في سنة ١٩١٧ لروسيا والدول الغربية الكبرى ، بمستوى أقل ، انصب اهتمامهم الوحيد على تحسين وضعهم الاستراتيجى من أجل الحرب التالية ، وذلك على الرغم من أن حربا ثانية لم تكن ضرورية فى حالة انتصار ألمانيا فى الأولى ، وبطرق أخرى كان لدى الحلفاء مهلة أكبر للتفكير ، فقد كان فى استطاعتهم ببساطة أن يطالبوا بأن يسلم الألمان ثمار انتصاراتهم المبكرة • وفوق هذا كون الحلفاء شيئا فشيئا سلسلة من الأهداف الحربية وذلك بفضل مؤازرة أمريكا أو بمعنى أصبح تحت ضغط الايحاء الأمريكى • ولم تمثل تلك الأشياء بالتأكيد المسائل التى بدأ بها الحلفاء الحرب انها لا تمثل حتى المسائل التى من أجلها ، فى معظمها ، أصبحوا آنذاك يحاربون ، ويبدو أن البرنامج المثالى قفز من مجرد الاقتناع بأن مثل تلك الحرب التى يدور فيها القتال فى نطاق كهذا وبتقييمات مثل تلك ، لابد أن يكون لها حصيلة عظيمة • كانت المثاليات نتاج عرضى وصقل فى الصراع الأساسى، وذلك برغم أنها لم تخل من تأثير على الأحداث التالية ، وظل النصر أساسا هو هدف الحرب • فالنصر سوف يملى السياسـة التالية ، وحتى عند الفشل فى ادراك هذا فان النصر سوف يضمن النتيجة على أية حال ، وهـذا ما فعله • لقـد تمت الحرب العالمية الثانية من الانتصـارات فى الأولى ومن الطريقة التى استخدمت بها هذه الانتصارات • وكان هناك انتصاران حاسمان فى الحرب العالمية الأولى ، بالـرغم من أنه فى ذلك الوقت حجب واحد منهما الآخر • ففى نوفمبر سنة ١٩١٨ هزمت ألمانيا بشكل حاسم من الدول الكبرى الغربية فى الجبهة الغربية ، ولكن قبل هذا كانت ألمانيا قد هزمت روسيا فى الشرق هزيمة حاسمة ، وكان لهذا تأثير عميق على نمط سنى الحرب • وقبل سنة ١٩١٤ كان هناك «توازن» أقيم فيه التحالف الفرنسى الروسى ضد الدول الكبرى والمتوسطة • وبالرغم من أن بريطانيا العظمى كانت مرتبطة ارتباطا ضـعيف العـرى مع فرنسا وروسيا فى الاتفاق الثلاثى Tripte Emtente فقد افترض القليلون أن ثقلها كان أساسيا لقلب الميزان • فالحـرب عندما بدأت كانت حربا قارية حوربت فى جبهتين : وألقت كل قوة قارية فى المعـركة بمـلايين الرجال ، ولم تقدم بريطانيا الا مجرد مئات الألوف • أما بالنسبة لفرنسا بنوع خاص فقد بدأ التعاون الروسى ضرورة حيوية ، والمعاونة البريطانية لا بأس بها • وتغير كل هذا كلما تقدمت الحرب • فقد جهزت بريطانيا

كذلك جيشا ضخما والقت بملايينها فى الجبهة الغربية واستتبع هذا الأمل فى ملايين أكثر عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب فى سنة ١٩١٧ وجاءت هذه التقوية للجبهة الغربية بعد فوات الأوان فى انقاذ روسيا • فثورة ١٩١٧ والنكبة العسكرية دفعتها خارج الحرب • ففى مارس ١٩١٨ وقع القادة البلشفيك الجدد صلح التسليم فى برست ـ ليتوفسك وأرغمت الهزيمة اللاحقة فى الغرب ألمانيا على التخلى عن المكاسب التى كانت قد صنعتها آنذاك • ولم يكن فى الامكان عدم صنع النتيجة الأضخم • فلقد خرجت روسيا عن نطاق أوربا ، ولم تعد بعد ، فى ذلك الحين ، دولة كبرى•لقد تغير برج أوربا بعمق ـ وكان ذلك لصالح ألمانيا• وحيث كان هناك فيما مضى دولة كبرى على طول جبهتها الشرقية أصبحت الآن أرضا منزوعة السلاح لدول صغيرة ووراءها يطبق ظلام التخلف • ولم يكن ليتسنى لأحد لمدى سنوات كثيرة بعد سنة ١٩١٨ أن يكون على يقين عما اذا كانت روسيا تملك أية قوة أو أنها اذا ما كانت كذلك ، فما هى سبل انتفاعها بها ؟

وعند نهاية سنة ١٩١٨ لم يبد أن لهذا اعتبارا كبيرا ، فلقد كانت الدلالة عندئذ هى أن ألمانيا قد هزمت دون مساعدة روسيا ، وأنها هزمت ـ على نحو وضح فيه التسلط ـ وان يكن هو فى الجبهة الغربية • وحدد النصر فى تلك المساحة الضيقة الكثيفة مصير أوربا كلها ، ان لم يكن العالم بأسره • وأعطت هذه النتيجة غير المتوقعة شخصية لأوربا مختلفة عن تلك التى كانت لها قبل سنة ١٩١٤ • فحتى ذلك الحين كانت الدول الكبرى هى فرنسا ، ألمانيا ، ايطاليا ، النمسا ، المجر ، روسيا ثم انجلترا باعتبار نصف • كانت برلين هى مركز أوربا • والآن أضحت الدول الكبرى هى فرنسا ألمانيا وبريطانيا العظمى ، وايطاليا من باب المجاملة ، ثم الولايات المتحدة الشاغلة لوضع بريطانيا السابق فى محيط الدائرة • وأصبح مركز أوربا الجديدة فى الرين أو يمكن القول فى جنيف ، ولم تعد روسيا لها حساب كدولة كبرى ، وتلاشت ملكية الهابسبورج من الوجود •

وتحركت أوربا ـ كمفهوم سياسى ـ جملة نحو الغرب ، وافترض الناس فى سنة١٩١٨ ولسنوات عديدة بعدها ـ بل وحتى ربيع سنة١٩٣٩ فى الواقع ـ ان تشكيل العالم يتركز فى أيدى أولئك الذين كانوا فيما مضى « الدول الكبرى الغربية » •

وبالرغم من أن روسيا وألمانيا هزمتا فى سنة ١٩١٨ فان نتائج الهزيمتين كانتا مختلفتين تماما • اختفت روسيا من الصورة

وتجاهلت الدول الكبرى المنتصرة حكومتها الثورية ووجودها الفعلى • على أن ألمانيا بقيت رغم كل شيء متحدة ومعترفا بهـا من المنتصرين ، والقرار الذى أدى فى نهـاية الأمر الى الحرب العـالمية الثانية حدد من البواعث الأكثر علوا وحساسية ـ فى الأيام القليلة التى سبقت نهـاية الحرب الأولى ، وكان هذا هو القرار الخاص بمنح هدنة للحكومة الالمانية واتخذ القرار أولا بناء على أسس حربية ، وكان الجيش الألمانى قد هزم فى الميدان • كان يتراجع ولكنه لم يستأصل أو يحطم • وكان الجيشان الانجليزى والفرنسى بالرغم من انتصارهما قريبين كذلك من الانهاك ، وكان من الصعوبة تقدير مدى انهيار الجيش الألمـانى من بعيد • وبقى برشينج القائد الأعلى الامريكى الوحيد بغير مخاوف من حملة متجددة ، فقد ظلت قواته دون مساس لم يسفك منها قطرة دم واحدة • كان يتمنى أن يقتحم برلين • وكان يريد أن يضـيف سحرا جديدا لنفســه بأن الامريكيين فى ١٩١٩ وقد حملوا وطأة الحرب فى استطاعتهم أن يملوا ما يريدونه على الحلفاء بالقوة نفسها التى سيملون بها على ألمانيا بطريقة لم تكن فى مقدورهم أن يفعلوها فى سنة ١٩١٨ • ومهما يـكن من شيء فقد كان هذا مدعاة لأن تتعجل الدول الكبرى الأوربية انتهاء الحرب طالما كان فى امكانهم أن يفعلوا ذلك •

ولم يكن للأمريكيين أغراض حربية محددة أو مطالب اقليمية دقيقة وهذا أيضا ما جعلهم بشكل غير مألوف، أقل شـــغفا الى الهدنة • كانوا يريدون فقط تسليما من ألمانيا وبدون قيد أو شرط ، وكانوا على استعداد للاستمرار حتى يتحقق ذلك ، وكان الحلفاء أيضا يريدون هزيمة ألمانيا، ولكن كانت لهم رغبات عاجلة بالقدر نفسه • فكل من بريطانيا العظمى وفرنسا كانتا تريدان تحرير بلجيكا وكان الفرنســيون يريدون تحرير شمال شرقى فرنسا ، والانجليز يريدون نزع سلاح الأسـطول الألمانى وكان من الممكن توفير هذا بهدنة • كيف كان يمكن اذن للحكومتين تبرير مزيد من سفك الدماء أمام شعوبهم التى أنهكتها الحرب ؟ وحتى لوغضضنا الطرف عن هذا فان الهدنة كما سعت الحكومة الألمانية لعقـــدها كانت سترضى معظم الأغراض العامة للحلفاء • فلقد كانوا دائما يؤكدون أنهم لا يرغبون فى تحطيم ألمـــانيا ، وانهم كانوا يحاربون ليثبتوا للألمان أن الحرب العدوانية لا يمكن أن تنجح ، ويمكن القول بأن هذا البرهان قد أعطى الآن ، كان من الواضح بالنسبة للحلفاء وللقادة الألمان العسكريين أن ألمانيا قد هزمت ولم يظهر الا أخيرا فقط ان هذا لم يكن واضحا تماما

بالنسبة للشعب الألماني • وبدا – نوعا ما – في نوفمبر سنة ١٩١٨ أن الشعب الألمانى أعان على انهاء الحرب • كان الحلفاء يدعون دائما أنهم كانوا يحاربون الامبراطور الألمانى ومستشاريه العسكريين وليس الشعب الألمانى بالرغم أن ذلك لم يكن بأجماع الآراء • أما الآن فقد أصبحت ألمانيا مملكة دستورية ثم أصبحت جمهورية قبل توقيع الهدنة • كانت الحكومة الألمانية ديمقراطية واعترفت بالهزيمة ، وكانت على استعداد للتسليم بكل فتوحات ألمانيا ، وقبلت ، كأساس للسلام فى المستقبل ، المبادىء المثالية التى وضعها الرئيس ولسون فى أربعة عشر مبدأ – تلك المبادىء التى قبلها الحلفاء أيضا ، وان كان بتذمر وبتحفظين • وبذلك تمت مناقشة كل شىء في جانب الهدنة ، وقليلا مما فى غير صالحها •

كانت الهدنة شيئا أكثر من مجرد وقف القتال • ووضعت شروطها بعناية لتأكيد أن ألمانيا لن تستطيع استئناف القتال • وكان على الألمان أن يسلموا كميات ضخمة من مواد الحرب وأن يسحبوا قواتهم الى ما بعد الرين ، وان يسلموا أسطولهم على سبيل التحفظ • واحتل الحلفاء الضفة اليسرى من الرين ورءوس الكبارى وراءه • ونجحت هذه الشروط فى تحقيق أهدافها ، ففى يونيو سنة ١٩١٩ عندما كان الألمان يناقشون توقيع معاهدة الصلح ، اضطر قائدهم الأعلى الى الاعتراف رغم ما عرف عنه من عناد بأن استئناف الحرب كان مستحيلا ، ولكن كان للهدنة جانب آخر فقد ربطت الألمان بالحاضر المباشر وربطت الحلفاء بالمستقبل • كانوا حريصين على تأكيد أن الأمة الألمانية اعترفت بالهزيمة ، ولهذا انتهت الهدنة على يد ممثلين للحكومة الألمانية وليس ببعثة عسكرية – اعترف الألمان بغباء بالهزيمة وفى مقابل ذلك – وبدون تقدير فى الأغلب – اعترف الحلفاء بالحكومة الألمانية • وقد يحاول فرنسيون عرفوا بالاقدام أن يشتغلوا فيما بعد بتهريب مذهب « الانفصال » من الباب الخلفى كما أتيح للمؤرخين المحلقين فى سماء الخيال الرثاء ، لأن أعمال بسمارك ظلت بلا حل • كان هذا بلا جدوى ، فلقد أنهت الهدنة قضية وحدة ألمانيا الى أقصى حد كانت تعنى به الحرب العالمية الأولى • فلقد تلاشت مملكة هبسبورج والامبراطورية العثمانية وظل الريخ الألمانى على ظهر الوجود • وأكثر من هذا فان الحلفاء لم يعترفوا بالريخ الألمانى فحسب ، وانما أصبح استمرار وجوده الآن ضروريا لهم اذا ما رئى الابقاء على الهدنة واضطر الحلفاء الى التحول دون قصد واع الى حلفاء للريخ ضد أى شىء يهدد بتحطيمه ضد التذمر الشعبى ، وضد التفرقة ، وضد البلشفية •

ونفذ هذا أيضا ـ الى مدى أبعد بموجب معاهدة الصلح بلا تعمد ٠ واحتوت المعاهدة على كثير من المواد القاسية ـ أو هذا هو ما بدا لمعظم الألمان ٠ وتم تقبل الألمان لها ولكن بتذمر وبلا قابلية ، وبعد جدال عما اذا لم يكن من الأفضل رفض التوقيع ٠ وتم قبولها وبنيت الموافقة بسبب ضعف الجيش الألمانى والارهاق الذى أصاب الشعب الألمانى وضغط الحلفاء بسد الطريق ، وليس بسبب أى اقتناع بأن الشروط عادلة أو فيها شيء من التسامح ، وبالرغم من هذا قبلت الحكومة الألمانية المعاهدة ، وبعملها هذا ، حققت مكاسب ذات قيمة ٠ لقد رسمت المعاهدة بحيث تضمن عدم وقوع عدوان ألمانى جديد على أنه من غير المستطاع تنفيذها الا بمعاونة الحكومة الألمانية ٠ كان نزع سلاح ألمانيا حتميا ، ولكن كان يحق للحكومة الألمانية أن تنظم ذلك ـ وعلى الحلفاء فقط أن يوفدوا لجنة مراقبة لتبيان مدى تنفيذ نزع السلاح ، كما فرض على ألمانيا دفع تعويضات ٠ وهنا أيضا كان على الحكومة الألمانية أن تجمع الأموال وتدفعها ـ وعلى الحلفاء مجرد تسلمها ، وحتى احتلال أرض الرين كان يتوقف على التعاون الالمانى ، وحلت الادارة المدنية فى أيدى الألمان وكان من الممكن أن يؤدى رفض الالمان التعاون الى حالة من الخلل لم تتضمنها نصوص معاهدة الصلح ٠ وبدت المعاهدة فى الوضع المباشر فى سنة ١٩١٩ ساحقة ومنتقمة ، معاهدة املاء أو عبودية كما سماها الألمان ، وبنظرة أبعد مدى ، كان أهم مافى المعاهدة انها انتهت بألمانيا المتحدة ٠ ولم يكن على ألمانيا الا أن تحول دون تعديل المعاهدة أو أن تغيرها كلية حتى تظهر بالقوة نفسها التى كانت عليها فى سنة ١٩١٤ ٠

كانت هذه الحصيلة المصيرية الحاسمة للهدنة ولمعاهدة الصلح ٠ لقد تركت الحرب العالمية الأولى « المشكلة الألمانية » بلا حل ، بل انها فى الحقيقة جعلتها فى النهاية أكثر حدة ٠ ولم تكن هذه المشكلة هى العدوان الألمانى أو النزعة الحربية أو روح الشر لحكامها ٠ فتلك الأشياء بافتراض وجودها ٠ تزيد فقط من هول المشكلة وربما تجعلها أقل عدوانا باثارة المقاومة الأدبية فى الدول الأخرى ٠ واذن لم تكن المشكلة الأساسية أدبية وانما سياسية ٠ فمهما بلغت ألمانيا من الديمقراطية والمسالمة فانها بقيت الى حد بعيد أعظم دولة كبرى فى القارة الأوربية ، وباختفاء روسيا أضحت أكبر مما كانت من قبل ٠ كانت أكثر سكانا ـ (خمس وستين مليونا مقابل أربعين مليونا فى فرنسا ،) وهى الدولة الكبرى الوحيدة التى يمكن أقامة وزن لها ٠ وظلت كفتها هى الأرجح فى

مواردها الاقتصـادية من الفحم والصلب اللذين يصنعان معا القوة في العصور الحديثة • أما في صميم سنة ١٩١٩ فكانت ألمانيا في الحضيض وخاوية • كانت المشكلة المباشرة هي ضعف ألمانيا ولكن باعطائها سنوات قليلة من الحياة « العادية » ستصبح المشكلة مرة أخرى هي قوة ألمانيا ، وأكثر من هذا فقد تحطم التوازن القديم للقوى الذى تسبب فيما سبق في كبح جماح ألمانيا • فقد انسحبت روسيا وتلاشت والنمسا والمجر • ولم تبق الا فرنسا وايطاليا وكلتاهما كانتا أدنى في القوة البشرية وأكثر من هذا في الموارد الاقتصـادية ، وكلتـاهما انهكتها الحرب • ولو أن الحوادث تتـابعت في الطريق القـديم « الحر » لماحال شيء دون نشر الألمان لظلالهم على القارة حتى ولو لم يكونوا قد خططوا لذلك •

كان الناس يجهلون المشكلة الألمانية في سنة ١٩١٩ • وفي الحق ان قلة منهم أنكروا وجودها • وكان هؤلاء ــ وهم أقلية طفيفة في كل دولة ــ ممن كانوا يعارضون الحرب كشيء غير ضروري ، ممن كانوا دائما يعتبرون الخطر الألماني شيئا خياليا •

وحتى بعض أولئك الذين أيدوا الحرب وقادوها بعنف ، أصـبح يستهويهم الآن التفكير بأن ألمانيا قد أضعفت لزمن طويل ، وقد يلتمس العذر للسياسي البريطاني لافتراضه بأن المشكلة قد انتهت ، عندما غاص الأسطول الألماني تحت الأمواج • لقد هددت المانيا بثورة ، وهي منهكـة بسخط اجتماعي كما ساد اعتقاد عام فيما عدا بين الثوار ، ان مثل تلك التجارب تحطم قوة دولة • وزيادة على ذلك فقد افترض الذين نشأوا في ظل الاقتصاد العالمي المستقر في آخر القرن التاسع عشر بأن الدولة لن تتمكن من الازدهار بدون ميزانية متوازنة ورصيد من الذهب • وكان على ألمانيا أن تقطع شوطا طويلا في مثل هذا الاختبار وبدا من أجل صـالح الجميع أن العمل على رفعها أكثر أهمية من العمل على دحضها • وحتى أكثر الفرنسيين تشاؤما لم يزعموا أنهم مهددون بغزو ألماني جديد من حـين لآخر • وبقي الخطر في المستقبل المفترض ، ومن ذا الذى يسـتطيع أن يتنبأ بما يحمله المستقبل ؟ لقد همس بأن ما يتلو كل حرب كبرى ليس سوى هدنة وأن الدولة الكبرى المهزومة سوف تقاتل مرة أخرى ، ولكن هـذا لم يحدث الا نادرا أو حدث بذيول لا حماس فيها • ففرنسـا مثلا انتظرت أكثر من أربعـين سنة قبل أن تبدأ في التحرك ضـد اتفاقية ١٨١٥ ، وحتى في ذلك لم يتمخض التحرك عن نتائج هائلة • لقد كان تخمين أولئك الذين فكروا على هذا النحو خاطئا ، ولكن التاريخ كان في

جانبهم ، فاسترداد ألمانيا لقواتها بالرغم من تأخره ، كان شيئا لم يسبق له مثيل في سرعته وقوته •

كانت هناك طريقة بديلة لانكار المشكلة الألمانية ، فقد كان الاعتراف باعادة القوة الى ألمانيا من الممكن التسليم به ، ولكن يمكن اضافة أن هذا لايهم ، فقد كان من الممكن أن تزداد ألمانيا قوة مرة أخرى وأن تصير مرة أخرى فى مصاف الدول الكبرى، ولكن الألمان تعلموا بألا يشيدوا أهدافهم على الحرب ، واذا كان قد تسنى لهم أن يسيطروا على الدول الصغيرة فى أوربا بالقوة الاقتصادية وبالمكانة السياسية فان هذا كشىء بعيد جدا عن أن يكون اجراء خطيرا ــ كان شيئا يستحق الترحيب • ولقد أوجدت الحرب العظمى دولا قومية مستقلة فى انحاء أوربا • ومما يدعو للدهشة ــ أن هذا أصبح شيئا يرثى له كثير من المثاليين الذين كانوا ذات مرة أبطال مذهب القومية • واعتبرت الدول القومية دولا رجعية ، عسكرية ومتأخرة اقتصاديا • وبقدر اسراع ألمانيا فى جمعهم معا كلما كان ذلك أفضل لهم ، وعرض هذا الرأى من قبل الاقتصادى المستنير ج • م • كينز من كمبردج ، ولم يقف منه لويد جورج نفسه موقفا عدائيا تماما • ولم يكن أهم شىء هو منع ألمانيا من استعادة قوتها وانما التأكد من أنها ستأخذ القالب السلمى ، وكان يجب أن يؤخذ الحذر ضد المتاعب الالمانية وليس ضد عدوانها •

وفى سنة ١٩١٩ كان هذا الرأى لا يزال كامنا تحت السطح ، فقد شكلت معاهدة الصلح فى جزئها الأكبر بالرغبة فى ايجاد ضمان ضد ألمانيا• وكانت هذه هى الحد الأدنى من الحقيقة فى مواد الحدود ، وحسم هذا على أساس مبادىء العدل الطبيعى كما فسرت حينئذ ، ولم تفقد ألمانيا فقط الا الأراضى التى لم تكن تستحقها على الأساس القومى ، ولم يشك الألمان حتى من فقدان الالزاس واللورين أو شمال شليز فيج أو انهم لم يشتكوا على الأقل بصراحة • لقد اشتكوا من فقدان أراض أعطيت لبولندا ، ولكن هذه الخسارة تبعت بشكل حتمى اللحظة التى اعترف فيها بوجود بولندا وبالرغم من أن بولندا عوملت بكرم ، فان هذا نبع من المبالغة فى مطالبها القومية وليس لاعتبارات استراتيجية • وفى نقطة واحدة وقف لويد جورج فى جانب ألمانيا ضد حلفائه ، فقد اقترح الفرنسيون والامريكيون أن تضم دانزج وهى مدينة يسكنها الألمان ــ ولو أنها ضرورية من الناحية الاقتصادية لبولندا ــ أن تضم الى بولندا ، وأصر لويد جورج على أن تصبح مدينة حرة تحت اشراف مندوب سام

معين من قبل عصبة الأمم • وبهذه الطريقة الغريبة يمكن أن يكون الحزن الألمانى الذى سبب ظاهريا الحرب الثانية قد تحول فى الواقع لمصلحة ألمانيا ، وورد شرط اقليمى ذو طبيعة سلبية ضد المبدا القومى وذلك لاغراض تتعلق بالأمن ، فالجزء الذى يتكلم الألمانية فى النمسا آخر ماتبقى من مملكة هابسبورج رفض اتحاده مع ألمانيا بدون تصريح عصبة الأمم • وكان فى هذا أسى كبير لكثيرين من النمساويين بما فيهم الكوربورال الألمانى هتلر الذى كان لايزال حتى ذلك الحين مواطنا نمساويا ، ولم يكن فى هذا أسى لكثير من الألمان فى الريخ ، فلقد شبوا فى ألمانيا البسماركية أو اعتبروا النمسا دولة أجنبية • لم يكن لديهم أية رغبة الآن لاضافة مشاكلها الى مشاكلهم ، وكانت ما زالت هذه ، بصورة أكبر ، الحالة مع الشعوب التى تتكلم الألمانية فى أماكن أخرى — فى تشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا ، فقد كان من المحتمل أن يأسوا اذا ما صاروا مواطنين فى دول ذات قوميات مغايرة • وكان ألمان الريخ يعرفون القليل عنهم ويهتمون بهم بصورة أقل •

وكان هناك شرط اقليمى آخر ذو طبيعة استراتيجية بحتة فى أساسه هذا الشرط هو احتلال قوات الحلفاء أراضى الرين • لقد اقترح الانجليز والأمريكان ذلك كمعيار وقتى للأمان على أن يستمر لمدة خمسة عشر عاما فقط ، وأراد الفرنسيون له أن يكون دائما ومنذ أن فشلوا فى الحصول على ذلك بموجب معاهدة الصلح ، أملوا أن يحققوا النتيجة نفسها بربط الجلاء بتعويضات مجزية يدفعها الألمان وأصبحت التعويضات هى المشكلة المسيطرة للسنوات القليلة التالية مشكلة جامحة لدرجة أنهما أصبحت مشكلتين سرعان ما أصبحت ثلاثة فى حقيقة الأمر • ونبعت التعويضات ظاهريا من المطلب المعقول بأنه يجب على الألمان أن يدفعوا نظير التلف الذى سببوه • وعلى كل فان الفرنسيين عوقوا أية تسوية على أمل أن يبقوا فى الرين وأضافت ديون الحرب بين الحلفاء عاملا أبعد من الارتباك ، فعندما طولب الانجليز بتسديد ديونهم للولايات المتحدة أعلنوا فى ١٩٢٢ بأنهم سوف يطلبون من حلفائهم ما يكفى لمواجهة الالتزامات الأمريكية • واقترح الحلفاء من جانبهم أن يدفعوا دينهم الى بريطانيا العظمى مما يأخذونه من ألمانيا كتعويضات • وهكذا وصل القرار النهائى دون التفات الى الألمان ، لقد وقعوا المعاهدة وقبلوا الالتزام ، وهم وحدهم الذين يستطيعون أداءه ، ان فى استطاعتهم أن يوافقوا على دفع التعويضات، وعن هذا السبيل يمكن تحقيق عالم يرفرف عليه السلام ، ويمكن الجلاء

عن الرين ، ويمكن أن يفقد موضوع التعويضات حدته ، والدليل لذلك أنهم يستطيعون رفض الدفع أو يحتجون بعدم قدرتهم على ذلك ، وعلى هذا فان الحلفاء سيواجهون بسؤال :

ما هو الضمان الذى يملكونه غير توقيع الحكومة الألمانية ؟

وأثير السؤال نفسه بالنسبة لنزع السلاح الألمانى ، ولم يهدف هذا الا لدواعى الأمن وليس لشىء آخر سواه بالرغم من الملحق الذى وضع لامكان نزع السلاح من الآخرين . ان نزع السلاح الألمانى سوف يكون حقيقة اذا ما أراد الألمان له ذلك . وماذا لو لم يحدث هذا ؟ سيواجه الحلفاء مرة أخرى بمشكلة الالزام . لقد كان للألمان تلك الميزة التى بلا حدود وهى أنهم يستطيعون أن يفوضوا نظام الأمن ضدهم فقط بالتوقف عن عمل أى شىء ، بعدم دفع التعويضات ، وبعدم نزع السلاح . كان فى استطاعتهم أن ينهجوا بصورة طبيعية كأية دولة مستقلة ، وكان على الحلفاء أن يقوموا بمجهود واع ، ويستعملوا وسائل « مصطنعة » اذا ما أريد افساح المجال أمام نظام الأمن لكى يبقى ، ويتجه هذا فى عكس المفهوم السليم للجنس البشرى ، فلقد نشب القتال لاقرار الأمور ، وما هى الفائدة منها اذا ماكان يجب الآن عقد محالفات جديدة ، وتسلح أكثر وتعقيدات دولية أعظم مما كان قبل أن تبدأ الحرب ؟ ليس لهذا السؤال جواب سهل ، والفشل فى الاجابة عليه يوضح الطريق الى الحرب العالمية الثانية .

لقد كان ينقص معاهدة فرساى الصلاحية المعنوية منذ البداية . كان يجب أن تنفذ ، ولم يكن فى امكانها بحالتها الراهنة أن تنفذ نفسها. لقد كان هذا حقيقة واضحة بالنسبة للألمان . ولم يقبل أى ألمانى المعاهدة كتسوية عادلة بين متساويين « بدون منتصرين أو مهزومين » ، ولقد أضمر كل الألمان أن يتخصلوا بأى طريقة ــ من بعض الأجزاء من معاهدة الصلح بمجرد أن يكون من المناسب عمل هذا . واختلفوا بالنسبة للوقت ، فالبعض أراد رفضها فورا ، والبعض الآخر (ربما الأغلبية) رغبوا فى ترك هذا لجيل تال على أن التوقيع الألمانى فى حد ذاته لم يكن يحمل أى ثقل أو التزام . وكان هناك احترام قليل للمعاهدة فى دول أخرى ، فالناس فى سنة ١٩١٩ كانوا طموحين دائما لأن يفعلوا شيئا أروع من صانعى السلام فى فيينا منذ قرن مضى ، وكانت أكبر تهمة ضد مؤتمر فيينا هى محاولته أن يفرض « نظاما » على المستقبل لقد أحرزت أعظم الانتصارات التحررية فى القرن التاسع عشر ضد معاهدة النظام هذه ،

كيف يستطيع أناس متحررو العقول أن يدافعوا عن معاهدة نظام جديد وعامل جديد من التوتر ؟ ويدافع بعض المتحررين الآن عن « نظام » ولكنه أحد الأنظمة المتلفة تماما عن الأمان فى معاهدة الصلح ، انهم وقد دافعوا من قبل عن الاستقلال القومى للجميع تأرجحوا حول الاعتقاد فى نظـــام عالمى اسمى ، نظام عصبة الأمم · لم يكن هناك مجال فى هذا النظـــام للتمييز بين الأعــداء السابقين والحلفــاء السابقين ، وكان على الجميع أن يلتئموا فى نظام لتأكيد وتنفيذ السلام · ووافق الرئيس ويلسون نفسه ، وهو الذى أسهم بقدر ما أسهم به أى فرد آخر فى اعداد مشروع معاهدة الصلح ، على المواد الموجهة ضد ألمانيا لا لشىء الا لاعتقاده بأن عصبة الأمم سوف تتخلص من تلك المواد أو تجعلها غير ذات موضوع بمجرد تكوينها·

وجرى تنفيذ معاهدة السلام ضد الصعوبات الفعلية البعيدة تماما عن تلك الاعتراضات المعنوية ، فالحلفاء استطاعوا أن يهددوا ، وجاء كل تهديد أقل فاعلية وأقل ثقلا عن سابقه ، وكان التهديد باستمرار الحرب فى نوفمبر ســـنة ١٩١٨ أسهل من التهديد بتجددها فى يونيو ســـنة ١٩١٩ · وكان التهديد بتجددها فى يونيو سنة ١٩١٩ أسهل منه فى يونيو سنة ١٩٢٠ ، وأسهل حينذاك منه فى سنة ١٩٢٣ ، وأخيرا فانه كان من المستحيل فى الواقع التهـديد بتجددها كلية · فقد تزايد عنـاد الناس لأن يتركوا بيوتهم لكى يقاتلوا من أجل حرب سبق أن أعلن لهم أنهم كسبوها ، كما تزايد عناد دافعى الضرائب فى الاحجام عن الدفع من أجل حرب جديدة وكانوا لا يزالون يعانون من تكاليف الأخيرة ، والى جانب هذا كان أى تهديد يتحطم أمام التساؤل : اذا لم يكن فى الامكان ضمان « تسليم بدون قيد أو شرط » والحرب دائرة الرحى ، فكيف يمكن تعقل استئنافها من أجل موضـــوع أقل أهميـــة ؟ من الممكن اتخـــاذ « رهائن ايجابية » كاحتلال الروهر أو مناطق صناعية ألمانية أخرى · ولكن ما الشىء الذى يمكن تحقيقه ؟ ليس الا توقيعا آخر من الحكومة الألمانية قد يحترم أو لا يحترم كما حدث من قبل ، ولابد للقوى المحتلة من أن ترحل ان آجلا أو عاجلا · وعندئذ يعود الوضـــع الســـابق · ويبقى القرار فى أيدى الألمـــان ·

كانت هنـــاك مقاييس أخرى للالزام أفضـــل من استئناف الحـــرب واحتلال الأراضى الألمانية · كانت هـــذه المقاييس اقتصـــادية ، نوعا من الحصار الذى كان من المعتقد أنه ساهم بطريقة حاسمة فى هزيمة ألمانيا · فقد ساعد الحصار على دفع الحكومة الألمانية لقبول معاهدة الصلح فى يونيو

سنة ١٩١٩ • ولكن بمجرد فك هذا الحصار فانه لم يكن من المستطاع أن يعاد بعنفه نفسه ابان الحرب ، اذا كان الأمر هو الخوف فحسب من احتمال أن يكون شديد الفعالية ذلك لأن ألمانيا لو ترديت فى هوة الى الفوضى الاقتصادية وانهارت حكومتها فمن ذا الذى يقوم اذن بتنفيذ شروط المعاهدة ؟ وأصبحت المفاوضات بين ألمانيا والحلفاء منافسة فى الابتزاز ؛ شكلا من قصة تثير الانفعال فى أحد أفلام العصابات • وهدد الحلفاء أو بعض منهم أن يخنقوا ألمانيا حتى الموت ، وهدد الألمان بالموت • ولم يجرؤ أحد الجانبين أن يستمر فى تهديده الى نهاية المطاف • وتضاءلت التهديدات شيئا فشيئا وحل الاقتناع محلها ، وعرض الحلفاء أن يعيدوا ألمانيا الى وضعها السليم فى العالم اذا ما أجيبت مطالبهم ، وأجاب الألمان انه لن يكون هناك عالم يرفرف عليه السلام ما لم تخفف هذه المطالب • ولقد كان هناك اعتقاد عالمى ، ما عدا فى الدوائر البلشفية ، أن المستقبل الآمن الوحيد للجنس البشرى يكمن فى العودة الى نظام اقتصادى متحرر لسوق عالمى حر ، كان قد غض الطرف عنه مؤقتا كما افترض خلال الحرب • وكان لدى الحلفاء سلاح ثمين للمساومة بعرضهم السماح لألمانيا بالعودة الى هذه السوق العالمية • ولكن الألمان أيضا كان لديهم السلاح نفسه لأنه من غير المستطاع استعادة عالم مستقر بدونهم • وهكذا اقتيد الحلفاء عن طريق سياستهم الخاصة الى معاملة ألمانيا على قدم المساواة ، وعادوا بهذا الى المشكلة الصعبة القديمة ، فاذا ما وضعت ألمانيا على قدم المساواة مع الآخرين فستصبح أكبر دولة كبرى فى أوربا ، واذا ما اتخذت تحفظات خاصة ضدها فلن تلقى معاملة مساوية •

وكان كل ما يريده الحلفاء حقيقة هو معاهدة نظام موجه ضد ألمانيا يقبله الألمان طوعا • وانه لمن الغريب أن يعتقد انسان ولو لوهلة واحدة أن هذا ممكن ، ولكنها كانت لحظة فى التاريخ تطرقت فيها المجردات بضعف الى العلاقات الدولية ، فالملكيات القديمة قيمت المعاهدات على أساس مثل هذه الحقوق الممنوحة ، ولم ينزعجوا مطلقا بمعاهدات تتضمن التزامات ، ويعزى السلوك الجديد الى ما يسمى « بطهارة العقد المبرم » وهو العنصر الرئيسى فى الحضارة البورجوازية • ان الملوك والأرستقراطيين لا يؤدون ديونهم ، ونادرا ما يحفظون كلمتهم ومن الممكن أن ينهار النظام الرأسمالى ما لم يحترم القائمون عليه ــ وبلا قيد ــ أبسط الايماءات العرضية ، وكان من المتوقع أن يرعى الألمان الآن الصفة الأخلاقية نفسها ــ لقد كانت هناك أسباب أكثر واقعية للاعتماد على المعاهدات ، وكانت

أكثر هذه الأسباب العملية هي العوز لأى شيء آخر • وهنا يكمن التفاوت الكبير بين فترة ما بعد الحرب الأولى والأحقاب السابقة ذات الطبيعة المماثلة • وكانت مشكلة احدى الدول الكبرى في أوربا ذات القوة المميزة عن الباقية . هي بلا شك مشكلة جديدة ، وعلى العكس من ذلك فانها وقعت مرة بعد أخرى خلال الأربعمائة سنة الأخيرة ، ولم يكن الناس يعتمدون على مواد الاتفاقيات أو وعود « الأقوى » بالا يستخدم قوته • وانجذب الضعفاء ـ الدول الكبرى الأكثر مساحة ـ الى بعضهم البعض بلا وعى فى أغلب الأحيان ، ولقد عقدوا أحلافا واتحادات هزمت المعتدى أو عوقته • هذا ما حدث ضد أسبانيا فى القرن السادس عشر وضد فرنسا البوربونية فى السابع عشر وضد نابليون فى التاسع عشر • وهذا ما حدث نفسه بالنسبة لهذا الأمر فى الحرب العالمية الأولى •

وفشل هذا النظام القديم المستخدم فى أن يعمل بعد سنة ١٩١٩ • وانحل الائتلاف الكبير وكان هناك سبب له اعتبار كبير فى هذا • فبالرغم من أن المنتصرين عملوا وفقا لمبدأ توازن القوى ، فقد أخجلهم عمل هذا • واعتقد الكثيرون أن توازن القوى هو الذى سبب الحرب ، وأن التمسك به سوف يسبب حربا أخرى ، وعلى مستوى عملى أكثر فان توازن القوى يبدو غير ضرورى ، لقد كان الحلفاء فى ذعر شديد ، ولكنهم حققوا أيضا نصرا كبيرا ، وانزلقوا بسهولة فى افتراض أنها الخاتمة • ان الذين كسبوا حربا يجدون أنه من الصعوبة أن يتصوروا أنهم يمكن أن يخسروا التالية • وشعرت كل الدول الكبرى المنتصرة بأنها حرة فى أن تتبع سياستها الخاصة وأن تتبع رغباتها ، ولم يحدث هذا ليؤدى الى الاتفاق ، ولم يكن هناك رفض متعمد بالنسبة للمشاركة أثناء الحرب ، وباعدت الحوادث بين الحلفاء كل فى ناحيته ولم يبذل واحد منهم جهدا كافيا للحيلولة دون التمادى •

ولم تستمر جبهة الحلفاء المتحدة طويلا بعد مؤتمر السلام ، كما لم تستمر فى الواقع بدون تحد أثناء المؤتمر نفسه ، فقد ضغط الفرنسيون من أجل الأمن ، أما الأمريكيون ، والانجليز الى حد ما ، فقد كانوا ميالين الى الاعتقاد بأنهم أدوا واجبهم • ودبر المنتصرون أمرهم على الموافقة على معاهدة سلام ، ولكن الرئيس ويلسون فشل فى الحصول على تأييدها من مجلس الشيوخ الأمريكى ، وعلى الرغم من أن هذه كانت ضربة ضد التنظيم الجديد الا أنها لم تكن ضربة حاسمة كما فسر فيما بعد • فقد حددت العوامل الجغرافية العلاقات الأمريكية بأوربا بأكثر مما حددتها الظروف

السياسية • فمهما يكن من شأن تسويات المعاهدة فان الولايات المتحدة كانت بعيدة عن أوربا عبر المحيط الأطلنطى وكان من الممكن أن تسحب القوات الأمريكية من أوربا حتى لو صدق مجلس الشيوخ على معاهدة فرساى وكما حدث فان بعضا منها بقى فى الرين • ولا شك أنه مما كان سيزيد من هيبة عصبة الأمم أن تكون الولايات المتحدة عضوا بها ، ولكن السياسة البريطانية فى جنيف ارتأت بأن عضوية دولة انجلوسكسونية ثانية لا يغير بالضرورة العصبة الى الادارة الفعالة للأمن الذى يريده الفرنسيون وأعطيت الكثير من التفسيرات فى كل من سنة ١٩١٩ وما بعدها للفشل الأمريكى لانجاز معاهدة الضمان التى أقنع ويلسون ولويد جورج بها كليمنصو لرفض تبعية الرين ، ان هذه المعاهدة العقيمة لم تقدم كذلك سوى ورقة ضمان ، لم يكن من حق أية قوات أمريكية أن تبقى فى فرنسا ، ولا قوات بريطانية أيضا ، وبتخفيض كل من القوات البريطانية والأمريكية الى مستوى زمن السلم لم تكن هناك قوات لارسالها فى حالة الخطر ، وأشار برياند الى هذا فى سنة ١٩٢٢ عندما أحيا لويد جورج الاقتراح ، بالرغم من عدم المشاركة الأمريكية وقال : ان الألمان سوف يكون لديهم الوقت الكافى للوصول الى باريس وبوردو قبل أن تصل القوات البريطانية لايقافهم • وكان هذا هو ما حدث تماما فى سنة ١٩٤٠ بالرغم من التحالف الانجليزى ، ولم يكن الضمان الانجليزى ــ الأمريكى حتى اذا ما أنجز ــ أكثر من وعد بتحرير فرنسا اذا ما غزاها الألمان ، وهو وعد أنجز فى سنة ١٩٤٤ حتى بدون معاهدة • لقد ضعفت الولايات المتحدة بناء على وجهة نظر جغرافية وسياسية من أن تنضم الى نظام أمن أوربى وكان أكثر ما يتوقع منها هو أن تتدخل ببطء اذا ما فشل نظام الأمن هذا •

ولم يكن الانسحاب الأمريكى مطلقا ، فبالرغم من فشل الولايات المتحدة فى تأييد معاهدة فرساى كان الأمريكيون يريدون أوربا التى يرفرف عليها السلام ونظاما اقتصاديا مستقرا • وكانت الدبلوماسية الأمريكية نشطة بشكل مطلق فى المسائل الأوربية ، وكان المشروعان اللذان دبرا لدفع ما تتطلبه الاصلاحات الألمانية ــ مشروع داوس ومشروع يونج ــ تحت الاشراف الأمريكى وحمل كل منهما اسما لرئيس أمريكى ، وعوقت الديون الأمريكية الاقتصاد الألمانى سواء كان هذا خيرا أم شرا فى حين أن الاصرار الأمريكى على دفع الحلفاء لديون الحرب عقد مشكلة التعويضات ، وشارك ممثلو أمريكا فى حضور المحادثات التمهيدية لنزع

السلاح • وشكل الأمريكيون « الرأى العام العالمى » الذى أديرت تلك المناقشات الاقتصادية والسياسية على هذا النحو الواسع لمنفعته كما جعل المؤرخون الأمريكيون حملة « جريمة الحرب » ضد ألمانيا أكثر فاعلية مما لو تركت فى الأيدى الألمانية وحدها • ولم تستطع الولايات المتحدة أن تعزل نفسها عن أوربا برفض معاهدة فرساى فقط ، لقد حددت مشاركة أمريكا فى الحرب الى مدى واسع هزيمة ألمانيا ، وبالمستوى نفسه حددت السياسة الأمريكية بعد الحرب الى مدى بعيد استعادتها لقوتها •

ان قوة الأمريكيين جعلتهم يتنكبون الطريق السليم ، فقد بدءوا من الفرض الصحيح ، بأن ألمانيا بعد هزيمتها ليست خطرا عليهم ، واستمروا من هذا الى الفرض الخاطىء بأنها لن تستطيع أن تشكل خطرا على دول أوربا •

ولقد كان فى الامكان أن تكون السياسة الامريكية أقل أهمية اذا ما كانت الدول الأوربية الكبرى ذات عقلية واحدة • كانت فرنسا وايطاليا وبريطانيا العظمى اتحادا هائلا بالرغم من الملاحظات ، التى نبخسهم قيمتهم ، مما قيلت عنهم فيما بعد • لقد حافظوا على مراكزهم ضد ألمانيا بالرغم من أنهم لم يقرروا خطة لهزيمتها • وكانت ايطاليا أضعف الثلاثة فى كل من الموارد الاقتصادية والالتئام السياسى ، ولقد تباعدت الشقة بينها وبين حلفائها بدافع الحنق من أنها لم تتلق نصيبها من مغانم الحرب• ففقدت الجزء الخاص بها فى الامبراطورية العثمانية وخدعت ــ بعد شكاوى عدة ــ بمستعمرة لا قيمة لها • وفى الجانب الآخر تمتعت بأمن خادع ، عزل عن أوربا ، حولها غالبا الى جزيرة ، وكانت عدوتها هى (النمسا ــ المجر) وليست ألمانيا ، وعندما تفتت مملكة هابسبورج كان نصيبها ستارا من الدول المجاورة الصغيرة • وبدت « المشكلة الألمانية » بعيدة عنها ، بل ان الساسة الايطاليين رحبوا حتى بالارتباك الذى سببته هذه المشكلة لفرنسا • كانوا يستغلون الارتباك أحيانا ، وأحيانا أخرى اتخذوا موقف القضاة المنصفين بين فرنسا وألمانيا ، وعلى كل لم يكن لدى ايطاليا الا القليل الذى تساهم به فى نظام الأمن ، وحتى هذا الشىء القليل لم تساهم به •

كان من الممكن أن يصبح غياب ايطاليا أقل قيمة لو أن انجلترا وفرنسا فكرتا تفكيرا متشابها • هنا كان الانهيار النهائى والحاسم لائتلاف الحرب ، لقد بقيت الدولتان مرتبطتين ارتباطا وثيقا ، ولم يكن الحديث

العرضى فى انجلترا بأن فرنسا كانت تهدف الى سيطرة نابليونية جديدة على أوربا ، أو سيطرة حققتها ذات مرة ، ليس هـذا الهـدف الا انحرافا مؤقتا • وبافاضة أوسع فان الدولتين استمرتا فى العمل معا على أنهما الدولتـان « الديمقراطيتـان الغربيتـان » والوكلاء عن أوربا والمنتصرون المتضائرون فى الحرب العظمى • وكان الاتحاد اذا ما حدث وشيكا جدا ، وذلك لأن كلا منهما دبرت أمرها لاعاقة سياسـة الدولة الأخـرى ، فقـد شهرت انجلترا بألمانيا بصورة وحشية أثناء الحرب ، وأكدوا بلا خداع بأنه كان صراعا من أجل البقاء نفسه • ولقد بدا لهم الآن أنهم كسبوا الصراع ، فلقد اختفى الأسطول الألمانى وانتهى التـحدى الاستعمارى الألمانى ، أما بالنسبة للشئون الاقتصادية فان الانجليز كانوا أكثر اهتماما باعادة ألمانيا من تحطيمها ، وأوصى رؤساء الوحدات المقاتلة بأنهم ليسوا فى حاجة الى توقع حرب أكبر لمدى عشر سنوات على الأقل ، وكانت هذه التوصية تتجدد سنويا حتى سنة ١٩٣٢ ولقد عمل الشىء الكثير بالنسـبة لنزع السلاح الانجليزى «على سبيل المثال» • واذا كان هذا يعنى نزع السلاح الى ما هو دون حد الأمن القومى، كما كان يعتقد عندئذ، فان شيئا من هذا لم يحدث• كان هناك نزع للسلاح الانجليزى من الناحية الاقتصادية ، وكان هناك نزع للسلاح ناشىء عن الاهمال والحكم الخاطىء ولكن لم يكن هناك نزع للسلاح كمبدأ ، بل على العكس فان الانجليز افترضوا أنهم أكثر أمنا مما كانوا ، ولقد حل الانجليز جيشهم الضخم بعد الحرب العظمى على أساس الاعتقاد بأنهم لن يضطروا مطلقا لخوض غمار حرب أخرى • وعندما فشلوا بعد ذلك فى انشاء قوات مسلحة ، كان هذا على أساس نصيحة أعظم الثقات العسكريين احتراما للذين تمسـكوا بالرأى القائل بأن الدبابات كانت ذات فائدة أقل من « الخيول » • وكانت سيطرة الأسطول الانجليزى فى المياه الأوربية أعظم مما كانت قبلا ، وأعظم بالتأكيد منها قبل سنة ١٩١٤ • واختفت كل الاساطيل الأخرى ما عدا الأسطول الفرنسى ، وكان مما لا يتصوره العقل أن تشتبك بريطانيـا العظمى وفرنسـا فى حـرب ضاربين عرض الحائط بالمحادثات الثنائية المشتركة بينهما من آن لآن •

واذا ما كان « الأمن » يعنى ببساطة التحرر من الغزو اذن لبـدت الجزر البريطـانية آنذاك أكثر أمنـا من أى وقت فى تاريخها • وتأرجح الوجدان الانجليزى مرتدا الى العزلة كما كان يحدث دائما بعد كل حـرب كبرى • لقد أصبحت ترتاب فيما لو كانت هناك فائدة من الحرب وأصبحت مستاءة من الحلفاء السابقين وصديقة للعدو السابق • ولم يذهب الساسة

البريطانيون الى هذا المدى فهم لا يزالون يرغبون في التعاون مع فرنسا ، واعترفوا بأن أوربا المستقرة التي يرفرف عليها السلام في حد ذاتها فائدة لبريطانيا ، ولكن هذا لم يجعلهم مستعدين لتنفيذ كل ادعاء فرنسي ضد ألمانيا • ومالوا الى اعتبار أي حديث عن الخطر الألماني رومانسية تاريخية ، وكانت تلك هي الحقيقة في ذلك الحين •ولم تبد الفكرة المتسلطة على فرنسا للأمن بهذه الصورة المبالغ فيها شيئا بعيد الخطأ . وحتى أولئك الساسة البريطانيون الذين فكروا في تهدئة هذا الضغط بشكل من الكلمات لم يفترضوا أنه يجب عليهم أن يترجموا كلماتهم الى أعمال • وأكثر من هذا لم تقدم الوعود البريطانية لاعانة فرنسا كشيء متمم للمقاييس الأخرى في الأمن ، فقد رسمت على أنها بديل باعتقاد أن الفرنسيين سيتركون المقاييس الأخرى تمر • وتأمل الانجليز بعمق في أخطاء سياستهم في سنوات ما قبل الحرب ، وكان طبيعيا أن يتمسك البعض بأن بريطانيا العظمى كان يجب عليها ألا تتورط في أمور القارة كلية ، ولكن كثيرا من أولئك الذين اعتقدوا بأنه كان يجب الاشتراك في الحرب عندما قامت ، اعتقدوا أيضا بأنه كان من الممكن تجنبها اذا كانت بريطانيا قد أقامت حلفا دفاعيا رسميا مع فرنسا ، وكان من الممكن أن ينذر هذا الألمان بأن انجلترا ستقاتل ، وأن ينذر فرنسا أيضا ثم الروس بشكل أكبر انها لن تقاتل في « معركة شرقية » • والآن بعد الحرب ، فان الاتحاد مع فرنسا يعبر عن شكل معدل من العزلة • وبريطانيا بربط نفسها بالدفاع عن جبهة فرنسية انما تبين بأنه ليس لديها أي تعهد أبعد من هذا •

وعلى هذا فان السياسة البريطانية ، حتى وهي في أقصى تعاون لها ، لم تعمل ضد استرداد ألمانيا لقوتها ، وانما اقتصرت على تقديم نوع من الضمان هو نتائج هذا الاسترداد ، وكان ثمن المعونة البريطانية أن فرنسا كان يجب عليها رفض كل المكاسب شرقي الرين ، وبذلك يكتمل الموقف لألمانيا كدولة أوربية كبرى .وكانت تلك الايعازات نفسها قد جاءت من لندن قبل سنة ١٩١٤ ، وكان على فرنسا آنذاك أن تعمل في وقت واحد عدة أشياء فالاتحاد مع بريطانيا العظمى لم يكن ليقدم الا بعض المساعدة المحدودة اذا ما اعتدى فعلا على فرنسا وقدمت في النهاية مساعدة فاقت كثيرا ما كان متوقعا عندما وقع الاعتداء ، ولكن هذا الاتحاد كان ثانويا في السياسة الفرنسية حتى اشتعال الحرب • وكان التحالف مع روسيا هو الذي أعطى فرنسا استقلالها كدولة كبرى ، وشطر آليا قوة ألمانيا • وحتى

فى سنة ١٩١٤ فان القادة العسكريين الفرنسيين علقوا بحق أهمية على القوات الروسية الراجعة فى شرق بروسيا أكبر منها على البعثة العسكرية البريطانية الهزيلة على الطرف الأيسر من فرنسا • واستمر التحالف الروسى يعطى فرنسا استقلالا وعظمة وهميين حتى سنة ١٩١٧ • عندئذ هزمت روسيا وانسحبت من الحرب وانهارت السياسة الفرنسية الأوربية وكسبت الحرب فى الغرب فقط ـ أما الشرق فقد تحرر نتيجة لهذا وليس نتيجة لارتباطه به ، ووجدت فرنسا نفسها أضعف الشركاء فى الديمقراطيات الغربية •

ورحب بعض الساسة الفرنسيين بهذا التطور ، وكان كليمانصو ـ بصفة خاصة ـ يكره دائما التحالف مع روسيا باعتبارها أجنبية بالنسبة للديمقراطية الفرنسية ولما فيه من توريط لها فى معارك البلقان • كان قد حاول أن يمنع التحالف من أن يتم واغتبط عندما انهار ، ولم تنبع عداوته الشديدة للبلشفية من امتعاضه من عزلة روسيا فحسب وانما كانت أيضا تأكيدا بأنه لن يعاد تجديد التحالف ؛ فقد كان كليمانصو يعرف انجلترا والولايات المتحدة أكثر من معظم الفرنسيين وكان يعتقد بشدة أن مستقبل كل من فرنسا والبشرية يكمن فى الاتحاد مع الدول الكبرى الغربية • وأعلن للمجلس فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٨ « سأبذل كل تضحية من أجل هذا الاتفاق » ، وكان هذا هو ما فعله • ولم تتم الموافقة على معاهدة فرساى الا لأن كليمانصو كان السياسى الأثير بين كل الساسة الفرنسيين لدى بريطانيا العظمى والولايات المتحدة • وكان بعض القادة الفرنسيين الآخرين أقل فردية فى التفكير وظلت قلة من الثرثارين من أقصى اليمين على كراهيتها القديمة لانجلترا ، ولم يكره أحد فى الواقع أمريكا • ولكن الكثيرين ارتابوا فى دوام الدولتين الكبيرتين ، الانجلو ساكسونيين ، وكان البعض يحلم ، وقد أسكرهم النصر فى اعادة فرنسا الى وضعها المسيطر على أوربا الذى كانت تتمتع به فى ظل حكم لويس الرابع عشر أو حتى فيما قبل عهد بسمارك وكان أقل الأشياء المتواضعة المسلم بها هو أن الحلفاء الشرقيين سيعيدون تفوق ألمانيا فى القوة البشرية واعادة وضع فرنسا السابق كدولة عظمى •

ان الحليف الشرقى لا يمكن أن يكون روسيا ، وكانت البلشفية هى السبب الظاهرى لذلك ، لقد اقحمت الدول الكبرى الغربية نفسها فى حروب التدخل ضد الحكم البلشفى حتى فى أثناء الحرب ضد ألمانيا ثم

شجعوا بعد ذلك « الحصار الصحى » للدول الواقعة على الحدود الغربية لروسيا، واستسلموا أخيرا لسياسة عدم الاعتراف التى تدعمت معنويا حتى عندما فتح الباب تدريجيا أمام شيء من النشاط التجارى الروسى • وفى الجانب الآخر نبذ القادة السوفييت عندما استولوا على الحكم فى نوفمبر سنة ١٩١٧ ، ظاهريا مودة عالم الرأسمالية الفاسد ، وربطوا كل شيء بقيام ثورة عالمية •

وظلت الدولية الثالثة أكثر أهميـــة فى نظرهم من وزارة الخارجيـة السوفيتية حتى عندما فشلت هذه الثورة فى أن تقوم • واستمرت العلاقات بين الاتحاد السوفيتى والدول الكبرى الغربية من الناحية النظرية نوعا من الحرب المؤجلة بل ان بعض المؤرخين اعتبروا تلك الحرب الخفية مفتاحا لمرحلة الحرب الداخلية • وادعى المؤرخون السوفييت أن بريطانيا العظمى وفرنسا رغبتا فى الابقاء على ألمانيا من أجل حرب صليبية أوربية ــ حرب تدخل جديدة ضد الاتحاد السوفييتى ، وادعى بعض المؤرخين الغربيين أن قادة السوفييت يثيرون دائما المشاكل فى الشئون الدولية بأمل اثارة الثورة ، هذا هو ما كان يجب أن يفعله كل فريق اذا ما التزم بمبادئه ومعتقداته بصورة جدية ، ولم يفعل أحدهما هذا • فلقد اعترف البلاشفة ضمنا بادراكهم للأمن وعدم تجاوبهم مع بقية العـــالم عندما انتقلوا الى « الاشتراكية فى دولة واحدة » ، ولم يأخذ الساسة الغربيون أبدا الخطر البلشفى بقدر من الجدية يحملهم على القيام بحروب تدخل جديدة ضده • واستمرت الشـــيوعية فى أوربا كشـــبح ـ وهو اسم أطلقه الناس على مخاوفهم وأخطائهم ، ولكن الجهاد ضد الشيوعية كان أكثر خيالا من شبح الشـــيوعية •

ولقد كانت هناك أسباب أكثر فجاجة لعدم بذل أية محاولة لاشراك روسيا فى الشـــئون الأوربية • فالهزيمة خلال الحرب حطمت سمعتهـا كدولة كبرى وافترض أن الثورة بعد ذلك ــ ولم يكن هذا خطأ تماما ــ حكمت عليها بالضعف لمدى جيل وفضلا عن ذلك ، فان ألمانيا وقد سحقتها ثورة سياسية من أبسط الأنواع فما أشد تخريب النتائج اذن فى روسيا، وقد تعرضت قاعدتها الاجتماعية للاضطراب ، كذلك أراح كثير من ساسة الغرب الى حد ما اختفاء روسيا • فبالرغم من أنهـا كانت ذات وزن له حسابه ضد ألمانيا ، فقد كانت حليفا ضعيفا وحريصا • وأثنـــاء الحلف الفرنسى ــ الروسى الذى دام عشرين ســنة ، قاوم الفرنســـيون طويلا

الطلبات الروسية فى القسطنطينية ، وسلموا بعد عناد فى سنة ١٩١٥ وكانوا مغتبطين بقدرتهم على رفض وعدهم أثنـاء الحرب • وكان الانجليز أقل اهتماما بالقسـطنطينية ، ولكنهم كذلك كانت لديهم مشـاكلهم مع روسيا فى الشرقين الأدنى والأوسط ، ان دعاية الشيوعيين بعد الحـرب فى الهند مثلا لم يكن لها التهديد نفسه الذى كان للنشاط الروسى القديم فى ايران وبعيدا عن مثل هذه الموضوعات الخاصة ، فان الشئون الدولية تسير بسهولة أكثر بدون مشاركة روسيا ••• وذلك ما يدركه كل انسان فى أيامنا هـذه ، ان أكثر الأسباب الواقعية لطرد روسيا كان ، على كل حال ، سببا جغرافيا بسيطا • « فحاجز العزل الصحى » أدى دوره • وقد تنبـأ بلفور بذلك ووضـح أنه بلفور وحده • فقد أعلن لمجلس الحرب الامبراطورى فى ٢١ مارس سنة ١٩١٧ « اذا ما جعلتم بولندا مسـتقلة استقلالا مطلقا ••• فانكم تفصلون روسيا نهائيا عن الغرب » • لقـد توقفت روســيا عن أن تكون عامـلا فى الســياسة الغربية ، اذ انها تكاد تكون كذلك وكان هذا ما تحقق • فروسيا لم تستطع أن تلعب دورا فى الشئون الأوربية حتى اذا ما أرادت ذلك • ولكن ما الذى يدفعها الى هذا ؟ وأحدث حاجز العزل الصحى فعله أيضا فى الاتجاه الآخر وان لم يلاحظ ذلك الا بقدر ضئيل لبضع سنوات • لقد عزل روسيا عن أوربا ، ولكنه عزل أيضا أوربا عن روسيا • ان السد الذى أقيم ضد روسيا أصبح ــ بطريقة عكسية ــ حماية لها •

وفى نظر فرنسا ، كان لدى الدول القومية الجديدة التى تشكل منها حاجز « العزل الصحى » عملا ثانيا أكثر أهمية • كانت تعويضا ، أرسلته العناية الالهية عن الحليفة الروسية المتلاشية أقل شذوذا واستقلالية ، وأكثر بعثا للثقة واحتراما ، وأخبر كليمانصو مجلس الأربعة « أن ضماننا الأكيد ضد العدوان الألمانى أنه خلف ألمانيا تقع تشيكوسلوفاكيا وبولندا فى وضع استراتيجى ممتاز » • وحتى وان اعتقد كليمانصو هذا ــ فانه ليس مما يدعو للدهشة ان غيره من الفرنسيين جعلوا التحالف مع الدول الوريثة هو موضوع سيطرة السياسة الفرنسـية ــ وأدرك قليل منهم شخصـيتها الرجعية المتناقضة • كانت الدول الحـديثة تابعة وعميلة ، يحركها حماسها الوطنى ولكنها حصلت على استقلالها نتيجة انتصـار الحلفـاء ومساعدتها بعـد ذلك بالأموال الفرنسية وناصرها المستشـارون العسكريون الفرنسـيون ، وبدت معاهدات التحالف الفرنسـية معهم

كمعاهدات الحماية ، كتلك التى أقامتها بريطـانيا مع الدول الحـديثة فى الشرق الأوسط • وكان الفرنسيون يرون الأشياء بطريقة مختلفة ، لقد نظروا الى حلفائهم الشرقيين على أنهم أرصدة لا على أنهم ضمانات يمنحون الحماية لفرنسا بلا التزام • كانوا يدركون أن الدول الحديثة تحتاج الى المساعدات المالية الفرنسية ، وهكذا كانت روسيا بحاجة الى كمية ، وان كانت بقدر ، من الأموال يفوق هذا بكثير ، وستكون تلك الحاجة وقتية ، وعلى أى حال ، كانت تلك الدول الحديثة متحسنة تحسنا كبيرا ، انهـا على العكس من روسيا لن يسكرها طموح غير ملائم فى ايران أو الشرق الأقصى ، وهى على العكس من روسيا لن تكون ذات ارتباطات وثيقة مع ألمانيـا ، وبما أنهم سيكونون على غرار ديموقراطية فرنسـا وقوميتها فسيصبحون اذن أكثر استقرارا فى أوقات السلم وأكثر جدية فى الحرب• لن يتساءلوا أبدا عن دورهم التاريخى : فى أن يشغلوا ويشتتوا القوات الألمانية لصالح فرنسا •

ان فى هذا مبالغة تثير الدهشة لقوة تشيكوسلوفاكيا وبولندا • لقد أضلت تجربة الحرب القريبة الفرنسيين ، فبالرغم من استعمالهم للدبابات الذى جاء متـأخرا بعض الوقت ، استمروا فى اعتبـار المشاة « سيدة المعركة » بتعبير بيتان وأقاموا وزنا لقوة البندقية على القتال الحاسـم • وكانت فرنسا بشعبها البـالغ أربعين مليونا فى مرتبة أدنى بلا شك من ألمانيا ذات الخمسة والستين مليونا ، ولكن أضف الثلاثين مليونا فى بولندا لتصبح فرنسا متسـاوية ، ثم الاثنى عشر مليونا فى تشـيكوسلوفاكيا لتصبح أكثر تفوقا ، وأكثر من هذا فان الناس يرون الماضى عندما يظهر المستقبل وقد وجد الفرنسيون من المستحيل عليهم أن يتصوروا حربا فى المستقبل لا تبـدأ بهجوم ألمـانى عليهم • ولذلك كانوا دائما يتساءلون ، كيف يستطيع حلفاؤنا الشرقيون مساعدتنا ؟ ولم يتساءلوا أبدا ـ كيف يمكننا مساعدتهم ؟ لقد تزايدت استعداداتهم العسكرية بعد سنة ١٩١٩ فى الناحية الدفاعية • وجهز الجيش للقتال فى حرب الخنادق وحصـنت الجبهة بصف من الاستحكامات وجرت الدبلوماسية الفرنسية فى تناقض واضح مع الاستراتيجية الفرنسية • وكان هناك تناقض حتى فى خلال الاتجاه الدبلوماسى نفسه • فلم يكمل التحالف الانجليزى ـ الفرنسى والمحالفات الشرقية أحدها الآخر ، فبطل فعلها ، وكان يمكن فرنسا أن تساعد ـ بضيق ـ بولندا أو تشيكوسلوفاكيا ، ولكن بمعونة انجلترا فقط ، على أن هذه المعونة كان من الممكن أن تعطى فى حالة قيامها بالنواحى

الدفاعية فقط لحماية نفسها ، وليس لدول بعيدة فى أوربا الشرقية • ولم تخلق الظروف المتغيرة فى سنة ١٩٣٦ هذا الفشل ، وانما نشأ بلا ريب منذ اللحظة الأولى ، ولم يجد أحد سواء كان انجليزيا أو فرنسيا ، طريقا للخلاص منه •

وتبدو هذه الصعوبات واضحة لنا وكانت أقل وضوحا للناس فى ذلك الوقت • فبالرغم من اختفاء روسيا وانسحاب الولايات المتحدة ، فقد كانت بريطانيا العظمى وفرنسا لا زالتا تكونان المجلس الأعلى لوضع القانون لأوربا كلها ، كذلك تضاءلت المحالفات واحتمالات الحروب بصورة متشابهة أمام المنظمة الجديدة التى تولدت عن مؤتمر السلام : عصبة الأمم ، ولقد كان هناك فى الحقيقة تباعد عميق لا يبدو على السطح بين انجلترا وفرنسا بالنسبة لطبيعة هذه المنظمة ، فالفرنسيون أرادوا تطوير العصبة الى نظام أمن موجه ضد ألمانيا واعتبرها الانجليز نظاما من التحالف يمكن أن يشمل ألمانيا • اعتقد الفرنسيون أن الحرب الأخيرة كان سببها عدوان ألمانيا بينما تزايد تمسك الانجليز شيئا فشيئا بأنها حدثت عن طريق الخطأ • ولم تجادل أى من الدولتين هذين الرأيين المختلفين ليخرجا بنتيجة • وبدلا من ذلك تظاهر كل منهما بأنه يساوم الآخر مع وجود التحفظ الصامت بأن كلا منهما غير مقتنع • وانتظر كل منهما الحوادث لتثبت خطأ الآخر ، وكان كل منهما راضيا بغباء فى ذلك الوقت بالرغم من أن هذا لم يكن لهدف سليم • وأثبت التفسير الانجليزى صلاحيته عمليا • فلسبب واحد عولج ميثاق المنظمة فى شروط عامة ، وجه ضد العدوان ، وليس ضد ألمانيا وكان من الصعب فى حقيقة الأمر استخدام المنظمة ضد ألمانيا ما لم تكن بالفعل عضوا فيها لها الحقوق نفسها ، ومرة أخرى فان السياسة السلبية أقوى دائما من الايجابية والجمود أسهل من الحركة • وأكثر من كل شىء فان وجهة النظر البريطانية نبعت حتميا من قرار نوفمبر سنة ١٩١٨ : قرار اعلان الهدنة ، وبعدها السلام مع الحكومة الألمانية طالما أنه تقرر عدم تحطيم ألمانيا وأنه يجب أن تعود ان آجلا أو عاجلا الى حسن المعاشرة مع الدول ، وكانت كل من الحكومتين الانجليزية والفرنسية مشغولتين تماما بالمشاكل المحلية والخارجية لدرجة أنه لم يكن لهما سياسة واضحة ومناسبة •

والآن وطالما كان هناك نمط مترابط فى سنوات ما بعد الحرب ، فانها كانت قصة الجهود لاسترضاء ألمانيا وقصة فشلهم •

الفصل الثالث

عشر سنوات التالية للحرب

دار تاريخ أوربا بين الحربين حول المشكلة الالمانية، انها اذا ما استقرت استقر كل شيء ، فاذا ما بقيت بلا حل فلن تعرف أوربا السلام • وفقدت كل المشاكل الاخرى حدتها أو كانت تافهة بالمقارنة بها • فالخطر البلشفيكى مثلا ـ الذى لم يكن شديدا كما تصور الناس ـ انتهى فجأة عندما ارتدت وحدات الجيش الأحمر عن وارسو فى سنة ١٩٢٠ ، ومنذ تلك اللحظة وخلال العشرين سنة التالية لم يكن هناك أدنى أمل فى أن الشيوعية سوف تنتصر فى أى مكان آخر فيما وراء الحدود الروسية • ومن وجهة النظر الاقليمية أحدثت «اعادة النظر» المجرية ضجة كبرى مرة أخرى فى سنة ١٩١٩ • وكانت فى الحقيقة ضجة أكبر مما فعلته اعادة النظر الالمانية من وجهة نظر اقليمية • انها لم تثر أكثر من مجرد ظل لحرب محلية لا ظل لاضطراب عام • كذلك تنازعت ايطاليا مع يوغسلافيا حول قضايا الادرياتيك ، وشكت فيما بعد من كونها أمة « لا تملك شيئا » وغير راضية ، وكان أقصى ما يمكن أن تفعله ايطاليا هو أن تثير رءوس المواضيع دون أن توجه انذارا • ووقفت المشكلة الالمانية بمفردها ، وكان هذا شيئا جديدا • لقد نشأت مشكلة قوة ألمانيا قبل سنة ١٩١٤ برغم عدم الاعتراف بها اعترافا كاملا ، ولكن كانت هناك مشاكل أخرى ـ رغبة روسيا فى القسطنطينية ، رغبة فرنسا فى الألزاس واللورين ، اعادة المجد الايطالى ، مشكلة السلاف فى الجنوب داخل النمسا والمجر ، المشاكل التى بلا نهاية فى البلقان • والآن لم يعد هناك شيء فى أى لحظة سوى وضع ألمانيا •

كان هناك اختلاف ثان ذو مغزى كبير ، فقبل سنة ١٩١٤ شكلت علاقات دول أوربا الكبرى غالبا على أساس مسائل خارج أوربا ـ ايران ، مصر ، مراكش ، افريقيا الاستوائية ، تركيا الآسيوية ، والشرق الاقصى •

واعتقد حكام عادلون ـ وان خطأ ـ أن القضايا الاوربية فقدت حيويتها ، وكتب هـ • ن • بريلسفورد وهو محقق ذكى واسع المعلومات فى بداية سنة ١٩١٤ ان الاخطار التى دفعت أسلافنا الى تحالفات وحروب أوربية قارية ذهبت بلا رجعة ، وقد أصبح من المؤكد كما هو ممكن لأى شىء فى السياسة أن حدود دولنا الوطنية الحديثة قد رسمت نهائيا(١) وأثبت العكس تماما أنه هو الوضع القائم ولقد قلبت أوربا رأسا على عقب واستمرت على هذا فى ازعاج الساسة • فلم تسبب مشكلة واحدة خارج أوربا التى أثارت متاعب قبل سنة ١٩١٤ أزمه خطيرة بين الدول الاوربية الكبيرة فيما بين الحربين • ولن يستطيع احد فى الواقع أن يفترض مثلا أن بريطانيا العظمى وفرنسا ستشنان الحرب على سوريا كما فعلتا ذات مرة بالنسبة لمصر • وكان الاستثناء الوحيد هو العملية الحبشية فى سنة ١٩٣٥ على أن هذه المشكلة كانت مثار اهتمام السياسات الاوربية فى اطار عصبة الامم ، ولم تكن نزاعا على افريقيا ، وكان هناك استثناء جلى آخر : الشرق الاقصى ، وهذا سبب متاعب مؤسفة فى الشئون العالمية على أن بريطانيا العظمى كانت الدولة الكبرى الوحيدة التى وقع عليها التأثير الفعلى •

وكان هذا أيضا شيئا جديدا ، فبريطانيا العظمى كانت حينئذ الدولة العالمية الوحيدة فى أوربا • وقبل سنة ١٩١٤ أيضا كانت دولة عالمية فى المرتبة الاولى • ولكن كانت روسيا والمانيا وفرنسا ذات قيمة كبيرة فى «عصر الامبريالية» وأصبحت روسيا الآن خارج أوربا وفى تحالف مع ثورة الشعوب المستعمرة المناهضة لاوربا • وفقدت المانيا مستعمراتها وتخلت عن طموحها الاستعمارى مهما يكن شأنه فى الزمن الراهن • وكانت فرنسا بالرغم من أنها لا زالت دولة استعمارية مشغولة بالمشاكل الأوربية ، وتركت امبراطوريتها تحتل المكان الثانى فى منازعاتها مع الآخرين ، الذين كانت انجلترا بطبيعة الحال من بينهم • لقد أوضح الشرق الاقصى الى أى مدى تغيرت الاشياء ، فقبل سنة ١٩١٤ كان ثمة توازن قائم هناك على مستوى تعقيد توازن أوربا نفسه فقد كان يجب على اليابان أن تصطدم بروسيا ، والمانيا وفرنسا وكذلك مع بريطانيا العظمى وان كان بامكان بريطانيا أن تستمر أحيانا فى سلام مع اليابان ، وأحيانا ضدها • وكان

(١) حرب الصلب والذهب : هـ • ن • بريلسفورد سنة ١٩١٤ ص ٣٥ •

للولايات المتحدة نشاط سياسي في الشرق الاقصى لسنوات قليلة بعد الحرب ، ولكنها كانت قصيرة الأجل في حقيقة الأمر • وواجهت بريطانيا العظمى بمفردها فعلا اليابان ابان أزمة منشوريا سنة ١٩٣١ ، انه من السهل فهم السبب في أن الانجليز شعروا بتميزهم عن الدول الكبرى الاوربية ، ولماذا أرادوا دائما الانسحاب من مجال السياسة الاوربية •

ومن السهل أيضا أن نفهم لماذا بدت المشكلة الالمانية مسألة أوربية خالصة ، لم تشعر الولايات المتحدة واليابان بأنهما مهددتان من قبل دولة كبرى لا تملك أسطولا • وليس لها ظاهريا مصالح استعمارية • وكانت بريطانيا العظمى وفرنسا مدركتين في الواقع أنه يجب عليهما أن يبتا في المسألة الالمانية بمفردهما • واقترحتا بعد سنة ١٩١٩ مباشرة أنه يجب البت فيها بعدل وبسرعة ، وعلى أية حال بمفهوم ، ان معاهدة الصلح يجب أن تطبق تطبيقا تاما ولم يكن كلاهما على خطأ • لقد وضعت الحدود الألمانية جميعها في سنة ١٩٢١ وذلك عندما قسم استفتاء ــ فسر تفسيرا غير طبيعي ــ سيليزيا الشمالية بين ألمانيا وبولندا ، وسار نزع السلاح الألماني ببطء أكثر مما كان محددا له في المعاهدة وببعض التحايل، ولكنه تحرك • ولم يعد للجيش الالماني كيان كقوة مقاتلة عظمى ، كما لم يعد أحد يقلق من نشوب حرب حقيقية مع ألمانيا لسنوات طويلة قادمة • ثم كثر اللجوء الى المراوغات الانتهازية في وقت لاحق ، وعندئذ تحدث الناس كما لو أن مواد نزع السلاح في المعاهدة لم تراع مطلقا أو أنها كانت غير ذات قيمة ولكنها في الواقع حققت غرضها طوال الوقت الذى كانت فيه موضع التنفيذ ، وحتى وقت متأخر في عام ١٩٣٤ لم يكن في امكان ألمانيا أن تفكر في الحرب ضد بولندا ، دع عنك الحرب ضد فرنسا• أما بالنسبة لمواد المعاهدة الاخرى فان محاكمات مجرمى الحرب أهملت بعد محاولات قليلة غير مقنعة • وكان هذا تسليما جزئيا لاحتجاج وممانعة ألمانيا أنها نبعت بشكل أكبر من الشعور بأنه من العبث الاتجاه ضد مجرمين أقل اجراما بينما المجرم الرئيسي ــ ويليم الثاني ــ كان آمنا في هولندا •

وحتى سنة ١٩٢١ كان قد نفذ الكثير من معاهدة الصلح • وكان من المعقول الادعاء بأنها ستفقد تدريجيا طبيعتها المتنازع عليها ، فليس في استطاعة الناس أن يتشاحنوا سنة بعد أخرى حول موضوع منته مهما بلغ ما يشعرون به من سخط في أول الأمر • لقد نسي الفرنسيون واترلو ، ومالوا حتى الى نسيان الالزاس واللورين رغما عن تصميمهم المتكرر بألا يفعلوا ذلك • وربما توقع الألمان أيضا أن ينسوا أو على أية حال يقتنعوا بعد وقت ما • وقد تبقى مشكلة قوة ألمانيا ، ولكنها لن تزداد بتصميم حاد

على تحطيم اتفاقية سنة ١٩١٩ في أول فرصة ، ولكن حدث النقيض : فالاستياء ضد المعاهدة ازداد عاما بعد عام لأن جزءا واحدا من الاتفاقية بقي دون حل ، وجعل الصراع حول هذا بقية المعاهدة في موضع تساؤل مستمر • وكانت المسألة التي لم تحل هي دفع التعويضات : مثلا اخاذا عن النوايا الحسنة ، أو بمعنى أصح ، المهارة الجيدة عندما تتجه في الطريق الخطأ • ورغب الفرنسيون في سنة ١٩١٩ دون مساومة تنفيذ المبدأ الخاص بأنه يجب على ألمانيا أن تدفع حساب ما أتلفته الحرب ــ مسئولية غير محددة ، سترتفع في المستقبل مع كل خطوة يسترد منها الاقتصاد الالماني مكانته • واقترح الامريكيون وهم أكثر منطقا ــ تقرير مبلغ محدد ، وفي ذلك الجو المشحون لسنة ١٩١٩ قدر لوريد جوج أن هذا المبلغ ربما يكون أيضا فوق طاقة ألمانيا • وكان يأمل أنه في وقت ما سيزيد عند الناس (وهو منهم) ادراكهم : فسيطلب الحلفاء طلبا معقولا • وسيقدم الالمان عرضا معقولا ، وربما التقى الرقمان ، زيادة أم نقصا ، لذلك ظل يتأرجح خلف الفرنسيين ، وان كان ذلك من أجل السبب العكسي تماما ، ارادوا أن يجعلوا الحساب ضخما بصورة خيالية • أراد هو أن يخفض ذلك وأذعن الامريكان، لقد اقتصرت معاهدة الصلح علىمجرد تقرير التعويضات، أما مقدارها فقد ترك ليتحدد في وقت ما في المستقبل •

لقد أراد لويد جورج أن يجعل التصالح مع المانيا أسهل ، ولكنه كاد أن يجعله مستحيلا ، وذلك لأن التباعد بين وجهتي نظر انجلترا وفرنسا الذي غطى في سنة ١٩١٩ ارتفع مرة أخرى الى السطح بمجرد أن حاولوا تحديد رقم : فالفرنسيون لا زالوا يحاولون رفعه والانجليز يحاولون خفضه بفارغ صبر ، ولم يبد الألمان أية رغبة للتعاون • وبدلا من أن يحاولوا تقدير امكانياتهم على الدفع ، أربكوا عمدا أمورهم الاقتصادية وهم مدركون جيدا أن الاشياء اذا ما سارت في انتظام ، فان « فاتورة » التعويضات سترتفع تبعا لذلك • كانت هناك اجتماعات غاضبة بين الحلفاء ، ثم مؤتمر بعد ذلك مع ألمانيا ، ومؤتمرات أكثر في سنة ١٩٢١ ثم المزيد في سنة ١٩٢٢ ، وحاول الفرنسيون في سنة ١٩٢٣ تنفيذ الدفع باحتلال الروهرورد الالمان أولا بمقاومة سلبية ، ثم سلموا بادراك تحت وطأة التضخم • ووافق الفرنسيون ــ وهم لا يقلون انهاكا عن الالمان على حل موفق : مشروع خطة داوس Dawes بدافع بريطاني ــ تحت اشراف رئيس أمريكي ــ وبالرغم من أن هذا الاتفاق المؤقت قوبل بامتعاض من كل من الفرنسيين والألمان ، فان التعويضات دفعت فعلا لمدة السنوات الخمس التالية ، وعندئذ عقد مؤتمر آخر : مشاحنات أكثر ، واتهامات

أكثر ، ومطـــالب أكثر ومراوغات أكثر • ومرة أخرى ظهر مشروع يونج تحت اشراف رئيس امريكي وما كاد يبـدأ حتى بدأ ضغط الكساد الهائل على أوربا • وطالب الالمان بأنهم لن يستطيعوا الاستمرار فى الدفع • وفى سنة ١٩٣١ عطل توقف هوفر دفع التعويضات لمدة اثنى عشر شهرا • وفى سنة ١٩٣٢ نظف مؤتمر أخير فى لوزان كل ما علق بالصفحة وتم الوصول أخيرا الى الاتفاق ، ولكنه استغرق ثلاث عشرة سنة • سنوات من الشك المعقد والأسى لجميع الأطراف • وشعر الفرنسيون فى النهاية أنهم خدعوا، وشعر الالمان أنهم سرقوا • وأبقت التعويضات على انفعالات الحرب حية •

ومما لا شك فيه أن التعويضات ربما تكون أسى على أية حال • لقد كان عدم التأكد والحجج حولها هو ما جعل الأسى مزمنا ، واعتقد كثير من الناس فى سنة ١٩١٩ أن دفع التعويضات ربما نزل بألمانيا الى مستوى حالة من الفقر الآسيوى واعتنق ج •م• كينز هذا الرأى مثلما فعل كل الالمان ، وكذلك ، وعلى الأرجح كثير من الفرنسيين ، وان فعلوا ذلك بدون ندم على النتائج • وخلال الحرب العالمية الثـــانية استنتج شاب فرنسى ذكى ـ اتين مانتو أنه كان فى مقدور الالمان أن يدفعوا التعويضات بلاغاقة ـ اذا ما أرادوا أن يفعلوا ذلك ، ولقد أعطى هتلر برهانا عمليـا لهذا عندما استخلص مبالغ ضخمة من حكومة فيشى الفرنسية ، ولم يكن للموضوع الا اهمية أكاديمية ومما لا شك فيه أن ظنون كينز والالمـــان كانت فيها مبالغة بشكل مضحك ، ومما لا شك فيه أن فاقة ألمانيا كانت بسبب الحرب وليست بسبب التعويضات ، ومما لا شك فيه أن الالمان كانوا يستطيعون دفع التعويضــــات ، اذا ما اعتبروها الزاما يحتمه الشرف ويجب تحمله بأمانة • والحقيقة الواقعة كما هى معروفة للجميع الآن هى أن ألمانيا كانت الرابحة ربحا خالصا بالعمليات المـالية فى سنتى ١٩١٩ ، ١٩٢٠ : فقد اقترضت من قطاع المستثمرين الامريكيين الخاص (وعجزت عن رده) أكثر مما دفعت فى التعويضات • وكان فى هذا بطبيعة الحال قليل من العزاء لدافع الضرائب الالمانى الذى لم يكن بأى حال نفس الشـــخص كالمقترض الألمانى ، ومن أجل هذا الامر أعطت التعويضات قليـلا من العزاء لدافعى الضرائب فى دول الحلفـــاء الذين سرعان ما رأوا الايرادات تتـحول الى الولايات المتحدة فى شكل سداد ديون الحرب • وبوضع الشىء فى مقابل شىء آخر فان التأثير الاقتصادى الوحيد للتعويضات كان ايجاد عمالة لعدد كبـــير من « كتبة الحسابات » ، ولكن الحقـــائق الاقتصـادية بالنسبة للتعويضات كانت ذات فائدة بسـيطة ، كانت قيمة التعويضات رمزية ،

وتسببت في خلق الاستياء والشك والخصومة العالمية ، وأكثر من أى شيء آخر فلقد مهدت السبيل الى الحرب العالمية الثانية ٠

لقد الزمت التعويضات فرنسا بالسلوك مسلك المشاكس ، ولكنه أقرب الى اليأس في المقاومة وكان لديهم ـ بالرغم من كل شيء ـ انعدام الدعوى التي تثار بدون وجه حق ، فشمال شرقى فرنسا دمر خلال الحرب ومهما يكن الصواب أو الخطأ في جريمة الحرب ، فقد كان من المعقول الزام ألمانيا أن تساعد فى اصلاح التلف ولكن الفرنسـيين سرعان ما خدعتهم التعويضات كما حدث بالنسـبة للجميع غيرهم ٠ وأراد بعض الفرنسيين اصابة ألمانيا بالخراب الى الابد ، وتمنى آخرون لو أن التعويضات لم تدفع لكى تبقى الجيوش المحتلة فى الرين ٠ وقيل لدافعى الضرائب الفرنسيين ان ألمانيا ستدفع بالنسبة للحرب وكانوا ساخطين على الألمان عندما ارتفعت ضرائبهم ٠ وخدع الفرنسيون بدورهم فى النهاية ، ولم ينالوا سوى اللوم الأدبى فعلا لطلبهم تعويضات أساسا ٠ ولما رأى الفرنسيون ذلك قاموا بسلسلة من التنازلات فى التعويضات لارضاء الالمان ٠ وفى النهاية تخلوا عن أى دعوى بشأن التعويضات ٠

وتمادى الالمان فى اظهار مزيد من عـدم الرضاء أكثر من أى وقت مضى ٠ وانتهى الفرنسيون من تلك التجربة الى ان التنازلات فى ميادين أخرى ـ غير نزع السلاح والحدود ـ ستكون عديمة النفع كغيرها ، وانتهوا أيضا ، بوعى أقل ، الى ان التنازلات لا بد أن تتم ٠ وتميز الفرنسيون فى سنوات ما قبل الحرب العالمية الثـانية ، بنقص فى الثقة فى قادتهم وفى أنفسهم ٠ وكانت لهذه السخرية اليائسة أصـول طويلة ومفيدة ، كثيرا ما قام المؤرخون بتشريحها ٠ على ان موضوع التعويضات كان سببه المباشر والعملى ٠ فهنا ، خسر الفرنسيون بالتأكيد ، كما أظهر قادتهم بالدرجة نفسها من التاكيد عدم مقدرة لا نظير لها ، أو على الاقل فشلا لا نظير له ، فى انجاز وعودهم ٠ وأدت التعويضات الى الكثير من الاضرار للديمقراطية فى فرنسا كما فى ألمانيا نفسها ٠

كان للتعويضات أيضا تأثير خطير فى العلاقات بين فرنسا وبريطانيا العظمى ٠ وفى الايام الاخـيرة من الحرب شـارك الانجليز ـ سياسيون وعامة ـ فى الحمـاس الفرنسى بالنسـبة للتعويضات ٠ وكان سياسـيا انجليزيا ذا كفاءة عالية ـ وليس فرنسـيا ـ ذلك الذى اقترح اعتصار « البرتقالة » الالمانية حتى النـواة ٠ وحتى لويد جورج نفسه كان اكثر صخبا فى موضوع التعويضات ، مما أراد أن يصوروه فيما بعد ٠ ومهما يكن

الأمر فقد تغير الانجليز ـ وبدءوا فى فضح حماقة التعويضات بمجرد أن قضوا بأنفسهم على الاسطول الالمـــانى التجارى · وربما كانوا متأثرين بكتابات كينز · وكان الدافع العملى الاقوى هو العمل على اعادة حياة أوربا الاقتصادية وذلك لكى يدفعـوا الى الامام صادراتهم الصناعية · وصدقوا لتوهم القصص الالمانية التى سمعوها عن المصائب التى لا آخر لها التى ستتبع دفع التعويضات ، وما أن أدانوا التعويضات حتى أدانوا فى الحال مواد أخرى تضمنتها معاهدة الصلح · كانت التعويضات شيئا سيئا · وكذلك فان نزع سلاح ألمانيا شىء سيىء ، والحدود مع بولندا شىء سيىء ، والدول القومية الحديثة شىء سيىء · انها ليست أشياء سيئة فحسب ، كانت مبررا للأسى الالمانى ، ولن يكون الألمان راضين أو فى حالة رخاء الا اذا أوقفت وازداد ســـخط البريطانيين على المنطق الفرنسى ، ومن القلق الفرنسى حول استرداد ألمانيا لقوتها ، وسخطهم خاصة من اصرار فرنسا على وجوب احترام المعاهدات بمجرد توقيعها · كانت ادعاءات فرنسا عن التعويضات هراء مهلكا وخطيرا · وعلى هـذا كان ادعاؤهم عن الامن هراء مهلكا وخطيرا أيضا · وكان لدى الانجليز مجال مقبول ظاهريا للشكوى· واضطروا فى سنة ١٩٣١ الى الخروج من نطاق الذهب وكان لدى الفرنسيين الذين زعموا أن الحرب قد أصابتهم بالخراب أوراق عملة ثابتة القيمة ، وأكبر احتياطى من الذهب فى أوربا · كانت بداية سيئة لسنوات الخطر فتكرار عدم الموافقة على التعويضات فى ســـنوات ما بعد الحرب العالمية الاولى ، جعلت موافقة الانجليز والفرنسيين على الامن فى سنوات ما قبل الثانية أمرا يكاد يكون مستحيلا ·

ووقعت أعظم النكبات التى سببتها التعويضات على الالمان أنفسهم· والذى لا شك فيه انه كان لابد للألم أن يصيبهم على أية حال · انهم لم يخسروا الحرب فحسب · لقـد فقـــدوا أقاليمهم ، وأجبروا على نزع السلاح ، وعلقت بهم جريمة حرب لم يحسوا بها ، ولكن تلك كانت أحزانا ذهنية ، أشياء تدعو للتذمر فى الامسيات ، وليست سببا فى المشقة فى الحياة اليومية ، واضرت التعويضات بكل ألمانى ، أو هكذا بدت فى كل لحظة من لحظات وجوده · وقد يكون بلا جدوى الآن مناقشة ما اذا كانت التعويضات قد أفقرت ألمانيا فى الحقيقة · وكان من العبث بالمثل مناقشة الموضوع فى سنة ١٩١٩ · لم يكن لدى أى ألمانى القابلية لتقبل الاقتراح الذى قدمه نورمان انجل فى الوهم الكبير great gllus ion the بأن دفع تعويض بواسطة الفرنسيين فى سنة ١٨٧١ أفاد فرنسا وأضر بألمانيا فالفهم البسيط للجنس البشرى يقول ان الانسان يصبح أكثر فقرا بدفع

أموال ، وما هو حقيقى بالنسبة للفرد يكون حقيقيا بالنسبة لأمة • وكانت ألمانيا تدفع التعويضات فهى على ذلك الأفقر بسببها • وبتفسير بسيط تصبح التعويضات هى السبب الوحيد لفقر ألمانيا • وألقى رجل الأعمال وهو فى متاعبه ، والمدرس ذو الدخل دون المستوى اللائق ، والعامل المتعطل ، باللوم جميعا على التعويضات وكانت صرخة جوع الطفل الصغير ، ، صرخة ضد التعويضات • ودفن مسنون فى القبر بسبب التعويضات • ونسب التضخم الكبير فى سنة ١٩٢٣ الى التعويضات ، وكذلك الوضع بالنسبة للكساد الهائل فى سنة ١٩٢٩ • ولم تكن وجهات النظر تلك مما يعتنقه رجل الشارع الألمانى فقط • وانما اعتنقها بالقوة نفسها كذلك أكثر الخبراء الماليين والسياسيين الأكفاء • ولم تستلزم الحملة ضد « معاهدة العبودية » ـ فى كثير الى استفزاز أكثر المهيمنين تطرفا ـ فلقد أثارت كل لمسة سببتها المتاعب الاقتصادية الألمان الى نفض اغلال « فرساى » •

اذا ما رفض الناس معاهدة ، فلا ينتظر منهم أن يتذكروا بدقة المادة التى رفضوها • لقد بدأ الالمان بالاعتقاد الاكثر ـ أو الاقل منطقا ـ بأنهم قد دمروا نتيجة للتعويضات • ثم سرعان ما استطردوا الى الاعتقاد الأقل منطقا بانهم دمروا بمعاهدة الصلح ككل • وأخيرا ـ وباقتفائهم أثر خطواتهم ـ انتهوا بانهم دمروا بمواد فى المعاهدة لا صلة لها بالتعويضات ـ فنزع السلاح الالمانى على سبيل المثال ربما يكون مهينا وربما عرض ألمانيا للغزو من بولندا أو فرنسا •

ولكنه كان من الناحية الاقتصادية يهدف للصالح العام وذلك فيما اذا كان له أى أثر(١) •

ولم يكن هذا ما احسه الالمانى العادى ، فلقد زعم ان التعويضات طالما جعلته أكثر فقرا فان نزع السلاح جعله كذلك أيضا • وهذا ماحدث نفسه بالنسبة للمواد الخاصة بالاراضى فى المعاهدة ـ فقد كانت هناك أخطاء فى الاتفاقية بطبيعة الحال • فالجبهة الشرقية وضعت من الالمان فى بولندا أكثر مما يجب ـ رغم انها وضعت أيضا كثيرا من البولنديين فى ألمانيا • وكان من الممكن تنقيحها بتعديل بعض الأوضاع وتبادل السكان ـ انها مهمة

---

(١) بمهارة ملحوظة وليست فريدة ادار القادة الالمان الامر بحيث جعلوا نزع السلاح أكثر تكلفة مما كان التسليح ـ فلقد كلف دافع الضريبة الالمان قدرا أقل للابقاء على جيش واسطول سنة ١٩١٤ العظيم ، مما كلفه الاحتفاظ بجيش صغير ولا اسطول بعد سنة ١٩١٩ •

لم يفكر أحد فيها فى تلك الايام المتمدينة • ولـــكن حكما غير متحيز اذا ما تسنى وجود مثله كان حتما سيجد خطأ بسيطا فى اتفاقية الحدود طالما ان مد الدول القومية قد قبل • فان ما يسمى بالممر البولندى كان يسكنه البولنديون على الدوام ، كمـا كانت الترتيبات الخـــاصة ــ بمواصلات السكك الحديدية الحرة مع بروسيا الشرقية كافية • وربما أصبحت دانزج أفضــــل من الناحية الاقتصـــادية اذا ما ضمت الى بولندا • أما بالنسبة للمستعمرات الالمانية السابقة وهى بدورها سبب خصب للاسى ــ فكانت دائما مرهقة التكاليف وليست مصدرا للربح •

وكان من الممكن أن يفقد كل هذا أهميته ، ولكن شكوا للرابطة بين التعويضات وبين بقية المعاهدة • اعتقد الالمانى أنه كان رث الثياب جائعا او متعطلا لان دانزج كانت مدينة حرة ، وبسبب الممر الذى يفصل بروسيا الشرقية عن الريخ ، أو بسبب ان ألمانيا ليس لديهـــا مستعمرات وحتى شاخت ــ المصرفى المفرط الذكاء عزا متاعب ألمانيا المالية الى فقد مستعمراتها وهى وجهة نظر استمر فى التمسك بها ــ وباخلاص لا شك فيه حتى بعد الحرب العالمية الثانية • ولم يكن الالمان يركزون على أنفسهم ، أو أغبياء لا نظير لهم فى الاصرار على مثل تلك الآراء • فقد شاركهم فى هذه النظرة رجال من الانجليز الاحرار المستنيرين مثل كينز ، وكل قادة حزب العمال الانجليزى تقريبا ، وكل الامريكيين الذين كانوا يهتمون بالشئون الاوربية ومع ذلك فمن الصــعب ادراك الســـبب فى ان فقد المستعمرات والارض الاوربية عاقت ألمانيا اقتصاديا • فبعد الحرب العالمية الثانية كانت خسائر ألمانيا فى الاراضى التابعة أفدح ومع ذلك أصبحت أكثر رخاء عنها فى أية فترة فى تاريخها • ولا يمكن وجود برهان أكثر من هـــذا وضوحا على أن متاعب ألمانيا الاقتصادية بين الحربين كانت تعزى الى العيوب فى سياستها المحلية ، وليست الى الحــدود غــير العادلة • كان البرهان لا غناء فيه ، واستمرت كل الكتب المدرسية فى ارجاع متاعب ألمانيا الى معاهدة فرساى ، وتمادت الخرافة الى ما هو أبعد من ذلك ولا زالت كذلك • ففى أول الامر وقع اللوم بالنسبة لمشاكل ألمانيا الاقتصادية على المعاهدة ، ولكن لوحظ بعد ذلك أن تلك المشاكل استمرت • ومن هذا كان المتمسك بالاعتقاد بأن شيئا لم يصنع لاسترضاء ألمانيا أو تعـــديل النظـام الذى تقرر فى سنة ١٩١٩ ، لقد افترض انه تمت محاولة التهدئة فى سنة ١٩٣٨ فقط ، وعلى ذلك فقد جاء الأمر متأخرا •

وهذا بعيد عن الحقيقة • فحتى التعويضات كان يعـاد النظر فيها

دائما ، وكانت تخفض دائما بالرغم من انه مما لا شك فيه ان اعادة النظر اقتضت عناء طال أمده • وبطرق أخرى تمت محاولة التهدئة بصورة أسرع وبنجاح • وضع لويد جورج المحـــاولة الاولى ، فقد عزم ـ بعد أن برزت صعوبة التعويضات ـ على عقد مؤتمر سلام جديد وأكثر جدية ، ولابد أن يشارك فيه الجميع الولايات المتحدة ، وألمانيا والاتحاد السوفيتي ، تماما كالحلفاء • ولا بد من صنع بداية جديدة لخلق عالم أفضل • وتلت مبادرة لويد جورج ما فعله برياند رئيس وزراء فرنســـا آنذاك ـ وهو ساحر سياسي آخر، كان في مقدوره أن يخرج المشاكل الى حيز الوجود • وبلغت الزمالة نهاية مفاجئة • ففي ينـــاير سنة ١٩٢٢ هزم برياند في المجلس النيابي الفرنسي ـ ظاهريا لأنه أخذ درسا في الجولف من «لويد جورج» ، وواقعيا لانه كان يضعف من شأن معـاهدة الصلح ولم يتـــحرك حليفته بوانكاري تجاه عرض بريطاني بضمان الحدود الفرنسية الشرقية ، وشارك ممثل لفرنسا في المؤتمر الذي عقد في جنوا في ابريل سنة ١٩٢٢ لا لشيء الا للاصرار على دفع التعويضات • ورفض الامريكيون الحضور •

وحضر الروس والالمان ولكن ليس بالشك الذى لا مبرر له للوقوف، أحدهما ضد الآخر • ودعى الالمان للمشاركة في استغلال روسيا ، وحث الروس على المطالبة بالتعويضات من ألمانيا وبدلا من هـذا تقـــابل ممثلو الدولتين سرا في رابالو •

واتفقوا على عدم العمل بعضهما ضد بعض • وحطمت اتفاقية رابالو مؤتمر جنوا وباءت بسمعة سيئة في العالم • ففي هذا الوقت كان ينظر الى البلاشفة كمنبوذين ، ولذلك اعتبر عقد الالمان اتفاقية معهم أمرا بالغ السوء • وبعدئذ ، وعندما أصبح الألمان سببا في اثارة المضايقات ، فان الاعوجاج الادبي لاتفاقية رابالو سجل ضد الروس •

وفي حقيقة الأمر كانت اتفاقية رابالو عملا متواضعا وسلبيا • لقد عاقت في الواقع اتحادا أوربيا لحرب تدخل جديدة ضد روسيا ، ومنعت في الحقيقة أيضا أي بعث للاتفاق الثلاثي القديم • وعلى أية حال لم يكن لواحد منهما اقتراح عملي ، ولم تفعل الاتفاقية سوى تسجيل الحقيقة ، ولكن كانت هناك فرصة ضئيلة ـ ومتساوية للتعاون الفعال بين الدولتين الموقعتين عليها • ولم يكن أحدهما في وضع يجعله يتحدى اتفاقية السلام، ولم يطلب كل منهما أكثر من أن يترك وشأنه • ومنذ ذلك الحين أمد الالمان الاتحاد السوفيتي بكمية معينة من المعونة الاقتصادية ، ولو ان الامريكان الذين لم يعترفوا بالاتحاد السوفيتي بتاتا أمدوا ـ وبكيفية غير معقولة ـ

روسيا بكميات أكثر • ومكن الروس الالمان من التخلص من قيود معاهدة فرساى (التى لم يكن الروس بعد كل شيء طرفا فيهـــا) وذلك بانشاء مدارس البترول والطيران فى الأراضى السوفيتية • وكانت هـذه أشياء بسيطة • لم يكن هناك اخلاص فى الصداقة الالمانية الروسية • وعرف كل من الطرفين هذا وكان القادة والمحافظون من الالمان ــ الذين طوروا الصداقة ــ يحتقرون البلشفيك ، الذين كانوا بدورهم يكنون صداقة لالمانيا تبعا لمبدأ لينين بأخذ الرجل بيده تمهيدا لأخذه من خنـاقه • ولقد أعطت اتفاقية رابالو تحذيرا بانه من السهل لروسيا وألمانيا أن ينشئا صداقة على أسس سلبية ، فى حين كان لا بد للحلفاء من أن يدفعوا ثمنا غاليا لصداقة كل منهما ولكنه كان انذارا ذا تأثير فى المستقبل البعيد نسبيا •

كان مؤتمر جنوا آخر جهـد خـلاق مبدع للويد جورج • لقد جعل وضعه كقائد مشتت الاستنارة لتضافر مظلم ، من المستحيل بالنسبة له أن يحقق أية نتيجة مثيرة • وفى خريف سنة ١٩٢٢ سقط من الحكم • وكانت حكومة المحـــافظين برياسة بونارلو التى خلفته مثقلة فى ضـيق بالشئون الاوربية • وكان الطريق واضحا لبوانكارى الذى أصبح فيما بعد رئيس الوزراء الفرنسى لمحـاولة تنفيذ التعويضات باحتـلال الروهر • وكان هذا هو التحول الوحيد فى سجل التهدئة ، وكان تحـولا من لون محدود • ومهما يكن لدى بعض الفرنســيين من آمال مستترة بأن ألمانيا سوف تسحق ، فان الغرض الوحيد من الاحتلال هو الحصول على منحة من التعويضات من الألمان وكان الاحتلال سينتهى بمجرد تقديم هذه المنحة • وكان للاحتلال تأثير مخيف على الفرنك الفرنسى • وقد يكون بوانكاريه قد ظن فى البداية ان فرنسا تسـتطيع أن تعمل مستقلة • وفى نهاية سنة ١٩٢٣ كان مقتنعا كما كان كليمانصو ــ بأن الضرورة الاولى لفرنسا هى أن تكون على علاقات طيبة مع انجلترا وأمريكا • وأعطى الناخب الفرنسى قراره فى هذا الامر فى سنة ١٩٢٤ باعادة تحالف يسارى معاد لبوانكرية وتمخض احتلال الروهر فى المدى الطويل عن أقوى جدال سائد لصالح التهدئة • أما عن كيف انتهى هذا ، فبمفاوضات جديدة مع ألمانيا • لقد أعطت المفاوضات اثباتا جديدا وأكثر قوة بأنه من الممكن تنفيذ معـاهدة فرساى فقط بالتعاون مع الحكومة الالمانية ، وفى هذه الحالة فانه من الممكن كسب المزيد عن طريق التراضى لا التهديدات • ولم تكن الحجة فعالة فى الحاضر فحسب وانما استمرت فاعليتها فى المستقبل • وعندما بدأ الألمان فى اهمال شروط المعاهدة على نطاق أكثر جسامة ، فان الناس ــ وخاصة الفرنسيين عادوا يتطلعون الى احتلال الروهر ، وتسـاءلوا ماذا يمكن أن

بجنيه من استخدام القوة ؟ ليس الا وعودا ألمانية جديدة لتحقيق الوعود التي ينقضونها الآن . ان التكاليف ستكون مدمرة ، والنتيجة لا يمكن تجاهلها . كان من الممكن استعادة الأمن باستمالة المانيا فقط وليس بتهديدها .

انه من الخطأ الاعتقاد بأن احتلال الروهر كان بلا تأثير على المانيا فعلى الرغم من انه علم الفرنسيين حماقة الاجبار ، فقد علم الالمان أيضا حماقة المقاومة . وانتهى الاحتلال باذعان من ألمانيا وليس من فرنسا . وجاء سترسمان الى الحكم بسياسة مقررة لانجاز المعاهدة وبطبيعة الحال لم يعن انه وافق على التفسير الفرنسي للمعاهدة أو انه أذعن للمطالب الفرنسية وانما كان يعني فقط انه سيدافع عن المصالح الالمانية بالمفاوضات، وليس بالمقاومة . وكان سترسمان مصمما كأشد الوطنيين تطرفا على التخلص من المعاهدة كلية : التعويضات ، نزع السلاح الالماني ، احتلال الرين ، ومسألة الحدود مع بولندا . ولكنه عزم على القيام بهذا بالضغط المستمر للحوادث وليس بالتهديدات ، ولا بالحرب . وبينما كان بعض الالمان يصرون على ان اعادة النظر في المعاهدة ضروري لاحياء قوة المانيا ، كان سترسمان يعتقد بأن احياء قوة المانيا سوف يقود حتما الى اعادة النظر في المعاهدة . وقامت ضجة كبيرة في الدول المتحالفة ضد سترسمان بعد موته عندما كشف نشر أوراقه بوضوح عن عزمه على تحطيم اتفاقية المعاهدة القائمة . وكانت الضجة غير عادلة بصورة غريبة . فالتسليم بألمانيا العظمى ـ ولقد سلم الحلفاء بأنفسهم بذلك نتيجة لافعالهم فى نهاية الحرب ـ كان مما لا يمكن أن يتصوره العقل أن يكون في مقدور أى الماني أن يقبل معاهدة فرساى كاتفاقية دائمة . وكان السؤال الوحيد هو ما اذا كانت الاتفاقية ستنقح وتصبح ألمانيا مرة أخرى أكبر قوة فى أوربا، سواء بوسائل سلمية أو حربية ، وقد أراد سترسمان أن يفعل ذلك بوسائل سلمية . واعتقد أن هذا هو الاسلم والأكثر تأكيدا والأشد ثباتا للسيطرة الالمانية . كان وطنيا محبا للحرب خلال الحرب ، وحتى ذلك الحين لم يكن ـ أكثر ميلا للسلام من ناحية المبدأ الاخلاقي مما كان بسمارك . ولكنه اعتقد ـ كبسمارك ـ ان السلام كان فى صالح المانيا ، وأعطاه هذا الاعتقاد الحق أن يكون في مستوى بسمارك كالماني عظيم ، بل كرجل سياسى أوربي عظيم . وربما كان أكثر عظمة فقد كانت مهمته بالتأكيد أكثر مشقة لأن بسمارك كان عليه فقط أن يحافظ على وضع قائم، أما سترسمان فكان عليه أن يعمل لاقرار وضع جديد . ان جوهر مقياس

نجاحه ان أوربا ــ في حياته ــ تحركت في وقت واحد نحو السلام واعادة النظر في المعاهدة ٠

ولم يكن تحقيق هذا ليعزى الى سترسمان وحده فقد أسهم ساسة الحلفاء بنصيبهم أيضا ، وكان أسبقهم جميعا رامزى ماكدونالد الذى تقلد مقاليد الحكم في سنة ١٩٢٤ ، والذى من ثم ترك أثره بعد ذلك سواء أكان فى الحكم أم خارجه ــ فى السياسة البريطانية الخارجية للسنوات الخمس عشرة التالية ٠ ولقد بدا أن السياسة الماكدونالدية انتهت بفشل مدمر باندلاع الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ ، لقد أصبح اسمه الآن مدعاة للازدراء ، وقوبل كيانه بالتجاهل ، ومع ذلك فان ماكدونالد هو الملاك الملهم لكل سياسى غربى معاصر يفضل التعاون مع ألمانيا ٠ وواجه ماكدونالد ــ أكثر من أى سياسى انجليزى آخر ــ « المشكلة الألمانية » وحاول حلها ٠ لقد كان الاجبار عقيما كما دل على ذلك احتلال الروهر ٠ لقد رفض الحل البديل بارجاع روسيا الى أوربا كدولة كبرى من كل من الجانبين خلال سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٠ سواء أكان هـذا سليما أم غير سليم ٠

ولم يبق الا استرضاء ألمانيا ، واذا ما كان للاسترضاء أن يمارس أساسا فقد كان لا بد أن يمارس باخلاص كامل ٠ ولم يتجاهل مكدونالد ألوان القلق الفرنسية ٠ فقد قابلها بسخاء أكثر مما قابلها أى سياسى انجليزى آخر أو كان سيقابلها ، وقد أكد لهربوت فى يوليو سنة ١٩٢٤ بأن نقض المعاهدة ، سيقود الى انهيار الأسس الثابتة التى يرتكز عليها السلام الذى تحقق بكل عناء ٠ كما قدم الى عصبة الامم بروتوكول جينيف المهيض الذى ضمنت فيه بريطانيا العظمى والأعضاء الآخرون للعصبة ، كل الحدود فى أوربا على انه أبدى هـذا الكرم مع الفرنسيين لانه اعتقد ان متاعبهم لم يكن لها أساس حقيقى ٠

وحتى فى اغسطس سنة ١٩١٤ لم يكن يعتقد ان ألمانيا كانت دولة خطيرة وعدوانية أو راغبة فى السيطرة على أوربا وعلى وجه التأكيد لم يعتقد هـذا فى سـنة ١٩٢٤ ٠ وعلى ذلك كانت وعود البروتوكول التى بدت سـوداء ٠٠ وصمة على الورق ــ فى الحقيقة « مخدر غير ضار لتلطيف الأعصاب » ان حل أية مشكلة يكون ممكنا «بالعمل الجرىء المبنى على النية الطيبة ٠ وكان الشىء الهام هو أن تبدأ المفـاوضات ٠ واذا ما كان فى الامكان اغراء الفرنسيين بالدخول فى المفاوضات عن طريق وعـود بالامن وحده ، فانه يجب أن تبذل هذه الوعود ، تماما كمـا يغرى طفـل صغير

بالبحر بالتأكيد له بان المياه دافئة ، ويكتشف الطفل أن التأكيدات كانت مضللة ، ولكنه يعتاد على البرودة وسرعان ما يتعلم السباحة . وهذا مايجب أن يكون في المسائل الدولية ما ان يبدأ الفرنسيون في التآلف مع ألمانيا ، حتى يجدوا أن هذا الاجراء أقل ازعاجا مما تصوروا . ان على السياسة البريطانية أن تحث الفرنسيين على أن يتنازلوا عن الكثير ، والألمان على أن يطلبوا القليل . انها الصيغة التى صاغها ماكدونالد بعد بضع سنوات لندعهم يصبغون مطالبهم بصبغة خاصة فى أسلوب تستطيع معه بريطانيا العظمى أن تزعم أنها عضدت كلا الجانبين (١) » .

لقد جاء ماكدونالد فى الوقت المناسب تماما فقد كان الفرنسيون مستعدين لتخليص أنفسهم من شرك الروهر بالتواضع فى مطالبهم الخاصة بالتعويضات وكان الالمان من الناحية الاخرى مستعدين لتقديم عرض جدى . لقد كانت اتفاقية التعويضات المؤقتة على أساس مشروع داوس ، وفترة الاسترخاء العريضة بين فرنسا وألمانيا التى صاحبتها بشكل أساسى من صنع ماكدونالد واسقط الانتخاب العام فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ حكومة العمال . ولكن بالرغم من أن ماكدونالد توقف عن توجيه السياسة الخارجية البريطانية فانه استمر يشكلها بطريق غير مباشر وبلغ مسلك التوفيق ــ من وجهة النظر البريطانية حدا من الجاذبية أصبح من الصعب معه على أية حكومة بريطانية أن تتخلى عنه . اما خليفة مكدونالد وهو تشمبرلن المحافظ والمعروف بولائه (وان اقتصر ذلك فقط على التفكير عن نشاط والده فى الاتجاه المضاد) وبطريقته المعقدة ، فكان راغبا فى تجديد عرض التحالف المباشر مع فرنسا وكان الرأى البريطانى ــ ليس رأى العمال فحسب وانما رأى المحافظين كذلك ضد هذا فى ذلك الحين وبشكل ثابت . ولقد اقترح سترسمان مخرجا : اتفاقية سلام بين فرنسا وألمانيا تضمنها بريطانيا العظمى وايطاليا . وكان هذا شيئا رائع الجاذبية للبريطانيين . ان ضمانا ضد « معتد » غير مسمى يهب بالضبط العدالة التى تكاد تكون فى متناول اليد وكان جراى يتوق اليها قبل الحرب ، وأصبح ماكدونالد يبشر بها اليوم . ومع ذلك فان أصدقاء فرنسا ، مثل أوستن تشمبرلين ، استطاعوا أن يواسوا أنفسهم بأن المعتدى الوحيد البديهى ربما يكون ألمانيا ــ طالما ان التحالف الانجليزى الفرنسى يمكن تهريبه بطريقة غير ملحوظة . وكان الاقتراح أيضا جذابا بشكل رائع للايطاليين الذين عوملوا كالاقارب الفقراء منذ الحرب ثم وجدوا أنفسهم

---

(١) مضبطة اجتماع الدول الكبرى الخمس فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢ وثائق فى السياسة الخارجية البريطانية السلسلة الثانية ، رقم ٢١١

الآن وقد ارتفعوا الى مستوى الانجليز كوسطاء بين فرنسا وألمانيا وكانت الفكرة أقل جاذبية للفرنسيين • فبالرغم من ان الرين كان سيظل منزوع السلاح فانه ما ان يوضع تحت وصاية انجليزية ايطالية حتى يغلق أمام فرنسا ذلك الباب المفتوح الذى تستطيع من خلاله أن تهدد ألمانيا •

على ان الفرنسيين بدورهم وجدوا السياسى المناسب لتلك اللحظة ففى سنة ١٩٢٥ عاد برياند كوزير للخارجية الفرنسية وكان ندا لسترسمان فى المهارة الدبلوماسية ونظيرا لماكدونالد فى طموحه القائم على العقلية الرفيعة المستوى وسيدا للجميع فى عبارته الرومانتيكية • وكان غيره من الساسة الفرنسيين يتحدثون فى عنف دون أن يعنوا ذلك • وكان برياند يتكلم « بلين » دون أن يعنى شيئا • كذلك كشف الدخل العائد من احتلال الرور عبث الطريق الصعب •

ووجد برياند الآن فرصة أخرى ليجد الأمن لفرنسا فى ظل سحب من الكلمات ولقد أفرغ قيادة سترسمان الادبية باقتراح أنه يجب على ألمانيا أن تقر باحترام جميع حدودها ، الشرقية والغربية على حد سواء وكان هذا شرطا مستحيلا بالنسبة للحكومة الالمانية • لقد اذعن كثير من الالمان لفقد الالزاس واللورين بل ان القليل منهم أثار القضية الى ما بعد هزيمة فرنسا فى سنة ١٩٤٠ • لقد خلقت الحدود مع بولندا احساسا لدى جميع الالمان بالاسى • وكان من الممكن التسامح فى ذلك ولكن لم يكن من الممكن تأييده • لقد أطال سترسمان فى مدى أسلوب المصالحة ، فى نظر الالمان ، عندما وافق على انهاء اتفاقيات الحكم العرفى مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا • وحتى مع هذا فانه أضاف أن ألمانيا كانت تنوى «اعادة النظر » فى حدودها مع تلك الدولتين فى وقت ما فى المستقبل وان كانت بطبيعة الحال ستفعل ذلك بطريقة سليمة ـ وهو أسلوب محبب بالنسبة للسياسيين غير المستعدين لاشعال الحرب وان كان الأمر ـ فى حالة سترسمان ـ فيه اخلاص •

وهنا كانت ثغرة فى نظام الامن ـ وهو تنصل مفتوح من جانب سترسمان للحدود الشرقية الالمانية • ولم يكن فى استطاعة البريطانيين سد الثغرة • وتكلم أوستن تشمبرلن بلطف عن الممر البولندى « الذى من أجله لن تخاطر أى حكومة بريطانية أو لن تستطيع أن تخاطر بعظام واحد من المشاة الانجليز » وقدم برياند حلا مختلفا • أعادت فرنسا تأكيد تحالفها القائم مع تشيكوسلوفاكيا وبولندا ووافق موقعو اتفاقية لوكارنو على أن عمل فرنسا بموجب هذين التحالفين لن يشكل عدوانا ضد ألمانيا

وبقيت فرنسا على هذا حرة نظريا فى الاستمرار فى مســـاعدة حلفائها الشرقيين عبر الرين المنزوع السلاح دون اهدار الصداقة البريطانية ، وتم التوفيق بين الخطين المتعارضين لدبلوماسيتها • وان كان ذلك على الورق وفي حين احتفظت اتفاقية لوكارنو بالتحالف الغربى مع بريطانيا ، حافظت كذلك على التحالف الشرقى مع الدولتين التابعتين فى الوقت نفسه •

تلك كانت اتفاقية لوكارنو الموقعة فى ١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ • انها نقطة التحول لسنوات مابين الحربين • فقد أنهى توقيعها الحرب العالمية الأولى وكان التخلى عنها بعد أحد عشر عاما مقدمة للحرب الثانية • واذا ما كان هدف أى اتفاق عالمى هو ارضاء الجميع فان اتفاقية لوكارنو كانت فى الواقع معاهدة حسنة فقــد أرضت القــوتين الضامنتين ، لقد وفقا بين فرنسا وألمانيا وجلبا السلام فى أوربا دون تجشم ـ كما افترضا ـ أى شيء أكثر من الالزام الادبى ـ مجرد شكل لكلمات • ولم تصــنع بريطانيا أو ايطاليا أية استعدادات لتنفيذ ضمانها فكيف يكون حالهما عنــدما لا يكون المعتــدى معروفا حتى لحظة التوصل الى قــرار ؟ كانت النتيجة العملية للمعاهدة ـ وهى غريبة وغير متوقعة ـ الحيلولة دون أى تعاون عسكرى بين بريطانيا العظمى وفرنسا طالما بقيت موضع التنفيذ • على ان معاهدة لوكارنو مع هذا ارضت الفرنسيين أيضا فقد قبلت ألمانيا ضياع الالزاس واللورين ، ووافقت على بقــاء الرين منزوع الســـلاح ؛ ضمنت بريطانيا وايطاليا وعد ألمانيا • وكان من الممكن أن يتيه أى سياسى فرنسى فى سنة ١٩١٤ فرحا بمثل هــذا الانجـــاز كما كان الفرنسيون فى الوقت نفسه لا يزالون أحرارا فى عقد محالفاتهم الشرقية وللقيام بدور كبير فى أوربا اذا مارغبوا فى ذلك • وكان فى امكان الالمان أن يقنعوا كذلك فقد تمت حمايتهم بحزم أمام احتلال جديد للروهر ، وعوملوا على قدم المساواة •• وليس كعدو منهزم • وابقوا البـــاب مفتــوحا لاعادة النظر فى حدودهم الشرقية • ان أى سياسى ألمانى فى سنة ١٩١٩ أو حتى فى سنة ١٩٢٣ كان لا يمكن أن يجد أى سبب للشكوى • لقد كانت لوكارنو أكبر نصر « للتهدئة » ولقد أطلق عليها اللورد بلفور بحق « الرمز والسبب لتحسن كبير فى الشعور الأوربى العام » •

أعطت اتفاقية لوركانو لاوربا فترة من السلام والامل وقبلت ألمانيا فى عصبة الامم وان تم هذا بعد تأخير طال أكثر مما كان متوقعا • وظهر سترسمان وتشمبرلن وبرياند بانتظام فى مجلس العصبة • وبدت جنيف كمركز لاوربا المنتعشة : فالوئام أصبح أخيرا هو النغمة حقيقة وسويت القضايا الدولية بالمناقشة بدلا من قرقعة السلاح • ولم يكترث أحد فى

تلك السنوات لغياب روسيا والولايات المتحدة ــ فقد سارت الامور بلطف أكثر يسرا بدونهما • وفى الجانب الآخر لم يقترح أحد فى جديه تحويل «أوربا جينيف» الى كتلة معادية لأمريكا أو الى كتلة معادية للسوفيت • وبعيدا عن الرغبة في الاستقلال عن الولايات المتحدة فان الدول الاوربية كانت مشغولة كلها في اقتراض الاموال الامريكية • وتكلم قليــــل من المديرين المتــوحشين عن حرب صليبية أوربية ضد الشــيوعية ، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل • فلم يكن لدى الاوربيين رغبة فى الاتجاه الى حرب صليبية ضد أحد • وكان الالمان يريدون ــ بعيدا عن هذا ــ أن يحتفظوا بالصداقة مع روسيا كورقة احتيــاطية ، صور من صور اتفاقية تأمين قد تستعمل في يوم من الايام ضد حلفاء فرنسا الشرقيين • فبعد توقيع اتفاقية لوكارنو مباشرة ، جدد سترسمان مع الروس الاتفاقية التى عقدت فى رابالو سنة ١٩٢٢ وعندما انضمت ألمانيا الى عصبة الامم ، أعلن سترسمان انها لن تتمكن فى حالتها المنزوعة السلاح ، أن تســاهم فى العقوبات ــ انه تأكيد مقنع للحياد تجاه روسيا السوفيتية •

كان وجود ايطاليا فى نظـام لوكارنو جنيف ــ خللا أكثر أسى من غياب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى •

لقد وضعت فى تنظيم لوكارنو لا لشيء الا لتقوية التظاهر الانجليزى بعدم المحاباه • ولم يفترض أحد في هذا الوقت ان ايطاليا تستطيع حقيقة أن تحقق التوازن بين ألمانيا وفرنسا • ان هذا لم يكن يعنى شيئا مادامت اتفاقية لوكارنو كعصبة الامم ، قد قامت على أساس من التقدير والوئام وليس على القوة المباشرة • ولكن عندما تطورت الظروف فيما بعد بطريقة أكثر خشــونة ، فان ذكرى اتفاقية لوكارنو ساعدت على قبول خدعة أن ايطاليا لها من الوزن الحقيقى ما يبرر القاءها فى هذا المعترك ، وكان القادة الايطاليون أنفسهم ضحايا هــذا الوهم • وكان لايطاليا فى عصر اتفاقية لوكارنو عيب أسوأ من عوزها الى القوة ، كان ينقصــــها المركز الادبى ــ لقد ادعت دول لوكارنو الكبرى بأنها تمثل المبادىء العظيمة التى من أجلها أشعلت الحرب ، وادعت عصبة الامم بأنها اتحاد للشعوب الحرة • ومما لا شك فيه انه كان هناك بعض التدليس فى تلك الادعاءات فليست هناك على الاطلاق دولة بلغت حدا من الحرية أو المبادىء السامية بهذا القدر الذى تحاول أن تبدو عليه • ولكن كان هناك فى الادعاءات شيء حقيقى أيضا فقد كانت بريطانيا العظمى في عهد بلدوين وماكدونالد وجمهورية وايمر فى ألمانيا ، والجمهورية الثالثة فى فرنسا دولا ديمقرطية فعلا بكل ما يحمله هذا التعبير من معانى الحرية وحكم القانون والنوايا الطيبة تجاه الآخرين•

وكان من حقهم ـ وقد تجمعوا فى عصبة الامم ـ أن يدعوا بأنهم وهبوا الجنس البشرى أجمل الآمال ، وانهم بشكل أكثر افاضة ـ أقاموا نظاما سياسيا واجتماعيا أفضل مما أقامه الاتحاد السوفيتى ٠

وأصبح كل هذا ثوبا «ردىء الزركشة» عندما امتد الى ايطاليا تحت حكم موسولينى ٠ فالفاشية لم تملك أبدا الدفعة التى لا ترحم ، ودع جانبا القوة المادية للاشتراكية الوطنية ٠ لقد كانت من الناحية الادبية مفسدة بقدر ما فيها من الفساد وربما أكثر فى انعدام الامانة وربما أشد افسادا ٠ ان كل شىء عن الفاشية خداع ٠ فالمأزق الاجتماعى الذى انقذت ايطاليا منه خدعة ٠ والثورة التى قبضت بها على الحكم كانت خدعة ٠ أما قدرة موسولينى وسياسته فكانت خدعة جميعا ٠ كان الحكم الفاشيتى فاسدا عاجزا ، فارغا وكان موسولينى نفسه أكذوبة ، متبجحا خاطئا بلا أفكار أو أهداف ٠ وعاشت ايطاليا الفاشية فى حالة من انعدام الشرعية ، وأنكرت السياسة الفاشيستية الخارجية منذ البداية مبادىء جينيف ٠ ومع ذلك فقد كتب رمزى ماكدونالد خطابات ودية لموسولينى فى لحظة مقتل ماتيوتى نفسها وتبادل اوستن تشمبرلن وموسولينى الصور الفوتوجرافية ومجد ونستون تشرشل موسولينى كمنقذ لدولته وكسياسى أوربى عظيم ٠ كيف يتسنى لأى فرد أن يصدق اخلاص القادة الغربيين وقد مدحوا موسولينى بهذه الطريقة وتقبلوه كواحد منهم ؟ ليس مما يدعو للدهشة أن ينظر الشيوعيون الروس الى عصبة الامم وكل أعمالها على انها مؤامرة رأسمالية وان كان أيضا ليس مما يدعو الى الدهشة أن يقيم الاتحاد السوفيتى وايطاليا مبكرا علاقات دولية ودية وأن يتمسكوا بها دائما ٠ ان هناك دائما بطبيعة الحال ثغرة ما بين النظرية والممارسة وانه من المهلك لكل من الحاكمين والمحكومين أن تصير الثغرة أكثر سعة ٠ ان وجود ايطاليا الفاشستية فى جينيف ، ووجود موسولينى الفعلى فى لوكارنو كانا أكبر رمزين لعدم واقعية الديمقراطية الأوربية المتمثلة فى عصبة الامم ولم يعد الساسة طويلا يصدقون عباراتهم وسارت الشعوب على غرارهم ٠

وبالرغم من أن سترسمان وبرياند كانا مخلصين فى طريقيهما المختلفين فانهما لم يحملا شعبيهما معهما ، وبرر كل منهما لوكارنو فى بلده بأدلة متناقضة اتفقت فى أن تنتهى الى عدم الخداع ٠ وأخبر برياند الفرنسيين بأن لوكارنو كانت وضعا نهائيا ، تسد الطريق أمام تنازلات أكثر ٠ وأكد سترسمان للالمان ان هدف لوكارنو هو جلب تنازلات أكثر بطريقة أكثر سرعة ٠ وكان برياند ، صاحب الاسلوب البلاغى الصميم ، يأمل بأن فيضا من العبارات الاريحية ستجعل الألمان ينسون أحزانهم ٠

وكان سترسمان يعتقد - بطريقته المتأنية - ان عادة التنازل ستنمو حتما لدى الفرنسيين بالممـــارسة وطاب أمل كلا الرجلين ، وذاق كلاهما مرارة الفشل وهما على فراش الموت • فقد تمت تنازلات أكثر ، وصاحبها دائما ارادة مريرة • لقد سحبت لجنة الاشراف على نزع السلاح الالمانى فى سنة ١٩٢٧ وأعيد النظر فى تخفيض التعويضات على أساس مشروع يونج سنة ١٩٢٩ ، وتم التنازل عن الاشراف الخـــارجى على المالية الالمانية وغادرت القوات المحتلة الرين فى سنة ١٩٣٠ - بعد خمس سنوات متوالية • ولم تتحقق التهدئة • وعلى العكس كان الاستياء الالمانى أعظم فى النهاية مما كان فى البداية • وفى سنة ١٩٢٤ تولى «الحزب الوطنى» الالمانى الوزارة وساعد فى تنفيذ مشروع داوس ، وفى ســـنة ١٩٢٩ نفذ مشروع يونج لا لشيء الا لمعـارضة الحزب الوطنى العنيفة • أما سترسمان الذى أعاد وضع ألمانيا بين الدول الكبرى فقد حمل الى القبر ••

لقد كان الاستياء الالمانى - جزئيا - أمرا يحسب له حساب فالطريقة الواضحة للحصول على تنازلات أكثر كان بالحكم على كل مكسب بانه غير كاف • وكان للالمان حالة شبه معقولة • فاتفاقية لوكارنو عاملتهم كنظراء يناقشون فى حرية • فما هو المبرر اذن لابقاء التعويضات أو نزع السلاح الألمانى وحده ؟ لم يكن فى امكان الفرنسيين أن يفكروا فى رد منطقى على هذه الحجة ومع ذلك فقد كانوا يعرفون انهم اذا ما تقبلوها فان السيطرة الالمـــانية فى أوربا سوف تتبع ذلك حتـــما • ولام الفرنســـيين معظم المعاصرين • فالانجليز - بصفة خاصة - اتفقوا أكثر فأكثر مع ماكدونالد انه بمجرد أن تبدأ التهدئة فانه لا بد أن تستمر بسرعة وبكل اخلاص • ولام الناس الالمـــان - بعد ذلك - لعدم قبول هزيمة سنة ١٩١٨ كشيء نهائى • انه لمن العبث أن نفترض ان تنازلات أكثر أو أقل كانت ستصنع اختلافا كبيرا • فالنزاع بين فرنسا وألمانيا كان سيستمر طالما ان الوهم يصير على أن أوربا كانت لا تزال هى مركز العالم • فكان لا بد لفرنسا ان تنشد الاحتفاظ بالضمانات المصطنعة لســنة ١٩١٩ • وكان لا بد لألمانيا من أن تكافح فى اعادة الوضـــع الطبيعى للأمور • وكان من الممكن اخافة الدول المنافسة من مغبة الصداقة ، فقط بشـــبح خطر أكبر • ولم يلق الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة بهـــذا الظـل على أوربا فى عهد سترسمان وبرياند •

ان هذا بعيد عن القول بان شـــبح الحرب هدد اوربا ١٩٢٩ فحتى القادة السوفيت لم يعودوا يهتزون أمام شبح حرب تدخل رأسمالية جديدة• وبادارة ظهورهم للعالم الخارجى بحزم أكثر من أى وقت مضى فقد ترجموا

« الاشتراكية فى دولة واحدة » الى أسس علمية لخطة السنوات الخمس . كانت الحرب الوحيدة التى فى امكان « أنبياء » الحرب أن يتنبأوا بها غير معقولة التوقع . حرب بين بريطانيا العظمى وبين الولايات المتحدة ففى الحقيقة اتفقت الدولتان الكبيرتان بالفعل على المعاملة بالمثل فى السفن الحربية سنة ١٩٢١ وكان عليهم أن يدفعوا بالاتفاق الى مدى أبعد فى مؤتمر لندن البحرى فى سنة ١٩٣٠ . وكانت لا تزال هناك اثارة وطنية فى ألمانيا ، ولكن الكثيرين استخلصوا من هذا شيئا غير النهاية غير المعقولة بأن عملية الاسترضاء كانت بطيئة للغاية . وعلى كل فان الوطنيين كانوا أقلية من الالمان وظلت الأكثرية رغم معارضتهم أيضا لمعاهدة فرساي ـ تقبل وجهة نظر سترسمان بأنه من الممكن طرد روح نظامها الشريرة بوسائل سلمية . وكان هندنبرج رئيس الجمهورية منذ سنة ١٩٢٥ رمزا لذلك ، فهو فيلد مرشال ومن الحزب الوطنى ، ولكنه الرأس الواعى لجمهورية ديمقراطية ، ينفذ بولاء السياسة الخارجية للوكارنو ويرأس ـ دون شكوى ـ جيشا أوهنت معاهدة الصلح قواه . كانت الصيحة الأكثر شعبية فى ألمانيا هى «لا حرب أخرى» وليست « تسقط معاهدة العبودية » وهزم « الوطنيون » هزيمة ساحقة عندما نظموا استفتاء شعبيا ضد مشروع يونج . وشهد النشر فى عام ١٩٢٩ ظهور مؤلف ريمارك « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » أشهر الكتب معاداة للحرب . وملأت الرفوف كتب على النهج نفسه فى انجلترا وفرنسا . وكان يبدو ـ على هذا الأساس كما لو أن اعادة النظر فى المعاهدة سيستمر تدريجيا وبشكل تافه فى الغالب وان نظاما أوربيا جديدا سوف يبزغ دون أن يعرف أحد اللحظة الدقيقة التى سيعبر عندها الخط الفاصل .

كان الخطر الوحيد يبدو فى تجدد عملية عدوانية من جانب فرنسا ذات النزعة الحربية، الدولة الوحيدة ذات الجيش العظيم، ورغم التصريحات الايطالية ـ فهى الدولة الكبرى الوحيدة فى القارة الأوربية . على ان هذا أيضا كان ادراكا بلا مضمون . فقد كانت هناك بواعث أكثر صلابة من بلاغة برياند لافتراض ان فرنسا قد ارتضت الفشل بالفعل وكانت فرنسا نظريا لاتزال مبقية على الباب مفتوحا للعمل ضد ألمانيا . فارض الرين لازالت منزوعة السلاح ، والمخالفات مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا لازالت سارية . وفى الحقيقة كانت فرنسا قد اخذت من قبل الخطوة الحاسمة التى جعلت العمل ضد ألمانيا مستحيلا . كانت ألمانيا أكثر قوة فى القوى البشرية وفى الموارد الصناعية ومن هنا كان الأمل الوحيد لفرنسا فى توجيه ضربة شاملة قبل أن تستطيع أن تبدأ فى التأهب للحرب . كانت فرنسا فى حاجة الى جيش نشط مستقل ، سريع الحركة مستعد دائما لان يخترق اراضى العدو

ولم تكن فرنسا تملك مطلقا مثل هذا الجيش ٠ فالجيوش المنتصرة فى سنة ١٩١٨ كانت قد دربت على حرب الخنادق فقط ولم يكن لديها الوقت لتغيير طريقتها خلال فترة التقدم السريع القصيرة كذلك كان أيضـا فوق طاقة الاصلاحات التى ادخلت بعد سنة ١٩١٨ ٠ وقد وجد الجيش الفرنسى انه من الصعوبة الاستمرار فى احتلال الروهر بالرغم من انه لم تكن هناك قوة ألمانية تجابهه واندفعت السياسة المحلية فى الطريق نفسه ٠ كان هناك مطلب مستمر يجعل الخدمة لسـنة واحدة وسن القانون بغباء فى سـنة ١٩٢٨ ومنذ تلك اللحظة كان فى قدرة الجيوش الفرنسية حتى وهى فى كامل تعبئتهـا ـ أن تكون لها القدرة الكافية حتى للدفاع عن « الاراضى الوطنية » ٠

وكان الجنود يعطون تدريبات دفاعية واستعدادية بحتة ٠ وزود خط ماجينو الحدود الشرقية بأكبر نظام ضخم عرف عن الاستحكامات على وجه الاطلاق ٠ كان الانفصـال بين السياسـة الفرنسية وبين الاستراتيجية الفرنسية تاما ٠ كما كان الساسة الفرنسيون لا يزالون يتكلمون عن العمل ضد ألمانيا ، بينما وسائل العمل غير موجوده ٠ وقال لينين فى سنة ١٩١٧ ان الجنود الروس صوتوا الى جانب السلام « بأقدامهم » عندما فروا هاربين٠ وهكذا كان الفرنسيون ، دون تقديرهم لذلك ، اقترعوا باسـتعداداتهم الحربية ، ضد « نظام » فرساى ٠

لقد رفضوا ثمار النصر قبل أن يبدأ الصراع حول هذه الثمار ٠

الفصل الرابع

نهاية معاهدة فرساى

فى سنة ١٩٢٩ كان نظام الأمن ضد ألمانيا ، والذى وضع فى معاهد فرساى لايزال كاملا . فألمانيا نزع سلاحها ، وأصبح الرين منطقة منزوعة السلاح ، والمنتصرون متحدين ظاهريا ، ونظام الأمن قويا بمؤازرة عصبة الامم . وبعد سبع سنوات انتهى كل ذلك دون توجيه ضربة اليه . فالاستقرار الدولى اهتز أولا بانهيار الاستقرار ابان الكساد الضخم الذى بدأ فى اكتوبر سنة ١٩٢٩ . وكان للكساد علاقة ضئيلة بالحرب السابقة ، بالرغم من أن الناس لم يفكروا هكذا فى ذلك الحين . ولم يكن له علاقة بالمواد الباقية فى معاهدة الصلح . لقد بدأ الكساد بتدهور الرواج المالى فى الولايات المتحدة ، وتضخمت البطالة التى تبعته بسبب فشل القوة الشرائية فى أن تحفظ الخطى مع المصادر المتزايدة فى الانتاج . ان الجميع يدركون ذلك الآن تماما كما يدركون أن الطريق للافلات من الكساد هو زيادة الانفاق الحكومى وفى سنة ١٩٢٩ كان ادراك أى فرد لذلك أمرا صعبا . والقليلون الذين عرفوه لم يكن لهم نفوذ فى السياسة . كان الاعتقاد السائد ان الانكماش هو العلاج الوحيد . وكان لابد أن يكون هناك رصيد نقدى متين ، وميزانيات متوازنة ، وتقشف فى الانفاق الحكومى وتخفيضات فى الأجور وبذلك يكون هناك الاحتمال بأن الأسعار ستصبح أكثر انخفاضا بشكل كاف ليبدأ الناس فى الشراء مرة ثانية .

وسببت هذه السياسة عناء وتبرما فى كل دولة طبقت فيها . ولم يكن هناك سبب يحتم ضرورة تمخضها عن توتر دولى . فقد قاد الكساد فى معظم الدول الى تخل عن الشئون الدولية . ففى بريطانيا العظمى أدخل نيفيل تشمبرلن وزير المالية فى الحكومة الوطنية سنة ١٩٣٢ تخفيض تقديرات السلاح بين الحربين . وأصبح الفرنسيون أقل تأكدا عما كانوا

من قبل · وأصبحت السياسة الأمريكية في عهد ف · د · روزفلت في سنة ١٩٣٣ أكثر عزلة بشكل ظاهر عما كانت في عهد سلفه الجمهوري وكانت ألمانيا حالة خاصة · فقد مارس الألمان المساوىء القاسية للتضخم في سنة ١٩٢٣ وذهبوا الآن بعيدا في الاتجاه المضاد · نظر معظم الألمان الى هذا كشيء حتمي ، ولكن النتائج كانت غير شعبية بشكل كبير واستحسن كل فرد الاجراءات عند تطبيقها على الآخرين ، ولكنه استنكرها عند تطبيقها عليه · وفشل الرايخستاغ في ايجاد أغلبية لحكومة انكماشية ، بالرغم من أن ما كان يريده هو مثل هذه الحكومة وكنتيجة لذلك حكم برونِنج ألمانيا أكثر من عامين بلا اغلبية ، فارضا الانكماش بمرسوم رئاسي ، وكمخلص وذي أفق متسع لم يكن عليه أن يكسب شعبية بتخفيف صرامة الانكماش ، ولكن حكومته نشدت الشعبية بالنجاح في السياسة الخارجية · وحاول كرتس وزير خارجيته أن يقيم وحدة اقتصادية مع النمسا في سنة ١٩٣١ وهو مشروع لا يقدم أية ميزة اقتصادية ، وبدأ تريفيرانس ، وهو عضو آخر في حكومته ، في اثاره ضد مسألة الحدود البولندية · وفي عام ١٩٣٢ طالب بابن خليفة برونِنج بالمساواة في التسلح لألمانيا وكانت كل تلك الأمور غير متعلقة بالمتاعب الاقتصادية · ولكن لم يكن متوقعا من الألماني العادي ان يفهم ذلك · لقد قيل له لسنوات عدة ان كل متاعبه تعزى الى معاهدة فرساي ، وقد أصبح في ضيق ــ صدق ما قيل له ، وزيادة على هذا فقد أزال الكساد أكبر حجة لعدم عمل شيء وهي الرفاهية · ونسى الذين يعيشون في يسر احزانهم ، ولم يكن لديهم ــ وهم في ضيقهم ، شيء آخر يفكرون فيه ·

لقد كانت هناك أسباب أخرى لزيادة المشاكل الدولية ، وواجهت عصبة الأمم في سنة ١٩٣١ أول تحدياتها الجدية · ففي ١٨ سبتمبر احتلت القوات اليابانية منشوريا التي كانت ــ نظريا ــ جزءا من الصين · واستغاثت الصين بعصبة الامم لانصافها · ولم تكن مشكلة سهلة وكان لدى اليابانيين سند في دعواهم ــ فنفوذ الحكومة المركزية الصينية ــ وكانت أصلا قوية ــ لم يمتد الى منشوريا التي كانت ــ لسنوات ــ في حالة اضطراب بلا قانون · وعانت المصالح التجارية اليابانية كثيرا ــ وقد كانت هناك سوابق كثيرة في الصين تستثير النشاط الاستقلالي ــ وكانت آخرها نزول الانجليز في شنغهاي في سنة ١٩٢٦ والى جانب هذا لم يكن لدى عصبة الامم وسائل للتصرف فلم ترحب أية دولة ــ في قمة الازمة الاقتصادية ــ بفكرة قطع الجزء البسيط الباقي من تجارتها الدولية مع اليابان ــ وكانت بريطانيا العظمى هي الدولة الكبرى الوحيدة التي يمكن أن يقال انها ذات

ركيزة فى الشرق الأقصى ، وكان من الممكن على الأقل توقع العمل من الانجليز فى اللحظة التى يجبرون فيها على تعدى منسوب الذهب ويواجهون انتخابات عامة مستمرة وعلى أية حال ، فحتى بريطانيا العظمى ، بالرغم من أنها دولة كبرى فى الشرق الاقصى ، لم يكن لديها وسائل للعمل • وقد أعطت معاهدة وشنجطن البحرية اليابان سيادة محلية فى الشرق الاقصى ، وثبتت الحكومة البريطانية المتعاقبة هذه السيادة عندما أرجأوا عمدا بناء قاعدتهم فى سنغافورة • ما هو المكسب الذى يمكن الحصول عليه اذا ما ادانت عصبة الامم اليابان ؟ مجرد تفاخر بعدالة أدبية سيجعل اليابان فى اقصى مالها من تأثير تقف ضد المصالح التجارية الانجليزية — كانت هناك حجة واحدة فى جانب تلك الادانة الأدبية • وكانت الولايات المتحدة — رغم انها ليست عضوا فى عصبة الامم — دولة كبرى فى الشرق الاقصى الى أقصى الحدود وقد أيدت — « عدم الاعتراف » بأية تغييرات اقليمية تتم بالقوة • وكان فى هذا مواساة لمبادىء جينيف النظرية • ولكن بما ان الامريكان لم يقترحوا اقتضاب تجارتهم مع اليابان فقد كان فى هذا مواساة أقل للصينيين وللادراك الانجليزى العملى •

وسواء كان هذا صوابا أو خطأ ، فان الحكومة الانجليزية علقت على اعادة السلام أهمية أكبر من التباهى بالعدالة الأدبية •

ولم تقتصر وجهة النظر هذه على الساخرين القساة الذين شغلوا وزارة الخارجية أو على الساسة المفترض فيهم الرجعية — وعلى رأسهم ماكدونالد — الذين تالفت منهم الحكومة الوطنية وشارك فيها حزب العمال الذى أدان فى هذا الوقت الحرب وليس العدوان • ان أى عمل بريطانى ضد اليابان فى سنة ١٩٣٢ اذا ما كان مثل هذا ممكنا ، كان سيقابل بمعارضة جماعية فى اليسار كدفاع خبيث عن المصالح الامبريالية اما ماكان يريده حزب العمال — وكان يمثل فى هذا شعورا بريطانيا عاما — فهو ان بريطانيا العظمى يجب الا تكسب من الحرب • واقترح حزب العمال حرمان كلا الجانبين اليابان والصين من امدادهما بالسلاح ، وقبل هذا الاقتراح من الحكومة الوطنية • وذهبت الحكومة الى ابعد من هذا • لقد نظر الانجليز دائما الى عصبة الامم على انها أداة للتوفيق ، وليست نظاما للأمن ، وقد حان الآن استخدام هذه الآله • وشكلت عصبة الامم لجنة ليتون بناء على مبادرة يابانية ، لاكتشاف الحقائق عن منشوريا ولاقتراح حل ، ولم تصل اللجنة الى قرار بسيط — لقد وجدت ان كثيرا من شكايات اليابانيين كان لها ما يبررها • ولم تدن اليابان كمعتدية وان كانت ادينت لالتجائها الى القوة

قبل أن تستنفذ كل الوسائل السلمية للترضية وانسحب اليابانيون من عصبة الأمم محتجين ، ولكن السياسة الانجليزية نجحت فى حقيقة الأمر ، وراض الصينيون أنفسهم على فقد اقليم لم يحكموه منذ بضع سنوات ، وفى سنة ١٩٣٣ عاد السلام بين الصين واليابان ، وتكشفت المسألة المنشورية فى السنوات التالية عن أهمية أسطورية ٠ واعتبرت كعلامة بارزة فى الطريق الى الحرب والقرار الحاسم الأول المنطوى على خيانة لعصبة الأمم ، وخاصة من جانب الحكومة البريطانية ٠ وفى الواقع فان العصبة نظمت تحت قيادة انجلترا ما كان الانجليز يظنون انه مرسوم لها ان تعمله فقد حدث من نزاع ووصلت به ــ مهما بدا ــ الى نهاية ٠ وفضلا عن هذا فان المسألة المنشورية عملت بشكل ابعد ما يكون عن اضعاف القوى المانعة فى العصبة وانما على وجودها ٠ انه شىء يدعو للشكر لهذه المسألة ان العصبة ــ تحت التأثير البريطانى مرة ثانية ــ أقامت وضعا ، نفتقده حاليا ، لتنظيم العقوبات الاقتصادية ٠ وجعل هذا النظام ــ لسوء حظ الجميع ــ عمل العصبة فى الحبشة فى سنة ١٩٣٥ ــ ممكنا ٠

وكان للمسألة المنشورية أهمية معاصرة ، ولو انها غير منسوبة بالتبعية لها ٠ لقد حولت الاهتمام عن أوربا فى اللحظة نفسها التى اصبحت فيها القضايا الأوربية حادة ، كما جعلت الحكومة البريطانية بشكل خاص ضجرة بصورة لم يسبق لها نظير بالمشاكل الأوربية ٠ ودعمت ــ بادلة لا يمكن الرد عليها تفضيل بريطانيا للمصالحة ولو كان ضد الأمن ــ كما وضعت الاطار للمناقشات التى دارت آنذاك فى اجتماع نزع السلاح فى اوائل سنة ١٩٣٢ ٠ وكان توقيت هذا الاجتماع غير مناسب بشكل غريب كان قد عهد الى الدول الكبرى المنتصرة بمثل هذا العمل منذ سنة ١٩١٩ عندما فرضت معاهدة الصلح نزع السلاح على ألمانيا كخطوة أولى نحو « تحديد عام للتسلح لكل الدول » وكان هذا بعيدا من الوعد بان المنتصرين سيخفضون سلاحهم الى المستوى الألمانى ، ولكنه كان وعدا بأنهم سيفعلون شيئا ٠ وتبخر هذا الوعد شيئا فشيئا خلال سنة ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ ٠ وتلاعب الألمان بخيوط ذلك التخلص ٠ اصر الألمان اصرارا متزايدا على ان المنتصرين اما ان ينجزوا وعدهم أو يحلوا ألمانيا من وعدها ٠ وعضدت حكومة العمال الانجليزية التى تولت الحكم فى سنة ١٩٢٩ ، هذا الدفع الألمانى ٠ وتمسك كثير من الانجليز بان الاسلحة الكثيرة كانت فى حد ذاتها سببا للحرب ــ أو بمعنى آخر اوجدت الاسلحة الكثيرة الارتباك وسوء الفهم الذى يتحول الى حرب (كما حدث فى أغسطس سنة ١٩١٤) قبل أن تتمكن مرحلة تهدئة الخواطر من ان تعمل عملها ٠ وكان رمزى ماكدونالد رئيس

الوزراء شغوفا بان يستعيد المبادرة التي أخذها في سنة ١٩٢٤ وان يكمل أسلوب التهدئة • كان مسئولا بشكل أساسي عن نجاح مؤتمرلندن البحري في سنة ١٩٣٠ ، الذي اتسع في ادخال أنواع أوسع من السفن الى الخطر المتبادل في المعارك البحرية والتي وافقت عليها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة واليابان في سنة ١٩٢١ • وحتى مؤتمر لندن فقد احتوى تحذيرا مشئوما بالنسبة للمستقبل ، لم يلتفت اليه في هذا الوقت • وهنا ولأول مرة استفزت المناقشات ايطاليا حتى طلبت المساواة البحرية مع فرنسا ـ وهو المطلب الذي كان الفرنسيون مصرين على مقاومته ، وهكذا بدأ النفور بين الدولتين ؛ ذلك النفور الذي حمل ايطاليا أخيرا الى الجانب الألماني •

وفي حكومة العمال الثانية اخضع ماكدونالد وزارة الخارجية وهو متذمر لآرثر هندرسون ولم يلتق الرجلان تماما في وجهات نظريهما • فهندرسون ـ بعكس ماكدونالد ـ كان وزير دولة خلال الحرب العالمية وكان من الصعب عليه ان ينظر الى الحرب كحماقة غير ضرورية • وحيث رفض ماكدونالد القلق الفرنسي باعتباره وهما ، رغب هندرسون في التوفيق بين نزع السلاح والأمن • واقترح أن تستخدم نزع السلاح كرافعة لزيادة التعهدات البريطانية لفرنسا، بشكل أكثر مما كان يأمل أوستن تشمبرلن أن يفعله من قبله بمعاهدة لوكارنو ، بالرغم من أن التعهدات سوف لاتكون بطبيعة الحال باهظة اذا ما خفض السلاح في كل مكان • وبعث هندرسون في الفرنسيين الأمل بانهم اذا ما تعاونوا على نزع السلاح فانهم سيلقون تعضيدا متزايدا من بريطانيا العظمى في مقابل ذلك وكانت هذه صفقة جيدة من وجهة النظر الفرنسية ـ هذا على الرغم من أن أقلية من الفرنسيين ـ أو ربما لا احد اطلاقا ـ ادركت تماما عدم فاعلية جيشهم كسلاح هجومي وحتى أقل من هؤلاء رحبوا بمطمح كبح جماح المانيا الى الأبد على يد القوة الفرنسية وحدها ان الامن سوف يأخذ مضمونا مختلفا عندما يجد الانجليز أنفسهم يفكرون في شروط عسكرية عملية بدلا من الاتكال على اتفاقية لوكارنو وربما يعترفون في النهاية بالحاجة الى جيش فرنسي عظيم ، أو يجبرون على زيادة جيشهم • وضغط الفرنسيون بناء على ذلك أيضا من أجل عقد مؤتمر لنزع السلاح وعلى ان يكون تحت رئاسة هندرسون ، ولم يكن هذا ببساطة ضريبة في مقابل هباته كداعية للسلام برغم ماهي عليه من ضخامة ـ كانت الى جانب ذلك مسألة حسابية : فبريطانيا العظمى لن تستطيع أن تتخلص بسهولة من الالتزامات المتزايدة التي لابد أن تنشأ من نزع السلاح العام عندما يكون وزير الخارجية البريطانية ، كأمر واقع ، في مركز الرئاسة في مؤتمر نزع السلاح •

وتغيرت الظروف بشكل مؤسف بمرور الوقت حتى ان مؤتمر السلام اجتمع فى الأيام الأولى لسنة ١٩٣٢ . وكانت حكومة العمال قد سقطت ولم يعد هندرسون وزيرا للخارجية بعد وكرئيس للمؤتمر ، لم يعد فى امكانه ان يلزم بريطانيا العظمى ، ولكنه يستطيع فقط ان يدفع حكومة بلا فعالية، الى ما كان يناهضه سياسيا . ولم يعد ماكدونالد يسير وهندرسون يدفعه، وانما اذا ما حدث هذا فكان الشد الى الوراء من وزير الخارجية الجديد سير جون سيمون ، عضـــو حزب الأحرار الذى كان فى حكم المستقيل عند اشتعال الحرب فى سنة ١٩١٤ ومستقيلا كأمر واقع احتجاجا على التجنيد الاجبارى بعد ذلك بثمانية عشر شهرا . ونظر سيمون كنظرة ماكدونالد الى القلق الفرنسى على أنه وهم . أكثر من هذا فقد كانت الحكومة الوطنية فى موقف اقتصـــادى عصيب وعلى العكس تماما من زيادة تعهداتها رغبت انجلترا فى تخفيض تلك الالتزامات القائمة الى أبعد مدى ووجد الفرنسيون أنفسهم لخيبة املهم مضطرين الى نزع السلاح دون الحصول على أى تعويض. ولقد أخبرهم ماكدونالد المرة تلو الأخرى « ان طلبـات الفرنسيين تحلق دائما الصعوبات لدرجة انهم يطلبون من بريطانيا العظمى ان تأخـــذ على عاتقها التزامات أكثر ، ويجب ألا يتم التفكير فى هذا فى الآونة الحاضرة» (١) وكان الشيء الوحيد غير الصحيح فى هذا القول هو الايماءة بأنه من المحتمل ان يتغير موقف انجلترا .

لقد كان للانجليز حيلتهم الخاصـــة لتحريف فكرة نزع السلاح فى سبيل فائدة الأمن . وحيث أمل الفرنسيون فى توريط الانجليز ، كان الانجليز بدورهم يأملون فى جذب الولايات المتحـــدة ـــ كعضو فى مؤتمر نزع السلاح وان لم يكن فى عصبة الامم ـــ وربما كان لهذه الخطة بعض المغزى بينما كان الجمهوريون فى الحكم ولكنها لم تصب الهدف فى نوفمبر ســـنة ١٩٣٢ بانتخاب ف . د . روزفلت الديمقراطى كرئيس للولايات المتحدة . وذلك لأنه على الرغم من ان الديمقراطيين دعوا الى عصـــبة الأمم بواسطة ويلسون في ســـنة ١٩١٩ ، وبرغـــم ان روزفلت هو الذى زج بالولايات المتحدة فى السياسة العالمية بعد ذلك ، فان انتخابات نوفمبر سنة ١٩٣٢ كانت نصرا لسياســـة العزلة وأصـــبح الديمقراطيون عندئذ ويلسونيين مضللين واعتقد البعض أن ويلسن خدع الشعب الأمريكى ، واعتقد آخرون ان الساسة الأوربيين خدعوا ويلســـون . واعتقد جميعهم

---

(١) محادثات ماكدونالد مع بول فركور فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٢ سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثانية ، الجزء الرابع رقم ٢٠٤ .

تقريبا ان الدول الكبرى الأوربية ـ والحلفاء السابقين بصفة خاصة ـ على مستوى من الشر لا يرجى معه صلاح وان امريكا كلما قللت من اهتمامها بأوربا كلما كان ذلك أفضل لها • ان المثالية التى جعلت الامريكيين ذات مرة شغوفين لانقاذ العالم هى التى جعلتهم يديرون ظهورهم له • وقدمت الأغلبية الديمقراطية فى الكونجرس سلسلة من الاعتبارات التى تجعل من المستحيل على الولايات المتحدة أن تلعب أى دور فى الشئون العالمية ، وقبل الرئيس روزفلت تلك الاعتبارات دون أى اشـــارة بعدم الموافقة • ولقد عزز تأثيرهم الاقتصاديات الوطنية الواســـعة التى صاحبت حركة النظام الجديد New Deal .

لقد كانت لفتة خاطفة تعبر عن الاتجاه نفسه عندما اعترف حـكم روزفلت فى النهـــاية بالاتحاد الســوفيتي ورحب بليتفينوف مستشار الخارجية السوفيتية فى واشـــنجطن وأصبح ابعاد روسيا عن أوربا يؤخذ على أنه أمر سليم من وجهة النظر الأمريكية ولم يكن فى الامكان توقع أى التزام أوربى من قبل أمريكا ، كما ان الانجليز أنفسهم أبعدوا عن أوربا بواسطة النفوذ الأمريكى ، وذلك على أحسن الفروض •

وبلغ ســوء الحظ بمؤتمر نزع السلاح مدى أبعـد عندما تم وضع التعويضات فى صيغتها النهائية فى صيف سنة ١٩٣٢ لأنه بينما كان من الممكن أن يكون التخلص منها من قبل شيئا يدعو للاعجاب ، فان هــذه اللحظة كانت أسوأ وقت لعمل هذا • كانت الحكومة الألمانية التى انتقلت فى ذلك الوقت من بروننج الى بابن ـ أضعف وأقل شعبية من أى وقت مضى ، ولو أنها كانت لازالت طموحة للتأييد الشعبى فيما يتعلق بالشئون الخارجية ولم تعد التعويضات تمثل بعد شيئا مؤسفا ، واحتل نزع السلاح الذى اقتصر على الجانب الألمانى وحده مكانها وأصبحت أية مفاوضات واقعية مستحيلة ، فالحكومة الألمانية كانت فى حاجة الى نجـــاح عاطفى ، وترك الألمان مؤتمر السلام فى احتجاج درامى وأغروا بعد ذلك بالعودة بوعد فى « مساواة فى الوضع من خلال نظام أمن » • وكان هذا الوعد بلا معنى ، لأن الفرنسيين اذا ماحصلوا على الأمن، فلن تكون هناك مساواة فى الوضع، فاذا لم يحصلوا على الأمن فانه لن تكون هناك مساواة ولم يؤثر الوعد فى الناخبين الألمـان • كما لم يكن من الممكن التأثير فيهم حتى ولو بتنـازل حقيقى • ان ما كان له وزن فى نظرهم هو الفقر والبطـالة الضخمة اما المصارعة على نزع السلاح فقد عالجوها كما لو كانت « رنجة » هائلة وقد كانت فى الواقع كذلك ، وبذل ساسة الحلفاء كل ما فى وسعهم لمساعدة

بابن بالتلاعب بالألفاظ ولم يكن قد خطر لهم حتى هذه اللحظة ان هناك أى خطر ألمانى جاء فى ســـنة ١٩٣٢ خاف الناس ، وكانوا على حق فى خوفهم هذا ، من انهيار ألمانيا وليس من قوة ألمانيا . وكيف كان فى وسع أى مراقب معتدل أن يفترض ان دولة فيها سبعة ملايين عاطل ، وبلا احتيــاطى من الذهب ، وذات تجــارة خارجية فى قمة انكماشها ، ستصبح فجأة دولة عسكرية كبرى ؟ ان كل التجارب الحديثة تعلم أن القوة تأتى مع الثورة ، وفى سنة ١٩٣٢ كانت ألمانيا تبدو فقيرة جدا فى الواقع .

وانقلبت تلك التقديرات رأسا على عقب فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ عندما أصبح هتلر مستشارا ، حادث يبدو الآن مغلفا بصورة أسطورية . لم يكن « اغتصابا للسلطة » رغم مفاخرة الحزب الوطنى الاشتراكى فقد عين هتلر مستشارا بواســطة الرئيس هنــدنبرج بطريقة شرعية بحتة ولأسباب ديمقراطية راسخة . ومهما قال المفكرون الشرفاء ، أو الأحرار أو الشيوعيون فان هتلر لم يعين مستشارا لانه قد يساعد الرأسماليين الألمان على تحطيم الاتحادات العمالية ، أو لانه قد يعطى الجنرالات الألمان جيشا عظيما وأقل من هذا حربا عظمى ولكنه عين لانه وحلفاءه القوميين يستطيعون تكوين أغلبية فى الرايخستاغ وأن هذا ينهى أربع سنوات من الحكم بقرار رئاسى . ولم يكن يتوقع منه أن يحدث تغيرات ثورية فى كل من الشئون الداخلية والخارجية . وعلى العكس فان السياسيين المحافظين بقيادة بابن ، الذين زكوه عند هندنبرج ، أبقوا على مقاليد الأمور لأنفسهم وانتظروا من هتلر أن يكون رئيسا طيعا وانقلبت توقعاتهم لتصبح خطأ فقد حطم هتلر القيود الصــناعية المرســـومة لتقييده وأصبح تدريجيا ديكتاتورا مطلق القوة ــ وان كان فى صــورة أكثر تدرجا مما تصــوره الأسطورة . لقد غير معظم الأشياء فى ألمانيا ، دمر الحرية السياسية وحكم القــانون ، وبدل الاقتصـــاديات والميزانية الألمانية وتشاحن مع رجال الكنائس وألغى الولايات الانفصالية وجعل من ألمانيــا للمرة الأولى دولة موحدة . على أن مجالا واحــدا لم يغير فيه شيئا ، فقــد كانت سياسته الخارجيــة هى نفســها سياسة أســلافه ، سياسة أولئك الدبلوماسيين المحترفين فى وزارة الخارجية وكل الألمان فى الواقع . وكان هتلر أيضا يريد أن يحرر ألمانيا من قيود معاهدة الصلح ، وأن يستعيد الجيش القوى، وعندئذ يجعل ألمانيا أكبر قوة فى أوربا مستندة فى ذلك الى أهميتهــا الطبيعية . وكانت هناك اختلافات عرضية عند التطبيق الواقعى . وربما

يكون هتلر أقل تركيزا على النمسا وتشيكوسلوفاكيا اذا لم يكن قد ولد كأحد رعايا ملكية الهابسبورج ، وربما يكون أصله النمساوى قد جعله أقل عداء بصفة أساسية للبولنديين على أن النمط العام ظل غير متغير ٠

ان هذا غير مقبول الآن ٠ لقد رأى الكتاب الموثوق بهم فى هتلر صانعا لنظام يجهز عمدا منذ البداية لحرب عظمى قد تحطم الحضارة القائمة وتجعل منه سيدا للعالم ٠ وفى رأيى أن الساسة كانوا مستغرقين فى الحوادث لدرجة جعلتهم لا يتتبعون خطة سبق اعدادها ٠ كانوا يخطون الخطوة ، فتتبعها بالضرورة الخطوة الثانية ٠ خلق المؤرخون الأنظمة كما حدث بالنسبة لنابليون والأنظمة التى نسبت الى هتلر كانت فى الحقيقة خاصة بهاج تريفوز روبر واليزابيث ويسكمان وآلن بلوك ، وهناك بعض الأساس لتلك الأفكار ٠ فهتلر نفسه كان مؤرخا هاويا أو بمعنى أصح معمما فى التـــاريخ وكان يخلق الأنظمة فى وقت فراغه ٠ وكانت تلك الأنظمة أحلام يقظة ٠ وقد أدرك « شابلن » هذا بعبقرية فنية عندما صور « الديكتاتور العظيم » يحول العالم الى لعبة بالونية ويضربها نحو السقف بطرف اصبع قدمه ٠ وكان هتلر يرى نفسه فى أحلام اليقظة هذه سيدا للعالم ٠ على أن العالم الذى كان يحلم أن يسوده ، والطريقة التى يستطيع بها فعل ذلك تغيرت بتغير الظروف ٠ وقد كتب « كفاحى » فى سنة ١٩٢٥ تحت تأثير الاحتلال الفرنسى للروهر ، وكان هتلر يحلم حينئذ بتحطيم السيادة الفرنسية وكان المنهج هو أن يكون حليفا لايطاليا وبريطانيا ٠ وقد وزعت أحاديث المائدة الخاصة به فيما بعد فى الأراضى المحتلة خلال الحملة ضد الاتحاد الســوفيتى ، وكان هتلر يحلم بعد ذلك بامبراطورية خيالية تبرر منطقيا خطة سيره فى الغزو وأخذت وصيته الأخيرة من القبو عندما كان فى لحظـة الانتحار ، ولم يكن من المدهش انه حول هـذا الى عقيـدة للدمار العالمى ٠ واكتشف البراعة الأكاديمية فى تلك العبـارات تلميذ نيتشة وعالم السياسة الجغرافية أو منافس أتيلا ٠ انى لأسمع فيها تلك التعميمات لعقل قوى ، ولكن غير مثقف وعقائد هى صدى لأحاديث تتردد فى أى مقهى نمساوى أو بار ألمانى لشرب البيرة ٠

لقد كان هناك عنصر واحـد من عناصر النظـام فى سياسة هتلر الخارجية وان لم تكن جديدة آنذاك ٠ فقد كانت نظرية قارية كما لو كانت نظرة سترسمان من قبله ٠ ولم يحاول هتلر أن يعيد الى الحياة « السياسة العالمية » التى اتبعتها ألمانيا قبل سنة ١٩١٤ ٠ فهو لم يضع خططا لمعركة

بحرية كبرى ولم يظهر حزنا على المستعمرات المفقودة ، فيماعدا تدبير لاشاعة الارتباك عند البريطانيين ولم يكن مهتما حتى بالشرق الأوسط ـ منذ أن أضاع الفرصة الكبرى في سنة ١٩١٤ بعد هزيمة فرنسا . ان أى فرد يستطيع أن يعزو هذه النظرة الى أصل هتلر النمساوى ، بعيدا عن المحيط، أو يعتقد انه تعلم هذا من بعض علماء السياسة الجغرافيين فى ميونخ ، ولكنها عكست أساسا أحوال ذلك الوقت . فألمانيا كانت قد هزمت على يد الدول الكبرى الغربية فى نوفمبر سنة ١٩١٨ وكانت قد هزمت ، هى نفسها ،روسيا فى السنة السابقة . ولم يتحد هتلر مثله مثل سترسمان ـ الاتفاقية الغربية . لم يكن يرغب فى تحطيم الامبراطورية البريطانية ، أو حتى فى حرمان الفرنسيين من الالزاس واللورين . وكان فى مقابل ذلك يريد من الحلفاء أن يقبلوا قرار مارس سنة ١٩١٨ ، وأن يتخلوا عن عدم التنفيذ المفتعل لهذا القرار بعد نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وأن يعترفوا بان ألمانيا منتصرة فى الشرق . ولم يكن هذا برنامجا غير معقول ، ووافق كثير من الانجليز ، اذا ما غضضنا الطرف عن ميلنر وسمطس على هذا حتى فى سنة ١٩١٨ ؛ وزاد عليهم كثيرون فيما بعد ، وتوصل معظم الفرنسيين شيئا فشيئا الى الرأى نفســـه وتمتعت الدول القوميـــة فى شرق أوربا بشعبية قليلة وان ظل الاتحاد السوفييتى أقل شعبية . وعندما تطلع هتلر الى أن يعيد اتفاقية برست ـ ليتوفسك كان فى استطاعته أيضا أن يأخذ موقف بطل الحضارة الأوروبية ضد البلشفية والخطر الأحمر . وربما كانت مطامعه محدودة بذكاء بالنسبة للشرق ، ذلك لأن من المحتمل ان الغزو هنـــاك سيكون المقدمة فقط للغزو فى أوربا الغربية أو على نطـــاق العـــالم . ان أحدا لا يســـــتطيع أن يؤكد شيئا . فالحوادث وحدها فى استطاعتها أن تعطى الاجابة ، وبالتواء عجيب فى الظروف ، لم تعط هذه الاجابة مطلقا . وضد كل التوقعات ، وجد هتلر نفسه فى حرب مع الدول الكبرى الغربية قبل أن يغزو الشرق ، ومع ذلك كان التوسع شرقا هو الهدف الأول لسياسته ان لم يكن الهدف الوحيد .

لم يكن هناك شىء مبتكر فى هذه السياسة . ان الصفة الفريدة فى هتلر كانت موهبته فى ترجمة الأفكار الشائعة الى أفعال . كان يأخذ على محمل الجد ما هو بالنسبة للآخرين مجرد أقوال أن القوة الدافعة فيه كانت حرفية رهيبة . لقد كال الكتاب المـديح للديمقراطية لمـدى نصف قرن وانهمك هتلر فى خلق ديكتاتورية محتكرة لجميع موارد الدولة . وكان كل فرد تقريبا فى ألمانيا يفكر فى انه لابد من عمل « شىء » بالنســـبة

للبطالة • وكان هتلر أول من أصر على العمل • لم يقم وزنا للقواعد التقليدية وبذلك انزلقت أقدامه فوق أرض اقتصاديات العمالة الكاملة تماما كما فعل ف • د • روزفلت في الولايات المتحدة • وكذلك لم يكن هناك جديد في العداء للسامية ، فقد كانت « اشتراكية الحمقى » لسنوات عديدة والقليل هو الذى تولد منها • لقد قال شيبل المستشار النمساوى في سنة ١٩١٩ عن العداء للسامية ما كان حزبه ينادى به وان لم يكن يمارسه • وكان كثير من الألمان يشعرون بالغثيان كلما أعقب عمل من أعمال التعذيب عملا آخر • حتى يبلغ الذروة عند بشاعة غرف الغاز التى لا يمكن وصفها ، ولكن القليلين عرفوا السبيل الى الاحتجاج • ان كل شيء فعله هتلر ضد اليهود نبع منطقيا من العقائد العنصرية التى كان معظم الألمان يؤمنون بها ايمانا مبهما • وكان هذا هو الشيء نفسه بالنسبة للسياسة الخارجية • لم يكن كثير من الألمان يحرصون حقا بشكل حماسى وباصرار عما اذا كانت ألمانيا تسيطر مرة أخرى على أوربا • ولكنهم كانوا يتحدثون عن هذا كما لو انهم فعلوه • ألزمهم هتلر بكلمتهم • لقد جعل الألمان يكرسون حياتهم اما لتتناسب مع مستوى مهنهم الرفيعة أو لتكون دونها مما سبب أسفهم البالغ فى كلا الحالين •

ولم يكن هتلر – من ناحية المبدأ والعقيدة ، بأكثر سوءا واستهتارا من كثير من السياسيين المعاصرين الآخرين • أما فيما يتعلق بالأفعال الشريرة فكان يبذهم جميعا • كانت سياسة الساسة الغربيين تعتمد كذلك على القوة كما تعتمد السياسة الفرنسية على الجيش ، والسياسة الانجليزية على القوة البحرية • ولكن هؤلاء الساسة كانوا يأملون ألا تكون هناك ضرورة لاستعمال هذه القوة • وكان هتلر ينوى استعمال قوته أو على أية حال فانه كان يهدد باستعمالها • واذا ما بدت الحكمة الغربية أسمى فلأنها كانت الى حد كبير حكمة الأمر الواقع ، بينما كانت حكمة هتلر هى لا أخلاقية اعادة النظر • لقد كان هناك تناقض غريب ، وان كان سطحيا فقط ، فى هتلر بين الغايات وبين الوسائل • كان غرضه التغيير وقلب الوضع الأوربى الكائن ، وكان أسلوبه الصبر • وبالرغم من تفاخره وأحاديثه العنيفة فانه كان أستاذا فى لعبة الانتظار • لم يقم أبدا بهجوم أمامى على موقع مجهز ، أو على الأقل لم يفعل ذلك حتى ذلك الحين الذى فسدت فيه أحكامه بالانتصارات السهلة • ولقد فضل الانتظار كما فعل يشوع

---

(١) هذا بالنسبة للشارع – أو ربما للمزراب •

امام أبواب أريحا فضل الانتظار حتى ضعفت القوى المعارضة له نتيجة لارتباكاتها ، وفرضت النجاح عليه • كان قد طبق بالفعل هذا الأسلوب من قبل ليقبض على زمام السلطة فى ألمانيا • انه لم يستول على الحكم • انتظره لكى يدفع اليه بواسطة أولئــك الذين حاولوا من قبل أن يبقوه بعيدا عنه • ففى يناير سنة ١٩٣٣ كان بابن وهندنبرج يتوسلون اليه ليصــبح مستشارا وقد قبل تكرما منــه • وهذا ما تم عمله فى المسائل الخارجية • لم يقدم هتلر مطالب محدودة انما أعلن انه غير راض ثم انتظر لتتدفق لتنازلات فى حجره • لم يفعل سوى مد يده للمزيد ولم يكن هتلر يعرف فى أول الأمر أى دولة أجنبيــة ، وكان نادرا ما ينصــت الى وزير خارجيته أو يقرأ أبدا تقارير سفرائه وكان يحكم على الساسة الأجانب بالبديهة • كان مؤمنا بأنه أخذ كل مقاييس الساسة البورجوازيين الألمان منهم والأجانب على حد سواء ، وان أعصابهم ستتحطم قبله • وكان هــذا الاعتقاد قريبا الى حد كاف الى الحقيقة ، الى حد شد معه أوربا الى مجال النكبة •

وربما لم يكن هذا الانتظار فى أول الأمر عن وعى أو ارادة • ان سادة مهنة الحكم العظام هم أولئك الذين لا يعرفون ماذا يفعلون • وفى سنوات حكمه الأولى لم يعن هتلر كثيرا بالشئون الخارجية • وأنفق معظم وقته فى برختسجادن بعيــدا عن الحــوادث ، يحلم على طريقته الفاشلة القديمة ، وعندما تحول الى الحياة العملية كان اهتمامه الكبير هو الاحتفاظ بسيطرته المطلقة على الحزب الوطنى الاشتراكى • وراقب ، كما زاد بنفسه من حدة المنافسة بين القــادة النازيين الأساسيين • وعندئذ جاء الابقــاء على السيطرة النازية على الدولة الألمانية والشعب الألمانى ، وبعد ذلك على التسلح والتوسع الاقتصادى، وكان هتلر يحب تفصيلات الآلات والدبابات والطائرات والمدافع • وكان مفتونا ببناء الطرق ، وأكثر من هذا بالمشروعات المعمارية • وكانت الشئون الخارجية فى قاع القائمة • وعلى كل حال فقد كان هناك القليل الذى يســتطيع أن يفعله حتى يعاد تسليح ألمانيــا • وفرضت عليه الأحداث الانتظار الذى كان يفضله • وكان فى مقدوره أن يترك السياسة الخارجية وهو آمن للمحترفين القدماء فى وزارة الخارجية فمهما يكن من شىء فان أهدافهم كانت هى أهدافه نفسها كما كانوا الى جانب ذلك مهتمين بالتضييق على اتفاقية فرساى وكانوا يحتاجون فقط الى مهماز يدفعهم للعمل وللمبادرة المتباعدة والجسور التى وصلت بالأمور فجأة الى غايتها •

وسرعان ما تكشف هذا النمط فى المناقشات حول نزع السلاح ولم يكن ساسة الحلفاء واقعين تحت تأثير أى خداع بالنسبة لنوايا هتلر فقد زودوا بمعلومات دقيقة ومتقنة عن طريق ممثليهم فى برلين ــ معلومات وجدها سير جون سيمون « مخيفة (١) » وبالنسبة لهذا الأمر كانوا يستطيعون أن يقرءوا الحقيقة فى أى جريدة ، بالرغم من الحظر التام من ألمانيا لأى مراسلين انجليز أو أمريكيين • ولم تكن هناك غلطة أكثر من افتراض ان هتلر لم يعط الساسة الأجانب مزيدا من التحذير وعلى العكس فهو لم يعطهم الا كثيرا جدا •

ورأى الساسة الغربيون المشكلة بأكملها فى وضوح تام • ان ألمانيا لديها حكومة قوية ، وهذه الحكومة فى امكانها أن تجعل ألمانيا مرة أخرى قوة عسكرية كبيرة ، ولكن ماذا كان يجب على ساسة الحلفاء أن يفعلوه ؟ لقد طرحوا السؤال على أنفسهم وعلى بعضهم البعض والمرة تلو الأخرى وكان منهجا واضحا أن يتدخلوا ويمنعوا اعادة التسلح الألمانى بالقوة • لقد قدم الممثل العسكرى البريطانى هذا الاقتراح فى مؤتمر نزع السلاح (٢) • وكان قد اقترح بشكل دائم من الفرنسيين • ولقى الاقتراح رعاية متكررة وان كان يرفض دائما • كان غير عملى من جميع أوجهه • فمن الواضح أن الولايات المتحدة لن تساهم فى التدخل بل على العكس من ذلك فان الرأى العام الأمريكى سيعارضه فى عنف وهذا يهم بريطانيا العظمى كثيرا • وكان الرأى العام الانجليزى معارضا بالمستوى نفسه ، ليس رأى اليسار فحسب وانما فى داخل الحكومة نفسها • وبغض النظر عن أى اعتراض من ناحية المبدأ ، فان الحكومة لم تكن تستطيع أن تفكر فى نفقات متزايدة وأى تدخل لابد أن يكون باهظ التكاليف ــ ولا أية قوات مسلحة يمكن الاستغناء عنها • وبقى موسولينى أيضا منعزلا ، آملا بالفعل فى تحويل « اعادة النظر » لصالح ايطاليا • وبهذا لايبقى الا فرنسا وحدها ، وكان الفرنسيون مصممين طوال كل هذا على ألا يعملوا بمفردهم على انهم اذا ما كانوا أمناء مع أنفسهم فعليهم أن يضيفوا انهم لا يملكون القوات القادرة على التدخل • والى جانب ذلك فماذا كان يمكن للتدخل أن

---

(١) مضبطة سيمون عن فيبز الى سيمون ٣١ يناير سنة ١٩٣٤ السياسةالخارجية البريطانية المجموعة الثانية ، سادسا رقم ٢٤٠ •

(٢) مذكرات بقلم أ • س تمبرلى ١٠ مايو سنة ٣٣ السياسة الخارجية البريطانية المجموعة الثانية ، خامسا رقم ١٢٧ •

يحقق ؟ ان هتلر اذا ما سقط فان الفوضى ستؤدى فى ألمانيا الى وضع أسوأ مما أدى اليه احتلال الروهر، فاذا لم يسقط فان هناك احتمال اعادة تسليح ألمانيا بمجرد انسحاب القوات المحتلة ٠

كان البديل فى الجانب الآخر هو عمل لا شيء : ترك مؤتمر نزع السلاح وترك الحوادث تأخذ مجراها ٠ ورفض كل من الانجليز والفرنسيين هذا باعتباره « لا يمكن تصوره » و « لا يجب التفكير فيه » و « نصيحة يائسة » ٠ أى مخرج بقى : أين كانت اللفتة الماهرة المستقرة دائما فيما وراء الأفق والتى من الممكن أن ترضى الألمان دون أن تعرض فرنسا للخطر ؟ لقد استمر الفرنسيون على تصميمهم بأنهم يستطيعون فقط الموافقة على المساواة فى السلاح مع ألمانيا اذا ما حصلوا فقط على ضمان بريطانى قوى ، مستندا الى وعود جدية وجيش بريطانى ضخم ٠ ورفض الانجليز بالحسم نفسه هذا الاقتراح واحتجوا بانه مادامت المساواة سترضى الألمان فان أى ضمان لا ضرورة له ٠ ان هتلر اذا ما قرر اتفاقا « فانه على الأقل سيكون ميالا الى احترامه ٠٠٠٠ وسيلزم توقيعه ألمانيا كلها كما لم يلزمها أى ألمانى آخر فى كل ماضيها » (١) ٠ فاذا لم تحافظ ألمانيا على الاتفاقية « فان قوة معارضة العالم لها لا يمكن المبالغة فيها »(٢) « وسيعرف العالم ما هى نواياها الحقيقية » (٣) ٠ انه من المستحيل أن نقول ما اذا كان البريطانيون قد أخذوا محادثاتهم على محمل الجد ومن المحتمل انهم كانوا ما زالوا يعتقدون ان العناد الفرنسى كان العقبة الرئيسية فى سبيل أوربا يحوطها السلام ، ولم يكونوا بالدقة اللازمة عن كيفية ازاحة هذه الصلابة ٠

ان سابقة سنة ١٨٧١ كانت تملا رءوسهم ، وكانت روسيا آنذاك قد رفضت شروط معاهدة باريس التى تفرض نزع السلاح عليها فى البحر الأسود ، وقبلت الدول الكبرى الأخرى على شرط أن تحصل روسيا على الموافقة بواسطة مؤتمر دولى ، وكان القانون العام لأوربا مدعما ٠ واذا كان أحد المؤتمرات قد وضع المعاهدة ، فان مؤتمرا آخر يستطيع تمزيقها ٠

---

(١) فيبس الى سيمون ، ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٣ السياسة الخارجية البريطانية المجموعة الثانية ٦ رقم ٦٠

(٢) ماكدونالد محادثات دلادييه ١٦ مارس سنة ١٩٣٣ المرجع السابق رابعا رقم ٣١٠ ٠

(٣) مضبطة وزارة الخارجية ٢٥ يناير سنة ١٩٣٤ المرجع السابق سادسا رقم ٢٠٦ ٠

ولذلك فان الشيء الهام الآن لم يكن منع اعادة التسلح الالمانى ولكن التأكيد على أن يتم ذلك فى اطار اتفاق دولى · واقترح الانجليز أيضا أن ألمانيا لابد وأن تتقبل طواعية دفع ثمن « اضفاء المشروعية على مخالفاتها » (١) · لقد كان الانجليز يحبون دائما أن يأخذوا الجانب الصحيح للقانون وافترضوا بالطبع أن الألمان أحسوا بالشعور نفسه · وكان مما لا يمكنهم تصوره ان تفضل أية دولة كبرى العودة الى الفوضى الدولية « ومن الطبيعى أنه ليس فى نية هتلر أن يعود الى الفوضى الدولية فهو كذلك كان يريد نظاما دوليا» ولكنه يجب أن يكون « نظاما جديدا » وليس ترجمة معدلة لنظام سنة ١٩١٩ ·

ولقد كان هناك اعتبار أبعد مدى حدد أكثر من أى عتبار سواه تلك السنوات فقد افترض الجميع وبالأخص الانجليز والفرنسيين ان هناك متسعا من الوقت · فألمانيا كانت لا تزال كأمر واقع منزوعة السلاح عندما جاء هتلر الى الحكم · فليس لديها دبابات أو طائرات أو مدافع ثقيلة أو احتياطى مدرب وكان لابد من انقضاء عشر سنوات عليها طبقا للتجارب العادية ــ لكى تصبح دولة كبرى عسكرية هائلة · ولم يكن هذا التقدير مخطئا كلية · فقد شارك فيه هتلر وموسولينى وفى محادثاتهم كانوا دائما يفترضون أن سنة ١٩٤٣ ستكون سنة المصير ، لقد كان كثير من الانذارات المبكرة عن اعادة تسليح ألمانيا انذارات مزيفة · وعلى ذلك فان تشرشل عندما ادعى فى سنة ١٩٣٤ بان قوة الطيران الألمانية كانت أكثر بكثير مما زعمت الحكومة البريطانية ، وكذبه بالدوين ، كان بالدوين ــ كما نعرف الآن من التقارير الألمانية نفسها ــ على صواب وكان تشرشل مخطئا · وحتى فى سنة ١٩٣٩ لم يكن الجيش الألمانى مهيأ لحرب طويلة ، وفى سنة ١٩٤٠ كانت القوات الألمانية البرية أقل من الفرنسية فى كل شيء فيما عدا القيادة وارتكبت الدول الكبرى الغربية خطأين فقد فشلت فى التوصل الى حقيقة ان هتلر كان مغامرا يستطيع أن يلعب بخداع كبير بموارد غير كافية وفشلت كذلك فى أن تفهم انجازات شاخت الاقتصادية الذى أكد ان الموارد الألمانية كانت أقل مما يجب أن تكون عليه وكانت الدول ذات الحرية الاقتصادية الأكثر أو الأقل فى هذا الوقت تعمل بطاقة قدرها ٧٥٪ من قدراتها · لقد اتبع شاخت فى بادى الأمر نظام العمالة الكاملة وهكذا

---

(١) مضبطة ايدن فى تريال الى سيمون ٨ مارس ١٩٣٤ المرجع السابق سادسا رقم ٣٣٧ ·

استغل الاقتصاد الألمانى الى أقصى طاقته • ان هذا يعتبر الآن شائعـا وكان يبدو فوق التصور فى ذلك الحين •

لم يبق مؤتمر نزع السلاح نفسه طويلا بعد مجىء هتلر • ففى خلال صيف سنة ١٩٣٣ ضغط الانجليز والايطاليون على الفرنسيين ليهبوا ألمانيا مساواة نظرية فى التسلح • وعلى كل فقد كان هناك متسع من الوقت قبل أن تصبح هـذه المساواة حقيقة • وكادت تلك المحـاولات أن تكلل بالنجـاح وانزلق الفرنسـيون الى هاوية الخطر كلية • ففى ٢٢ سبتمبر تقابل الوزيران الانجليزى والفرنسى فى باريس • وأضمر الفرنسـيون الموافقة على المساواة أو شيئا قريبا منها • وعندئذ سأل دلادييه رئيس الوزراء الفرنسى « ما هو الضمان الذى سيكون لمراعاة الاتفاق ؟ » وعادت الصعوبة القـديمة مرة أخرى • ورد سيمون : « ان حكومة جلالة الملك لا تستطيع أن تقبل مسئوليات جديدة لها طبيعـة العقوبات • ان الرأى العام فى انجلترا لن يؤيدها » • وسمع صوت أكثر مسئولية من سيمون فقد حضر بالدوين زعيم حـزب المحافظين والرأس غير الرسمى للحـكومة البريطانية من ايكس لحضور الاجتماع وكان خلال اجازته يتمعن فى الوضع الأوربى وانه الآن يعضد سيمون : يجب ألا يكون هناك تعهدات بريطانية جديدة • وأضاف : « اذا ما كان فى الاستطاعة اثبات أن ألمانيا تسـلح نفسها فان وضعا جديدا سوف يظهر وعلى أوربا أن تواجهه ••• واذا ما ظهر هذا الوضع فان حـكومة جلالة الملك لابد أن تقدره بجـدية ولكن هذا الوضع لم يظهر حتى الآن » (١) • كان الصوت صوت بلدوين وان كانت الروح لا تزال روح ماكدونالد • وطلب من الفرنسيين أن يتخلوا عن تفوق كانوا يتصورونه حقيقة واقعة ولم يقدم لهم الا مطمحا بان شيئا غير محدد سيصنع اذا ما أساء الألمان التصرف ولم يرضهم هـذا وسحب الفرنسيون عرضهم المقدم على سبيل التجربة • وعندما استئونف المؤتمر أعلنوا انهم سيوافقون على المساواة مع ألمانيـا اذا ما بقى الألمـان منزوعى السلاح خلال فترة تجربة أخرى مداها أربع سنوات •

وكانت هذه فرصة هتلر • كان يعلم ان فرنسا تقف وحيدة وان كلا من بريطانيا العظمى وايطاليا تتعاطف مع الوضـع الألمـانى • وفى

---

(١) الاجتماع الانجليزى الفرنسى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٣ السياسة الخـارجية البريطانية المجموعة الثانية خامسا رقم ٤٠٦ •

١٤ أكتوبر انسحبت ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح وبعد ذلك بأسبوع تركت عصبة الأمم • ولم يحدث شيء وهالت مبادرة هتلر الوزراء الألمان. وعندئذ قال لهم « لقد تطور الموقف الى ما كان متوقعا له • ان الخطوات التهديدية ضد ألمانيا ليس لها سند مادى ولا هى بمتوقعة •• لقد مرت المرحلة الحرجة على الأرجح » (١) • وجاء البرهان على صدق هذا • فقد جرب هتلر طريقته فى الشئون الخارجية ونجحت • لقد انتظر حتى أصيبت المعارضة لألمانيا بالانهيار الأدبى من الداخل وعندئذ نفخها بعيدا كما لو كانت ريشة طائر • وعلى كل فان الفرنسيين لم يكن فى مقدورهم أن يخترقوا ألمانيا لمجرد أن الألمان تركوا مؤتمر نزع السلاح وانما كان فى استطاعتهم فقط القيام باجراء اذا ما أعادت ألمانيا تسليح نفسها • وعندئذ سيكون الوقت قد فات واستمر الانجليز فى التعاطف مع مطالب ألمانيا وحتى وقت متأخر يرجع الى يونية ١٩٣٤ • وكتبت التايمز : « فى السنوات القادمة هناك أسباب أكثر للخوف على ألمانيا من الخوف من ألمانيا » • واستمر حزب العمال فى مطلبه بنزع عام للسلاح كشىء تحضيرى للأمن. وكان ماكدونالد لازال يرسم المنهج لكل من الحكومة والمعارضة • وقد بلغت الثقة بهتلر حدا جعلته يغيظ الفرنسيين بعرضه الموافقة على عدم المساواة – تحديد الجيش الألمانى ب ٣٠٠ ألف رجل ، وسلاح طيران يبلغ نصف حجم السلاح الفرنسى • كانت ثقة هتلر فى محلها فقد أصبح الفرنسيون الآن ساخطين الى ما فوق الاحتمال وفى ١٧ أبريل سنة ١٩٣٤ رفض بارتو وزير الخارجية اليمينى فى حكومة الحزب الوطنى التى جاءت عقب اضرابات ٦ فبراير أن يوافق على شرعية أية اعادة تسلح ألمانى وأعلن : « ان فرنسا سوف تؤكد سلامتها من الآن فصاعدا بوسائلها الخارجية » • ومات مؤتمر نزع السلاح ، بالرغم من محاولات يائسة لاحيائه • وأطلق الفرنسيون طلقة البداية لسباق التسلح • وفشلوا لأسباب شخصية بعد ذلك فى أن يجروه • فقد نقصت كمية سلاحهم أثناء الاستعدادات لمؤتمر نزع السلاح ولم يعودوا حتى الى مستوى سنة ١٩٣٢ الا فى سنة ١٩٣٦.

ولم تعن نهاية مؤتمر نزع السلاح الحرب بالضرورة • كان هناك منهج ثالث بالرغم من صياح بريطانيا بضده وهو العودة الى الأساليب التقليدية فى الدبلوماسية • وبدأ الجميع فى حياء فى الاقتراب من حافة هذا الأسلوب منذ لحظة ظهور هتلر • وكان موسولينى هو الأول • انه

(١) مؤتمر الوزراء ١٧ أكتوبر سنة ١٩٣٣ وثائق فى السياسة الخارجية الألمانية الجزء ج ، ١١ رقم ٩ •

لم يحب أبدا جنيف وكل ما قامت من أجله . وباعتباره الفاشى الأول فى أوربا ملأه الغرور نتيجة لتقليد هتلر له . وافترض ان ألمانيا سوف تكون دائما مطية لايطاليا وليس العكس . وليس هناك شك فى انه كان يؤمن بأن تهديدات هتلر ومفاخره فارغة كما هى الحال بالنسبة له . وعلى كل وبغض الطرف عن خوفه من احياء ألمانيا فقد رحب بها باعتبارها رافعة لاستخلاص تنازلات لنفسه من فرنسا وربما من بريطانيا العظمى بالمثل فيما بعد ــ وهى النقطة التى أغفلها الانجليز . واقترح موسولينى حلفا للدول الكبرى الأربعة وأن تنصب الدول الكبرى الأربعة العظمى وهى : ألمانيا ــ بريطانيا العظمى ــ فرنسا وايطاليا من نفسها مرشدا لأوربا يضعون القانون للدول الأصغر وينفذون « مراجعة لاقرار السلام » . وسر الانجليز ، فهم كذلك كانوا يريدون استخلاص تنازلات من الفرنسيين وان كان أولا لصالح ألمانيا وان فكرة بريطانيا العظمى وايطاليا فى التوسط برفق بين فرنسا وألمانيا كانت فكرة قديمة . فقد لقيت ترحيبا فى لوكارنو بالرغم من ان موسولينى لعب عندئذ دورا ثانويا ودافع عنها جون مورلى فى سنة ١٩١٤ عندما حاول أن يبقى بريطانيا العظمى بعيدا عن الحرب وأيدها سيمون وماكدونالد فى سنة ١٩١٤ ورحبا بها الآن حتى أن الراديكاليين السابقين أخذوا الموقف الغريب وهو اعتبار موسولينى الدعامة الرئيسية لسلام أوربا . واستعد هتلر بدوره لأن يدع موسولينى يقوم بالصيد التمهيدى له وكان الفرنسيون ساخطين سجناء . كما بدأ بين مراقبين من الانجليزيين والايطاليين . وأذعنوا فى أول الأمر ، بالرغم من اصرارهم على أن اعادة النظر لا يمكن أن تنفذ الا برضاء جماعى فحسب يشتمل على الأطراف ذات المصلحة . وعندئذ تذرعوا بانسحاب ألمانيا من عصبة الأمم ليحطموا الحلف كلية . ولم يبرر هذا عقليا مطلقا . ومما لاشك فيه أن هذا ظل أساسا للسياسة الايطالية لعدة سنوات وللسياسة البريطانية حتى اندلاع الحرب تقريبا . والأكثر غرابة ان الفرنسيين داروا حوله قبل نهاية القصة .

لقد كانت أهمية الحلف القصوى فى هذا الوقت فى أوربا الشرقية فقد أخذ كل من الاتحاد السوفييتى وبولندا انذارا وان تمخض عن نتائج عكسية . فقد اتجهت روسيا من الجانب الألمانى الى الفرنسى ، بينما اتجهت بولندا الى حد ما ــ من الجانب الفرنسى الى الجانب الألمانى . كان أى اتحاد بين الدول الكبرى الأوربية الأربعة كابوسا للساسة السوفيت فقد يكون ــ كما اعتقدوا مقدمة لحرب تدخل جديدة وقد تحصنوا ضده حتى مجىء

هتلر – بتشجيع الاستياء الألمانى ضد فرنسا وبتشجيع التعاون الاقتصادى والعسكرى مع ألمانيا وكان قد بدأ فى رايالو . ولكنهم تغيروا الآن فعلى عكس ساسة الغرب أخذوا كلام هتلر على محمل الجد واعتقدوا انه كان يعنى القضاء على الشيوعية ليس فى ألمانيا فحسب وانما فى روسيا كذلك وخشوا ان أغلبية الساسة الأوربيين سوف يؤيدونه اذا ما فعل ذلك . وكانوا مقتنعين بان هتلر كان ينوى الاستيلاء على أوكرانيا وكانت مصلحتهم الذاتية دفاعية بحتة كما كانت أحلامهم عن الثورة العالمية قد تلاشت منذ أمد طويل . وكان خوفهم الأكبر فى الشرق الاقصى – حيث اليابان فى منشوريا وفى حالة سلم مع الصين – يبدون فى خطر وشيك الوقوع من هجوم يابانى . وكانت أفضل القوات السوفييتية موجودة فى الشرق الأقصى ولم يطلب القادة السوفييت من أوربا الا أن تتركهم وشأنهم . وفى حين كانوا قد فضحوا ذات مرة معاهدة العبودية لفرساى كانوا يعظون الآن باحترام القانون الدولى فواظبوا باخلاص على حضور مؤتمر نزع السلاح الذى كان من قبل خدعة بورجوازية حتى انهم انضموا فى سنة ١٩٣٤ الى « الخدعة البورجوازية » الأخرى ، عصبة الأمم .

وهنا كان حليف معد للفرنسيين : موقف حازم لدولة عظمى ضد « اعادة النظر » ، سوف يخلصهم من ضغط بريطانيا العظمى وايطاليا . وانزلق الاتحاد الى مصير غير معروف خلال سنة ١٩٣٣ . وكان اتحادا من نوع محدود فقط فقد تعلق الروس بالنظام الفرنسى لا لشىء الا لانهم اعتقدوا أنه سوف يقدم لهم أمنا متزايدا ؛ ولم ينبؤا بأنه قد يتضمن التزامات متزايدة . لقد جاوزوا فى تقديرهم حقيقة القوة الفرنسية من الناحية المادية والأدبية كما تجاوزوا – كما هو الحال بالنسبة لأى انسان فيما عدا هتلر – تقديرهم لقوة التعهدات المكتوبة على الورق ، بالرغم من تحررهم الظاهرى من الأخلاقية البورجوازية . وظنوا بدورهم أيضا أن هذا مخرج يمكن أن يضمنوا به القانون الدولى الى جانبهم . وفى الجانب الآخر لم يكن فى نية الفرنسيين الاحتفاظ بالتحالف الروسى على أى نطاق جاد فقد كانت ثقتهم فى القوة الروسية محدودة وبدرجة أقل فى الاخلاص الروسى . كانوا يعرفون ان الصداقة مع الاتحاد السوفييتى غير موافق عليها بشكل كبير فى لندن وبالرغم من انهم كانوا ساخطين أحيانا من دوافع الانجليز تجاه التهدئة الا انهم كانوا أكثر من هذا لا زالوا يخشون من فقد حتى تلك الأشياء البسيطة من المعونة الانجليزية . ولم تكن عودة التقارب الفرنسى السوفييتى الا اعادة الثقة وليس أكثر من هذا .

وحتى هذا كان كافيا لانذار موجهى السياسة الخارجية الألمانية ففى نظرهم كانت صداقة رابالو عنصرا أساسيا فى نهضة ألمانيا • فقد أعطتهم أمنا ضد بولندا وساعدت على استخلاص تنازلات من الدول الكبرى الغربية • وعلى المستوى العملى عضدت بعض مقاييس اعادة التسلح غير المشروع • وقال نيوراث وزير الخارجية : « اننا لا نستطيع أن نعمل دون تغطية روسيا لجبهتنا الخلفية » (١) •

وكتب مساعده بيلو : « ان العلاقات الألمانية ـ السوفيتية الطيبة ذات أهمية أساسية بالنسبة لألمانيا »(٢) • وظل هتلر وحده ثابتا لا يتحرك • ومما لا شك فيه ان عداءه السابق للشيوعية كان أصيلا • ومما لا شك فيه انه كنمساوى لم يشارك فى التقارب الى روسيا الذى كان عاما بين المحافظين البروسيين • ومما لا شك فيه انه رأى أن قطع العلاقات الودية بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى سيرفع أسهمه كمدافع عن الحضارة الأوربية ضد الثورة الشيوعية • وعلى كل فقد كان دافعه المباشر واحدا من التقديرات العملية : فروسيا لن تستطيع أن تفعل شيئا ضد ألمانيا • ليس لمجرد أنها مفصولة عن ألمانيا ببولندا • بل ان قادة السوفييت لم يكونوا يرغبون فى عمل شىء • وعلى العكس اتجهوا الى الجانب الفرنسى لانهم اعتقدوا ان هذا يؤدى الى مطالب أقل ويسبب مخاطر أقل من الابقاء على صداقة ألمانيا • انهم قد يقترعون ضد ألمانيا فى جنيف ، ولكنهم لن يقوموا بعمل • ورأى هتلر رابالو تذوب دون ألم •

وفى الجانب الآخر ، كان فى استطاعة بولندا القيام بعمل ضد ألمانيا وكانت تتكلم عن تنفيذ ذلك ، وأتت بالرغم من ان هذا كان شيئا أجوف ـ صيحات متكررة من وارسو عن حرب وقائية • ولم يفكر أى وزير ألمانى منذ سنة ١٩١٨ فى صداقة مع بولندا حتى لو كانت ذات طبيعة مؤقتة فقد كان أسى دانزج والممر شيئا عميقا جدا • كان هتلر متحررا من هذا التحيز كحريته بالنسبة لأى شىء آخر • وكانت احدى معايير السيادة التى قبض بها هتلر بالفعل على زمام الطبقة الحاكمة الألمانية • انه فى استطاعته التغاضى عن أعمق ما فى قلوبهم من أسى وهو مقياس كذلك

(١) مؤتمر الوزراء ٧ ابريل سنة ١٩٣٣ السياسة الخارجية الالمانية المجموعة ج ، أولا ، رقم ١٤٢ •

(٢) من بيلو الى ندولنى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٣ المرجع السابق ثانيا رقم ٦٦ •

للشعور بعدم الاهتمام أحس به الشعب الألمانى تجاه ما سمى بأحزانهم حتى ان هذا الاهمال مر دون همهمة جماهيرية • وتأسى بعض الألمان بأن التنازل كان وقتيا وتركهم هتلر يعتقدون ذلك • وكانت نيته الحقيقية أقل ارتباطا بطريقة أو بأخرى • على انه لم يقتصر أساسا على مجرد الرغبة فى اعادة النظر فى الحدود الألمانية • كان يريد أن يفرض سيادة ألمانيا فى أوربا ومن أجل هذا كان أكثر اهتماما بتحويل جيرانها الى تابعين أكثر من اهتمامه بالتهام أجزاء من أراضيها • واتبع هذه السياسة مع ايطاليا اذ رفض ما كان أكثر أسى بالنسبة له من دانزج أو الممر ـ جنوب التيرول لكى يضمن صداقة ايطاليا فى مقابل ذلك • وكان يعلم ان بولندا كايطاليا دولة تريد اعادة النظر بالرغم من أنها تدين باستقلالها لانتصار الحلفاء فى سنة ١٩١٨ ولهذا اعتقد أن بولندا كايطاليا والمجر سوف تنضم الى جانبه • ومن أجل هذا المكسب كان دانزج والممر ثمنا يستحق الدفع • ان هتلر لم يضم الأراضى كشىء مقصود لذاته • وكما أوضحت سياسته فيما بعد لم يكن لديه أى اعتراض على حمـــاية الدول الأخـــرى طالما تقـــوم بدور المطية له •

على ان هتلر فى هذه المسألة البولندية ـ وكما فى كثير من المسائل الأخرى ـ لم يأخذ المبادرة وترك الآخرين يقومون بعمله من أجله • وتاق بلنسوديسكى ومعاونوه الذين حكموا بولندا أن يلعبوا دور الدولة الكبرى • كانوا حانقين على حلف الدول الكبرى الأربع الذى بدا وكأنه موجه أساسا ضد بولندا ، وذعروا عندما تقاربت فرنسا والاتحاد الســـوفيتى ، ولم يستطع البولنديون أن ينسوا أبدا انه فى حين أثار دانزج والممر الاستياء الألمانى على حدودهم الغربية فانهم يكنون أضعاف هذا بالنسبة لأراضيهم غير المحددة بأية حدود فى الشرق ، وأنهم برغم خوفهم من ألمانيا كثـــيرا فان خشية جنرالات البولنديين لنظام الاتحاد السوفيتى أعظم • وبعيدا عن هذا فان البولنديين أغراهم أن يكونوا أصدقاء فرنسا الرئيسيين فى أوربا الشرقية ، وكان أمرا مختلفا أن يعملوا كمجرد حارس أمامى لحلف فرنسى ـ سوفيتى • وكان بيك وزير الخارجية يمتلك دائما ثقة تامة بنفسه وليس شيئا كثيرا آخر • كان واثقا من انه يستطيع معاملة هتلر كند ، أو حتى يستطيع ترويض النمر • وعرض علاقات أفضل مع ألمانيا وتجاوب هتلر معه وكانت النتيجة معاهدة عدم اعتداء لعام١٩٣٤ بين ألمانيا وبولندا ، وازيل وتد آخر من نظام الأمن المحطم • وتحرر هتلر من أى تهديد لتعضيد بولندى لفرنسا ووعد فى مقابل هذا وبدون انكار لجـــرح

الأسى الألمانى ، بألا يضمدها بالقوة ـ انهـــا المقولة الرنانة التى كثيرا ما ستستعملها أيضا حكومة ألمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية ٠ وكان هذا الاتفاق هو أول عمل عظيم لهتلر فى الشئون الخارجية وقد جلب له نجاحا كثيرا فيما بعد ، كانت فيه مغالطة عميقة للغاية كما لابد وأن يتوقع انسان من اتفاق بين مثل هذين الرجلين هتلر وبيك ٠ فقد افترض هتلر ان بولندا عزلت عن النظام الفرنسى وكانت فعلا كذلك وافترض أكثر من هذا ان الكولونيلات لابد أن يقبلوا المنطق المترتب على ذلك ٠ فلابد لبولندا من أن تصـــبح تابعة مخلصة وأن تلائم نفســها مع الخطط الألمانية والرغبات الألمانية ٠واقترح بيك الاتفاق لكى لا يصبح تابعا لأحد وانما لكى يجعل بولنـــدا أكثر استقلالا عن ذى قبـــل ٠ وطالما ان بولندا خليفة فرنسا وحدها فانه كان لابد لها من أن تتبع سياسة فرنسا أو قد تجد نفسها فى الظروف الجديدة موضوعة تحت الأوامر الروسية ٠ ولكن الاتفاق مع ألمانيا مكن بولندا من اهمال الحوافز الفرنسية على انه فى الوقت نفسه كان لا يزال التحالف الفرنسى قائما لتتقهقر اذا ما غدت ألمانيا مثيرة للمتاعب ٠ ولم يكن الاتفاق اختيارا فى صالح ألمانيا كما فى حالة لو كان بين ألمانيا وروسيا وانما اعتبر حيلة تستطيع بولندا بها أن توازن الاثنين بأمان أكبر ٠

وكانت تلك التفرعات خاصة بالمستقبل ٠ وفى سنة ١٩٣٤ صقلت الاتفاقية الى حد كبير حرية هتلر فى المناورة ولكنه لم يكن بعد مستعدا لان يستفيد من هذا ٠ فاعادة التسلح الألمانى كانت قد بدأت منذ زمن وجيز فقط وكان لديه متاعب داخلية كافية لتجعله مشغولا ـ معارضة من كل من أعوانه المحافظين القدامى ثم من أتباعه الثوريين أنفسهم ولم يكن التغلب على تلك الأزمة حتى ٣٠ يونيو عندما أعدم أولئك الذين أثاروا المتاعب بناء على أوامر هتلر ٠ ومات هندنبرج بعد شهر من ذلك وخلفه هتلر كرئيس ـ خطوة أخرى فى الطريق الى القوة المطلقة ـ ولم تكن تلك هى اللحظـــة المناسبة لمغامرة سياسية خارجية أو فى الحقيقة لأية سياسة خارجية اطلاقا٠ فلأول مرة انقلب تيار الحوادث التى اعتمد هتلر عليها ضده وكانت النمسا مسقط رأســه هى التى سببت الاعاقة ـ فهـــذه الدولة المعقدة والكسرة الأخيرة الباقية من امبراطورية هابسبورج كانت مستقلة استقلالا ظاهريا فرضه عليها صانعو السلام فى سنة ١٩١٩ ٠ وكانت النمسا المستقلة هى أول ضامن لسلامة ايطاليا ، والوسيط الذى لا ضرر منه بينها وبين أوربا

وكان يمكن أن تفقد ايطاليا كل تباعد عن أوربا اذا ما كانت النمسا قد ادمجت فى ألمانيا أو وضعت تحت اشراف ألمانيا .

بالاضافة الى هذا كان هناك ثلاثمائة ألف فرد يتكلمون الألمانية فيما كان يسمى جنوب التيرول وأصبح الآن يسمى آلتو آديج : نمساويون سابقون وايطاليون حاليا وألمان دائما فى عاطفتهم الوطنية . وهنا لا بد أن يكون هناك سبب آخر للخطر بالنسبة لايطاليا اذا ما انتصرت الوطنية الألمانية فى النمسا .

وكان هتلر يعلم جيدا ان علاقات طيبة مع ايطاليا سوف تؤدى الى فوائد أكثر من علاقات حسنة مع بولندا . وقد أشار من قبل فى «كفاحى» الى ايطاليا باعتبارها الحليف القدرى ضد فرنسا . وفى هذا الوقت فى سنة ١٩٣٤ كان فى استطاعة أى انسان أن يرى ان الصداقة بين الدكتاتورين ستكون ذات قيمة عظمى لألمانيا خلال الفترة الخطرة . ومع ذلك فقد كان أشق على هتلر أن يتنكر للنمسا من أجل ايطاليا من تأجيل الجدال حول دانزج والممر من أجل بولندا . ولم يكن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة له كقائد للشعب الألمانى فهم قد اهتموا قليلا بتلك القضية التى افترض فيها أن تكون ألمانية بينما كان الكثيرون يحسون باحساس جارف تجاه دانزج والممر . وكان الأمر أشق عليه كانسان ، وكفرد فى يوم ما وطنيا ألمانيا فى النمسا لمدى طويل قبل أن يصبح بطل الوطنية فى ألمانيا . وبالاضافة الى ذلك فان المسألة النمساوية قذفت بنفسها الى الأمام حتى ضد متطلبات السياسة العليا وكانت النمسا المستقلة تبدو فى هيئة يائسة لم تجد أبدا الثقة بالنفس منذ اتفاقات السلام ، بالرغم من انها لم تتدهور من وجهة النظر الاقتصادية .

وظل رجال الدين والاشتراكيون النمساويون على عدائهم المتبادل الذى يبرءون منه ولم يمكن اجتذاب كل منهم الى الآخر حتى بوعيد من النازية الألمانية . وبدلا من هذا وضع دولفوس رئيس هيئة رجال الدين نفسه تحت قيادة ايطاليا وقد حفزه موسولينى الى تحطيم كل من الحركة الاشتراكية النمساوية والجمهورية الديمقراطية فى فبراير سنة ١٩٣٤ .

وآثارت هذه الحرب الأهلية أيضا النازية النمساوية . كانت الديكتاتورية الكهنوتية غير شعبية ؛ وأمل النازيون فى ازدياد قبضتهم على الاشتراكية القديمة التى ستتلوها . كانوا يتلقون المال والمعدات من ألمانيا وكانوا يشجعون من راديو ميونخ ومع ذلك لم يكونوا كما كانت

تفكر الدول الكبرى الأجنبية مجرد عملاء ألمان يمكن جذبهم أو ابعادهم حسب الرغبة . كان من السهل لهتلر أن يجذبهم ولكنه كان أصعب عليه ابعادهم وخاصة عندما ردد فكرته بأنه كان من الممكن أن يكون نازيا نمساويا مثيرا للفتن اذا لم يكن قد صار قائدا لألمانيا . ان أكثر ما كان متوقعا منه هو انه لن ينشط فى اثارة المسألة النمساوية وقد قال فى مجلس الوزراء : « اننى مستعد لأن أحذف المسألة النمساوية لسنوات عديدة مقبلة ولكننى لا أستطيع أن أقول هذا لموسولينى » . وكان الدبلوماسيون الألمان يأملون ــ وان كانوا عاجزين بأنفسهم عن زحزحة هتلر عن رأيه ــ انه فى الاستطاعة أن يدفع الى التنازل اذا ما قابل موسولينى وجها لوجه . ورتبوا على هذا الأساس اجتماعا للدكتاتورين فى فينسيا فى ١٤ يونيو ولأول مرة ، وان لم تكن الأخيرة بأى حال ، كان على موسولينى القيام بالعمل الذى كان شديد الصعوبة لأى فرد آخر . اذ كان عليه أن يجعل هتلر « معتدلا » .

ولم يرتفع الاجتماع الى مستوى التوقيعات . كان الرجلان متفقين فى كراهيتهم لفرنسا وروسيا السوفييتية ولسرورهم من هذا نسوا أن يتفقوا بالنسبة للنمسا . وأنكر هتلر ، بكل صدق ، أية رغبة فى ضم النمسا ولابد أن يصبح المستشار النمساوى شخصية ذات مظهر استقلالى ولابد أن يعقب ذلك انتخاب حر ثم يتلو هذا ضرورة اشتراك الحزب النازى فى الحكومة . كان هذا حلا سهلا فهتلر سيحصل على ما يريده دون مصاعب القتال فى سبيله . وأجاب موسولينى انه لابد أن يتخلى النازيون عن حملتهم الارهابية وعندئذ فان دولفاس سيعاملهم بعطف أكثر كما سوف يفعل بمجرد أن لا يأتى منهم ضرر (١) . وبطبيعة الحال لم يفعل هتلر شيئا للوفاء بمطلب موسولينى ولم يحاول أن يغير من موقف النازيين النمساويين الذين وقد أثارتهم حوادث ٣٠ يونيو فى ألمانيا ، كانوا شغوفين بأن يقيموا حمام دمهم الخاص . وفى ٢٥ يوليو احتل نازيو فينا مقر المستشارين وقتلوا دولفاس وحاولوا الاستيلاء على الحكم . وبالرغم من ان هتلر كان سعيدا بقتل دولفاس الا انه لم يستطع أن يفعل شيئا لمساعدة أنصاره النمساويين وتحركت القوات الايطالية فى مظاهرة الى الجبهة النمساوية وكان على هتلر أن يقف مكتوف اليدين فى حين استرد سكوشنج خليفة دولفاس الحكم تحت حماية موسولينى .

---

(١) مذكرات بيلو ٣٠ ابريل ١٩٣٤ السياسة الخارجية الالمانية المجموعة ج ، ١١ ، رقم ٣٩٣

(١) مذكرات نيوراث ١٥ يونيو سنة ١٩٣٤ من هاسل الى نيوراث ٢١ يونيو سنة ١٩٣٤ المرجع السابق رقم ٥ ، ٢٦ .

وضعت الثورة النمساوية هتلر فى وضع ذليل لا يهنأ عليه • كما قلبت كذلك التوازن المحكم الذى كان موسولينى يتوقع أن يجنى منه فائدة كبيرة • كان قد افترض ان السـياسة الألمانية سـوف تتطور ، متتبعة خطوطها القديمة تطالب بالتنازلات من فرنسا وبعد ذلك من بولندا ، ولكن ستترك النمسا وشأنها • وأنه سيستطيع أن يوازن ، وكله سعادة ، بين فرنسا وألمانيا حاصلا على المكافآت من كلتيهما دون أن يربط نفسه بأى منهما ووجد فجأة ان الموقف قد تبدل فلقد احتاج على اثر تهديد النمسا الى مساندة فرنسـا بدلا من طريقة اللف والدوران الأخـرى • وكان على موسولينى أن يصبح المحافظ على المعاهدات والبطل للأمن الجماعى فى حين انه كان فيما سبق المدافع عن اعـادة النظر على حسـاب الآخرين ورحب الانجليز بتبدل موقفه • لقد بالغوا دواما فى قوة ايطاليا ومن المستحيل شرح السبب • فهم لم ينظروا أبدا الى الحقائق الصعبة لضعف الاقتصاد الايطـالى والى نقص مواردها فى الفحم والنقص النسـبى فى صناعاتها الثقيلة • كانت ايطاليا ببساطة بالنسبة لهم دولة كبرى وبطبيعة الحال فان الملايين ـ حتى لو كانوا رجالا نصف مسلحين ـ يبـدون شيئا هائلا بمقارنتهم بقواتهم المسلحة المحدودة كذلك خدع الانجليز بتفاخر موسولينى فقد أطلق على نفسه الرجل القوى والرئيس البطل والسياسى العظيم وقد صـدقوه •

وكان الفرنسـيون فى أول الأمر أقل تجاوبا وقد كان بارتو وزير الخارجية يأمل فى معارضة ألمانيا دون دفع ثمن لموسولينى • وكان حله ايجاد لوكارنو شرقية ففرنسا وروسيا ضامنتان معا التسوية الحالية لشرق ألمانيا فى حين تضمن بريطانيا العظمى وايطاليا ذلك فى الغرب ولم يكن هذا المشروع مقبولا لدى ألمانيا وبولندا وهما أكثر الدول المعنية • فألمانيا لا تريد أى توسع للنفوذ الفرنسى فى أوربا الشرقية ، وكان البولنديون مصممين على ألا يسمح بعودة تدخل روسيا فى الشئون الأوربية •

أما هتلر ـ بموهبته المعتـادة على الانتظـار ، فقد ترك البولنـديين يحطمون اتفاقية لوكارنو الشرقية لمصلحته وترك بارثو متعلقا بمجرد فهم مبهم بأن فرنسا وروسيا السوفيتية لا بد أن تعملا معا لانتهاز الفرصـة غير المواتية وأن تكن الوحيدة التى جاء بها الزمن للعمل معا • وعلى كل حال فقد كانت أيامه معدودة ففى أكتوبر سنة ١٩٣٤ زار الكسندر ملك يوغسلافيا ـ فرنسا لكى يدعم تحالفه معها وفى مارسيليا لقى حتفه على يد ارهابى كروانى كان قد تم تدريبه فى ايطاليا • أما بارثو الذى كان

بجانبه فقد جرح أيضـــا برصاصة القاتل وترك على الرصيف تسيل منه الدماء حتى الموت . وكان خليفته بيير لافال رجلا يمثل طابعا أحدث وكان أمهر الساسة الفرنسيين وربما من أكثرهم جرأة . وقد بدأ كاشـــتراكى متطرف ثم أخذ الجانب المعادى للحرب أثناء الحرب العالمية الأولى . ومثل كثير من الاشـــتراكيين المخطئين وكرمزى ماكدونالد على سبيل المثـال كان لافال له ايمان ضئيل بروسيا السوفيتية فى حين كانت فكرته سامية من ايطاليا الفاشية وبالرغم من أنه سمح لسياسة بارثو أن تندفع الى حد قيام الحلف الفرنسى الروسى فى سنة ١٩٣٥ ، فان الحلف كان أجوف ! فهو لم يكن مدعما أبدا بمباحثات عسكرية كما كان التحالف القديم كما لم يؤخذ مطلقا مأخذ الجد من أى حكومة فرنسية ، وربما أيضا من الحكومة السوفيتية . ان كل ما أخذه الفرنسيون منهـــا هو نصيحة ستالين للحزب الشيوعى الفرنسى بألا يعرقلوا عمل الدفاع القومى ــ وهى نصيحة كافية فى حد ذاتها لتحويل الوطنيين الفرنسيين بدورهم الى دعاة هزيمة .

ووضع لافال كل آماله فى ايطاليا فزار روما وفى نفســـه بأن موسولينى قد شفى الآن من أى تطلعـات لاعادة النظر نتيجة لفراغه من العملية . وبدا هتلر من جانبه ميالا بشكل متعمد الى تدعيم الجبهة المتحدة ضد ألمانيا وتخلص من العقبـــات الباقية فى وجه تسليح ألمانيا بازدراء متزايد ؛ وأعلن أخيرا ارجاع التجنيد الاجبارى فى مارس سنة ١٩٣٥ وأظهر المنتصرون السابقون على الفور علاقات المقاومة ففى ابريل ســـنة ١٩٣٥ حـــدث تجمع ضـــخم فى سترسا : ماكدونالد وسيمون ، فلاندن ــ رئيس وزراء فرنسا ــ ولافال وموسولينى كمضيف بنفسه . ولم يكن قد حدث شىء كهذا منذ اجتماعات المجلس الأعلى فى أيام لويد جورج . كان آخر سهم لاظهار تماسك الحلفاء والصدى الساخر من أيام النصر . أما الشىء الأكثر غرابة فى هذه الدول الثلاث الكبرى التى كانت قد جعلت العـــالم صالحا للديمقراطيــــة المتحررة فهو انهـــا مثلت فى ذلك الحين باشتراكيين مرتدين اثنين منهما ــ هما ماكدونالد ولافال كانا يعارضان الحرب فى حين كان الثالث ــ موسولينى ــ قد قضى على الديمقراطية فى بلده ذاتها . وفى وقار عقدت ايطاليا وفرنسا وبريطانيـــا العظمى العزم على التمسك بالمعاهدة القائمة لاستقرار أوربا على مقاومة أية محاولة لتغيير تلك الاتفاقية بالقوة ــ وكان هذا عرضا مؤثرا من الكلمات وان جاء متأخرا بعض الشىء فى اليوم الذى كانت قد تغيرت فيه أشياء كثيرة من قبل . فهل كانت واحدة من الثلاثة تعنى ما قالوه ؟ لقد وعد الايطاليون بارسال

قوات للدفاع عن بلفورت ووعد الفرنسيون بارسال قوات الى التيرول ولكن الحقيقة ان كلا من القوى الثلاثة كانت تريد تلقى المساعدة من الآخرين دون اعطاء شيء كمقابل بل ان كلا منها كانت تطرب لرؤية الآخرين في ضيق ٠

وكان هتلر من جانبه قد تلقى لتوه تأييدا عاطفيا قويا – ففى يناير سنة ١٩٣٥ أجرى اقليم السار الذى فصل عن ألمانيا فى سنة ١٩١٩ – استفتاء عاما عن مقدراته فى المستقبل ٠ كان السكان فى معظمهم عمالا صناعيين اشتراكيين ديمقراطيين أو كاثوليك رومانيين ٠ كانوا يعرفون ماذا ينتظرهم فى ألمانيا الديكتاتورية تحطيم النقابات واضطهاد الكنائس المسيحية ومع ذلك وفى انتخابات حرة لا يتطرق اليها الشك اقترع ٩٠٪ على العودة الى ألمانيا ٠ وهنا كان الدليل على أن نداء الوطنية الألمانية سيكون شيئا لا يقاوم فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ٠ وبتلك القوة التى تسانده لم يهتم هتلر بمظاهر الدبلوماسية العتيقة ففى أقل من شهر بعد اجتماع سترسا أنكر بنود نزع السلاح الباقية فى معاهدة فرساى مسلما بأن الدول الأخرى لم تف بالتزامات نزع السلاح المفروضة عليها ووعد فى الوقت نفسه باحترام اتفاقية فرساى عن الحدود وشروط لوكارنو ٠ كان النظام المصطنع للأمن قد مات معطيا الدليل بأن نظاما لن يكون بديلا من الفعل ولكنه يستطيع فقط أن يهيىء فرصا له ٠ كان هتلر قد هز العقبات المفروضة على تسلح ألمانيا فى مدى سنتين فقط ولم تكن هناك لحظة فرض فيها عليه أن يواجه خطرا حقيقيا ٠ ان تجربة هاتين السنتين أكدت ما كان قد تعلمه من الساسة الألمان ٠ لقد اعتقد ان الأعصاب القوية تكسب دائما وان « وان تمويهه » اذا ما كان تمويهها لن يتطلب أبدا ٠ وفى ذلك الحين كان عليه أن يتقدم بنفس يقين الذى يسير وهو نائم ٠ وأكدت حوادث الشهور الاثنى عشر التالية هذا اليقين

الفصل الخامس

المسألة الحبشية ونهاية معاهدة لوكارنو

ماتت معاهدة فرساى . وابتهج الجميع فيما عدا فرنسا ، ذلك لان نظام لوكارنو هو الذى أخذ مكانها ، وهو النظام الذى تقبله الألمان عن طيب خاطر . والذى أعاد هتلر قوة تأكيده طوعا وأوضح الانجليز رأيهم فى جبهة سترسا بعقد اتفاقية سريعة مع هتلر حددت الأسطول الألمانى (الذى كان لا يزال قائما فعلا) بثلث أسطولهم . ومن الممكن تبرير ذلك كمحاولة معقولة لانقاذ نظام تحديد الأسطول بعد أن تحطم مؤتمر نزع السلاح وعلى أنه لا يمكن مقارنته الا بصعوبة باحترام الاتفاقيات التى كانت قد طالبت بها دول سترسا لتوها . وجعل الفرنسيون من الاتفاق البحرى الانجليزى الألمانى مأساة كبرى ، مدعين ان هتلر كان على وشك التسليم عندما استرد جأشه نتيجة لتخلى الانجليز عن الجبهة المشتركة . ولم تتدعم وجهة النظر هذه ـ بالرغم من ان المؤرخين الفرنسيين لايزالون يعتنقونها ـ بالدليل من الجانب الألمانى ويبدو ان هتلر كان راضيا بانتظار انقضاض جبهة سترسا .

ومرة أخرى كان هتلر على حق فاجتماع سترسا كان قد خطط ليقيم تحالفا قويا ضد العدوان . وبدلا من هذا فتح الباب لأحداث لم تفكك ذلك التحالف فحسب وانما قضت كذلك على عصبة الأمم ، ومعها النظام الكامل للأمن الجماعى وتركزت هذه الأحداث على الحبشة . ان مظهرها الخارجى واضح أما باطنها ومغزاها فلا يزالان الى حد ما غامضين . كانت الحبشة موضوعا قديما للطموح الايطالى ومسرحا لهزيمتها الفادحة فى عدوى فى سنة ١٨٩٦ . وكان الثأر العدوى أحد شعارات التفاخر الفاشى ولكنه لم يكن فى سنة ١٩٣٥ يبدو أكثر الحاحا عنه فى أى وقت

مضى منذ ان جاء موسولينى الى الحكم فى سنة ١٩٢٢ · ولم تكن الأحوال فى ايطاليا تستدعى الحرب · فالفاشية لم تكن مهددة سياسيا أما الظروف الاقتصادية فكانت تستوجب السلام وليس اندلاع الحرب · كما لم يكن الوضع الدبلوماسى الايطالى بالنسبة للحبشة يبدو معرضا للخطر · وبرغم أن الحبشة كانت قد ضمت الى عصبة الأمم فى سنة ١٩٢٥ فان هذا تم نتيجة كمبادرة ايطالية لاعاقة السيطرة البريطانيه المتوقعة هناك · وكانت بريطانيا هى التى احتجت بأن الحبشة على درجة من البربرية الى الحد الذى لا يسمح فيه أن تنضم الى المنظمة المتحضرة فى جنيف · واعترفت كل من بريطانيا العظمى وفرنسا بالحبشة كمجال للمصالح الايطالية بل ان وحدة سترسا جعلت ذلك الاعتراف أكثر حسما · وربما انزعج الايطاليون من وجود المراقبين الأمريكيين فى الحبشة ومن الترحيب الذى قوبلوا به من هيلاسلاسى الامبراطور ، ولكن هذا تخمين · فقد زعم موسولينى بنفسه انه يريد أن يستفيد من الظرف المواتى من ان ايطاليا كانت مسلحة تسليحا ثقيلا بشكل كبير ـ وان كان ذلك نظريا فى حين ان نزع السلاح فى الدول الأخرى قد بدأ منذ وقت وشيك · وأشار بشكل خاص الى التهديد الألمانى للنمسا الذى من الواضح انه قد يتجدد · وقد استنبط ان الجيش الايطالى كان عليه أن يغزو الحبشة فى الحال لكى يعود مرة أخرى الى برنر للدفاع عن النمسا عندما يعاد تسليح ألمانيا · وهذا يبدو تفسيرا لا معنى له فان النمسا اذا ما كانت فى خطر لكان موسولينى على وجه التأكيد يهتم بالدفاع عنها دون أن يكون مشتتا فى الحبشة · وربما أحس انه سيفقد النمسا ان آجلا أو عاجلا · وعلى هذا استولى على الحبشة كعزاء ، والأكثر احتمالا انه كان مجرد منتش الى حد الخروج عن شعوره بفعل المباهاة العسكرية التى بدأها والتى أصبح هتلر الآن فى دور المزايدة عليه ·

وعلى أية حال ولأسباب لا تزال مبهمة فان موسولينى قرر فى سنه ١٩٣٤ أن يغزو الحبشة · وتلقى تشجيعا عندما زار لافال روما فى يناير سنة ١٩٣٥ وكان لافال شغوفا لأن يكسب موسولينى للجبهة المعادية لألمانيا · وكان بلا شك كريما فى بذل الكلمات اللينة واستنادا الى احدى الروايات فانه تكلم مؤيدا الأطماع الايطالية على شرط أن يكون اشرافها على الحبشة قائما على السلام وفى زعمه ، كاشراف فرنسا على مراكش · وفى رواية أخرى وعد لافال بتأكيد ان عصبة الأمم اذا ما تدخلت فلن تضر ايطاليا وانه لن يكون هناك أى تدخل فى امدادات ايطاليا من البترول خاصة · ويبدو هذا كقصة ألفت فيما بعد عندما فرضت العقوبات فعلا

ولم يستطع لافال فى يناير سنة ١٩٣٥ أن يتنبأ بانه فى الامكان أن يحدث هذا ٠ ومن الواضح ان لافال اقتصر فقط على تشجيع موسولينى بصورة عامة لكى يبقيه فى حالة معنوية طيبة ٠ وأعطى اجتماع سترسا لموسولينى الفرصة لجس نبض الانجليز ٠ ومن المستحيل تأكيد انه فعل ذلك أو عما (نعلمه) من ذلك ٠ وتقول رواية ان موسولينى استعرض الموضوعات المختلفة للسياسة الأوربية مع ماكدونالد وسيمون وعندئذ سأل عما اذا كان هناك شىء آخر يريد الانجليز أن يناقشوه ٠ وهز ماكدونالد وسيمون رأسيهما واستنتج موسولينى انه ليس لديهما اعتراض على مغامرته الحبشية ٠ ومن الناحية الأخرى صاحب الخبير الافريقى فى وزارة الخارجية الوزراء البريطانيين الى سترسا ، ومن الصعب تصديق انه لم يجد شيئا يقوله لزملائه الايطاليين ٠ ومهما يكن هذا محتملا فان الانجليز لم يكونوا يستطيعون تجاهل تزايد التسلح الايطالى فى البحر الأحمر ٠ وشكلت لجنة رسمية خارجية للنظر فى مضمون هذه الأحاديث وقررت أن غزو ايطاليا للحبشة لن يؤثر على المصالح الامبريالية لبريطانيا العظمى ٠

وكانت هناك نقطة واحدة مربكة ٠ فالحبشة كانت عضوا فى عصبة الأمم ولم تكن الحكومة البريطانية تريد أن ترى تكرارا للصعوبات التى سببها النشاط اليابانى فى منشوريا ٠ فلأمر واحد كانوا يرغبون باخلاص فى التمسك بالعصبة ، وهو أن تكون أداة للالزام ــ وكذلك للتوافق ضد ألمانيا ٠ ولأمر آخر كانوا مشوشين بشكل متزايد بالرأى العام عندهم فالدعاية لعصبة الأمم وللأمن الجماعى كانت فى قمتها ٠ وربما كان التعبيران يحملان الكثير من المعضلات الأخلاقية ٠ كان تأييد عصبة الأمم يزور كل أولئك الذين تحولوا بدافع الخوف عن الدفاع عن التسوية فى معاهدة فرساى بغطاء نفع الآخرين ٠ وقدم «الأمن الجماعى» الذى افترض انه يجمع قوى اثنتين وخمسين دولة طريقا لمقاومة العدوان دون زيادة فى الأسلحة البريطانية ٠ وفى خريف ١٩٣٤ أوضح ماسمى خطأ الاقتراع السلمى للسلام ان عشرة ملايين فرد فى بريطانيا العظمى يفضلون العقوبات الاقتصادية ؛ وان ستة ملايين يفضلون حتى العقوبات العسكرية ضد أى معتد يدان من عضبة الأمم ــ وهو تعبير عن رأى ، بعيد جدا عن المسالمة ٠ وقد يكون من غير العدل الايعاز بأن الحكومة البريطانية اقتصرت على مجرد استغلال هذه العاطفة٠فالوزراء البريطانيون يشاركون دائما فى مبادىء وتحيزات معاصريهم ؛ والى حد ما فعلوا هذا فى ذلك الحين ومع ذلك فلم يكن من غير المقبول فى حسبانهم أن انتخابات عامة تقترب ٠ كان الأمن الجماعى يهب فرصة رائعة لقهر المعارضة العمالية

ففى حين كان قطاع من الأغلبية فى حقيقة الأمر يؤيد عصبة الأمم كان الآخر، الأعلى صوتا ، لا يزال يعارض أى تأييد لهذه المنشـــأة الرأسمالية أو أى تعاون من الحكومة البريطانية « الامبريالية » ٠

ان هذه كلها تخمينات٠ولايعرف أحد لماذا سلكت الحكومة البريطانية الطريق الذى اتخذته ٠ ومن المحتمل انهم أنفسهم لم يكونوا يعرفون ـ لقد كانوا مضطرين الى امتطاء جوادين فى وقت واحد ٠ أرادوا استرضاء موسولينى وكذلك دعم نفوذ عصبة الأمم ٠ وفى يونيو سنة ١٩٣٥ ذهب ايدن الى روما وكان فى هذا الوقت وزيرا مفوضا حديثا لشـئون عصبة الأمم بأمل تصفية المشكلة ٠ وكان يحمل معه عرضا قويا : سوف تعطى بريطانيا الى الحبشة منفذا الى البحر عبر الصومال البريطانية وفى مقابل ذلك تتنازل الحبشة عن بعض أقاليمها النائية الى ايطاليا ٠ كذلك حمل معه تحذيرا : انه يجب ألا يكون هناك تحد فاشل لميثاق عصبة الامم ٠ ورغب المحترفون فى وزارة الخارجية الايطالية فى قبول العرض البريطانى ولم يتزحزح موســولينى ٠ كان يريد مجد حـرب مظفرة وليس مجرد تسوية اقليمية ٠ وكان هناك اجتماع عاصف بين موسولينى وايدن ٠ فموسولينى يفضح النفاق الانجليزى كما وضح فى المعاهدة الانجليزية ـ الألمانية البحرية وايدن يردد مبادئه العالية ٠ وعاد ايدن الى وطنه وهو يشعر بمرارة ضـد ايطاليا ، مرارة لم تفـارقه أبدا بعد ذلك ٠ وكانت وزارة الخارجية الانجليزية أقل يأسا فهى لا تزال تأمل أن تسوى النزاع بين ايطاليا والحبشة بطرق المساومة ٠ وكانت واثقة ان الأحباش سوف يبدون مقاومة عنيفة ولابد لموسولينى من أن يتعلم الاعتدال عندما يواجه المصاعب وعندئذ تستطيع الحكومة البريطانية أن ترتب اتفاقية تحفظ كلا من جبهة سترسا وهيبة عصبة الأمم ٠

وفى تلك اللحظة نفسها قبلت السياسة الخارجية البريطانية قيادة أكثر قوة ٠ ففى يونيو ســـنة ١٩٣٥ خلف بالدوين ماكدونالد كرئيس للوزراء وأنتهزت هذه الفرصة لاعادة تعديل الوزارة ٠ كانت الثقة قد انتزعت من السير جون سيمون نتيجة لدوره فى المسألة المنشورية سواء بحق أو بغير حق ؛ واعتبره الرأى العـــام من غلاة الدعاة للتوفيق ومن البارعين فى التماس ألتبريرات للمعتدى وقد ترك الآن وزارة الخارجية ٠

وخلفه سير صمويل هور ٠ كان هور يتمتع بقدر من الذكاء كأى وزير خارجية انجليزى فى القرن العشرين ـ وربما ليس على مستوى عال جـدا ٠ وكان ضعفه هو الاندفاع ٠ كان يواجه المصاعب بشجاعته بدلا

من تجنبها كما وضح فى آخر حياته عندما كتب دفاعا عن أسلوب التهدئة، بينما ظـل غيره ممن أسهموا فيه والأكثر حكمة ، صامتين . أدرك هور أخطار الأمن الجماعى ـ النظام الذى حمل فيه البريطانيون الأعبـاء على أكتافهم ولم يفعل الآخرون سوى الكلام . ولكنه كان يظن انه من الممكن التغلب على هذه الأخطار اذا ما توفر للسياسة الانجليزية صفة الثبـات بصورة كافية . ستكون هناك عندئذ فرصـة ما فى أن يتبع الآخرون الطريق نفسه وفى سبتمبر سنة ١٩٣٥ ألقى هور فى جنيف أكبر تأكيد مدو قدمه أى سياسى انجليزى من قبل فى صالح الأمن الجماعى . وعندما هوجمت الحبشـة بالفعل فى أكتوبر أمسك بالزمام فى الضغط لفرض العقوبات ضـد ايطاليا . وتجـاوب معه أعضاء العصـبة . كان أسلوب العقوبات الاقتصادية قد أنشىء بعد المسـألة المنشورية وأصبح هـذا الأسـلوب يمارس فى ذلك الحين من كل دولة فى العصـبة ماعدا الدول الثلاثة العملاء لايطاليا ـ ألبانيا ، النمسا ، والمجر . ولم يكن فى هـذا مهرب وأثيرت شكوى من الثغرة فى نظام العقوبات التى أحدثتها ألمانيـا والولايات المتحدة ، الدولتان الكبيرتان خارج عصبة الأمم . ولم يكن هذا أيضـا خطيرا فقد كان هتلر يناور من أجـل الصـداقة الانجليزية بعد الاتفاقية الانجليزية ـ الألمانية البحرية وكان فرحا أيضا أن يرى النزاع ينشب بين ايطاليا وفرنسا . وكان مما يستحق كسبه للوقت أن يبدو متعاونا بصفة غير رسمية مع عصبة الأمم ـ على مستوى عملى أكثر ـ لم يكن الألمان لأسباب اقتصادية قوية يرغبون فى أن يكونوا ملزمين بليرات لا قيمة لها فقطعوا تجارتهم مع ايطاليا . ولم تستطيع الولايات المتحدة فى أحسن أوقات الحيـاد ، أن تقف موقفا منحـازا ولكنهـا منعت التجـارة الأمريكية مع كل من الفريقين المتحاربين ، ولما لم تكن هناك تجارة أمريكية مع الحبشة فكانت هذه فى حقيقة الأمر عقوبة ضد ايطاليا .

كان الضـعف الحقيقى فى داخل العصـبة . فعلى الرغم من ان الفرنسيين لم يستطيعوا تقبل الصراع مع بريطانيـا العظمى فقد خاب ظن لافال نتيجة تصـدع جبهـة سترسا . وعادت تتردد على ألسـنة الفرنسيين الحجج البريطانية القديمة فى امتداح التوفيق وشجب العمل الآلى للأمن الجمـاعى . لقـد طبقت فرنسـا العقوبات ولكن لافال أكد لموسولينى فى ذلك الحين ، بل ان لم يكن قبل هذا ، ان امدادات البترول الايطالى لن تتعرض لأى تدخل . وكان هناك اختلاف فى وجهات النظر فى بريطانيا العظمى ، كذلك لم يكن مجرد انقسام بين المثاليين الذين أيدو عصبة الأمم وبين المتهكمين الذين كانوا يعتقدون ان الأمن الجماعى يتضمن

دائما مخاطرة وأعباء لبريطانيا العظمى دون أى ربح مقابل ؛ بل وقع نفس الانقسام أيضا بين الأجيال المختلفة فالشباب الممثلين فى ايدن كانوا معادين لايطاليا بعنف وكانوا على استعداد أكبر لاسترضاء ألمانيا . أما التقليديون وبخاصة الأقوياء منهم فى وزارة الخارجية فانهم كانوا معنيين فقط بالخطر الألمانى ؛ ونظروا الى عصبة الأمم على انها شيء مقلق ورغبوا فى استعادة كسب ايطاليا الى الجبهة المتحدة ضد ألمانيا ، واعتنق فانسيتارت وكيل وزارة الخارجية الدائم وجهة النظر هذه . فمنذ البداية وحتى النهاية كان المدافع غير الآسف على التحالف مع ايطاليا وهو التحالف الذى كان يعتقد أنه يؤدى الى الحل لكل مشكلة . وحتى ونستون تشرشل الذى كان من قبل يدق ناقوس الخطر بالنسبة لألمانيا ظل خارج البلاد خلال خريف سنة ١٩٣٥ لكى يتجنب اتخاذ موقف مع ايطاليا أو ضدها . وعلى السطح كانت السياسة البريطانية حازمة بالنسبة للأمن الجماعى . ولكن خلف الستار انتظرت الشخصيات ذات النفوذ لكى تتقدم ببعض الايضاح للتسوية التى رفضها موسولينى فى يونيو السابق . وفى هذا الوقت كان امبراطور الحبشة كذلك عنيدا ؛ كان على ثقة من أن التمسك المتشدد بالأمن الجماعى سوف يقوى عرشه المهتز كما حدث فى حقيقة الأمر وان كان فى مدى أطول مما توقع .

ولم يثبط من شجاعة المدافعين من الانجليز عن الاتفاق صدمتهم فى بادىء الأمر . كان الخبراء العسكريون فى بريطانيا العظمى وفى أماكن أخرى واثقين من أن الغزو الايطالى للحبشة حتى وان كان هو الأكثر احتمالا سوف يستغرق وقتا طويلا – شتاءين على الأقل من الحملات . وقبل هذا فان المتاعب الاقتصادية تروض موسولينى كما سوف تروض الهزيمة امبراطور الحبشة . وعندئذ سوف يفتح الطريق للتسوية . ومن ثم فليس هناك داع للعجلة . وتلقت الحكومة أيضا تقريرا من مستشاريها البحريين بأن الأسطول الانجليزى فى البحر الأبيض المتوسط حتى وان عززه الأسطول المخصص لأرض الوطن فهو ليس ندا للأسطول الايطالى المعزز بالقوات الجوية . وكانت هنا حجة أخرى للحذر والتريث الأفضل كثيرا . ان الوقت سوف يعلم كلا الطرفين الاعتدال بشكل أحسن مما لو استفز موسولينى بضغط أحد للهجوم على الأسطول الانجليزى قد يسفر عن تحطيمه . وكانت كل آراء الخبراء خاطئة بشكل فاضح – فلقد تم اثبات خطأ الآراء العسكرية فى خلال شهور قليلة عندما غزا الجيش الايطالى الحبشة بأكملها فى مايو سنة ١٩٣٦ كذلك ثبت خطأ الرأى البحرى فى أحلك أيام الحرب العالمية الثانية عندما انتقلت البحرية الانجليزية فى

البحر الأبيض المتوسط من نصر الى نصر الى آخر على الأسطول الايطالى بالرغم من الفروق الأكثر سوءا عن أيام ١٩٣٥ ـ ومما لا شك فيه ان تلك كانت ـ بشكل رئيسى أخطاء ارتكبت بحسن نية فقد استخلص الخبراء تقديراتهم بشكل خاطىء • قدر القادة الجيش الايطالى بأقل من حقيقته وغالى قواد الأسطول فى قوة الأسطول الايطالى ••

على ان هناك ما هو أكثر من هذا فكل خبير هو كائن حى والآراء الفنية تعكس وجهات النظر السياسية لمن يدلون بها • ان القادة وقواد الأسطول يثقون فى كسب حرب عندما يرغبون فى القتال وهم يجدون أيضا الحجج الحاسمة ضد حرب يرونها غير مرغوب فيها سياسيا •

وكان أغلب القواد والأميرالات الانجليز فى هذا الوقت من العجائز، وكانوا جميعا من فئة غلاة المحافظين بشكل حاد • كانوا يعجبون بموسولينى ووجدوا فى الفاشية تطبيقا لكل الفضائل العسكرية • ومن ناحية أخرى كرهوا عصبة الأمم وما يمت لها بصلة « فجنيف » تعنى بالنسبة لهم مؤتمر نزع السلاح والتخلى عن السيادة القومية ثم الجرى وراء أهداف مثالية غير واقعية • وأما أولئك الذين صرخوا بفرض عقوبات على ايطاليا فقد أمضوا السنوات الأولى فى شجب التسلح البريطانى والخبراء العسكريين الانجليز • وكان من الصعب توقع أن أولئك الخبراء سوف يرغبون الآن فى القتال فى حرب كعملاء لاتحاد عصبة الأمم • أما بالنسبة للأميرالات خاصة فكان الاغراء لا يقاوم للالتفاف حول أولئك الذين أزعجوهم • ويرجع الفضل فى اعلانهم ذلك الى التردد فى نزع السلاح • لقد أصبحت بريطانيا العظمى الآن على درجة من الضعف بحيث تخاطر فى حرب • ولهذا السبب وضع خلفاء نلسون أسماءهم فى جانب الرأى الضعيف الذى يؤدى بهم الى طردهم فورا من قائمة الادميرالية السابقة •

وقد برهنت المؤازرة الحذرة لعصبة الأمم حتى وان كانت عاجزة عن ردع موسولينى ، على انها مناورة ناجحة فى السياسة المحلية • وفى خلال السنتين السالفتين تملكت المعارضة العمالية كل الأمور فى الشئون الخارجية • لقد أمسكت بحكومة الحزب الوطنى من طرفيها مشهرة فاضحة حينا بالفشل فى تأكيد الأمن الجماعى وحينا آخر ادعاء تخريب مؤتمر نزع السلاح •

وكان العمال على ذلك يأملون فى كسب كل من أصوات دعاة السلام والمتحمسين للعصبة • وببراعة فجائية قلب بلدوين موازين الأمور • « ان كل العقوبات تقلل من أمد الحرب » وهى الصيغة التى

افترض ان هور كان يدافع عنهـا في جنيف ، وضعت حزب العمال في ورطة شديدة • هل ينبغي عليهم أن يطالبوا بعقوبات أقسى مع المخاطرة بحرب وبذلك يفقدون أصوات دعاة السلام ؟ أم كان ينبغي عليهم شجب العصبة كخدعة خطيرة وبذلك يفقدون أصوات المتحمسين لها ؟ وبعد جدال عنيف قرر حزب العمال أن يفعـل كلا الأمرين وتبع ذلك النتيجـة الحتمية • ففي نوفمبر سنة ١٩٣٥ كانت هناك انتخابات عامة • وعملت الحكومة الكثير لترضي مؤيدى العصبة ، وان لم يكن كافيا لينذر أولئك الذين يكرهون فكرة الحرب • ووصم حزب العمال لمطالبته بعقوبات أكثر بأنه حزب الحرب • وأعيدت الحكومة القومية بأغلبية ٢٥٠ تقريبا • وبدا هذا فيما بعد نصرا للنفاق • ومع ذلك فان « كل العقوبات قاصرة بالنسبة لحرب » والسياسة المفضلة لدى كثير من الانجليز بما فيهم مؤيدو حزب العمال • كانوا في جانب العصبة ولكن ليس الى حد الحرب وكان هنـاك تعقلا في وجهة النظر هذه فما هي الفائدة في هيئة لمنع الحرب اذا كانت الحرب هي نتيجة نشاطها ؟ وكان هذا شكلا جديدا للمشكلة التي واجهت المنتصرين منذ سنة ١٩١٩ ؛ لقد حاربوا لينهوا حربا « فكيف يستطيعون اذن أن يشعلوا حربا جديدة » ؟

وبالفراغ من الانتخـابات كان على الحكومة البريطـانية أن تواجه النتائج • كان هناك مطلب متزايد في جنيف لمنع امدادات ايطاليا من البترول • وكان من الممكن الرد على هـذا المطلب فقط لتقـديم اتفـاق يستطيع انهاء الحرب وكان الطريق ممهدا لاحياء المشروع الذى أخذه ايدن الى روما في يونيو ، والذى رفضه موسولينى • وأعاد فانسيتارت النظر فيه جاعلا منه أكثر كرما لايطاليا • انها سوف تقوم بالانتداب على السهول الخصبة التي غزتها الحبشة حديثا جدا ؛ وللامبراطور أن يحتفظ بمملكته القديمة في الجبـال ، وسوف تعطيه بريطانيا منفـذا الى البحر بواسطة ميناء في الصومال البريطاني (وكان هذا هو البند الذى أدانته التايمز باعتباره ممرا للجمال) وفي أوائل ديسمبر أخذ هور المشروع الى باريس ورحب لافال به • وكان موسولينى ، الذى حذره خبراؤه المخطئون بالمثل بأن الحرب تسير الى الأسوأ ، مستعدا لقبوله • وكانت الخطوة التالية هي تقديمه في جنيف وعندئذ وباجماع العصبة يفرض على امبراطور الحبشة مثلا جميلا يتنكر في ميونيخ في استعمال أسلوب السلام ضـد ضحايا العدوان • ولكن حدث خطأ ما • فما أن ترك هور باريس في طريقه الى جنيف حتى ظهر مشروع هور ـ لافال السـابق ذكره في الصـحافة الفرنسية • ولم يكن أحد يعرف كيف حدث هذا فربما شك لافال فيما لو

كانت الحكومة القومية بكل قوتها تقف خلف هور وبذلك سمح بتسرب المشروع لكى يسد أمام بالدوين والباقين طريق التراجع . وربما يكون هريوت أو بعض أعداء لافال الآخرين قد أماطوا اللثام عن المشروع لكى يحطموه معتقدين أن العصبة اذا ما كانت ذات فعالية ضد موسولينى لتحولت عندئذ ضد هتلر . وربما لم تكن هناك خطة بالمرة ولم يكن هذا الا لمجرد حماس الصحفيين الفرنسيين فى أن يستغلوا اتصالاتهم مع وزارة الخارجية الفرنسية .

وعلى كل فقد أدى الانشاء الى انفجار فى الرأى العام البريطانى وشعر مؤيدو العصبة من ذوى الذهن الرفيع ممن كانوا قد ساعدوا فى عودة الحكومة القومية وأنهم خدعوا وأحسوا بالسخط وخرج هور نفسه من مجال النشاط بعد أن جدع أنفه عندما بالغ فى تقدير مهارته كبطل للتزحلق على ثلوج سويسرا . واعترف بالدوين فى أول الأمر بان الحكومة قد وافقت على المشروع ولكنه بعد ذلك تنكر لكل من المشروع وسير صامويل هور .

واحتل ايدن مكان هور كوزير للخارجية واختفى مشروع هور ـ لافال . وفيما عدا هذا لم يتغير شىء . كانت الحكومة البريطانية لاتزال مصرة على عدم المخاطرة بالحرب . وتحروا عما اذا كان موسولينى سوف يعترض على قطع بتروله ؛ وعندما اخبروا انه سوف يفعل قاوموا بنجاح العقوبات البترولية فى جنيف . كانت المساومة لا تزال فى الجو فثمة نسخة أخرى من مشروع هور ـ لافال فى انتظار أن يتفق عليها عندما ينتهى موسم الحملات وكان موسولينى سريع الاستجابة للخبراء العسكريين الانجليز وخبرائه . ودافعت هيئة القيادة الايطالية فى كآبه عن الانسحاب الى الجبهة القديمة بعد المتاعب الأولية . وبدلا من هذا أرسل موسولينى بادوليو رئيس هيئة أركان الحرب وأمر لانهاء الحرب سريعا وأطيعت أوامره فورا . ولقد قيل ان الجيوش الحبشية قد أوهنت بفعل استعمال الغازات . ولكن تلك الجيوش كانت كالامبراطورية نفسها أقرب الى أن تكون ادعاء منها الى الحقيقة . انها سرعان ما تفتت الى لا شىء . وفى أول مايو غادر الامبراطور هيلاسلاسى الحبشة وبعد ذلك بأسبوع أعلن موسولينى وضع أساس امبراطورية رومانية جديدة .

كانت تلك هى الضربة القاضية للعصبة بمثل ما كانت للحبشة . واتحدت اثنتان وخمسون دولة لمقاومة العدوان وكل ما حققوه هو أن هيلاسلاسى فقد كل بلاده بدلا من نصفها فقط .

واغرافا فى عدم الواقعية بها بالغت عصبة الأمم فى مضايقة ايطاليا بالسماح لهيلاسلاسى بالاستماع فى الجمعية ثم أبعدته بعدئذ بجريمة أخذه الميثاق بجدية . كانت اليابان وألمانيا قد تركتا العصبة من قبل وتبعتهم ايطاليا فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ واستمر بقاء العصبة من أجل أن تحجب عيونها عما كان يدور حولها . وعندما تدخلت الدول الأجنبية فى الحرب الأهلية الاسبانية لجأت الحكومة الاسبانية الى العصبة « ودرست المنظمة فى أول الأمر المسألة » وعندئذ أبدت « أسفها » ووافقت على وضع الصور المقدمة من البرادوه Prado فى جنيف . وفى سبتمبر سنة ١٩٣٨ اجتمعت الجمعية اجتماعها العادى فى قمة الأزمة التشيكية وقررت أن تستمر فى الدورة كما لو لم تكن هناك أزمة قائمة . وفى سبتمبر سنة ١٩٣٩ لم يتضايق أحد فى أن يبلغ العصبة ان حربا قد اندلعت . وفى ديسمبر سنة ١٩٣٩ طردت العصبة روسيا السوفيتية لاعتدائها على فنلندا وكانت العصبة تلاحظ باخلاص حياد سويسرا دون ذكر للحرب بين ألمانيا والدول الغربية . وفى سنة ١٩٤٥ كان اجتماع العصبة الأخير لتذرو نفسها وتحول اختصاصاتها الى هيئة الأمم .

وكانت النهاية الحقيقية للعصبة فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ وليس فى سنة ١٩٣٩ أو١٩٤٥ . ففى يوم كانت كيانا قويا يفرض العقوبات تبدو أكثر فاعلية من أى وقت مضى ، وفى اليوم الثانى كانت خدعة خاوية ، كسفينة يعمل كل فراد على ثقبها ليسرع بها ما أمكنه الى الغرق . وكان الشىء الذى قتل العصبة هو نشر مشروع هور - لافال . ومع هذا فقد كان مشروعا معقولا تماما ومتمشيا مع أعمال العصبة السابقة فى الوفاق منذ كورفو الى منشوريا . لقد كان من الممكن أن ينهى الحرب ويرضى ايطاليا ويترك الحبشة باقليم أكثر قومية ومجالا للعمل . وكان ما فى المشروع من حسن ادراك - بالنسبة لظروف ذلك الوقت هو عيبه الحيوى وذلك لأن نشاط العصبة ضد ايطاليا لم يكن فيه حسن ادراك فى التوسع فى السياسة الواقعية وانما تظاهر لمبدأ واضح بسيط ، فلم تكن هناك مصلحة ثابتة فى الحبشة حتى لايطاليا فموسولينى مهتم بأن يستعرض عضلات ايطاليا وليس الحصول على المكاسب العملية (اذا ما كان هناك شىء) للامبراطورية وكانت دول العصبة الكبرى مهتمة بتأكيد الميثاق وليس بالدفاع عن مصالحها الخاصة . ولقد بدا مشروع هور - لافال وكأنه يبين انه لا يمكن للمبدأ أو السياسة الواقعية أن

يتحدا • وكانت النتيجة غير صحيحة فكل سياسى على أى كفاءة جمع بين الناحيتين الاثنتين وان كان ذلك بنسب مختلفة • ولكن الجميع قبلوا ذلك في سنة ١٩٣٥ ، فمنذ تلك اللحظة وحتى اندلاع الحرب وقف « الواقعيون » المثاليون فى اتجاهين متعارضين وانبع الساسة الواقعيون وبالأخص أولئك الذين فى الحكم سياسة الضرورة دون تفكير فى المبدأ • أو المثاليون غير الواهمين فرفضوا أن يصدقوا ان الرجال الذين فى الحكم يستطيعون أن يرتكزوا أو حتى يأمنوا الى السلاح • والقليلون الذين حاولوا أن يقيموا جسرا فوق الثغرة فكانوا على أسوأ حالة فظل ايدن على سبيل المثال وزيرا للخارجية لكى ينقد ما يمكن انقاذه من الحكام وأصبح فى الواقع ببساطة عبارة عن « غطاء للساسة القدامى » الساخرين سيمون وهور ونيفيل تشمبرلن • وحتى ونستون تشرشل الذى كان يتحدث بتعبيرات رفيعة عن الأمن الجماعى ومقاومة العدوان أدهش الخياليين بالتحدث عن الحاجة الى تسلح بريطانى أعظم ؛ وهكذا بقىْ حتى اندلاع الحرب صورة منفردة لا يوثق فيه من كلا الجانبين • وبطبيعة الحال هناك دائما بعض التباين بين المبدأ والضرورة ولكنه أبدا لم يمثل هذا الاتساع كما فى السنوات الأربع بعد ديسمبر سنة ١٩٣٥ •

كان للمسالة الحبشية زيادة على هذا تأثيرات مباشرة سريعة أكثر فقد راقب هتلر الصراع بعيون حادة خائفا من أن تستخدم العصبة المنتصرة مرة أخرى ضد ألمانيا ، وشغوفا مع ذلك فى دق اسفين بين ايطاليا وشريكتيها السابقتين فى جبهة سترسا • فقطعت ألمانيا تجارتها كلية تقريبا مع ايطاليا كما لو انها كانت عضوا فى العصبة مخلصة فى تنفيذ العقوبات • وفى ديسمبر عرض هتلر وهو طامع فى تحطيم مشروع هور — لاغفال العودة الى المنظمة • بشروط بطبيعة الحال • وعندما مثل المشروع وبدأت الجيوش الايطالية فى النجاح عزم هتلر على أن يستغل انهيار جبهة سترسا • وعلى الأقل فان هذا يبدو التفسير الأكثر صحة لقراره فى أن يحتل مرة ثانية الرين المحايد وان لم يكن هناك فى الوقت الحاضر دليل ثابت على ما كان يدور بخلده •

وكان عذر هتلر هو تصديق فرنسا على الحلف الفرنسى — الروسى فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٦ فان هذا كما ادعى قد حطم مزاعم لوكارنو ؛ انها وان لم تكن حجة قوية الا انها دعوة مفيدة بلا شك للشعور العادى للبلشفية فى بريطانيا العظمى وفرنسا • وكان التحرك الفعلى فى ٧ مارس مثلا مذهلا لأعصاب هتلر القوية فلم تكن ألمانيا بالمعنى الحرفى

تملك قوات تصلح للحرب فقد تبعثر رجال الرايخ الريخسوهى القديم المدربون فى ذلك الحين كمدربين فى الجيش الحشدى الجديد ؛ ولم يكن هذا الجيش الجديد قد أصبح مستعدا الآن • وأكد هتلر لقواده المعترضين انه سوف يسحب خطوته التى اتخذها عند أول بادرة يتخذها الفرنسيون للتحرك ولكنه كان على ثقة لا يتطرق اليها الشك ان شيئا لن يترتب على ذلك •

ولم يأخذ اعادة احتلال الرين الفرنسيين على غرة فلطالما فكروا فيه متوجسين خيفة منذ بداية المسألة الحبشية • وفى يناير سنة ١٩٣٦ ترك لافال وزارة الخارجية ضحية مثل هور للضجيج ضد مشروع هور ـ لافال• وادعى خليفته فلاندن انه أكثر مناصرة لبريطانيا وتوجه لتوه الى لندن لمناقشة مشكلة الرين ومسألة بالدوين ماذا قررت الحكومة الفرنسية أن تفعل ؟ ولم تكن قد قررت شيئا وعاد فلاندن الى باريس ليستخلص قرارا من زملائه وفشل • وبمعنى أصح استخلص تصريحا بأن فرنسا سوف تضع كل قواتها تحت تصرف الأمم المتحدة لمواجهة انتهاك المعاهدات وبذلك حول القرار مقدما من باريس الى جنيف حيث كانت العصبة كأمر واقع فى تحلل كامل •

وفى ٧ مارس اجتمعت الوزارة الفرنسية فى حالة سخط شديد • وكان على أربعة وزراء ، من بينهم فلاندن وساروت رئيس الوزراء ـ أن يقوموا بعمل سريع ولكن وكما كان يحدث دائما مع الوزراء الفرنسيين أكد هؤلاء الرجال الأقوياء انهم كانوا أقلية قبل أن يرفعوا أصواتهم •

ودعى جنرال جاملان رئيس أركان الحرب وسلم أول تلك الآراء القاطعة التى كان عليه أن يكايد بها الساسة الفرنسيين والبريطانيين كذلك فى السنوات التالية • وكان جاملان رجلا ذا ذكاء حاد ولكن بلا روح مقاتلة ، أقرب لأن يكون سياسيا منه الى عسكرى • وكان مصمما على انه يجب ألا ينقل السياسيون القرار من على أكتافهم الى كاهله وكرئيس للقوات المقاتلة كان عليه أن يزعم بأنها كانت مستعدة لأى عمل يدعون لاتمامه • ومن ناحية أخرى كان يرغب فى أن يجبر السياسيين على أن ينفقوا كمية ضخمة من الأموال على الجيش لكى يكون ذا نفع • وفى الواقع كانت مغالطات جاملان الخبيثة أكثر من تعبير عن شخصيته • كانت تعكس التناقض بين تصميم فرنسا الواعى للاحتفاظ بوضعها التقليدى كدولة كبرى وتسليمها غير الواعى ـ وان كان أكثر دهاء ـ بوضع دفاعى متواضع • وقد يستطيع جاملان أن يتكلم عن أخذ المبادرة ضد ألمانيا

ولكن التجهيزات الدفاعية للجيش الفرنسى والتأثير النفسى لخط ماجينو جعل هذا مستحيلا .

وبدا جاملان بكلمات شجاعة وبطبيعة الحال كان الجيش الفرنسى يستطيع أن يزحف الى الرين ويهزم القوات الألمانية هناك ولكنه بعد ذلك كشف الغطاء عن المصاعب . وزعم ان ألمانيا لديها حوالى مليون رجل تحت السلاح منهم ٣٠٠٫٠٠٠ بالفعل فى الرين ولابد من دعوة بعض أقسام الاحتياطى فاذا ما كانت هناك أية مقاومة ألمانية فلابد من التعبئة العامة . وأكثر من هذا فهى لابد أن تكون حربا طويلة الأجل وبالنسبة لتفوق الصناعة الألمانية فان فرنسا لا تستطيع أن تأمل فى كسبها اذا ما حاربت بمفردها ولابد من وجود تأكيد بمعونة انجليزية وبلجيكية على الأقل . وكان هذا أيضا ضروريا لأسباب سياسية فمعاهدة لوكارنو حملت فرنسا مسئولية العمل السريع وبمفردها فى حالة « عدوان غاشم فقط » ولكن هل كانت حركة القوات الألمانية فى الرين «عدوانا غاشما» ؟ انها لم تؤثر على الحدود القومية لفرنسا فاذا ما سلم بوجود خط ماجينو فانه لايهدد أمن فرنسا فى المستقبل البعيد واذا ما عملت فرنسا بمفردها ، فانها ستجد نفسها مدانة من دول لوكارنو ومجلس العصبة كمعتدية .

وعندئذ أصبحت هناك ألغاز كان على السياسيين أن يفكوا رموزها ، ومع اقتراب الانتخابات العامة فى فرنسا ، فان أحدا من الوزراء لم يستطع أن يفكر فى التعبئة العامة ، وان كانت أقلية أيدت دعوة الاحتياطى ، واختفى كل تفكير فى عمل ، واحتلت الدبلوماسية محله . واستطاع الفرنسيون أن ينقلوا اللوم منهم الى حلفائهم ، تماما كما أزاحه جاملان عن عاتقه الى السياسيين . أما ايطاليا فهى وان كانت من دول لوكارنو ، فسوف لا تعمل شيئا بطبيعة الحال ، بينما لا تزال العقوبات تطبق عليها ، وأعلنت بولندا أنها سوف تفى بالتزاماتها فى ظل المعاهدة الفرنسية ـ البولندية سنة ١٩٢١ ، ولكن هذه المعاهدة كانت دفاعية بشكل صارم ، وكان البولنديون يلزمون أنفسهم فقط بدخول الحروب اذا ما أغير على فرنسا فعلا ، الأمر الذى كانوا يعرفون أن هتلر لا ينتويه فى ذلك الوقت . وعرض البولنديون أن يعلنوا التعبئة اذا ما فعلت فرنسا ذلك ، ومن ناحية أخرى امتنع الممثلون البولنديون عن التصويت ضد ألمانيا عندما عرض الموضوع أمام مجلس العصبة . وبالمثل لزمت بلجيكا الصمت . وكان البلجيكيون فى سنة ١٩١٩ قد تخلوا عن حيادهم

القديم وأقاموا اتحادا مع فرنسا بأمل أن يزيد ذلك من أمنهم ، أما وقد هدد الاتحاد بأن يتضمن عملا ، فقد ألقوا ما فى المركب فجأة •

ولم يتبق الا بريطانيا ، وشد فلاندن رحاله الى لندن ، ظاهريا ليتصيد التأييد • وكان فى الواقع أكثر اهتماما بنقل مسئوليته عبر الخليج ثم يتركها هناك ، وأظهر بالدوين تعاطفه المعتاد ونيته الحسنة • وتحجرت الدموع فى عينيه وهو يعترف بأن بريطانيا ليست لديها قوات تمد فرنسا بها • وأضاف أن الرأى العام البريطانى لن يسمح بذلك على أية حال •

وقد كان هذا حقيقيا ، فقد كانت هناك شبه موافقة اجماعية فى بريطانيا العظمى على أن الألمان قد حرروا أراضيهم الخاصة بهم • وكان ما لم يضفه بالدوين هو أنه يتفق مع الرأى العام عنده • وكانت اعادة احتلال الألمان للرين ــ من وجهة النظر البريطانية تقدما ونجاحا للسياسة البريطانية • ومنذ سنوات مضت ــ منذ لوكارنو ان لم يكن قبلها ــ كانت بريطانيا تحرض فرنسا أن تتبنى سياسة دفاعية دقيقة وألا تجر الى حرب لسبب « شرقى » بعيد • وطالما استمر الرين محايدا كان فى استطاعة فرنسا الاستمرار فى تهديد ألمانيا ، أو هذا هو ما بدا • وكان الانجليز فى « رعب » من الخوف بأن يتكرر موقف سنة ١٩١٤ ــ فى أن يجروا الى حرب من أجل تشيكوسلوفاكيا أو بولندا كما ظنوا فى سنة ١٩١٤ أنهم جروا الى حرب من أجل روسيا ، وأزال اعادة احتلال الألمان للرين هذا الخوف • ومنذ ذلك الحين فرض على فرنسا أن تلتزم بسياسة دفاعية سواء أرغبت فى ذلك أم لم ترغب ، ولم يبد معظم الفرنسيين شكوى كبيرة •

وتقبل فلاندن اعتراض بالدوين دون مناقشة طويلة • ولم يفكر قط فى أى تصرف مستقل من جانب فرنسا • وكان يعتقد أن أى محاولة لمنافسة ساسة فرنسا فى عام ١٩١٤ ستنتج ثغرة مع بريطانيا العظمى ، كما أن جاملان كان قد بسط أن العمل مستحيل فى مثل تلك الظروف • لقد اجبر الانجليز على الدبلوماسية وعلى هذا فان الدبلوماسية قد غدت ضرورة • واجتمع مجلس العصبة فى لندن • ولم يقترح عقوبات ضد المانيا الا ليتفينوف ــ رئيس الادارة الخارجية السوفيتية وحده ، وكان دفاعه كافيا فى حد ذاته للعن الاقتراح • وقرر المجلس ــ وان لم يكن بالاجماع ــ ان معاهدتى فرساى ولوكارنو قد خرقتا • ودعى هتلر الى التفاوض من أجل اتفاق جديد للأمن الأوربى ، ليحل محل ذلك الذى

حطم واستجاب للدعوة أنه ليس لديه « أى مطلب اقليمى فى أوربا » وهو يريد السلام ، واقترح حلفا لخمس وعشرين عاما من عدم الاعتداء مع الدول الغربية ، وناشد الانجليز بدورهم تعريفا أدق لقائمة منا القضايا المحددة بمسائل محكمة . ولم يرد هتلر بالنسبة لهذا بتاتا . وتلا ذلك صمت مطلق ، وتبددت البقايا الأخيرة لفرساى وتلاشت معها لوكارنو . وكانت نهاية حقبه ، كانت عاصمة « النصر » قد انهك قواها .

وحدد اليوم السابع من مارس سنة ١٩٣٦ نقطة تحول فى التاريخ ، وان يكن ظاهريا أكثر منه حقيقيا ، فنظريا جعل اعادة الاحتلال الألمانى للرين من الصعب ، بل حتى من المستحيل، على فرنسا أن تساعد حلفاءها الشرقيين، بولندا وتشيكوسلوفاكيا . وفى الحقيقة كانت قد تخلت عن أية فكرة من هذا النوع منذ سنوات مضت ، هذا اذا ما اعتبرنا حقيقة أنه كان لديها هذه الفكرة على الاطلاق ، ولم يؤثر اعادة احتلال الرين على فرنسا من وجهة النظر الدفاعية . فاذا ما كان خط ماجينو على كل هذه الصورة التى زعمتها اذن فستكون سلامتها مكفولة تماما كما كانت قبل ، فاذا ما كان خط ماجينو غير ذى فائدة ، فان فرنسا لن تكون آمنة على أية حال ، كذلك لم يكن الأمر خسارة على طول الخط بالنسبة لفرنسا ، فالمانيا ــ باعادة احتلالها للرين ــ استنفدت أرصدتها التى لا تقدر بثمن ، التى حققت لها مزايا كثيرة ... وسيتركونها غير مسلحة ، فالغرض من الأسلحة هو هزيمة جيوش أخرى . والهزيمة فى حد ذاتها لها نتائج سياسية : فهى تهز النعرة الوطنية للشعوب .. المهزومة ، وبهذا تجعلهم مستعدين لاطاعة المنتصر . ولكن ماذا يستطيع جيش أن يعمل اذا لم يكن هناك جيش آخر ليهزمه ؟ انه يستطيع أن يغزو بلدا غير مسلح ولكن الارادة الوطنية للدولة المعتدى عليها ستظل صامدة ، ويمكن تحطيم هذا بالرعب وحده ــ برجال المباحث السرية ، بغرف التعذيب ، بمعسكرات العمل . وهذه الطريقة من الصعوبة بمكان تطبيقها فى وقت السلم ، ووجد الألمان أنه من الصعوبة تطبيق ذلك حتى فى زمن الحرب مع دول مثل الدانمارك التى اكتسحوها دون قتال . فالدول الديمقراطية لا تستطيع بصفة خاصة أن تطور أسلوب الرعب ، اللهم الا الى حد ما فى مستعمراتها خارج أوربا . ومن هنا احتارت فرنسا وحلفاؤها

فيما يفعلونه مع المانيا طالما بقيت غير مسلحة • وبمجرد أن أعادت احتلال الرين وبنت جيشا عظيما كان فى الامكان مواجهتها بالاجبار بالطريقة الطبيعية ــ بالحرب • على أن الدول الكبرى الغربية وان لم تجهز لهذه الحرب بكفاية كبيرة ، الا أنها لم تستعد لها اطلاقا قبل اعادة احتلال الرين •

ولقد قيل فى هذا الوقت ، واستمر ذلك من هذا الحين ، ان ٧ مارس سنة ١٩٣٦ كان « الفرصة الأخيرة » والمناسبة الأخيرة التى كان يمكن أن توقف المانيا فيها دون كل التضحيات ومشاق حرب عظمى • ومن الناحية الفنية ، وعلى الورق ، كان هذا حقيقيا ــ ففرنسا لديها جيش عظيم ، فى حين لم يتوفر للألمان ذلك ، أما من الناحية النفسية فكان هذا فى الحقيقة رد الفعل ، لقد ظلت الشعوب الغربية مكتوفة الأيدى أمام السؤال : ماذا يمكنهم أن يفعلوا ؟ فالجيش الفرنسى يستطيع التغلغل داخل المانيا ، ويستطيع أن يعد بمعاملة حسنة من الألمان ، وعندئذ يستطيع أن ينسحب، وأن الوضع يمكن أن يظل كما كان من قبل ، أو هو فى وضع أسوأ ــ سيكون الألمان أكثر استياء وتعبا مما كانوا فى أى وقت • وفى الحقيقة لم يكن هناك أى تعقل فى معارضة ألمانيا حتى يكون هناك شىء صلب لمقاومته حتى تخرق معاهدة فرساى ويعاد تسليح ألمانيا • ان الدولة التى تطمع فى النصر هى التى يمكن أن تهدد بالهزيمة • وعلى هذا فقد كان ٧ مارس نقطة تحول مزدوجة • فقد فتح الباب لنجاح المانيا ، وفتح أيضا الباب لفشلها النهائى •

الفصل السادس

السلام نصف المسلح ١٩٣٦-١٩٣٨

حددت اعادة الاحتلال الألمانى للرين نهاية شعارات الأمن التى رفعت بعد الحرب العالمية الأولى ـ كانت عصبة الأمم ظلا ، فالمانيا استطاعت اعادة التسلح ، حرة من كل قيود المعاهدة ، ولم تعد ضمانات لوكارنو ذات كيان ، وفشلت كل من مثالية ويلسون وواقعية فرنسا ، وعادت أوربا الى النظام ، أو الحاجة الى النظام الذى وجد قبل سنة ١٩١٤ ، وكان على كل دولة ذات سيادة ، كبيرة كانت أم صغيرة ، أن تعتمد مرة أخرى على القوة المسلحة والدبلوماسية ، والحلفاء من أجل سلامتها ٠ ولم يبق للمنتصرين السابقين أى ميزة ولا أمام المنهزمين أية عوائق ٠ وأعيدت « الفوضى الدولية » واعتقد كثير من الناس ومن بينهم بعض المؤرخين ، ان هذا فى حد ذاته كان كافيا لتفسير الحرب العالمية الثانية ٠ وهو فعلا كذلك بمعنى ما ، فطالما ان الدول لا تعترف بأية قيود على سيادتها ، فان الحروب ستنشأ بينها ـ بعض الحروب نتيجة تدبير وأكثرها نتيجة سوء تقدير ٠ وكان عيب هذا التفسير أنه طالما يفسر كل شىء فهو أيضا لا يفسر شيئا ، فاذا كانت « الفوضى الدولية » هى التى سببت الحرب بصورة حتمية ، اذن لما كان فى استطاعة دول أوربا ان تعرف السلام منذ نهاية العصور الوسطى ٠ كانت فى الحقيقة هناك أيضا فترات طويلة من السلام ، وقد أعطت الفوضى الدولية قبل سنة ١٩١٤ لأوربا أطول فترة سلام لها منذ نهاية الامبراطورية الرومانية ٠

ان الحروب مثل حوادث الطريق ، فلها سبب عام وأسباب خاصة فى الوقت نفسه ان أية حادثة طريق تقع ـ فى نهاية الأمر ـ نتيجة لاختراع آلة الاحتراق الداخلى وبرغبة البشر فى أن يذهبوا من مكان الى آخر ٠ وبهذا

المفهوم فان « العلاج » لحوادث الطريق هو منع السيارات . ولكن قائد السيارة المتهم بالقيادة الخطرة ، سوف يكون غير مبرأ تماما اذا ما احتج بوجود السيارات كدفاعه الوحيد . ان الشرطة والمحاكم لا تقيم وزنا للأسباب العميقة ويبحثون عن السبب الخاص لكل حادثة ــ الخطأ من جانب السائق ، السرعة المفرطة ، تعاطي الخمور ، الخطأ في استعمال الفرامل أو سوء سطح الطريق ، وهكذا الأمر بالنسبة للحرب . فالفوضى الدولية تجعل الحرب ممكنة ، ولكنها لا تجعل الحرب أمرا مؤكدا . وبعد سنة ١٩١٨ كسب أكثر من كاتب لنفسه اسما باستنتاج الأسباب العميقة للحرب العالمية الأولى ، وبالرغم من أن الاستنتاجات كانت غالبا صحيحة ، الا أنهم بذلك حولوا الاهتمام عن السؤال : لماذا قامت هذه الحرب المعنية في هذا الوقت بالتحديد ؟ وكلا البحثين معقول على مستوى مختلف . انهما يكملان بعضهما بعضا ، ولا يحجب أحدهما الآخر . وكان للحرب العالمية الثانية كذلك أسباب عميقة ، ولكنها نبتت أيضا من حوادث خاصة وتستحق تلك الحوادث فحصا تفصيليا .

لقد تكلم الناس عن الأسباب العميقة للحرب قبل سنة ١٩٣٩ أكثر مما فعلوا من قبل ، ومن هنا فان هذه الأسباب تصبح ذات قيمة أكبر ، لقد أصبح شائعا بعد سنة ١٩١٩ أنه يمكن تجنب حروب المستقبل فقط اذا ما نجحت عصبة الأمم . والآن فشلت العصبة ، وأسرع الناس في القول بأن الحرب من ثم لا يمكن تجنبها ، وحتى مع هذا شعر الكثيرون أنه من الخبث محاولة منع الحرب بالوسائل القديمة من المحالفات والديبلوماسية . وقال الناس أيضا ان الفاشية تتمخض عن الحرب بصورة لا مناص منها ، ولم يكن هناك أفكار لذلك ، اذا ما صدق انسان الفاظ القائدين الفاشيين أنفسهما . فقد كان هتلر وموسوليني يمجدان الحرب وفضائلها واستعملا التهديد بالحرب لادراك أهدافهما ، ولكن هذا لم يكن شيئا جديدا . فلطالما فعل السياسيون ذلك ولم تكن بلاغة الديكتاتورين بأسوأ من « تحطيم السفن » عند الملوك القدامى ولا بالنسبة لهذا الأمر بأكثر مما تعلمه طلبة المدارس العامة الانجليز في العصر الفيكتوري ، ومع ذلك فقد كانت هناك فترات طويلة من السلام في ذلك الحين بالرغم من الخطب الملتهبة ، فحتى الديكتاتوريان الفاشيان لم يكن في استطاعتهما الدخول في الحرب ما لم يريا فرصة للكسب وعلى هذا الأساس يعزى سبب الحرب الى أخطاء الآخرين بالقوة نفسها التي يعزى بها الى شرور الدكتاتورين أنفسهما ، ومن المحتمل أن هتلر كان ينوى حربا عظمى من الغزو ضد روسيا السوفيتية ، وذلك بقدر ما كان لديه من تخطيط

واع • ولكن ما كان بعيـدا عن الاحتمال أنه أراد الحرب الفعلية ضد بريطانيا العظمى وفرنسا التى اندلعت فى سنة ١٩٣٩ • وقد كان فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ على قدر من خيبة الأمل مثل ما كان بيثمان فى ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ • وقد جاهد موسولينى فى يأس ـ بالرغم من كل تباهيه ـ لكى يبقى بعيدا عن الحرب ، بل انه كان أكثر يأسـا من قادة الجمهورية الفرنسية الثالثة المحتقرين ، ودخل الحرب فقط عندما ظن أنها مضمونة الكسب بالفعل ، ولقد هلل الألمان والايطاليون لقادتهم ، ولكن الحرب لم تكن أمرا جماهيريا بينهم ، كما كانت فى سنة ١٩١٤ ، وبعدئذ حيت الجماهير الفرحة فى كل مكان قيام الحرب • وعمت ألمانيـا كآبة شديدة أثناء أزمة تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨ ، ثم استسلام يائس عندما قامت الحرب فى السنة التالية • ان حرب سنة ١٩٣٩ لم تكن شيئا يمكن الترحيب به ، وكانت أقل من أن يرغب فيها أى فرد عن أية حرب فى التاريخ تقريبا •

وقبل سنة ١٩٣٩ ، نوقش بشكل كبير ، نوع آخر من الأسباب العميقة ، فلقد ساد اعتقاد بأن الظروف الاقتصادية كانت ستؤدى للحرب بشـكل حتمى • وكانت هـذه عقيدة ماركسية مقبولة فى هذا الوقت وحصلت تلك العقيدة بالاصرار على تكرار تأكيدها على تأييد أيضا من كثير ممن لايدعون أنفسهم ماركسيين • وكانت تلك فكرة جديدة لم يكن ماركس نفسه يعلم عنها شيئا • فقبل سنة ١٩١٤ تنبأ الماركسـيون بأن الدول الرأسمالية الكبرى لا بد وأن تقتسم العالم بينهـا ، ولما كانوا قد تنبأوا بالحروب كضرورة ، فقد توقعوا أن تكون صراعا للتحرر الوطنى من شعوب المستعمرات خارج أوربا • وكان لينين Lenin هو أول من اكتشف أن الراسمالية تسبب الحرب العالمية « بصورة حتمية » وهو لم يكتشف ذلك فقط الا عندما كانت الحرب العالمية الأولى قد بدأت بالفعل ، وكان بطبيعة الحال محقا • فلأن كل دولة كبرى كانت راسمالية فى سنة ١٩١٤ ، فمن الواضح أن الرأسمالية سببت الحرب العالمية الأولى ، ولكن بمثل الوضوح الذى سببت به عصر السلام الذى سبقها ، وهنا تفسير عام آخر فسر كل شىء ولم يفسر شيئا • فقبل سنة ١٩٣٩ كانت انجلترا وأمريكا وهما أكبر دولتين رأسـماليتين ، أكثر الدول طموحا لتجنب الحرب • وكان الرأسماليون فى كل دولة بما فيهم ألمانيا هم الطبقة الأكثر معارضة للحرب ، وفى حقيقة الأمر فانه اذا ما كان لأحد أن يتهم رأسماليى سنة ١٩٣٩ فان ذلك يجب أن يكون للمسالمة وللتهيب وليس للبحث عن الحروب •

ومهما يكن الأمر فمن الممكن اعتبار الرأسماليه مذنبة بطريقة أكثر تحديدا ، فبالرغم من أن الدول الامبريالية الناجحة ربما كانت مستقرة ومسالمة ، فان الفاشية ــ في زعم ــ مثلت آخر مرحلة عدوانية للرأسمالية في انهيارها ، وأنه لم يكن في الامكان تدعيمها الا بالحرب وحدها • وكان هناك عنصر من الحقيقة في هذا ، وان كان غير كبير ، فالعمالة الكاملة التي كانت الحكومة النازية أول دولة أوربية حققتها اعتمدت جزئيا على انتاج الأسلحة ، وان كان من الممكن تحقيقها بالمستوى نفسه (وكان ذلك الى مدى واسع) بصور أخرى من الأعمال العامة تبدأ من الطرق حتى المباني الضخمة ، ولم يكن سر النازية هو انتاج السلاح ، وانما كان التحرر من المبادىء الاقتصادية الجامدة المعاصرة • وحقق الانفاق الحكومي كل التأثيرات السعيدة للتضخم المعتدل ، في حين منعت الديكتاتورية السياسية بتحطيمها للنقابات ، واشرافها الصارم على التبادل التجارى ، النتائج السيئة مثل الارتفاع في الاجور أو الأسعار • ان الدليل على الحرب لا يقوم حتى ولو كان النظام النازى قد اعتمد على الانتاج الحربى فقط ، ولم تكن ألمانيا النازية غارقة في فيض من الأسلحة ، وعلى العكس من ذلك فان القادة الألمان أصروا بالاجماع في سنة ١٩٣٩ على أنهم ليسوا مهيئين للحرب وأنه لابد أن تمر سنوات عديدة قبل أن يتم « اعادة التسلح جذريا » وعلى هذا فانه لم تكن هناك حاجة بالنسبة للعمالة الكاملة • وفي ايطاليا الفاشية كان السند الاقتصادى مختلفا تماما ، لم يكن هناك نظام فاشي في الاقتصاديات ــ وانما كانت دولة فقيرة محكومة بمزيج من الرعب والسحر الأخاذ • وكانت ايطاليا غير مستعدة للحرب تماما ، كما اعترف موسوليني ببقائه «في حالة عدم حرب» في سنة ١٩٣٩ وعندما قام أخيرا بقفزته اليها في سنة ١٩٤٠ ، كانت ايطاليا أسوأ استعدادا للحرب في كل ناحية من النواحي ، عما كانت عليه عندما خاضت غمار الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ •

ان تفسيرا اقتصاديا من نوع مختلف كان شيئا شائعا قبل سنة ١٩٣٩ فالمانيا وايطاليا ــ كما قيل في التدليل على هذا التفسير ــ كانتا دولتين « غير كبيرتين بعد » تعانيان عجزا في الأسواق الأجنبية والمواد الخام واستحثت الحكومة البريطانية من جانب المعارضة العمالية الى معالجة تلك المآسي الاقتصادية بدلا من دخول سباق اعادة التسلح • وربما كانت ألمانيا وايطاليا دولتين « غير كبيرتين بعد » ، ولكن ماذا كانتا تريدان ؟ ان ايطاليا كانت قد فتحت الحبشة ، وبدلا من جني المكاسب نتيجة لذلك ، فقد وجدت تهدئتها وتقدمها يكاد يكون تام الاستحالة اذا

ما قيست بمواردها المحدودة ، وبالرغم من أن بعض الايطاليين أقاموا هناك فان هذا العمل الاستعمارى كان لأسباب تتعلق بالكرامة ، وقد كان من الأرخص والأكثر ربحا الاحتفاظ بهم فى الوطن • وقبل اندلاع الحرب مباشرة موسولينى مطالبته بكورسيكا ونيس وسافوى ولم تكن واحدة من تلك ــ فيما عدا نيس على وجه الاحتمال ــ تمنح أية مزايا اقتصادية ، وحتى نيس لم يكن فى استطاعتها حل المشكلة الايطالية الحقيقية كدولة فقيرة وكثيفة السكان •

وكانت مطالبة هتلر بالمجال الحيوى يبدو أكثر قبولا ــ أكثر قبولا ليقتنع به هتلر نفسه ، ولكن ماذا كانت قيمته عمليا ؟ فالمانيا لم تكن فقيرة فى الأسواق ، بل على العكس استخدم شاخت اتفاقيات ذات اتجاهين ليعطى المانيا عمليا احتكارا للتجارة مع جنوب شرقى أوربا ، كما أعدت خطط مماثلة لغزو أمريكا الجنوبية ولكن أعاقها اندلاع الحرب • ولم تكن ألمانيا تعانى أيضا من نقص المواد الخام ، فقد وفرت لها المهارة العلمية ألوان البدل لتلك التى لم تكن قادرة على شرائها ، كما لم تكن المانيا أبدا تعانى أى عجز فى المواد الخام خلال الحرب العالمية الثانية بالرغم من الحصار البريطانى وذلك حتى اللحظة التى حطمت فيها قاذفات قنابل الحلفاء حقول بترولها سنة ١٩٤٤ ، وكان المجال الحيوى فى أقصى مفاهيمه الأولية يعنى مطالبته بمنطقة جرداء يستطيع الألمان أن يقيموا فيها ، ولم تكن المانيا مكتظة بالسكان بالمقارنة بمعظم الدول الأوربية الغربية كما لم تكن هناك منطقة خالية فى أى مكان فى أوربا • وعندما انتحب هتلر هاتفا : «لو كان لدينا فقط أوكرانيا ••» كان يبدو أنه يفترض أنه ليس هناك أوكرانيون ، هل كان يقترح أن يسخرهم أو يفنيهم ؟ من الواضح أنه لم يأخذ هذا السؤال فى اعتباره بطريقة أو بأخرى ، فعندما غزت المانيا أوكرانيا فعلا فى سنة ١٩٤١ ، استخدم هتلر وتابعوه كلتا الطريقتين ولم تؤد احداهما الى كسب أية مزايا اقتصادية • كانت المنطقة الحالية تقوم فيما وراء البحار ، وكانت الحكومة البريطانية وهى تأخذ فى اعتبارها أسى هتلر بقيمته الظاهرية ، غالبا ما تنكر عليه توسعاته الاستعمارية ، ولم تستجب اطلاقا ، كان يعرف أن المستعمرات مكسب باهظ التكاليف ، وليس قصدا للربح ، أو هى كذلك على الأقل حتى تتطور وعلى أية حال فان امتلاكها سوف يخلصه من أساه • وباختصار فان المجال الحيوى لم يدفع ألمانيا الى الحرب ، والأقرب الى الفهم أن حربا من هذا النوع أو سياسة حربية هى التى تمخضت عن المطالبة بالمجال

الحيوى وأن هتلر وموسوليني لم يدفعا اليها ببواعث اقتصادية • لقد كانا – كأى من السياسيين ، بهما شهوة للنجاح • ولكنهما يختلفان عن الآخرين فى أن شهوتهما كانت أكبر ، وقد أشبعاها بطرق أكثر استهتارا •

كان تأثير الفاشية ظاهرا في الاخلاقيات العامة وليس فى المسائل الاقتصادية • لقد حطت دائما من روح الشئون الدولية • فلقد كان هتلر وموسوليني يتفاخران بتحررهما من المعايير المتفق عليها • كما بذلا وعودا دون توفر النية لحفظها ، وتحدى موسوليني ميثاق عصبة الأمم الذى كانت ايطاليا مرتبطة به • وأعاد هتلر تأكيد لوكارنو فى سنة لا لشىء الا لينكره فى السنة التالية • وفى خلال الحرب الأهلية الأسبانية سخر الرجلان صراحة من قرار عدم التدخل الذى كانا ملتزمين به • وبالذهاب بهذا الاسلوب نفسه الى مدى أبعد كانا يسخطان عندما يشك أحد فى وعدهما أو حين ينبههما الى وعودهما التى لم يحفظاها • وكان ساسة الدول الأخرى فى حيرة من ذلك الاحتقار للمعايير المتفق عليها ، ومع ذلك فلم يستطيعوا التفكير فى أى بديل ، واستمروا فى البحث عن اتفاق فيه قدر من الجاذبية للحاكمين الفاشيين الى درجة كسبهم الى ايمان طيب ، وفعل تشمبرلن ذلك فى ميونخ سنة ١٩٣٨ ، وستالين فى الاتفاقية النازية السوفيتية فى سنة ١٩٣٩ • وكان الاثنان متأخرين فى اظهار السخط الساذج من أن هتلر يستمر فى التصرف كما تصرف دائما • ومع ذلك فماذا كان عليهما أن يفعلا غير ما فعلاه ؟ ان اتفاقا من نوع ما كان يبدو البديل الوحيد للحرب • ولقد ظل هناك وحتى النهاية شعور خانق بأن هناك نوعا ما من الاتفاق المستحيل فى الحسبان ، ان الساسة المعادين للفاشية لم يكن فى مقدورهم التخلص من فساد هذا العصر ، انهم حين تظاهروا بمعاملة الديكتاتوريين الفاشيين « كسادة مهذبين » لم يعودوا هم أنفسهم سادة مهذبين • وما أن اقتنع الوزراء الانجليز والفرنسيون أنفسهم بعدم توفر النية الطيبة لدى الديكتاتورين غدوا بدورهم ساخطين عندما استمر الآخرون فى الشك • وكذب هتلر وموسوليني صراحة فيما يتعلق بعدم التدخل ، ولم يفعل تشمبرلن وايدن ، وبلوم ودلبوس أفضل من هذا الا القليل • وكان ساسة أوربا الغربية يتحركون وسط ضباب أخلاقى وذهنى تارة يخدعون الديكتاتوريين وتارة أنفسهم ، ولكنهم كانوا يخدعون شعوبهم فى أغلب الأحيان ، كذلك بلغ بهم الأمر حد الاقتناع بأن سياسة لا تهيب منها ، هى الملجأ الوحيد • ان من الصعب تصديق أن سير ادوارد جراى أو دلكاسى سوف يضع

اسـمه على اتفـاق ميونخ ، كذلك من الصـعب تصـديق أن لينين وتروتسكى Trotsky بالرغم من ازدرائهما للاخلاقية البورجوازية ــ يمكن أن يضعا اسميهما على الحلف النازى السوفيتى ٠

لا بد للمؤرخين أن يحاولوا اختراق سحب العبارات الى الحقائق من تحتها ، ذلك لأنه لا تزال هناك حقائق فى الشئون الدولية لمحاولة الدول الكبرى ــ مهما بلغت درجة عقمها ــ للتمسك بمصالحها استقلالهـا ٠ وكان النمط الأوربى قد تعدل بشكل عميق نتيجة لاحداث سنة ١٩٣٥ ، سنة ١٩٣٦ ، وسلكت الدولتان الغربيتان الكبيرتان أسوأ السبل الممكنة فى المسـألة الحبشية ، وباعدتا ما بين خطوتيهما بترددهما بين سياستين متناقضتين ، ٠٠ وفشلتا فى كلتيهما ٠٠ ولم تسـتطيعا مؤازرة عصبة الأمم على أساس المخاطرة بحرب او حتى بالقضاء على موسـولينى فى ايطاليا ، ومع هذا فلم تستطيعا حتى أن تلقيا صراحة بكل ما فى العصبة من أجله ، واسـتمرت تلك التناقضات حتى عنـدما انتهت الحرب فى الحبشة ، ونفى الامبراطور ٠ وكان من الواضح أنه لا يمكن أن يصنع المزيد من أجل المثـالية الغربية السـيئة الحظ والضـحية ٠ وانتهت العقوبات ورفضها تشمبرلن باعتبارها قمة الجنون الخيـالى ، ولكن اتهام ايطاليا كمعتدية ظل قائما ، ولم تستطع الدولتان الغربيتان أن تستسيغا الاعتراف بملك ايطاليا كامبراطور للحبشة ، وذهبت جبهة سترسا الى عالم النسيان ، واضطر موسولينى الى الاتجاه الى الجانب الألمانى ٠ وكانت تلك النتيجة لا تلقى منه الترحيب وبمهـاجمته للحبشة كان موسولينى يهدف الى استغلال التوتر الدولى فى الرين ، وليس الى اختيار التقرب من المانيا ٠ وبدلا من هذا فقد حريته فى الاختيار ٠

ووجد هتلر الحرية فى اللحظة التى فقدها فيها موسولينى ، وجعلت نهاية لوكارنو ألمانيا دولة تامة الاستقلال ، ولم تعد بعد مقيـدة بعوائق مفتعلة ، وربما كان من المتوقع منها مبادرات أكثر تطورا فى الشـئون الدولية ٠ وبدلا من هذا بقيت السياسة الألمانية ساكنة لأكثر من سنتين ، ان تلك السكتة المشحونة ــ كما سماها تشرشل ــ كانت ترجع جزئيا الى الحقيقة التى لا مهرب منها بأن الخطط العسكرية تستغرق وقتا طويلا حتى تنضج ، كان على هتلر ــ على هذا الأساس ــ أن ينتظر حتى تكون ألمانيا بحق قد أعيد تسليحها ، لحظة كان يحددها عادة بسنة ١٩٤٣ ولكنه كذلك كان فى ضياع فى ماذا يفعله بعد ذلك حتى ولو توفرت لديه القوة ليفعله وايا كانت خططه الطويلة المدى (وكان من المشكوك فيه أن لديه شيئا منها) فان الدافع الأصلى لسياسته العاجلة كان «تحطيم معاهدة فرساى» وكان

هذا موضوع « كفاحى » وكل خطبة ألقاها فى الشئون الخارجية ، كانت سياسة كسبت التأييد الجماعى للشعب الألمانى • وتوفرت لها أيضا الميزة الكبرى من أنها تفرض ــ بالاسلوب الواقعى ــ نفسها فرضا •

فبعد كل نجاح كان على هتلر أن يتمعن فقط فى معاهدة الصلح وهناك كان يجد مادة حان أوان تحطيمها ، كان قد افترض أن التدرج سوف يستغرق سنوات كثيرة ، وأنه سيلاقى صعوبات ضخمة • ان الانتصار عليها سيوفر رصيدا متواليا من العزة السامية ، واستغرق تحطيم كل من معاهدة فرساى ولوكارنو فى الواقع ثلاث سنوات فقط • ولم يتمخض الا عن قليل من الانذارات يثير عجبنا معها الآن السبب الذى جعل هتلر لا يعجل بتحطيمها بأسرع مما فعل • وبعد مارس سنة ١٩٣٦ لم يعد هناك بعد عزة يمكن اعتصارها من مهاجمة فرساى ، وعندما شجب هتلر فيما بعد واحدا من الشروط القليلة الباقية من عدم المساواة ــ تدويل الأنهار الألمانية ــ لم يلاحظ ذلك أحد سواء داخل الوطن أو خارجه • لقد انقضت أيام النجاح الميسر ، كانت احدى المهام تحطيم المواد القانونية فى معاهدة صلح والمهمة الأخرى المختلفة عنها تماما تحطيم استقلال دول أخرى حتى ولو كانت صغيرة • وبالاضافة الى ذلك لم يكن من أسلوب هتلر قط أخذ المبادرة • كان يحب أن يؤدى الآخرون العمل من أجله ، وانتظر حتى تطرق الضعف الى النظام الأوربى من داخله تماما كما انتظر اتفاقية السلام أن تتحطم من تلقاء نفسها • وكان من الممكن للامور أن تختلف اذا ما كان هتلر يحس هذا الأسى الملح الملموس بعد احتلال الرين • ولكن أحزان الألمان كانت لا تجد فى هذا الوقت الا القليل الذى يغذيها : كان كثير من الألمان يحسون احساسا جارفا تجاه دانزج والممر البولندى ، ولكن حلف عدم الاعتداء لم يكن قد اكتمل له فى العمر سنتان بعد ، كانت أكبر ضربة جديدة وأصيلة لهتلر فى السياسة الخارجية ، وكان محجما عن التحرك ضدها وكان المان تشيكوسلوفاكيا يدركون بصعوبة حتى ذلك الحين أنهم أقلية مضطهدة •

ولم يبق الا النمسا وحدها • كانت الثورة النازية الرعناء فى ٢٥ يوليو سنة ١٩٣٤ وقتل دولفوس الذى صاحبها ، ضربة سيئة لهتلر ، واحدى الأشياء القليلة التى عانى تجربتها • وأرسل بابن المحافظ الطائش الذى ساعد فى جعل هتلر مستشارا كسفير لألمانيا فى فينا ، وكان الاختيار مناسبا بشكل يثير الغرابة ، فلم يكن بابن كاثوليكيا رومانيا تقيا فحسب يخدم هتلر بولاء ، ونموذجا ــ على هذا الأساس ــ

لرجال الدين النمساويين ، وانما مفاوضا كذلك من فئة الكونكوردات مع البابوية ، كذلك كان على وشك أن يغتال أثناء فتنة ٣٠ يونيو ١٩٣٤ ، وكان على هذا مؤهلا بصورة فريدة لاقناع الحكام النمساويين بأن محاولات الاغتيالات النازية يجب ألا تؤخذ بجدية • وقام بابن بعمله على أحسن وجه • وكانت الحكومة النمساوية تمثل المسئولية في صورتها العاجزة ، كانت مستعدة لاضطهاد الاشتراكيين وليس الكاثوليك الرومانيين أو اليهود ، بل ان الأمر بلغ بهم حد الاستعداد لاستعمال شعارات القومية الألمانية طالما سمح للنمسا بأن تظل تمثل شكلا من أشكال البقاء • وكان هذا يتناسب مع هتلر ، وبالرغم من أنه كان يريد نمسا معتمدة على المانيا في الشئون الدولية ، فانه لم يكن متعجلا في القضاء على النمسا كلية • ومن الواضح أن الفكرة لم تدخل حتى في رأسه فقد كان نمساويا الى الدرجة التي يجد فيها أن الاختفاء التام للنمسا شيء غير معقول الى أن تحين اللحظة التي يتم فيها ذلك ، وحتى لو كان مما يمكن تصوره ، فانه لم يكن مما يرحب به أن فينا (فضلا عن لينز) يجب أن تحجب بواسطة برلين •

لقد استغرق الأمر من بابن سنتين لكسب الحصول على ثقة الحكومة النمساوية ، وهذا الشك المتبادل قد تراخي ان لم يكن قد أبيد • وفي ١١ يوليو سنة ١٩٣٦ أتمت الدولتان اتفاق « جنتلمان » وهو الفائدة الأولى ــ مصادفة ــ لهذا التعبير الباطل •• وكان التعبير ابتكارا خاصا ابتدعه بابن ، وسرعان ما وجد المقلدين • واعترف هتلر « بالسيادة الكاملة » للنمسا ، وفي مقابل ذلك اعترف سكوشنج بأن النمسا كانت « دولة المانية » ووافق على قبول أعضاء « ما يسمون بالمعارضة القومية » في حكومته وجعلت الحوادث فيما بعد الاتفاق يبدو شيئا احتياليا من كلا الجانبين ، ولم يكن الأمر هكذا ، بالرغم من أن كل موقع سمع بطبيعة الحال في الاتفاق ما كان يريد أن يسمعه ، وافترض هتلر أن النازيين النمساويين سوف يتغلغلون تدريجيا في الحكومة هناك وانهم سيحولون النمسا الى دولة نازية • ولكنه كان مغتبطا لأن هذا سيحدث في هدوء ودون أزمات درامية ، واعطاه اتفاق يوليو ١٩٣٦ تماما كل ما كان قد عرضه على موسوليني تقريبا في اجتماع فينيسيا قبل ذلك بسنتين ، فيما عدا أن سكوشنج لم يهييء منفذا لشخصية تمثل واجهة المظهر الاستقلالي ، وبدلا من هذا أصبح سكوشنج هو تلك الشخصية المحايدة ، أو هذا ما كان هتلر يأمل فيه • كان واثقا أن حوائط فينا ستسقط من تلقاء نفسها ، وبعد ذلك في فبراير ١٩٣٨ أخبر قادة النازية

النمساويين « أن المسألة النمساوية لن تحل أبدا بثورة ٠٠ انني أريد سلوك سبل التطور ، وليس حلا بوسائل عنيفة ، طالما أن الخطر بالنسبة لنا في حقل السياسة الخارجية يقل عاما بعد عام » (١) ٠

وارتاح سكوشنج من جانبه للهرب من الاعتـماد على ايطاليا ــ ذلك الاعتماد الذى كان يكرهه النمساويون جميعا والذى كان يعرف الكثيرون منهم أنه لا يعول عليه ، لم تكن هناك ديمقراطية لانقـاذها في النمسا ، كانت فقط اسما منفصلا ٠ وكان في امكان سكوشنج أن يهضم كل شيء يريده النازيون فيما عدا اختفائه شخصيا ، وكأن يعتقد أنه أصبح الآن آمناً من هذا ٠ وأعطى اتفاق يوليو سنة ١٩٣٦ لسكوشنج الظلال ولهتلر الجوهر وقنع كلا الرجلين بهذا ٠ وكان موسولينى راضيا أيضا فلم يكن في استطاعته أن يدافع عن استقلال النمسا الا باتفـاق مذل مع الدول الغربية ، وربما كان لا يستطيع ذلك أحيانا ٠ وكان أيضا سعيدا بالظلال ــ الاحتفاظ باسـم النمسا ، فمن تحت السـطح كان التناقض الداخلى بين السياسة الالمانية والايطالية لا يزال قائما ٠ كان موسـولينى يرغب فى الاحتفاظ بحمايته على النمسا والمجر ، وأن يوسع نفوذ ايطاليا في البحر الابيض المتوسط ، على حساب فرنسا أساسا ٠ وعزم هتلر على أن يجعل ألمانيا الدولة القائدة في أوربا بالاتحاد مع ايطاليا ــ على أحسن الفروض ــ كشريك أقل ، ولم يكن أحد منهما شغوفا بأن يشجع طموح الآخر ، كان كل منهما يخطط لاستغلال منـاوأة الآخر للدول الغربية لكى يستخلص الامتيازات لنفسه ٠ وفي مثل تلك الظروف قد تقـود مناقشة القضايا الواقعية بسهولة الى معركة ، على أنهم بدلا من ذلك ضـغطوا ، على هذا الاساس ، « تماثلهما الايديولوجى » بطريقة متشابهة ــ انها الروح الحديثة والخلاقة لدولتيهما التى جعلتهما بشكل مزعوم يسموان على الديمقراطية المنهارة ٠ كان هذا هو محور روما ــ برلين الذى أعلنه موسولينى عاليا في نوفمبر سنة ١٩٣٦ ، والذى كان من المتوقع أن تدور حوله السياسات الأوربية منذ ذلك الحين ٠

وكان هتلر يتبع السياسة نفسها في هذا الوقت مع اليابان ٠ وهنا أيضا لم تكن الدولتان متفقتين فى الشئون الواقعية ٠ أراد هتلر أن يدفع اليابان دفعا ضد روسيا وبريطانيا دون أن يضحى نفسه بالعـلاقة الالمانيه الوثيقة مع الصين التى كان لا يزال القادة الالمان ينظمون جيشها ، ولن

(١) مذكرات كيبلر xeppler ٢٨ فبراير ١٩٣٨ السـياسة الخارجية الالمانية المسلسلة د/١/ رقم ٣٣٨

يكون ممكنا لليابان أن تتسامح مع ألمانيا فى الشرق الاقصى عن أى دولة أوربية أخرى ، الى أبعد من هذا وكان كل يهدف الى أن يقوم الآخر بالصراع لكي يستطيع أن يجني الثمار ، وقدم ريبنتروب مستشار هتلر الخاص فى الشئون الخارجية ـ الحل ـ وكان هذا نجاحه الأول الذى أوصله الى وزارة الخـارجية بعد ذلك بحوالى سنة . وكان هـذا هو الحلف المناهض للكومنترن ، اعلان مدو من المبادىء لا يلزم أيا من الجانبين القيام بأى عمل وباعتباره موجها ضد الشيوعية وحدها فانه لم يبلغ حد التحالف ضد روسيا ، وعندما تعقدت الامور لم تتحالف الدولتان اطلاقا فى حرب ضد روسيا . على أن الحلف بدا كما لو كان تحالفا ضد روسيا . ودب الرعب فى قلوب القادة السوفيت ، واذا ما كان هناك مفتاح لسياستهم فانه لابد أن يوجد هناه ، كانوا يؤمنون بأنهم على وشك أن يهـاجموا ـ ربما من جانب ألمانيا وربما بواسطة اليابان ، وربما الاثنين مشتركين ، وكان معظم خوفهم وأكثره تأثيرا من الحرب فى الشرق الأقصى بينهم وبين اليابان . ومن السخرية الشديدة ـ وذلك ما تعود التاريخ دائما أن يفعله ـ أن تلك الحرب وهى الوحيدة التى كانت ترى فى الجو ـ لم تقم اطلاقا .

ان الحلف المناهض للكومنترن بين المانيا واليابان بالاضافة الى محور روما وبرلين المناهض للشـيوعيين والأكثر غموضا لم يؤثر فى السياسة السوفيتية وحدها . فقد كان له تأثير قوى على انجلترا وفرنسا كذلك ، وكانت روسيا والدول الغربية فى امكانهم أن يسيروا معا طالما أن العلاقات الدولية كانت قائمة على أسس مجردة ومنفصلة عن السياسات الداخلية ، فأنشأت فرنسا الحلف الفرنسى السوفيتى ، كما قبلت الدول الغربية روسيا السـوفيتية بنوع ما من التذمر كعضـو مخلص لعصبة الأمم ، وكانوا خجولين من الولاء تجاهها بامتداح ليتفينوف فى « الأمن الجماعى » . وعندما دفع الحلف المناهض للكومنترن بالأفكار السياسية الى الأمام ، شعر الرجال فى الدولتين الديمقراطيتين أيضا بالدعوة الى مناهضة الشيوعية وأصبح بهم ميل الى الوقوف على الحياد فى الصراع بين الفاشية والشيوعية ، بل ربما الى اتخاذ جانب الفاشية . كانوا يخشون هتلر كحاكم لألمانيا كدولة قوية معتدية ، ولكنهم كانوا يرحبون به ـ أو هـذا ما أحسه الكثيرون ـ كحامى الحضـارة الأوربية ضـد الشيوعية . وكان هناك اختلاف فى الوضع بين الانجليز والفرنسيين . قال كثير من الانجليز ، وفى حزب المحافظين على الأخص ، « ان هتـلر أفضل من ستالين » ولم يحدث لأى انجليزى فيما عدا الزعيم الفاشى سير أوزوالد موسلى أن قال « ان هتلر أفضل من بلدوين أو تشمبرلن

أو حتى اتلى » وفى فرنسا أسفر الانتخاب العام فى مايو سنة ١٩٣٦ عن أغلبية فى الجناح اليسارى للرديكاليين والاشتراكيين والشيوعيين . وعندما أعقب هذا حكومة الجبهة الشعبية لم يقل المحافظون والميسورو الحال الفرنسيون فقط بأن « هتلر أفضل من ستالين بل ان هتلر أفضل من ليون بلوم » .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذى تدهورت من أجله العلاقات بين روسيا السوفيتية وبين الدول الغربية والتى كانت تبدو آخذة فى التحسن وشهدت سنة ١٩٣٦ بداية التصفية الكبرى فى روسيا ، فلقد أعدم فى الواقع كل قائد بلشفى قديم أو سجن ، وأرسل الآلاف — وربما الملايين — من الروسيين الأقل شأنا الى سيبريا وامتدت التصفية فى السنة التالية الى القوات المسلحة ، ورمى توخاشيفسكى رئيس الأركان حرب ، والثالث من خمسة مارشالات ، الثالث عشر من حمسة عشر قائدا فى الجيش ، وكثيرون آخرون بالرصاص بعد محاكمة سرية أو بدون محاكمة على الاطلاق ، ولم يعرف أحد السبب لهذه المذبحة ، أكان ستالين مهووسا بسلطته الأتوقراطية ؟ هل كانت لديه أسباب لافتراض أن الجنرالات أو منافسيه السياسيين كانوا يخططون لمساندة المانيا لثورة ضد الستالينية ؟ أم كان هو نفسه يخطط لاتفاقية مع هتلر وعمل على هذا الأساس على ازالة من يمكن أن ينقدوه ؟ واستنادا الى احدى الروايات، يقال ان الرئيس بينز Benes رئيس تشيكوسلوفاكيا اكتشف أن توخاشيفسكى وآخرين كانوا يتفاوضون مع هتلر وقدم الدليل الى ستالين . واستنادا الى قصة أخرى يقال أن المخابرات السرية الالمانية لفقت بنفسها هذا الدليل وأكمله بينز ، اننا لا نعرف شيئا عن ذلك وربما لن نعرف أبدا ، ولكن التأثير كان لا يمكن الخطأ فيه ، ولقد آمن كل من المراقبين الغربيين تقريبا أن روسيا السوفيتية كحليفة أصبحت عديمة الفائدة — فحاكمها ديكتاتور متوحش لايخشى شيئا وغير هياب ، وجيوشها تسودها الفوضى ونظامها السياسى قابل للانهيار عند أول ضربة ، وكان السفير الامريكى جوزيف ديفيز هو الاستثناء الوحيد ، كان مصرا على أن هناك خطة محكمة ، وأن المحاكمات سلكت سلوكا عادلا ، وأن السلطة السوفيتية أصبحت أقوى نتيجة لذلك . على أنه أيضا كان يخمن أن أحدا لم يكن يعرف الحقيقة عندئذ ، كما أن أحدا لايعرفها الآن . ووقفت الجيوش السوفيتية موقفا صلبا أمام الألمان سنة ١٩٤١ ، بالرغم من أن هذا كان فقط بعد نكبات شديدة فى بداية الأمر ، هذا قد يبرهن على أنها بالمثل كانت جيوشا ذات كفاءة فى سنة ١٩٣٦ أو سنة ١٩٣٨ . ومن الناحية الأخرى قد

يضاف أنها لم تكن على أتم استعداد للحرب حتى في سنة ١٩٤١ ، ان كل تأمل في الأمر شيء عقيم • والمحصلة العملية كانت انسحاب الدول الغربية بحزم خلف خطوطهم الدفاعية ــ نتيجة غير عادية عندما يتأمل الفرد في أن الحلف الفرنسي ــ السوفيتي كان عذر هتلر لتحطيم اتفاقية لوكارنو •

ولم تقف الدولتان الغربيتان مكتوفتي اليدين بعد أحداث مارس سنة ١٩٣٦ ، بدأتا في تحسين وضعهما الدفاعي أو هكذا فكرتا : خوفا من المانيا بشكل رئيسي ، رغم أن ذلك كان أيضا لتقليل ارتباطهما بروسيا السوفيتية ، وعندما تحرك هتلر الى الرين ، غيرت الحكومة البريطانية ضماناتها المزدوجة تبعا لاتفاقية لوكارنو الى وعد صريح في المعاونة اذا ما هوجمت فرنسا بشكل مباشر ، وأعتبر هذا عملا مؤقتا حتى تكفل المفاوضات بديلا للوكارنو ، ولكن تلك المفاوضات لم تؤد الى شيء ، ولم يوجد بديل للوكارنو ، وبهذا الطريق الذي جاء صدفة ، ألزمت بريطانيا ــ للمرة الاولى في تاريخها ــ بتحالف لفترة من السلام مع دولة قارية كبرى وحدد ذلك في الواقع تغييرا هو شاهد على وعي بريطانيا المتزايد بالنسبة للشئون القارية ، وقد لا يكون الا دليلا على الضعف المتزايد ، ولكنه لم يكن في الحقيقة تغييرا بالغا ، فالزمالة بمفهومها كمصالح مشتركة مع فرنسا كانت قد استمرت لزمن طويل • والمحالفة الرسمية بالرغم من أنها كانت ظاهريا التزاما محكما ، فانها لم تقدم كمقدمة لنشاط ما ،ولكن على العكس لكي تمنع أي رد فرنسي فعال لاحتلال الرين • والاختبار العملي لأي تحالف هو التخطيط العسكري الذي يصاحبه ، وبدأت محادثات هيئتي أركان الحرب بين بريطانيا وفرنسا بعد تحرك الالمان نحو الرين مباشرة واستمرت خمسة أيام ثم تعثرت •• ولم تعقد أية محادثات حتى فبراير سنة ١٩٣٩ ولم تحصل فرنسا على أي زيادة في أمنها أو أية قوة من التحالف مع بريطانيا ، وانما حصلت على حليف قابض على زمامها خشية أن يتطور التحالف ليصبح ذا فاعلية ، وليس لأن الفرنسيين في حاجة الى مزيد من القمع •

لم يضعف الاحتلال الالماني للرين الوضع الدفاعي لفرنسا بشكل مباشر وان كان قد عاق خططها الهجومية بشكل كبير وهي التي كانت من جميع الوجوه لا وجود لها • ومهما يكن من شيء فقد كان له ، بطريق غير مباشر ، نتائج محزنة • فبلجيكا كانت في حلف مع فرنسا منذ سنة ١٩١٩ والجيشان منسقان بشكل تام ، وأصبح الآن أمام البلجيكيين المانيا المعاد تسليحها على حدودهم ، أفكان عليهم أن يستمروا في الاعتماد على تحالفهم الفرنسي الذي برهن على تلك اللافاعلية ؟ أم كان يجب عليهم أن ينسلخوا

جانبا على أمل أن يتجنبوا العاصفة القادمة ؟ واختاروا الوضع الثانى • وفى خريف سنة ١٩٣٦ انسحبوا من التحـــالف الفرنسى ، وفى بداية سنة ١٩٣٧ عادوا الى الوضع المحايد الذى التزموا به قبل سنة ١٩١٤ ؛ وخلق هذا مشكلة استراتيجية حادة للفرنسيين • فلقد انتصر امتداد خط ماجينو ـ أكثر الوسائل الدفاعية قوة ـ فقط على المســـافة من الحدود السويسرية الى البلجيكية ، وقبل ذلك افترض الفرنسيون ـ بالرغم من أن ذلك كان بدون تعليل كبير ـ ان البلجيكيين لابد وأن يقيمــوا بعض الاستحكامات المماثلة على الحدود القصيرة بين بلجيكا والمانيا • ماذا كان يجب عليهم أن يفعلوا الآن ؟ انهم لا يستطيعون أن يعتمدوا على الحصـون أو حتى يسالوهم عنها دون التعدى على حيادها • كانت الحدود بين فرنسا وبلجيكا طويلة بشكل كبير والتكاليف لتحصينها فوق الطاقة ، وبجانب هذا فان الفرنسيين لم يكونوا يستطيعون محـــاولة ذلك دون الاعتراف الضمنى بأمرين أولهما أنهم قد شجبوا الدفاع عن بلجيكا وأنهم ينظرون اليها كعدو محتمل • وعلى هذا فقد فعلوا كما يفعل الناس دائما عنــدما يواجهون بمشكلة لا تحل : اغمضوا عيونهم عنها وتظاهروا بأنها لا توجد• ولم تبذل أية محاولة لحماية الحدود الفرنسية مع بلجيكا ؛ واستمر هذا الاهمال حتى بعد اندلاع الحرب وعسكرت القوات الانجليزية على الجبهـــة البلجيكية خلال شتاء ٣٩ـ١٩٤٠ ، وكتب كثير من الضباط تقارير عن وضعها الذى لا يمكن الدفاع عنه ، ووصلت الشكاوى الى هور ـ بليشا Hore-Belisha وزير الدولة للحرب • وعندما رفع القضــية الى الجهات العليا طرد من الوزارة • وبعد ذلك بأسابيع غزا الألمان مبـــاشرة بلجيكا ، وحقق القادة الكبار المتحالفون هناك ـ بمساعدة أخطاء جاملين الاستراتيجية ـ النصر الحاسم الذى كان قد افلت منهم سنة ١٩١٤ •

ان معلوماتنا عن تلك الحوادث الأخيرة تجعل من الصعب أن نفحص مرحلة ما قبل الحرب بالنسبة للسياسة البريطانية والفرنسية بعمق ، اننا نعرف أن الالمان قد سحقوا الجيوش المتحالفة فى فرنسا • وعلى ذلك فاننا نستنتج فى سهولة أنهـــا لم تكن معدة اعدادا كافيا من وجهة النظر العسكرية ، ان هذا الاستنتاج يبدو مدعما بالارقام ، ففى سنة ١٩٣٨ عندما كانت المانيا تخصص ١٦ر١٦٪ من انتاجها الكلى للتسلح ، كانت بريطانيا وفرنسا تخصصان ٧٪ فقط لتسلحهما • ولكن قبل أن نقبل التفسير بأن هزيمة الدول الغربية كانت ترجع الى فشلهم فى زيادة التسلح بكفاية لابد ان نسأل « بكفاية من أجل ماذا ؟ » هل كان الانفاق المتزايد

ـ مثلا ـ يستطيع التغلب على الاهمال الاستراتيجي لبلجيكا ؟ لقد كان مفروضا بصفة عامة ـ كما لا يزال حتى الآن ـ أن الهدف المثالى لا بد أن يكون مساويا للتسلح مع العدو المحتمل أو مجمـوعة من الاعداء . وفى حقيقة الأمر فان هذا هو أكثر الاهداف عقما : فهو كثير جدا اذا ما كانت الدولة ترغب فقط فى الدفاع عن نفسها ، وقليل جدا اذا ما كانت تأمل فى فرض ارادتها على الجانب الآخر ، ولم تكن الأميرالية البريطانية راضية أبدا بالمساواة . كانت تهدف الى تفوق حاسم على المانيا وايطاليا ، وعلى اليابان كذلك منذ سنة ١٩٣٧ وما بعدها . ان مستوى هذه الدول الثلاث لم يتم الوصول اليه وذلك لنقص فى الوقت وليس لنقص فى المال .

ومهما يكن من شيء فقد كانت الأسلحة الحيوية حاسمة طالما كانت أوربا هى المعنية ، وهنا كانت موضوعية المساواة مضللة بصورة غريبة . وفى الحرب العالمية الأولى كان الدفاع أكثر قوة من الهجوم : كان المهاجم يحتاج تفوقا بنسبة ثلاثة أضعاف ان لم تكن خمسة الى واحد ـ ويبدو أن معركة سنة ١٩٤٠ فى فرنسا أثبتت خطأ تلك التجربة ؛ فقد أحرز الألمان نصرا حاسما دون تفوق كبير فى كل من قوة المقاتلين أو المعدات ـ وكأمر واقع فان الحملة الفرنسية لم تبرهن الا على أن الجيوش المجهزة للدفاع بشكل كاف يمكن أن يقضى عليها اذا ما كانت تحت قيادة سيئة ، وفيما بعد فان التحالف الكبير لبريطانيا وروسيا السوفيتية والولايات المتحـدة كان عليه أن ينتظر التفوق بنسبة خمسة الى واحد قبل أن يهزم المانيا .

وعلى هذا فان بريطانيا وفرنسا اذا ما أملتا فقط فى الدفاع عن نفسيهما، فان زيادة قليلة فى أسلحتهما البرية سوف تمكنهما من عمل هذا ، وكانت هذه الزيادة أكثر مما يلزم فيما بين سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٣٩ ، أما من الناحية الأخرى فانهما اذا ما رغبتا فى هزيمة المانيا وفى استعادة السيطرة الغلابة التى استمتعتا بها سنة ١٩١٩ فقد كان عليهما أن يضاعفا أسلحتهم ليس الى ضعفين وانما الى ستة أضعاف ان لم يكن عشرة ـ وكان هذا أمرا مستحيلا ، ان أحدا لم يقدر قيمة هذا . ان الناس تعلقوا بفكرة المساواة المضللة مؤمنين بأن هذا سيوفر لهم بطريقة ما ليس فقط الأمن ، وانما القوة . تكلم الوزراء عن « الدفاع » وضمنوه ان الدفاع الناجح هو النصر نفسه ؛ وافترض ناقدوهم أن الدفاع الناجح كان اما مستحيلا أو هو ليس بأفضل من الهزيمة . ليس هناك اذن اجابة بسيطة على سؤال « هل كانت الأسلحة الانجليزية والفرنسية كافية قبل سنة ١٩٣٩ ؟ » لقـد كانت كافية للدفاع عن الدولتين ، وذلك اذا استخدمت الاستخدام الصحيح وكانت غير كافية لتمنع التوسع الألمانى فى أوربا الشرقية .

وفى مظهر واحد لم يكن التقدير العادى لمضاعفة التسلح الى ثلاثة أضعاف يبدو مطبقا • وكان الاعتقاد الجماعى بأنه لا يوجد دفاع ضد الهجوم من الجو ، ووضح بلدوين هذا عندما قال : « ان قاذفة القنابل سوف تنفذ كما تشاء » ولقد كان متوقعا أن كل مدينة كبيرة ستسوى بالأرض عند اندلاع الحرب مباشرة ، واقامت الحكومة البريطانية ــ وهى تعمل على أساس هذا الغرض ــ الاستعدادات لاحتمالات أكثر فى لندن وحدها خلال الأسبوع الأول للحرب عن كل ما قاساه الشعب البريطانى فى الحقيقة خلال خمس سنوات طوال ، وكانت الاجابة الوحيدة المقترحة هى « الرادع » ــ سلاح من قاذفات القنابل بقوة العدو نفسها • ولم تدع كل من بريطانيا أو فرنسا امتلاك مثل تلك القوة فى سنة ١٩٣٦ أو حتى فى سنة ١٩٣٩ ، ومن هنا ، والى حد كبير ، كانت مخاوف رجال السياسة وتحولت كل هذه التقديرات لتكون مخطئة ، فلم يخطط الالمان أبدا لاستقلال قذف القنابل • وكان سلاح قاذفات القنابل ملحقا بالقوات البرية ، وكان عليهم أن يرتجلوا الهجوم الجوى على بريطانيا فى صيف سنة ١٩٤٠ ، وتم الرد على الالمان وهزموا ليس بالمقاتلات البريطانية ، ولكن بالقيادة المقاتلة ، التى كانت محتقرة ومهملة نسبيا قبل الحرب • وعندما ثابر الانجليز بدورهم على قذف ألمانيا بالقنابل الحق هذا الاضرار بهم أكثر من الألمان ــ بمعنى أن هذا استنفد رجالا وآلات انجليزية أكثر مما دمره فى ألمانيا ــ ولم يستطع أحد أن يدرك هذا قبل حدوثه ، كما فشل الكثيرون فى الواقع فى ادراكه بعد ذلك • ان الوضع فى سنوات ما بعد الحرب خط سبيله فى ظل من الخطأ البشع •

ان الحروب عندما تأتى تختلف دائما عن الحرب المتوقعة ويلحق النصر بالجانب الاقل خطأ وليس لمن خمن تخمينا صحيحا • وبهذا الفهم فان بريطانيا وفرنسا لم يستعدا استعدادا كافيا • أعطى الخبراء العسكريون النصيحة المخطئة واتبعوا الاستراتيجية المخطئة ، ولم يفهم الوزراء ما قيل لهم من خبرائهم ، ولم يدرك الساسة أو الرأى العام ما قيل لهم من الوزراء • لم تقترب ألوان النقد كثيرا من العمل الصحيح• فونستون تشرشل مثلا كان « سليما » فقط فى طلب المزيد فى كل شىء • وهو لم يطلب أسلحة أو استراتيجية من نوع مختلف، وكان فى موضوعات كثيرة كقوة الجيش الفرنسى وكفاية القاذفات عنيدا فى خطئه بشكل يدعو للغرابة ، كانت القيادة الفنية الخاطئة هى السبب الرئيسى فى الفشل الانجليزى ــ الفرنسى ، ولعبت المشاكل الاقتصادية دورها بالمثل بالرغم من أنه كان أقل مما زعم ، وربما كان متوقعا فى فرنسا من حكومة

الجبهة الشعبية التى جاءت الى الحكم فى يونيو سنة ١٩٣٦ أن تكون حازمة بصفة خاصة مع الدول الفاشية ولكنها كانت أيضا بادخال اصلاحات اجتماعية فات أوانها منذ من طويل • وسببت هذه الاصلاحات المتواضعة غضبة مريرة بين طبقات الملاك ، وتحملت الأسلحة الفرنسية الجزاء ،وعندما طالب القادة العسكريون الفرنسيون وهم محافظون بطبيعتهم ـ بنفقات أكثر للقوات المسلحة ، كانوا يعبرون بلا شك عن حاجات أصيلة ، ولكنهم كانوا يأملون أيضا أن تخرب هذه النفقات المتزايدة برنامج الاصلاح الاجتماعى ورد مؤيدو الجبهة الشعبية ـ أى ، أغلبية الشعب الفرنسى ـ بنفس المستوى ، معترفين بأن بعض نفقات التسلح طلبت لكى تمنع الاصلاح الاجتماعى ، ورفضوا أن يقتنعوا بأن أى زيادة هى أمر ضرورى •

وتعطل التسلح البريطانى لسبب مختلف وادعت الحكومة أحيانا ـ وهذه حقيقة أنها عوقت بنزعة السلام غير الوطنية من المعارضة العمالية، وضخم هذا العذر بشكل كبير فيما بعد ، عندما أظهرت الاحداث فشل الحكومة • وفى حقيقة الأمر اختارت الحكومة البريطانية بمحض ارادتها أن تحدد النفقات على الأسلحة الى رقم متواضع ، كان لها أغلبية ضخمة فى مجلس العموم House of Commons ـ ٢٥٠ فى مجموع ، وكان حزب العمال لا أمل له فى مقاومة مقترحات الحكومة وهو شيء بعيد تماما عن الحقيقة بأن كثيرا من حزب العمال كانوا يريدون دائما أسلحة متزايدة ، وزحفت الحكومة ببطء نحو أسباب ذات نظرة سياسية واقتصادية أبعد كثيرا من الخوف من المعارضة العمالية وأخرت الهجمات المبادرة لتشرشل من عمل الحكومة • كان من الصعب على الوزراء وقد أنكروا أعباءه أن يعترفوا بأنه كان على حق • وحتى عندما شرعوا فى زيادة التسلح ، فعلوا ذلك بحذر مفرط ـ النقيض التام لهتلر الذى كان يتباهى دائما بالأسلحة التى لم يكن يملكها ، وكان يريد أن يهز أعصاب خصومه ، وكانوا هم يريدون أن يسترضوه ، وأن يعيدوا اكتسابه الى مفاوضات السلام ؛ ولهذا السبب حاولت الحكومة البريطانية من أجل هتلر ، أن تجعل مقاييسها تبدو غير ضارة وغير فعالة فى الوقت نفسه الذى كانوا يؤكدون فيه للرأى العام البريطانى ، وحتى لأنفسهم ، ان بريطانيا ستصبح بعد ذلك فى مأمن ـ وقاوم بالدوين فى اصرار انشاء وزارة للامدادات ، وعندما اضطر أخيرا لمنح المنصب الوزارى الخالى لتنسيق الدفاع ، لم يختر تشرشل أو حتى أوستن تشمبرلن ، وانما السير توماس انسكب وكان تعيينا صور تماما بأنه كان أكثر الاشياء شذوذا منذ أن جعل كاليجولا حصانه قنصلا • على أنه كانت هناك فى الواقع مناصب بريطانية وافرة من هذا النوع تؤلف « آلايا » من أحصنة فرسان كاليجولا •

كانت الحكومة البريطانية تخشى أن تسىء الى المبدأ الاقتصادى أكثر من خشيتها أن تسىء لهتلر • كان سر صندوق بندورا الذى فتحه شاخت فى المانيا والذى حققه أيضا النيوديل New Deal الامريكى الذى انكشف أيضا لا يزال غير معروف لهم ، وبتأهبهم لايجاد أسعار ثابتة ونقد مستقر ، منذ نظروا الى الانفاق العام المتزايد كشيء بالغ السوء غير مسموح به الا فى حالة الحرب الفعلية فقط ، وحتى فى ذلك الوقت يكون شيئا محزنا • لم يكن لديهم أية دلالة على أن الانفاق العام على أى شيء حتى على التسلح ، يصعب معه رفاهية متزايدة كانوا لا يزالون يعاملون التمويل العام ككل الاقتصاديين المعاصرين تقريبا باستثناء ج•م• كينز بطبيعة الحال ، كما لو كان تمويلا فرديا خاصا ، فعندما ينفق الفرد أموالا على أشياء غير مفيدة فانه لا يملك الا القليل لانفاقه فى أشـــياء أخرى وعندئذ يقل الطلب • وعندما تنفق الدولة أموالا ، فان ذلك يخلق طلبا متزايدا وتنشأ تبعا لذلك رفاهية متزايدة تشمل المجتمع بأسره ، وان هذا واضح لنا الآن ، ولكن القليل كان يعرفه فى ذلك الحين ، وقبل أن ندين بالدوين وكذلك نيفيل تشمبرلن فى ازدراء يجب علينا أن نتمعن أنه حتى فى سنة ١٩٥٩ دعى اقتصادى أمام مجلس اللوردات لكى ينادى بالأخذ بمبدأ التقتير العام الذى أحدث التناقض فى السياسة البريطانية قبل سنة ١٩٣٩ • وربما لا زلنا أقل استنارة ، وأكثر رعبا من الانفجار الشعبى الذى قد ينتج اذا ما استمر الاقتصاديون فى طريقهم ، وعندئذ يكون الرجوع الى بطالة ضخمة • فقبل سنة ١٩٣٩ كان ينظر الى تلك البطالة كقانون طبيعى ، وكانت الحكومة تســـتطيع أن تدعى بمنتهى الاخلاص أنه لا توجد أية موارد غير مستغلة فى الدولة عندما يظل حوالى مليونين متعطلين •

وكان لهتلر هنا أيضا ميزة كبرى على الدول الديمقراطية • كان أكبر ما حققه هو الانتصار على البطـــالة ، ولم يأخذ كثير من الالمان فى اعتبارهم أية طرق خادعة اتبعها طالما أنه حقق ذلك ، وأكثر من هذا فانه وان اعترض أصحاب البنوك الالمان فلم تكن لديهم الوسائل الفعالة لقول هذا ، وعندما وصل شاخت نفسه الى حد القلق ، لم يكن أمامه سوى أن يستقيل ، ولم يعر ذلك التفاتا الا القليل من الألمـان أن ديكتاتورية مثل التى كانت لهتلر تستطيع أن تتجنب النتائج العادية للتضخم ، فطالما أنه لا توجد هناك أية نقابات ، أمكن الابقاء على استقرار الوجود وكذلك الأسعار فى حين حال الاشراف العنيف على التبادل ـ معضدا باســلحة الرعب والمباحث السرية ـ دون أى هبوط فى المارك• ان الحكومة البريطانية لا زالت تعيش فى الجو النفسى لسنة ١٩٣١ : أكثر خشية من اضطراب

النقد عنها من الهزيمة فى الحرب ، كانت مقاييسها بالنسبة للتسلح أقل استنادا على الضرورة الاستراتيجية حتى لو كان ذلك معروفا عنها بالنسبة لموقف دافع الضرائب ، وهو الذى قد أكد له دائما أن الحكومة قد جعلت بريطانيا قوية بالفعل ، لن يتحمل كثيرا ، وجاء تحديد ضريبة الدخل وثقة مدينة لندن فى المقام الأول وجاء التسلح فى المقام الثانى • وفى ظل تلك الظروف ، فانه ليس من الضرورى التوسل بمعارضة حزب العمال لكى نفهم لماذا كانت الاستعدادات البريطانية للحرب قبل سنة ١٩٣٩ قاصرة بالنسبة للاستعدادات الألمانية • ان وجه العجب ممكن أن يكون بهذا الوضع : أنه عندما قامت الحرب ، كانت بريطانيا فى مستوى استعدادها نفسه من قبل • انه انتصار المهارة العلمية والفنية على الاقتصاديين •

ومهما كان الأمر فان التفسير البسيط لكل ما حدث بين ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ هو مجرد أن نقول ان بريطانيا وفرنسا كانتا أقل تجهيزا للحرب من ألمانيا وايطاليا • وبطبيعة الحال فان الحكومات يتحتم عليها ان تزن قوتها ومواردها قبل تقرير العمل ـ أو عدم العمل ، وهى نادرا ما تفعل ذلك ، وفى الحياة الواقعية فان الحكومات التى لا تريد أن تفعل شيئا تكون مقتنعة اقتناعا لا يتطرق اليه الشك بضعف بلادها وتصبح واثقة بالمثل بقوتها فى اللحظة التى ترغب فيها فى العمل ، فألمانيا مثلا كانت أقل استعدادا لحرب عظمى فى الفترة بين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٦ عنها قبل أن يأتى هتلر الى الحكم ، والاختلاف هو أنه كان يملك أعصابا قوية بينما كان أسلافه لا يملكونها • وفى الخاتمة الأخرى للقصة كان للحكومة البريطانية سبب ضعيف فى مارس سنة ١٩٣٦ لتصديق أن بريطانيا تستطيع مواجهة مخاطرة الحرب أفضل من ذى قبل ـ بينما الأمر يبدو على العكس ، ومن وجهة النظر الفنية ـ كان التغيير نفسانيا ـ اسراف فى التشبث غير المعقول يماثل التهيب الذى سبقه • وهناك من الشواهد الضئيلة على أن حكام الدول الديمقراطية (أو الديكتاتورية بالنسبة لهذا الأمر) كانوا يستشيرون دائما خبراءهم العسكريين بطريقة مفصلة قبل اقرار السياسة كانوا يقررون السياسة أولا ثم يسألون بعد ذلك الخبراء عن التعليلات الفنية التى يمكن بها تبرير هذه السياسة • وكان هذا هو الوضع فى تردد انجلترا وفرنسا فى تعضيد عصبة الأمم بلا مساومة فى خريف سنة ١٩٣٥ ، وكان هذا هو الوضع أيضا فى احجامهم عن أخذ موقف حازم ضد الدكتاتورين فى سنة ١٩٣٦ ، أراد الوزراء البريطانيون السلام من أجل دافع الضرائب ، وأراده الوزراء الفرنسيون لكى يستمروا فى برنامجهم فى

الاصلاح الاجتماعى • وكانت الدولتان تتشكلان من رجال مسنين حسنى النية يحجمون بحق عن خوض حرب عظمى ، وعما اذا كان فى الامكان تجنبها ، وكان ضد طبيعتهم أن ينبذوا فى الشئون الخارجية سياسة التراضى والاذعان التى كانوا يطبقونها محليا •

وربما كانت استجابتهم مختلفة لو أن هتلر اتبع اعادة احتلال الرين بتحد أبعد وأكثر مباشرة للاتفاقية الاقليمية الاوربية القائمة ، أو اذا ما كان موسولينى قد جد فى طلب ميادين أخرى صالحة للغزو بعد اكتساحه الحبشة مباشرة ، ولكن هتلر ظل ساكنا ، وأنهكت قوة ايطاليا ووقع أكبر حدث فى سنة ١٩٣٦ فى مكان آخر — صراع مبادىء — أو هكذا كان يبدو بدلا من صدام مباشر للقوى • كانت تلك هى الحرب الأهلية الاسبانية • ففى سنة ١٩٣١ أصبحت أسبانيا جمهورية • وفى سنة ١٩٣٦ ألقى انتخاب عام بمقاليد الحكم — كما فى فرنسا — الى جبهة من الراديكاليين ، والاشتراكيين والشيوعيين — جبهة شعبية أخرى • وكان برنامجها عداء للكهنوتية وديمقراطيا بشكل أكبر من الاشتراكية ، وحتى هذا كان كافيا لاثارة المصالح القديمة الراسخة — الملكية ، والعسكرية والفاشية • ووضعت خطط لثورة معادية للديمقراطية فى باكورة سنة ١٩٣٤ ، وتلقت نوعا من المباركة غير الصريحة من موسولينى • وفى يوليو سنة ١٩٣٦ انفجرت تلك الخطط فى شكل تمرد عسكرى واسع النطاق ، وكان من المعتقد عالميا فى ذلك الوقت أن هذا التمرد هو الخطوة التالية لاستراتيجية غزو فاشية متأنية ، الحبشة الخطوة الأولى واعادة احتلال الرين التالية ، والآن أسبانيا • وكان من المعتقد أن المتمردين الأسبان دمى للحاكمين الفاشيين ، ومعرفة بالتاريخ الاسبانى والاخلاقيات الاسبانية لابد وأن تعلم أن تلك النظرة خاطئة ، فالاسبانيون ، حتى الاسبانيين الفاشيين كانوا فخورين باستقلالهم الى حد لا يجعلهم دمى لأى فرد ، وقد أعد التمرد دون استشارة جادة فى أى من روما أو برلين • وقد أمدها موسولينى بطائرات كاستياء عام من الديمقراطية • وتعاطف بعض العملاء الالمان مع المتمردين • ولكن هتلر لم يكن يعلم أكثر من أى فرد آخر عن التمرد الفعلى قبل حدوثه •

ولقد توقع المتمردون نصرا سريعا ، وتوقعه كثير من الآخرين لهم ، وبدلا من هذا جمعت الجمهورية عمال مدريد وقضت على المتآمرين العسكريين فى العاصمة وأكدت قبضتها على معظم اسبانيا ، واستمرت حرب أهلية طويلة فى عرض البحر • وزاد موسولينى من مساعدته للمتمردين ، بالمعدات أولا ثم بالرجال ، وأرسل هتلر مساعدة جوية على نطاق أكثر تواضعا ، وفى الجانب الآخر ، وبعد عشرة أيام من اندلاع

التمرد بدأت روسيا السوفيتية في ارسال معدات عسكرية للجمهوريين ، انه لمن السهل ادراك لماذا ساعد الديكتاتوران المتمردين •

فموسوليني كان يريد أن يزعزع الثقة بالديمقراطية ونمني – وهو مخطىء – أن يحصل على حق استعمال القواعد الأسبانية البحرية التي يستطيع منها أن يتحدى فرنسا في البحر المتوسط ، كان يريد أن ينتصر الفاشيون الاسبان وأن ينتصروا سريعا بأقل قدر ممكن من الضغط على الموارد الايطالية الهزيلة ، وكان هتلر سعيدا كذلك لزعزعة الثقة بالديمقراطيين ، ولكنه لم يأخذ الحرب الاهلية الاسبانية بجدية كبيرة • كانت غايته الكبرى تشجيع الهوة بين ايطاليا وفرنسا • وليس كفالة نصر الفاشية الاسبانية • واستخدم السلاح الجوى الالماني أسبانيا كميدان اختبار لآلاتهم وطياريهم ، وعلى العكس من ذلك عضد هتلر المتمردين الاسبان أساسا بالكلمات • كان من المعتقد بشكل واسع في هذا الوقت أن ألمانيا وايطاليا سوف يقاتلون بأنفسهم في جانب المتمردين اذا ما قوبل تدخلهما بالتحدى ، وأنه لمما يدعو الى العجب حقا أن هذا لم يكن صحيحا، ومن الحقائق القليلة الأكيدة التسجيل في هذا الوقت أن كلا من هتلر وموسوليني كانا قد عقدا العزم على عدم المخاطرة بالحرب في أسبانيا ولو قوبلا بالتحدى لانسحبا • كان موقفهما مشابها تماما لموقف بريطانيا وفرنسا في الحبشة : العمل الى حد بلوغ حافة الحرب ، ولكن ليس أبعد من ذلك ، وفي سنة ١٩٣٥ خدع موسوليني الدولتين الديمقراطيتين ، وعندما جاء دورهما في سنة ١٩٣٦ فشلتا في خداع الحاكمين •

ان سياسة بريطانيا وفرنسا أو عدم وجودها ، وليست سياسة هتلر وموسوليني هي التي حددت نتيجة الحرب الاهلية الاسبانية • كان للجمهوريين موارد أكثر ومؤازرة شعبية أكبر ، كان من الممكن لها أن تنتصر اذا ما تلقت العلاج السليم الذى كانت تستحقه بالقانون الدولى ، أسلحة أجنبية للحكومة الشرعية ، ولا شيء للمتمردين • وكان في امكانها أن تنتصر حتى لو أن الجانبين تلقيا مساعدة خارجية • واذا ما رفضاها معا ، ولم يكن لدى المتمردين فرصة سوى تلقيهم مساعدة أجنبية في حين لا يتلقى الجمهوريون شيئا أو شيئا قليلا ، ولقد تم هذا الترتيب غير العادى بواسطة لندن وباريس وان لم يكن عن عمد • كان الدافع الأول للحكومة الفرنسية وهي نفسها قائمة على جبهة شعبية هو السماح بتصدير الاسلحة الى الجمهورية الاسبانية ، وعندئذ بدأ الشك • واعترض الراديكاليون الفرنسيون ، بالرغم من تعاونهم مع الاشتراكيين في الحكومة على مساعدة قضية شيوعية مزعومة في الخارج ، وخشي الاشتراكيون الفرانسيون من

أن يتورطوا فى حرب مع الدول الفاشية ، وذهب ليون بلوم رئيس الوزراء الى لندن طلبا للنصيحة ، وفيها ردع بشكل أكثر حزما ، وقدمت الحكومة البريطانية اقتراحا يبدو فى ظاهره جذابا ـ ان فرنسا اذا ما امتنعت عن مساعدة الجمهورية الاسبانية فمن الممكن حث ايطـــاليا وألمانيا على عدم مساعدة المتمردين ولاستطاع الاسبان تقرير مصيرهم ، وفى كل الاحتمالات اذا ما نفذ عدم التدخل بصدق ، فستنتصر الجمهورية • اننا لا نعرف لماذا قدمت بريطانيا هذا الاقتراح • كان ضد تقاليد السياسة البريطانية فمنذ قرن أو ما يقرب من ذلك ، وعندما كانت هنـــاك أيضـــا حرب أهلية فى أسبانيا ، أيدت بريطانيا بفاعلية قضية الملكية الشرعية بالسلاح ، ونبذت مبدأ عدم التدخل الذى كان الحلف المقدس يدافع عنه Holy Alliance . والآن وفى سنة ١٩٣٦ زعمت الحـــكومة البريطانية أنهـــا تعمل بمفردها لمصلحة السلام العام • ان كل الدول الكبرى اذا ماظلت بعيدة عن أسبانيا، فان الحرب الاهلية سوف تحرق نفسها بعيدا عن سياج الحضارة ، كما كان يأمل ما يترنخ أن يحدث مع الثورة اليونانية فى القرن الثامن عشر، وادعى النقاد اليساريون أن الحكومة ذات ميول فاشـــية ، وتريد للمتمردين أن ينتصروا ، وكان الانجليز ، من ذوى المصالح فى أسبانيا ، غير متحمسين للجمهورية ، وقد تكون الحكومة قد تأثرت بهم ، ولم ينظر القواد بعطف الى الجبهة الشعبية ، وربما كانت الحكومة البريطانية أقل اصرارا على عدم التدخل اذا ما كان الموقف معكوسا فقد كان هناك تمرد شـــيوعى أو حتى راديكالى فى أسبانيا ضد نظام فاشى قائم • ليست لدينا وسائل للمعرفة وربما يكون الوجل ـ الرغبة فى تجنب منطقة جديدة للنزاع فى أوربا ـ هو العامل الأساسى ثم جاءت الميـــول الفاشية ، اذا ما كانت كائنة فى المقام الثانى •

وعلى أية حال فقد شقت الحكومة البريطانية طريقها ووافق بلوم على سياسة عدم التدخل وأكثر من هذا أقنع قادة حزب العـــمال بتأييد هذه السياسة أيضا ، وذلك حتى لا يجعلوا موقفه عسيرا فى فرنسا ، وعلى ذلك فقد فرضت الحكومة الوطنية عدم التدخل على بلوم أولا ، وفرضها هو على قادة حزب العمال وفرضوها هم على تابعيهم ـ وكل هذا باسم السلام الاوربى • وعقد مجلس لعدم التدخل فى لندن ، ومثلت جميع الدول الاوربية الكبرى ووضعت المشاريع فى هدوء لمنع شحن الاسلحة الى أسبانيا ، ولم تبد ألمانيا وايطاليا أى تظاهر بحفظ وعودهما ، فقد تدفقت الأسلحة باستمرار من كلتا الدولتين كما أرسلت التشكيلات العسكرية الايطالية فوق ذلك ، وبدا على الجمهورية الاسبانية وكأنها محكوم عليها بدمار مبكر • وقلبت

روسيا السوفيتية هذا التوقع الخالص ، وأعلن الروس أنهم سوف يحفظون وعدهم بعدم التدخل فقـط الى المدى الذى تحفظ فيه ألمـانيا وايطاليا وعودهما ، وأرسلت الأسلحة السوفيتية الى أسبانيا وان لم يكن بالنطاق الفاشي نفسه قط ، وساعدت هذه الاسلحة الجمهورية على الاستمرار لأكثر من عامين .

انه شيء بعيد الاحتمال أن روسيا السـوفيتية تدخلت فى أسبانيا على أسس المبدأ ، فلم تكن السـياسة السـوفيتية معروفة تحت قيادة ستالين ، بتعضيدها للشيوعية فضـلا عن الديمقراطية ، ولقـد سمحت لشيانج كاى شيك بأن يذبح الشيوعيين الصينيين دون أن تنبس ببنت شفة ، وكان يمكن أن تستمر فى علاقات الود مع ألمانيا النازية ، اذا ماكان هتلر راغبا فى ذلك ـ ولقد اعتقد شخولنبرج .. السـفير الألمانى فى موسكو ، أن روسيا السوفيتية ساعدت الجمهورية الأسبانية لرد اعتبارها أمام شيوعيى أوربا الغربية بعد صـدمة التطهير الكبير(١) ومن المحتمل وجود أسباب أكثر قـوة . فالنزاع فى أسـبانيا كان شيئا يرحب به السوفييت أكثر من نزاع قريب من حدودهم ، كما كانوا يأملون أيضا فى أن يسبب هذا النزاع نفورا بين الدولتين الديمقراطيتين الغربيتين والدول الفاشية ـ ولكن بطبيعة الحال لم يكن فى نية الروس الدخول فى مخاطرة تورطهم بأنفسهم فى الحرب . كانت مصلحتهم الابقاء على الحرب الأهلية الاسبانية مستمرة ، وليس فى انتصار الجمهورية وهو الاتجاه نفسه الذى اتخذه هتلر تجاه الفاشية الاسبانية .

وأصبحت الحرب الأهلية الاسبانية الموضوع المسيطر فى الشئون الدولية كما كانت فى بريطانيا وفرنسا موضوعا للجدل الحـاد داخليا ، وبدا موضوع النزاع الكبير بين الديمقراطية والفاشية وكأنه « فى مأزق » فى أسبانيا . وكان هذا المظهر مضللا ، فلم تكن الجمهـورية الأسبانية خالصة الديمقراطية أبدا ، وباستمرار الحرب ازداد وقوعها بصورة طبيعية تحت توجيه الشيوعيين الذين رتبوا عمليات الامداد بالسلاح . وفى الجانب الآخر كان المتمردون أعداء بصـورة مؤكدة للديمقراطيـة على أنهم صبوا اهتمامهم على أسبانيا وليس على الفاشية الدولية كما لم يكن لدى قائدهم فرانكو Franco أى نوايا لربط اسبانيا بأى دولة أجنبية أو أية قضية أجنبية . وبالرغم من أنه أيد هتلر وموسولينى بتصريحـات أيديولوجية مدوية، الا أنه كان مساوما عنيفا عندما بلغ الأمر حد التنازلات الاقتصادية

(١) من سخولنبرج الى وزارة الخارجية ، ١٢ اكتوبر سنة ١٩٣٦ « السياسة الخارجية الالمانية الفصل الرابع ١١١ » رقم ٠٩٧‚ .

كما أنه فى المسائل الاستراتيجية لم يسمح بأى تنازلات • وكسب الثوار الحرب الأهلية ، ولشد ما أدهش الجميع أن النصر لم يؤثر على التوازن العام فى أوربا ، ولم يجد الفرنسيون حاجة الى الزحف بقواتهم الىالبرانس بالرغم من الحديث عن اصطفافهم بجهة ثالثة معادية • ولم يكن الانجليز فى حاجة الى القلق بشأن جبل طارق • فلقد أعلن فرانكو حياده خلال الأزمة التيشكية سنة ١٩٣٨ الأمر الذى ضايق هتلر والتزمت أسبانيا بالحياد التام فى خلال الحرب العالمية الثانية فيما عدا ما يتعلق بروسيا، وحتى فى هذا لم يكن « القطاع الاسبانى الازرق » بأكثر من لفتة أدبية « أو غير أدبية » (١) •

ولم يتنبأ بهذه النتيجة الغريبة الا القليل ، وكان للحرب الأهلية الاسبانية تأثير عالمى كبير خلال قيامها ، فلقد أدت دورا كبيرا فى الحيلولة دون الاتحاد الوطنى فى بريطانيا وفرنسا ، وربما كانت المرارة التىتمخض عنها النصر الانتخابى للجبهة الشعبية هو الذى جعل الوحدة فى فرنسا مستحيلة فى أى ظرف ؛ على أنه كانت هناك جهود ضخمة تجاه حكومة ائتلافية حقيقية فى بريطانيا بعد اعادة احتلال هتلر للرين • ووضعت المحاولات عن عدم التدخل حدا لهذه الجهود ، واتهم حزب الاحرار وحزب العمال الحكومة بخيانة قضية الديمقراطية ، وأثار التماس الوزراء بدورهم العذر لموقف لجنة عدم التدخل السخط عندما انكشف عدم أمانتها ، وجذبت الحرب الاهلية الاسبانية الاهتمام وحولتها عن المشاكل الأكثر ايلاما التى أثيرت من جراء انتعاش قوة ألمانيا ، وشعر الجميع أن الامور ستسير على خير ما يرام اذا ما هزم فرانكو ، وتوقفوا عن التفكير فى كيفية كبح جماح هتلر • وفى الأيام الأولى لسنة ١٩٣٦ بدأ ونستون تشرشل وكأنه نقطة الارتكاز للرأى الوطنى والرأى الديمقراطى • كان محايدا بالنسبة للحرب الاسبانية أو ربما أميل عاطفيا بقدر طفيف تجاه فرانكو• وانهارت مكانته ولم يسترد الاتجاه اليسارى حتى خريف ١٩٣٨ •

وباعدت الحرب الاهلية كذلكمن الهوة بين روسيا السوفيتية والدول الغربية ــ وبالتحديد بين روسيا السوفيتية وبريطانيا التى تدور عليها

(١) وصل الامر بالمراقبين المهرة حد مناقشة أن هتلر كان لابد من أن يتجه مباشرة الى غزو أسبانيا بعد غزوه لفرنسا اذا ما كانت الجمهورية قد انتصرت ، وعلى هذا الاساس فان انتصار فرانكو ادى الى مكسب الحلفاء ، ان تلك « اللولوات » التاريخية لانفع فيها ، ففى مقدور انسان أيضا أن يحتج بأن انتصار الجمهوريين كان سيزعزع الفاشيين الى حد الحيلولة دون قيام اية حرب . لقد وقف هتلر أمام الحدود الاسبانية اما لنقص الموارد أو لعدم اهتمامه بغرب البحر المتوسط . ان شكل النظام الأسبانى لم يؤثر عليه كثيرا .

أساسا السياسية الغربية ، لم يكن يعنى الحكومة البريطانية كيفية انتهاء الحرب ، وانما ضرورة انتهائها بسرعة · وكانت الحكومة الايطالية تريد أيضا نهاية سريعة للحرب ولكن بشرط أن ينتصر فرانكو وانزلق الساسة البريطانيون الى موقف الاتفاق مع ايطاليا · فنصر فرانكو سوف ينهى الحرب ، والأمر سيان فيما عدا بالنسبة للاسبان ، وعلى هذا يكون الثمن جديرا بالدفع ، وكان هتلر أيضا يسعده انتصار فرانكو بالرغم من أن السياسة الألمانية كانت جذلة بأن ترى الحرب دائرة · وتحول كل الاستياء الانجليزى ضد روسيا السوفيتية ، وكشف مايسكى الممثل السوفيتى فى لجنة عدم التدخل عن فضائحها واستخدم تعبيرات رقيقة للديمقراطية وآزرت المساعدات السوفيتية الجمهورية · ماذا كان شعور الساسة البريطانيين ، وهل كانت روسيا السوفيتية تحرص على الديمقراطية ؟ لماذا تطوعت بالتدخل فى أسبانيا وهى البعيدة كل البعد عن حدودها ؟ كان من الواضح أن ذلك من أجل كشف عار غر مائها أو حتى ما هو أشد من ذلك ، لتطوير الشيوعيه الدولية · وقد يظن مراقب منعزل أن التدخل الايطالى وبعده الالمانى هو الذى حول الحرب الاسبانية الاهلية الى مشكلة دولية ، وأن الوزراء الانجليز وقد ضاقوا ذرعا بتوقع أزمات أبعد مدى وأغاظهم موقف المعارضة داخليا ـ رأوا فقط ان الحرب يمكن أن تنتهى سريعا ، لو لم تكن هناك مساعدة سوفيتية للجمهورية · وفى الجانب الآخر هناك بعيدا فى موسكو شيد القادة السوفييت شكوكا مشابهة خاصة بهم ، وانتهوا الى أن الساسة البريطانيين لا يبالون بالديمقراطية بمثل عدم مبالاتهم بالشيوعية الدولية بل انهم لا يبالون حتى بالمصالح القومية · كان كل احساس موسكو بالنسبة للسياسة البريطانية قائما على العرض القائل بأنها ترغب فى انتصار الفاشية ، لقد سمح الانجليز لهتلر باعادة التسلح وتحطيم نظام الامن ، وكانوا يساعدون فرانكو على أن ينتصر فى أسبانيا ، وعلى ذلك ، فمن المحتمل أنهم سريعا ما قد يقفون بالتأكيد راضين بينما يهاجم هتلر روسيا السوفيتية أو قد يصل بهم الامر الى حد التعاون فى هذا العمل ·

وكان حتما أن تضع هذه الشكوك المتبادلة آثارها العميقة فى المستقبل · وكان التأثير الفورى للحرب الاسبانية الاهلية هو ارسال ساسة بريطانيين يلهثون لاستجداء موسولينى · كان يبدو وكأنه يقبض على مفتاح السلام ، وتمنى بعض الانجليز ـ مثل فانسيتارت أن فى امكانه اعادة كسبه لجبهة سترسا واتخاذ موقف المعارضة على أوسع نطاق لهتلر ، ورضى البعض الآخر ـ الأكثر تواضعا ـ بالمحور Axis وأملوا

فقط أن يستطيع موسولينى أن يجعل هتلر أكثر اعتدالا. وكان موسولينى مستعدا لتثبيت الوعد ، وان لم يكن مستعدا لانجازه . كان يعرف أن ايطـــاليا قـــد كسبت فى المـــاضى بفضل التوازن بين الجانبين ، وليس بانحيازها الى احداهما ، وتصور أنه نفسه كان لا يزال حرا . ولكنه توقع من الانجليز أكثر مما كانوا فى موقف يستطيعون منه تقديم المزيد ، ظنوا أنه لابد وأن يكون راضيا بكرامة النصر فى أسبانيا ، ولكنه أراد انتصارا بتنازلات أكثر من فرنسا تجعل ايطاليا مسيطرة فى البـــحر المتوسط . وكخلل يضاف للمشروع حرمه الجمهوريون الاسبان ــ وقد قوت الاسلحة السوفيتية من عزيمتهم بعض الشيء ــ من النصر الذى كان يحاول الانجليز ترتيبه بدقة ، وبدلا من ذلك هزموا القوات الايطالية فى جواد الاجار . وعلى أية حال فقد استمر الانجليز فى المحاولة وفى يناير سنة ١٩٣٧ كان هناك اتفاق جنتلمان بين بريطانيا وايطـــاليا ، مؤكدة كل واحدة بوقار للاخرى ، أنها تنوى تغيير الوضع الراهن فى البحر المتوسط . وفى مايو حدث تغيير فى الحكومة فى بريطانيا واستقال بالدوين الضـــالع فى خلع الملوك وان كان أقل نجاحا مع الديكتاتوريين ، وأخذ نيفيـــل تشـــمبرلن مكانه كرئيس للوزراء . وكان تشمبرلن : أصلب عودا وأكثر تجربة ، غير صبور على الانحراف فى المشاكل الخارجية ، ووافق من أنه يستطيع وضع حد لتيارها . كان الاتفاق مع موســولينى يبـــدو له حاجة ملحة ، وفى ٢٧ يوليو كتب شخصيا لموسولينى آسفا من أن العـــلاقات الانجليزية ــ الايطالية غير مرضية ، ومقترحا اجراء محادثات لتحسينها. ورد موسولينى ردا كريما بخط يده ــ تمـــاما كما فعـــل فى الأزمنة السابقة مع أوستن تشمبرلن أو رمزاى ماكدونالد .

وتبع ذلك نكسة مشئومة ، فقد شرعت غواصات مجهولة فى نسف السفن السوفيتية التى كانت تساعد الجمهورية الاسبانية بالامدادات ، كما أصابت بعض الطوربيدات سفنا انجليزية ، وأفاقت البحرية الانجليزية من سباتها فورا وأفاق ايدن وزير الخارجية أيضا وكان حتى ذلك الوقت لم يصبح « رجلا قويا » . وبرغم أنه نصب فى الوزارة على أنه سخط عام ضد مشروع هور ــ لافال ، فانه كان قد استحث عصبة الامم على التخلى عن الحبشة ، كما كان قد اقتنع باعادة احتلال هتلر للرين دون احتجاج حاد ، وكان قد راعى حضور لجنة عدم التدخل ، وربما كان ضعيفا عندما ترك بالدوين المسئولية له ، ومستاء ثابت العزم عندما تحملها تشمبرلن، أو ربما يكون قد فقد الثقة فى وعـــود موسولينى . وعلى كل فقد دعت بريطانيا وفرنسا الى مؤتمر فى نيون وهناك شكلت دورية بحرية فى البحر

المتوسط أنهت تخريب الغواصات الغامضة · هنا كان استنتاج لم يتكرر ، وهو أن موسوليني سوف يحترم استعراضا للقوة · ومع ذلك لم يكن فى استطاعة هذا الاستعراض فى حد ذاته أن يقر شيئا · ان الاسباب السياسية للتسلح قبل تدخل ألمانيا وايطاليا فى أسبانيا كانت لا تزال باقية · ولم يضف مؤتمر نيون سوى أن هذا التدخل لا بد ألا يأخذ شكل نزاع بين الدول الكبرى ·

وأضاف الشرق الأقصى حينذاك سببا اضافيا لانكماش الانجليز عن القيام بأى اجراء يجرى أبعد مدى فى البحر الأبيض المتوسط · ففى يوليو ١٩٣٧ تحولت العلاقات الباردة بين الصين واليابان الى حرب مكشوفة · وفى خلال ثمانية عشر شهر فرض اليابانيون اشرافهم على جميع أنحاء الساحل الصينى ، وبذلك عزلوها عن معظم المساعدة الخارجية ، وهددوا أيضا المصالح البريطانية فى شنجهاى ، وهونج كونج ، ومرة أخرى لجأ الصينيون الى عصبة الأمم ، ولم يكن فى استطاعة هذه المؤسسة المحتضرة ، الا أن تحيل الاستغاثة الى مؤتمر من الدول الكبرى فى بروكسل وفى المناسبة السابقة عن المسألة المنشورية ، كان الانجليز قد تلقوا الجزاء الكامل من الاستنكار الادبى والذى كانت لا تستحقه الى حد كبير ـ كانوا يبدون معارضين للمذهب الامريكى بعدم الاعتراف بدلا من اظهار انها لاتمد الصين بأى مساعدة ، وفى بروكسل أحرز الانجليز ضربتهم أولا : لقد عرضوا تأييد أى مساعدة للصين تقترحها أمريكا · وكما هو الحال من قبل لم يكن الامريكيون يريدون فعل شىء · كانوا يريدون الارضاء الادبى بعدم الاعتراف وكذلك الارضاء المادى لتجارتهم الرابحة مع اليابان · كان عدم الاعتراف بلا وعى من أمريكا بدون شك حيلة لدفع الآخرين ـ وبالأخص الانجليز ـ ضد اليابانيين · فالأمريكان يظهرون السخط والانجليز يظهرون المعارضة · ولم يكن هذا عرضا مغريا ، ولم يفعل مؤتمر بروكسل شيئا لمساعدة الصين ولم يتدخل حتى فى الامداد بالاسلحة لليابان ، وسمح الانجليز بأن تصل بعض الامدادات الى الصين عن طريق بورما ، على أن اهتمامهم الرئيسى كان تثبيت أقدامهم فى الشرق الاقصى احتياطا لمصاعب المستقبل · ان من الصعب تتبع التفاعل بين مشاكل أوربا والشرق الاقصى بالتفصيل ، وذهبت كل ادارة فى وزارة الخارجية فى طريقها المنفصل · ولكن الصلة كانت موجودة ، فبريطانيا وحدها كانت تحاول أن تكون قوة أوربية وعالمية ، وكانت المحاولة تفوق قوتها ، وكانت المصاعب فى مجال معين تشددها كلما حاولت أن تعمل فى المجال الآخر ·

كان لمؤتمر بروكسل تأثير حاسم على العلاقات بين بريطانيا والولايات

المتحدة ، كانت للسياسة البريطانية ، لمدى طويل ، وجهة نظر محددة : الا تتشاجر مع الامريكيين • ولم تبتعد أبدا عن هـذه النقطة وفى سنة ١٩١٩ ذهبت الى مدى أبعد ـ سعت الى جر الولايات المتحدة نحو الشئون الاوربية ، ورحبت بالمشاركة الامريكية ، وبالأخص على سبيل المثال فى التعويضات ونزع السلاح • وانتهت هذه المشاركة بالعزلة التى صاحبت فوز ف•د• روزفلت والديمقراطيين ، كان الامريكيون مشـغولين تماما بالنيوديل حتى لم يعد لديهم وقت لاوربا أو حتى للشرق الاقصى • كان كل ما لديهم لتقديمه هو عدم الموافقة الادبية ، وقد تحـول هـذا ضد الديكتاتورين بشكل أقل عنه ضد الدول التى فشلت فى مقاومتهما • لقد أدينت بريطانيا وفرنسا لفشلهما فى انقـاذ الحبشة ولتهيبهما ازاء الحرب الاهلية الاسبانية ، ولعدم رباطة جأشهما عامة تجاه هتلر ، ومع ذلك ، ففى أى من تلك الحالات لم تفعل الولايات المتحدة شيئا على الاطلاق فيما عدا الابقاء على حياد نزيه كان عادة يفيد المعتدى ، وأوضح مؤتمر بروكسل أن الوضع سيكون الشىء نفسه فى الشرق الأقصى ودعيت الدول للتعهد بعدم الاعتراف مراعاة لخاطر الولايات المتحدة ، على أنه لم تكن هنـاك فرصة لمساعدة أمريكية اذا ما قاوموا اليابان بل على العكس ، فقد تتغلب اليابان عليهم بالمعدات الامريكية •

أكملت العزلة الامريكية عزلة أوربا ، ولاحظ المعقبون الاكاديميون ، وبحق ، أن مشكلة الديكتاتورين من الممـكن حلهـا اذا ما جرت الدولتان العالميتان ، روسيا السوفيتية والولايات المتحدة ، نحو الشئون الاوربية• كانت تلك الملاحظة رغبة ، وليست سـياسة ، فربمـا تمسك الساسة الغربيون فى شغف بالتعضيد المادى من وراء الاطنطى • ولم يكن هـذا عرضا • فالولايات المتحدة كانت غير مسلحة فيـما عدا فى الباسفيك ، وجعلت شريعة الحياد من المستحيل عليهم أن يعملوا ولو كقاعدة للأمداد• ولم يكن فى استطاعة الرئيس روزفلت سوى بذل النصح الادبى ؛ وكان هذا هو صميم ما يخشاه الســاسة الغربيون ، انه سيشل أيديهم فى التصدى لهتلر وموسولينى وسيقف عقبة فى سبيل التنازلات التى كانا على استعداد لتقديمها • ولقد كان لدى انجلترا وفرنسا رأسمال أدبى ضخم بما فيه الكفاية ، أما ما كان ينقصهما فهو القوة المادية ، ولم يكن هناك شىء يبدو فى الأفق من الولايات المتحدة •

وأثار التعاون مع الاتحاد السوفيتى مشاكل مختلفة • كان الساسة السوفييت شغوفين بأن يلعبوا دورا فى أوربا ، أو هذا ما كان يبدو فقد أيدوا عصبة الامم ، وبشروا بالأمن الجماعى ، ورفضوا قضية الديمقراطية

فى أسبانيا الى مرتبة البطولة ، وكانت مراميهم الحقيقية لغزا ، أكانوا فى حقيقة الأمر متحمسين من أجل الأمن الجماعى ؟ أم كانوا يدافعون عنه لا لشىء الا ليقودوا الدول الغربية الى المتاعب ؟ أكانت لروسيا السوفيتية أية قوة فعالة ؟ وحتى اذا كانت تمتلكها ، فهل كان من الممكن استخدامها؟ لقد التزمت الحكومة السوفيتية بسلوك شنبيل منزه عن الخطأ فى لجنة عدم التدخل ، ولكن الاشياء تبدو مغايرة فى أسبانيا حيث استخدمت الامدادات السوفيتية لتفرض ديكتاتورية شيوعية على القوات الديمقراطية، وكان يبدو واضحا للساسة الغربيين أن من الممكن أن تنتهى الحرب الاهلية الاسبانية فورا لو أن روسيا السوفيتية تخلت فقط عن قضية الجمهورية • وعلى ذلك ظهر الروس ، وليس الديكتاتوريان الفاشيان فى الامر الواقع ، كمشوشين على السلام • لقد عرف ايدن مهمة السياسة الغربية بأنها السلام بأى ثمن تقريبا ، وجعل وجود روسيا السوفيتية والولايات المتحدة دفع هذا الثمن شيئا صعبا ، كان فى استطاعتهما تقديم السخط المعنوى ، وكان على الدول الغربية أن تعيش مع الديكتاتورين ، وأراد الساسة الغربيون لأوربا أن تقرر شئونها الخاصة حرة ممن يذكرونها بالديمقراطية والأمن الجماعى وقداسة اتفاقيات السلام •

وربما أيضا كانت هناك كذلك غيرة أوربية عامة من التدخل من الخارج ، رغبة شبه متبلورة لاظهار أن الدول الاوربية لا زالت هى الدول العظمى • ان تجربة دعوة العالم الجديد للتدخل لاصلاح توازن « القديم » فى الحرب العالمية الاولى ، كان التدخل الامريكى حاسما ، فقد ساعد الحلفاء على كسب الحرب ، وبعد انقضاء عشرين عاما لم تكن النتيجة تبدو مشرفة فالنصر لم يحل المسألة الالمانية ، والاقرب أن بريطانيا وفرنسا كانتا لا تزالان ممسكتين بها فى أيديهما ، أكثر تعقيدا عن ذى قبل ، وبالرجوع الى الماضى : ألم يكن من الأفضل لهما لو أنهما اضطرتا الى تسوية سلمية مع ألمانيا ١٩١٧ الأكثر أو الأقل تواضعا ؟ أيجب عليهما الآن ـ على أية حال أن يكافحا من أجل مثل هذا الاتفاق الآن ؟ وحتى اذا ماكانت الولايات المتحدة قد أغريت مرة ثانية بالتدخل فقد تنسحب مرة أخرى ، وكان لا بد للدول الغربية أن تقرر موقفها من ألمانيا مرة ثانية بنفسها • أما فيما يتعلق بالتدخل السوفيتى ، فأيهما كان أكثر رعبا ـ أهو نجاحه أم فشله ؟ ان قوة ألمانيا تصبح أمرا لا يمكن احتماله اذا ما هزمت روسيا ، ومع ذلك فالبديل وهو النصر السوفيتى يكون أمرا أشد سوءا ، ان ذلك قد يعنى الشيوعية فى جميع أنحاء أوربا ، أو هكذا اعتقد الناس • كان الساسة

الغربيون يريدون شيئا قريبا بقدر الامكان من الوضع الراهن ، ولم يكن في استطاعتهم الحصول على هذا بالتعضيد الامريكى أو السوفيتى ٠

وهنا كان القرار الضخم فى عامى السلام النصف مسلح ٠ ــ وبطبيعة الحال لم يكن هناك شيء يستطيع جر روسيا السوفيتية والولايات المتحدة في أوربا فى هذا الوقت وللأسباب التى كانت تبدو مقنعة فى ذلك الحين جاهد الساسة الغربيون لابقائهما خارجها ، وكان حكام أوربا يتصرفون كما لو كانوا يعيشون فى أيام ميترنخ أو بسمارك ، عندما كانت أوربا لا تزال محور العالم ٠ كانت مصائر أوربا تقرر في دوائر مغلقة واقتصرت مفاوضات السلام بصورة كلية تقريبا على الدول الاوربية ٠ وعندما قامت الحرب كانت حربا أوربية ٠

الفصل السابع

الوحدة : نهاية النمسا

امتد الخط الفاصل بين الحربين العالميتين أكثر من عامين على وجه الدقة • انتهت فترة ما بعد الحرب عندما أعادت ألمانيا احتلال الرين فى ٧ مارس ١٩٣٦ ، وبدأت فترة ما قبل الحرب عندما ضمت النمسا فى ١٣ مارس ١٩٣٨ ، ومنذ تلك اللحظة استمر التغيير والاضطراب بلا توقف فى الغالب حتى التقى ممثلو الدول المنتصرون فى الحرب العالمية الثانية فى بوتسدام فى يوليو ١٩٤٥ • من كان أول من أثار العاصفة ودفع مسيرة الاحداث ؟ وكان الرد المقبول واضحا : كان هتلر • وكانت لحظة شروعه فى هذا العمل متفقا عليها أيضا : كانت ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧ • ولدينا تسجيل عن تقاريره التى قام بها فى هذا اليوم • انها تسمى « مذكرات هوسباخ » عن الرجل الذى دبجها ــ ومن المفروض أن هذه المذكرات تميط اللثام عن خطط هتلر ، ولقد حدث فيها كثير من التلاعب فى نورمبرج ، وقال ناشرو « وثائق فى سياسة ألمانيا الخارجية » انها تعطى ملخصا لسياسة ألمانيا الخارجية فى عامى ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ •(١) وعلى ذلك فانها تستحق أن تفحص بالتفصيل ، وربما سنجد فيها تفسير الحرب العالمية الثانية ، أو ربما نجد فقط منبع الاسطورة •

بعد ظهر ذلك اليوم دعا هتلر لمؤتمر فى المستشارية وحضره بلومبرج وزير الحرب ، نيوراث وزير الخارجية ، فرتش Frirsch رئيس أركان حرب الجيش ، رايدر رئيس أركان حرب البحرية ، جورنج رئيس أركان حرب القوات الجوية • وقام هتلر بمعظم الحديث • بدأ بتقرير عام عن حاجة ألمانيا الى « المجال الحيوى » ولم يعين أين يوجد هذا المجال ــ ومن الواضح أنه كان فى أوربا ، وأنه ناقش كذلك المكاسب الاستعمارية ،

(١) وثائق فى سياسة ألمانيا الخارجية سلسلة د ، ١ ؛ حاشية فى ص ٢٩ •

ولكن المكاسب لا بد وأن تكون هنـاك ، ان على ألمانيا أن تحسب حساب خصمين عنيدين ، بريطانيا وفرنسا ٠٠ ان مشكلة ألمانيا لا يمكن أن تحل الا بالقوة ، ولن يكون هذا بدون مخاطرة تصاحبها ، ومتى وكيف يكون هذا الالتجاء الى القوة ؟ ناقش هتلر ثلاث «حالات» ٠ الحالة الأولى فترة « ١٩٤٣/١٩٤٥ » وبعد تلك الفترة فان الموقف لا بد أن يتغير الى الأسوأ ٠ ان سنة ١٩٤٣ لا بد أن تكون لحظة العمل ٠ والحالة الثانية كانت الحرب الأهلية في فرنسا ، واذا ما حدث هذا ، يكون الوقت قد حان للعمل ضد تشيكوسلوفاكيا ٠ والحالة الثالثة كانت الحرب بين فرنسا وايطاليا وقد يحـدث هـذا في سنة ١٩٣٨ وعنـدئذ « لا بـد أن يكون هدفنا قهر تشيكوسلوفاكيا والنمسـا في آن واحـد » ، ولم يتأت لواحدة من تلك الحالات أن تصبح حقيقة ، وعلى ذلك كان من الواضح أنها لم تزود ألمانيا «بمسودة» للسياسة الالمانية ، كذلك لم يعتمد هتلر عليها ٠٠ واستمر فى اقامة الدليل على أن ألمانيا سوف تحصل على أهدافها دون حرب عظمى ، وكانت «القوة» تعنى بشكل واضح بالنسبة له التهديد بالحرب ، وليست الحرب نفسها بالضرورة ٠ ان الدول الغربية ستكون على درجة من الحيرة والوجل بحيث لا يمكنها التدخل ، وأن بريطانيا كأمر يكاد يكون مقطوعا به وكذلك فرنسا بطبيعة الحال قد حذفتا تشيكوسلوفاكيا من جانبهمـا واتفقتا على الأمر الواقع وهو أن حل تلك المسألة يرجع الى ألمانيا ، وليس من المحتمل ألا تتدخل أى دولة أخرى «وبولندا» ـ ومعها روسيا من خلفها سوف يكون لديها ميل طفيف للاشتباك فى حرب ضد ألمانيا المنتصرة ، وروسيا يمكن أن تمنع بواسطة اليابان ٠

كان عرض هتلر فى جزء كبير منه أحلام يقظة ، لا علاقة له بما جاء بعد ذلك فى الحياة الحقيقية ، وحتى اذا ما كانت تعنى شيئا حادا ، فانها لم تكن دعوة للعمل أو هى على أية حال ليست لعمل من أجل حرب عظمى، وانما كانت اقامة لدليل على أن الحرب العظمى ليست شيئا ضروريا ، ورغم الحديث التمهيدى عن فترة ١٩٤٣ / ١٩٤٥ ، فقد كان صلب جوهرها هو اختيار فرص الانتصارات السلمية فى سنة ١٩٣٨ ، عندما تشغل فرنسا فى مكان آخر ٠ ويبقى المستمعون لهتلر فى شك ٠ وأصر القـادة على أن الجيش الفرنسى سيكون فى مرتبة أعلى من الالمانى حتى اذا ما شغل ضد ايطاليا أيضا ٠ وشك نيورات فيما اذا كان النزاع بين فرنسا وايطاليا فى البحر المتوسط وشيك الحدوث ، وأزاح هتلر الشكوك جانبا « كان مؤمنا بعدم تدخل بريطانيا ، وعلى ذلك فلم يعتقـد فى احتمال عمل حربى من جانب فرنسـا ضـد ألمانيا » ٠ ان هنـاك حقيقة واحدة سليمة يمكن

استخلاصها من هذه النبذة التحليلية المتنقلة : كان هتلر يقامر من أجل نوع من الالتواء فى الخط الذى قد يقدم له نجاحا فى الشئون الخارجية ـ تماما كما جعلته المعجزة مستشارا فى سنة ١٩٣٣ ، ولم تكن هنا خطة ملموسة أو توجيه للسياسة الالمانية فى سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٣٨ . واذا ما كان هناك توجيه فانه كان عليه أن ينتظر الحوادث(١) .

لماذا اذن عقد هتلر هذا المؤتمر ؟ لم يسأل هذا السؤال فى نورمبرج، ولم يسأله المؤرخون ، ومع ذلك فمن أوليات التنظيم التاريخى ألا يسأل فقط عما يوجد فى وثيقة ما ، وانما أيضا لماذا خرجت الى الوجود . كان مؤتمر ٥ نوفمبر «تجمعا عجيبا» كان جورنج النازى الوحيد، وكان الآخرون محافظين من الطراز القديم ممن بقـــوا فى الوزارة للابقاء على هتلر تحت الملاحظة ، وكانوا جميعا ، فيما عدا رايدر ممن سيعزلون من الوزارة فى غضون ثلاثة شهور . وكان هتلر يعرف أن الجميع ، ماعدا جورنج ، من غرمائه ، ولم يكن يثق فى جورنج كثيرا . لماذا كشف عن أعمق أفكاره الى رجال لا يثق فيهم وكان على وشك عزلهم ؟ كان لهذا السؤال رد سهل : انه لم يكشف عن أعمق أفكاره . لم تكن هناك أزمات فى السياسة الخارجية تستدعى اثارة مناقشات واسعة أو قرارات جارفة ، لقد كان المؤتمر مناورة فى الشئون المحلية . هنا كانت عاصفة تغلى ، لقد جعلت عبقرية شاخت المالية اعادة التسلح والعمالة الكاملة شيئا ممكنا ، ولكن شاخت أصبح الآن أكثر جموحا فى طلب نفقات أكبر فى برنامج التسلح .. وكان هتلر يخشى شاخت ، ولم يكن يستطيع الاستجابة لحججه المالية . كان يدرك فقط أنها مخطئة ، ولم يكن النظام النازى يستطيع أن يهدىء من قوة دفعها . وكان هتلر يهدف الى ابعاد شاخت عن المحافظين الآخرين ، وكان عليه لذلك أن يكسبهم الى جانب برنامج التسلـــح المتزايد . ولم يكن لعرضه للسياسة الجغرافية أى غرض آخر ، وقد أعطت مذكرات هوسباخ نفسها دليلا على ذلك . تقول الفقرة الاخيرة منها « لقد كان الجزء الثانى من المؤتمر معنيا بالتسلح » ولهذا السبب بلا شك كانت الدعوة له .

لقد استخلص المشتركون أنفسهم تلك النتيجة . فبعد أن ترك هتلر المؤتمر اشتكى رايدر من أن الأسطول الألمانى لن يكون من القــوة بحيث يواجه الحرب لسنوات قادمة ، وجذبه بلومبرج وجورنج ليضعوه فى مأزق، فيه كانوا يشرحون أن المهمة الوحيدة للمؤتمر كانت وخز فرتش للمطالبة

---

(١) مذكرات هوسباخ ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٧ : سياسة المـــانيا الخارجية المجموعة د ، ١ ، رقم ١٩ .

ببرنامج تسلح أوسع • ولم يعقب « نيوراث» بشيء في ذلك الحين ، وقيل عنه أنه أدرك المعنى الكامل لشرور هتلر فيـــما تلى ذلك من الأيام ، وأنه قاسى حينئذ «عدة أزمات قلبية حادة» وأميط اللثام عن تلك المجموعة من الازمات لأول مرة فى سنة ١٩٤٥ عندما كان نيوراث يحاكم كمجرم حرب، فلم تظهر عليه أية دلالة اعياء فى سنة ١٩٣٧ أو لسنوات بعدها ، وأعد فرتش مذكرة ، مصرا فيها على أنه لا يجب تعريض الجيش الألماني لمخاطرة الحرب ضد فرنسا ، وحملها الى هتلر فى ٩ نوفمبر ورد هتلر بأنه لاتوجد أية مخاطرة حقيقية وأنه يحسن بفرتش على أى من الأحوال أن يسرع باعادة التسلح بدلا من الخوض في قضايا سياسية • ورغم هذا التعنيف، فقد نجحت مناورة هتلر : ومنذ تلك اللحظة لم يتعاطف فرتش وبلومبرج ورايدر مع خبرات شاخت المالية ، وخلافا لذلك لم يعرها واحد من الذين حضروا اجتماع ٥ نوفمبر أى تفكير آخر حتى وجد جورنج التسجيل الذى قدم ضده فى نورمبرج كدليل على جريمته فى الحرب ، ومنذ تلك اللحظة أزعجت أشباحها ممرات البحث التاريخي • انهـا الأسس لوجهة النظر التى تقول بأنه ليس هناك شيء يمكن اكتشافه عن أصول الحرب العالمية الثانية • ان هتلر ، كما يزعم ، صمم على الحرب ، وخطط لهـا تفصيليا فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧ ، ومع ذلك فان مذكرات هوسباخ لا تحتوى على خطط من هذا النوع ، ولم يفترض أبدا أن تفعل ذلك ما لم تكن قد ظهرت فى نورمبرج ، ان المذكرات تخبرنا عما نعرفه بالفعل من أن هتلر (كأى سياسى المانى آخر) كان يهدف الى أن تصـير ألمانيا الدولة المسيطرة فى أوربا ، وهى تخبرنا كذلك ، كيف كان يطيل الفكر فى كيفية حدوث هذا، وكانت تأملاته مخطئة • انها لا تحمل الا القليل من العلاقة باندلاع الحرب الفعلية فى سنة ١٩٣٩ • ان أى خبير ســباق يمكنه فقط أن يصل الى مستوى هتلر فى الدقة ، لن يستطيع أن يصنع أفضل من هذا لعملائه •

كانت التأملات غير ملائمة بقدر ما هى مخطئة ، لم يصنع هتلر أية خطط لغزو العالم أو لأى شيء آخر، لقد افترض أن الآخرين سوف يتيحون الفرص ، وأنه سوف ينتهزها ولم تتح له الفرص التى تخيلها فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧ ، ولقد أتيحت غيرها • وعلى ذلك فعلينا أن نبحث فى مكان آخر عن الرجل الذى أفسح المجال لفرصة استطاع هتلر انتهازها والذى بذلك أعطى الدفعة الاولى تجاه الحرب ، ونيفيل تشمبرلن مرشح واضح لهذا المركز • فمنذ اللحظة الاولى التى أصبح فيها رئيسا للوزراء فى مايو سنة ١٩٣٧ كان مصمما على أن يبدأ شيئا ما • انه وان كان بطبيعة الحال قد عقد العزم على العمل لكى يمنع الحرب ، وليس ليجلبها الا أنه لم يؤمن

انه من الممكن منع الحرب عن طريق عدم القيام بأى نشاط • كان يعاف سياسة بالدوين التى تتميز بالارتياب وسهولة الاندفاع مع التيار ، ولم تكن لديه اية ثقة فى المثالية المترددة التى ارتبطت بعصبة الأمم والتى بسطها ايدن فى ايمان ضعيف • وأخذ تشمبرلن بزمام المبادرة فى الضغط على زيادة التسلح البريطانى • وفى الوقت نفسه استنكر ضياع المال فيه واعتبره غير ضرورى ، ان سباق التسلح ، كما اعتقد برز نتيجة عوامل سوء فهم الدول الكبرى وليس نتيجة للمنافسات العميقة أو مخطط شرير لدولة ما كى تسيطر على العالم • واعتقد كذلك أن الدول غير الراضية ، وخاصة ألمانيا ــ لها أحزانها المشروعة ، وانه يجب مواجهة هذا الاحساس، لقد تقبل الى حد ما الأخذ بوجهة النظر الماركسية التى اعتقدها كثيرون ممن لم يكونوا ماركسيين ، وهى أن عدم الرضاء الالمانى يعزى الى أسباب اقتصادية ، كنقص التعامل مع الاسواق الخارجية كما تقبل بشكل أكبر الرأى الليبرالى القائل بأن الألمان كانوا ضحايا عدم عدالة قومية ، ولم يجد صعوبة فى التعرف على موضع انعدام هذه العدالة • كان هناك ستة ملايين ألمانى فى النمسا ممنوعين من العودة الى الوحدة الوطنية بموجب معاهدات السلام فى سنة ١٩١٩ ، ثم ثلاثة ملايين ألمانى فى تشيكوسلوفاكيا ولم تناقش رغباتهم أبدا ، وثلاثمائة وخمسون ألفا فى دانزج كانوا مزدرين لأنهم ألمان • ولقد كانت تجربة عالمية فى الازمة الحديثة ، ان عدم الرضاء الوطنى أمر لا يمكن مناهضته أو اسكاته • وكان على تشمبرلن نفسه أن يسلم بذلك رغم ارادته بالنسبة لايرلندا والهند • كان الاعتقاد السائد رغم التليل الذى تدعمه به التجربة أنه ما ان تجاب مطالب الدول حتى تغدو راضية ومطمئنة •

هنا كان برنامج لاحلال السلام فى ربوع أوربا ، انه من ابتكار تشمبرلن وليس مفروضا عليه من هتلر ، كانت تلك الأفكار تختلط بالهواء ، ويشارك فيها كل انجليزى فكر فى الشئون الدولية ، وخالفها فريقان فقط ، فرفضت مجموعة صغيرة للغاية شرعية المطالب الوطنية ، وقالوا ان السياسة يجب أن تقرر على أساس من وسائل القوة ، وليس الحكمة ، وأن القومية يجب أن تتبع الأمن ، وكان تشرشل قد شن منذ وقت وجيز حملة منفردة ضد التنازلات للهند ، وكانت معارضته للتنازلات بالنسبة للألمان ، النتيجة المنطقية لذلك ، واعتنق فانسيتارت وبعض الاعضاء الكبار لوزارة الخارجية وجهة النظر نفسها الى حد كبير • كانت وجهة نظر صدمت كثيرا من الانجليز وهى التى حرمت بسخريتها الظاهرة معتنقيها من التأثير فى السياسة • كان من المعتقد أن القوة قد جربت خلال

الحرب العالمية الأولى وفيما بعدها ، وأنها فشلت ، ولا بد للحكمة من أن تأخذ مكانها • وتقبلت مجموعة أكبر كانت هي المسيطرة فى حزبى الاحرار والعمال شرعية المطالب الالمانية ، ولكنهم اعتقدوا أن تلك المطالب لا يجب أن تجاب طالما أن هتلر باق في الحكم • ان ماكرهوه في هتلر هو استعداده داخليا ، وبصفة خاصة اضطهاده لليهـود ولكنهم استطردوا من ذلك الى التأكيد بأن سياسته الخارجية تهدف الى الغزو وليس الى عدالة على قدم المساواة لألمانيا • وكان من الممكن الرد على ذلك بأن عدم التدخل فى شئون دول أخرى تقليد قديم للسياسة الخارجية البريطانية ، دافع عنه جون برايت وأبو تشمبرلن في مرحلة حياته الراديكالية ، وأن تشمبرلن كان يحتضن تجاه ألمانيا النازية بشكل دقيق السلوك نفسه الذى طالبت الحركة العمالية دائما بوجوب اتخاذه تجاه روسيا السوفيتية • وكان من الممكن الرد عليه أيضا بأن الهتلرية كانت نتاج «فرساى» وأنهـا سـتفقد حتما صفاتها السيئة باختفاء معاهدة فرساى ، وكانت تلك ردود قوية وان لم تكن حججا ذات نتائج حاسمة • فلقـد بقى الكثيرون ممن كانوا يرغبون فى مقاومة هتلر ، ولكن كان هناك ضعف في موقفهم طوال الوقت يتلخص فى أنهم اعترفوا بعدالة مطـالبهم المزعومة فى حين أنكروا فقـط أنه مخول بتحقيقها • لقد حاولوا التفرقة بين ألمانيا وهتلر وأصروا على أنه بينما كانت ألمانيا على حق كان هتلر على خطأ • ولسوء الحظ لم يكن هذا تمييزا يرغب الالمان فى صنعه •

وعلى كل فقد كان تشمبرلن واثقا من أن برنامجه سيكون له أثره • كانت دفعته احلال السلام عامة فى ربوع أوربا • كان مدفوعا بالأمل ، لا الخوف ولم يخطر بباله أن بريطانيا وفرنسا كانتا غير قادرتين على معارضة المطالب الألمانية • والأصح أنه افترض بأن ألمانيا وهتلر بصفة خاصة سوف يكونان ممتنين للتنازلات المعطاة عن طيب خاطر ، تلك التنازلات التى اذا فشل هتلر فى الاستجابة لها بنفس النوايا الطيبة فانه يمكن سحبها ، كان •• تشمبرلن يشارك هتلر استساغته صنع الاشياء بنفسه ، لقد اتخذ لنفسه ، كمستشاره الرئيسى فى الشئون الخارجية سير هوراس ويلسون وهو صاحب مصالحات محترف ، اكتسب شـهرته من خلال المنازعات الصناعية كما لم يقم وزنا كبيرا لآراء وزارة الخارجية ، وعندما اتصل بهتلر للمرة الاولى فانه فعل ذلك عن طريق لورد هاليفاكس والذى سيكون بعد ذلك هو الرئيس وليس عن طريق ايدن وزير الخارجية • وكان لهاليفاكس موهبة لا مثيل لها • كان دائما فى مركز الحوادث ، ومع ذلك فهو مؤهل بطريقة ما لعـدم اقامة وزن للمشاعر التى لا يرتبط هو بها ، لقد سلبت

الثقة من تشمبرلن وكل فرد آخر ممن كانت له صلة بالسياسة البريطانية بصورة لا يمكن علاجها عندما حدث الفشل في سنة ١٩٤٠ • ان هاليفاكس الذى كانت مسئوليته كوزير للخارجية لمعظم الوقت تالية فقط لمسئونية تشمبرلن بدا غير محرج ، كما أمكن لجورج السادس وكثير من الآخرين ـ بما فيهم قادة حزب العمال أن يدفعوا به الى الأمام في جدية كرئيس مناسب لحكومة خلاص وطني • وانه لمن المستحيل تفسير كيفية حدوث هذا •

وفي ١٩ نوفمبر ١٩٣٧ قابل هاليفاكس هتلر في بيرختسجادن كانت زيارة تتميز بالارتجال ، فمن الناحية الرسمية كان هاليفاكس في المانيا ليشاهد معرضا للصيد في برلين ، وقال هاليفاكس كل ماتوقع هتلر أن يسمعه وامتدح ألمانيا النازية باعتبارها « حصن أوربا ضد البلشفية ، وأبدى تعاطفا نحو الضيم الالماني في الماضي وأشار بصفة خاصة الى قضايا معينة • قد تتاح تغيرات لأن تبدل منها مع مرور الوقت » • وكانت هي: دانزج والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ، « وكانت انجلترا يعنيها أن ترى أن أى •• تبديلات يجب أن تأتى من خلال طريق التطور السلمي وأنه يجب تجنب الوسائل التي قد ينتج عنها اضطرابات وخيمة العواقب(١) » • وأنصت هتلر وكان يتجول أحيانا • وظل سلبيا كعادته ، يتقبل المنح من الآخرين دون أن يتقدم هو بمطالب • وهنا ، وبكلمات هاليفاكس نفسه ، تأكد لما قاله هتلر للجنرالات منذ أسبوعين مضيا : ان بريطانيا لا يمكن أن تنشد الابقاء على الوضع القائم في وسط أوربا • وكان هناك شرط متفق عليه : ان التغييرات يجب أن تكون بلا حرب عامة « وخيمة العواقب » • ولقد كان هذا ما أراده هتلر نفسه • كانت ملاحظات هاليفاكس اذا ماكان لها أى مغزى واقعي ، دعوة لهتلر بأن يزيد هياج القومية الالمانية فيدانزج وتشيكوسلوفاكيا والنمسا ، وتأكيدا أيضا بألا يعارض هذا الهياج من الخارج • بل ان تلك الحوافز لم تأت من هاليفاكس بمفرده • ففي لندن قال ايدن لريبنتروب « ان الشعب في انجلترا يسلم بأن ارتباطا أكثر مدى بين ألمانيا والنمسا سوف يأتي في وقت ما »(٢) • وجاءت الأنباء نفسها من فرنسا • فقد أذهل بابن أن يعرف وهو في زيارة لباريس أن كوتمبز رئيس الوزراء ، وبونت وزير المالية عندئذ يقدران اعادة النظر في موضوع

---

(١) مذكرات ١٩ نوفمبر ، دورية وزارة الخارجية ، ٢٢ نوفمبر ١٩٣٧ : سياسة المانيا الخارجية • المسلسلة د ؛ = ١ رقم ٣١ ، ٣٣ •

(٢) من ريبنتروب الى نيوراث ، ١٩٣٧ المرجع السابق رقم ٥٠

اتجاه سياسة فرنسا فى وسط أوربا كأمر مفتوح برمته للمناقشة .. وأنه ليس لديهم « أى اعتراض على توسع محدود للنفوذ الألمانى فى النمسا ويتم الحصول عليه بوسائل متطورة » ، أو فى تشيكوسلوفاكيا ، « على أساس من اعادة التنظيم لوطن يتألف من قوميات»(١) .

عملت كل تلك الملاحظات على تقوية ثقة هتلر بأنه لن يواجه الا معارضة هينة من انجلترا وفرنسا ، انهما لم يقدما حلا للمشكلة الفعلية الخاصة بالاستراتيجية ، كيفية جعل توسع قوة المانيا تبدو وكأنها النتيجة ـ « لاتفاقيات معقولة تم الوصول اليها منطقيا » وذلك بنص كلمات هاليفاكس ، انه من الممكن لألمانيا أن تغزو تشيكوسلوفاكيا والنمسا ، ولكن الشيء الأكثر صعوبة هو تدبير قبول تلك الدولتين لموضوع انتحارهما ، الشيء الذى كان يريده ساسة بريطانيا وفرنسا . ولقد حدث تراجع بعد ذلك فى الحوافز من لندن وباريس فلقد ركزا معظم التأكيدات على النمسا . أما هتلر فهو عندما فكر فى الخطوات العملية ، وضع خطته على أن يبدأ أولا بتشيكوسلوفاكيا ـ انه تنظيم فى الترتيبات ظهر حتى فى مذكرات هوسباخ . كان للتشيك جيش قوى وبعض الادراك السياسى وعلى ذلك فانهم قد يتجهون الى مساعدة النمسا ، ولم يكن للنمسويين أى منهما. وعلى ذلك فلم يكن من المتوقع منهم مساعدة تشيكوسلوفاكيا . وبالاضافة الى ذلك ـ وهذه نقطة أكثر أهمية ـ فان موسولينى كان عديم الاهتمام بتشيكوسلوفاكيا . وكان لا يزال من الناحية الرسمية معنيا باستقلال النمسا ، وربما لم ينس الانجليز والفرنسيون معا هذا عندما دفعا بمسألة النمسا فى المقدمة . ولم يكن هتلر يعنى ارغامهما : لقد أعادها بحزم الى المؤخرة . وفى خريف ١٩٣٧ شجع الهياج الالمانى فى تشيكوسلوفاكيا. ولم يشجعه فى النمسا ، وصرح بحزم بأنه «يجب علينا الاستمرار فى البحث عن حل متطور »(٢) وبعيدا عن اتخاذ موقف المبادرة تجاه النمسا لم يكن هتلر يريد أن يبدأ هناك . ولم تجىء المبادرة من الساسة البريطانيين أو الفرنسيين فقد بسط هاليفاكس وآخرون اقتراحا أكاديميا تضمنته تصريحاتهم الوفاقية المختلفة تماما مثلما فعل هتلر فى مؤتمره يوم ٥ نوفمبر وهو الاقتراح القائل بأنه يصبح من المستساغ أن تمد المانيا زعامتها بشكل سلمى على جارتيها . ولم يركز أى منهم أو هو على الطريقة التى يمكن بها فعل ذلك ، كان الأمر كله كلاما بلا عمل .

(١) تقرير بابن الى الفوهرر : ٨ نوفمبر والى وايزاكر ، ٤ ديسمبر ١٩٣٧ : سياسة المانيا الخارجية ، الملزمة د ، ١ ، رقم ٢٢ ، ٦٣ .

(٢) مذكرات كيبلر ، ١ أكتوبر ١٩٣٧ ، المرجع السابق رقم ٢٥٦

ومع ذلك كان حتما أن تأتى المبادرة من فرد ما ، وربما يكون الواجب علينا أن نلقى نظرة على الجانب النمساوى ، كان سكوشنج لا يزال مستشارا للنمسا المستقلة استقلالا اسميا ، وقاسى فيها أياما محزنة منذ عقد اتفاق الجنتلمان فى ١١ يوليو سنة ١٩٣٦ مع المانيا . وكان سكوشنج قد افترض بطريقة بريئة ورفيعة ، ان الاتفاقية من الممكن أن تنهى مشاكله ، فالنمسا يمكن أن تعلن شخصيتها الألمانية ومن الممكن أن يدخل ممثلون محترمون « من المعارضة الوطنية » الحكومة النمساوية ، ومن الممكن تحقيق اعتقال ١٠٠ النازيين . وبذلك تكون نهاية الاضطراب والمؤامرات ، ولا مزيد من التسليح السرى أو الدعاية غير الشرعية . ولكن سرعان ما خاب ظن سكوشنج ، فقد استمرت الاثارة النازية كما كانت من قبل ، ولم تستطع حتى أوامر هتلر أن توقفه . وتآمر رفاق سكوشنج المتربون أنفسهم مع برلين ضده . واشتكى لنصيره وحاميه القديم موسولينى وتلقى مواساة باردة .

وكان موسولينى يحب أن يصور نفسه فى موضع متملق ككفيل بوجود النمسا — وعلى عكس ميترنخ — منتقما لاذلال ايطاليا منذ قرن مضى ، لقد أنصت الى تحذيرات القادة الفاشيست — ومن زوج ابنته تشيانو وزير الخارجية منذ ذلك الحين — بأن هتلر شريك خطر يمكن أن يحطم ايطاليا بعد أن يلتهم الآخرين أولا ، وبدا وكأنه يبدى اهتماما ، ولكن عندما جاءت اللحظة لم يستجب أبدا الى تحذيراتهم . وفى الأعماق كان موسولينى الواقعى الوحيد فى الجماهير الفاشية والوحيد الذى قدر أن ايطاليا لا تمتلك الا قوة ذاتية طفيفة ، وأنها لا تستطيع الا التظاهر فقط بالعظمة باعتبارها مطية لهتلر . وكان فى استطاعته أن يتكلم عن سياسة مستقلة أو عن تأمين المصالح الايطالية فى وسط أوربا . وكان يعرف أنه مجبر على افساح الطريق أمام هتلر اذا ما بلغت الأحداث حد الأزمة وعلى هذا كان ضجرا مع سكوشنج الرجل الذى كان عليه أن يأخذ ادعاء موسولينى بصورة جديه وكان موسولينى برغم كلماته الشجاعة فى الموقف نفسه تماما الذى كان فيه ساسة أوربا الغربية ، كان يريد أن يصفى حسابه فى النمسا طالما كان فى الامكان أن يتم ذلك فى سلام وبطريقة هينة ، ولم يتلق سكوشنج أية مؤازرة جادة ، وانما فقط النصيحه المتكررة بأن .. يتصرف بحكمة ، وأن يبقى على الأشياء هادئة .

وعلى أية حال ، فقد كان سكوشنج ضحية ، آخر ضحايا الوهم

النمساوى الغريب ـ وهم الاعتقاد بأن من الممكن اثارة ضمير أوربا لأن يفعل شيئا اذا ما كشفت الدسائس والاضطرابات القومية بشكل واضح ، وكان الساسة النمساويون يتوهمون هذا الوهم عن الوطنية الايطالية في منتصف القرن التاسع عشر ، كما توهموه بالنسبة لقومية العنصر السلافي الشمالي في السنوات الأولى من القرن العشرين • وبدا لهم شيئا بديهيا في سنة ١٨٥٩ أن يتخلى نابليون الثالث عن كافور وأن من الممكن أن تشهر به الدول الكبرى الأخرى اذا ما قام الدليل الواضح على اشتراكه في الاضطراب الوطني • وبدا بديهيا لهم بالمستوى نفسه في يوليو سنة ١٩١٤ ان كل الدول الكبرى يمكن أنه تتخلى عن الصرب اذا ما كان مصرع فرانز فرديناند في سراجيفو قد ألصق بعملائها • وفي كل حالة وجدوا الدليل الذى كانوا يعتبرونه مقنعا • وفي كل حالة شجعهم هذا على طريق العمل الحاسم نحو دمارهم أنفسهم ، الى الهزيمة في الحرب النمساوية الفرنسية سنة ١٨٥٩ والى الهزيمة والنكبة في الحرب العالمية الأولى • وكانت الروح نفسها لا تزال تحيا في شكوشنج ، انه افترض كذلك أن النازيين النمساويين سوف •• يدانون عالميا اذا ما قدمت الادلة الحاسمة ضدهم ـ تدينهم الدول الغربية وموسولينى ، ويدانون حتى من هتلر الذى كان قبل كل شيء الرئيس الشرعى لدولة مستقرة قانونا من الناحية الظاهرة • وعثر سكوشنج أيضا على دليله • ففى يناير سنة ١٩٣٨ شن البوليس النمساوى حملة على المراكز القيادية النازية ، واكتشف خططا مفصلة لعصيان مسلح، ولم يكن هتلر يعرف شيئا عن تلك الخطط التى جهزت بالرغم من أوامره• الى هذا المدى كان سكوشنج على حق : لقد كان النازيون النمساويون يعملون دون الاستناد الى مسئول ، وكانت قضية مختلفة : ما اذا كان هتلر سيتخلى عن تابعيه الشديدى التحمس •

وعلى كل فقد كان لسكوشنج برهانه ، وكانت المشكلة فى كيفية استعماله • وحمل سكوشنج دليله ومشكلته الى بابن ، السفير الألمانى • وكان بابن على أية حال جنتلمانا وثريا وأرستقراطيا ، محافظا منزها عن الهوى ، ثم هو فى قليل أو كثير رومانيا كاثوليكيا معصوما وكانت صدمته من تلك المكيدة النازية أمرا مؤكدا • وكان لشكاوى سكوشنج وقع موسيقى فى آذان بابن • لقد استنكر العمل السرى النازى فى النمسا ، الذى يلقى بظلال الشك على عقيدته القومية ، ويعرقل جهوده نحو « حل متطور » وأن اعتراضاته لم تلق عناية فى برلين والآن فان سكوشنج يدعمها ، واقترح بابن لتوه أن يحمل سكوشنج شكاويه

الى هتلر ، ومن المستحيل أن نقول ماذا كان يدور فى عقل بابن • ربما كان يأمل أن يزجر هتلر المتطرفين النازيين ، وربما استشف أن سكوشنيج ربما يدفع الى تقديم تنازلات أبعد بالنسبة لقضية القومية الألمانية فى النمسا • ومن المحتمل انه كان هناك القليل من الأمرين معا • وفى كلتا الحالتين كان بابن هو الرابح • ففى الحالة الأولى سوف يفقد الثقة بمنافسيه المتمردين ، وفى الأخرى سوف يتبوأ مكانة مرموقة بدفعه القضية الألمانية الى الأمام وربما كان يناور لكسب نجاح سلمى فى النمسا كما ناور سلميا بوضع هتلر فى الحكم فى ألمانيا • وفى هذه اللحظة نفسها تماما فى ٤ فبراير دق جرس التليفون فى السفارة الألمانية فى فيينا وأعلن بابن فجأة من برلين أنه قد عزل من منصبه •

ولم يكن لعزل بابن اى تأثير على الأحداث فى النمسا • كانت الناتج العرضى الذى تأتى صدفة نتيجة لنزاع هتلر مع شاخت • ففى ٨ ديسمبر سنة ١٩٣٧ ، استقال شاخت كوزير للاقتصاد ، وأجفل هتلر من كشف هذه الثغرة وبقيت استقالة شاخت سرا • وبلا توقع وجد مخرج فرض نفسه • ففى ١٢ يناير ١٩٣٨ تزوج بلومبرج وزير الحرب ، وكان هتلر وجورنج الشاهدين الرئيسيين ، وبعد ذلك مباشرة قدم هيملر رئيس البوليس السرى دليلا بأن السيدة بلومبرج كانت امرأة ذات سلوك سيىء السمعة ـ عاهرة سابقة لها ملف فى البوليس وسوف لا تعرف مطلقا اذا كان هذا ضحية حظ لهتلر أم انه مكيدة مدبرة ، وحتى هذا لا يعنى شيئا ، فالتأثير واحد فى كلتا الحالتين • فقد كان هتلر ساخطا من أنه أقحم فى الزواج ، وكان القادة الألمان ساخطين من سلوك بلومبرج ، وأصروا على أنه يجب أن يعزل ، واقترحوا أيضا أنه لا بد أن يعقبه فرتش رئيس أركان الجيش ، ولكن فرتش كان أكثر عنادا فى عدائه للنازية من بلومبرج • انه يجب أن يبقى بعيدا • وأعد هيملر مرغما دليلا ضده يصور شذوذه الجنسى • وكان هذا الدليل باطلا كلية • على أنه فى جو القلق الأخلاقى العام صدق فى ذلك الحين ، وقام هتلر بعملية تطهير ، وأزيح بلومبرج ليخلفه هتلر نفسه وأزيح فرتش • ليس هذا فقط ، فقد أبعد أيضا جميع المحافظين •• الذين عقدوا اجتماعات لقمع هتلر وأخرج نيوراث واحتل مكانه ريبنتروب وعزل بابن وهاسل السفير فى ايطاليا • على أن أهم من هذا جميعه هو أن اقالة شاخت أصبح من الممكن الآن أن تمر بهدوء وسط التغييرات

الأخرى . وكان هذا بطبيعة الحال هو الباعث للعملية كلها ، ومع ذلك فانها فى دوامة ذلك الحين مرت دون أن تلاحظ تقريبا .

وفى برلين ترك الرجال المعزولون مناصبهم دون احتجاج . وأصبح نيورات فيما بعد « محافظا » لبوهيميا ، واختفى الآخرون من الحياة العامة . وبقى بابن بمفرده بمنأى عن أى خطر . لقد كان دائما فى مأمن بحكم الجوانب حتى فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٤ وهو على وشك أن يغتال ، لقد تعود أن يهرب ظافرا ، وكان يهدف الى أن يهرب ثانية . وفى ٥ فبراير ذهب ليرى هتلر فى برختسجادن ، ليقول وداعا فى الظاهر . وصور نجاح الذاتى فى النمسا ، ووصف المتاعب التى تنتظر سفيرا ألمانيا جديدا ، وأنسل من ذلك عرضيا الى ابلاغه بأن سكوشسنج متلهف الى لقاء هتلر . وكانت هذه مقدمة رائعة ، وان أصبحت الآن — بلا شك — ضائعة . وكان التأثير هو ما توقعه بابن تماما ، فقد كان هتلر يطيل الفكر وهو مغموم كيف يقدم استقالة شاخت فى اجتماع الرايخستاغ الذى دعا الى عقده فى ٢٠ فبراير . وكان هنا تناقض رائع : فسوف تمده زيارة سكوشنج بنوع من النجاح الذى يستر به الموضوع الحرج الخاص باعتراضات شاخت المالية . وأضاء هتلر : « فكرة رائعة . أرجوك عد الى فيينا فورا ورتب لنا لقاء خلال الأيام القليلة القادمة »(١). وتظاهر بابن بالعناد . فهو بعد ليس السفير . وكان هتلر ملحا ووافق بابن . وفى ٧ فبراير عاد الى فيينا ومعه الدعوة . ولم يتردد سكوشنج فمهما يكن الأمر كانت فكرة اللقاء مع هتلر فكرته فى المحل الأول ، أو هذا ما تصور آنذاك ، وكان بابن الكفيل بأن كل شىء سيسير على ما يرام . وفى ١٢ فبراير وصل سكوشنج أيضا الى برختسجادن ، حيث كان بابن قد سبقه الى هناك . وكانت المسألة النمساوية موضع البحث . ولم يكن هتلر هو البادىء بها . كانت كأنما برزت لتفرض عليه فجأة وانتهز هو الفرصة ، كالعادة . ولم يكن هنا أى عدوان مخطط ، وانما ارتجال متسرع . وبدا بابن ، وليس هتلر ، ركل الكرة ، وفعل ذلك لبواعث عرضية بغية اكتساب مكانة شخصية ، ومما لا شك فيه أن الفرصة التى سنحت أوحت له بضرورة اعطاء الدفعة الحاسمة ، ومع ذلك فانه كان من التوافق العجيب ، أن الرجل الذى كان قد أوصل هتلر فى نزق الى تملك زمام الحكم فى ألمانيا هو نفسه الانسان الذى بطيش مماثل ، بدأ زحف ألمانيا نحو السيطرة الأوربية .

(١) مذكرات بابن ص ٤٠٨ .

وكان سكوشنيج ينوى أن يظهر فى برختسجادن باعتباره الفريق المظلوم ، مبديا شكاياته ، ومقدما تنازلات للوطنيين المحترمين فقط فى مقابل أفكار تطرف النازيين • وأحبطت خطته • كان هتلر يؤمن دائما أن الهجوم هو خير وسائل الدفاع ، ووجه ضربته أولا • وعند وصول سكوشنيج ، غمر مباشرة بسيل من الاتهامات بأنه فشل فى احترام « اتفاق الجنتلمان » فى ١١ يوليو سنة ١٩٣٦ • وكان هتلر هو الذى وضع الشروط للتعاون فى المستقبل • وفرضَ على سكوشنيج أن يجعل سايس ـ أنكيوارت ، باعتباره وطنيا معقولا ، وزيرا للداخلية وأن يعطيه الاشراف على البوليس • وفرض على النمسا أن تنسق اقتصادها وسياستها الخارجية مع تلك الخاصة بألمانيا • وأثار سكوشنيج اعتراضات دستورية ، فليس فى استطاعته أن يحدد وعودا ملزمة دون رضاء الحكومة النمساوية ورئيس جمهوريتها • وانتهز هتلر ، وفى تباه، دعى الجنرالات الألمان المنتظرون فى الخارج للدخول • ومع ذلك ، فبالرغم من أن تلك الطرق كانت ممقوتة ، فان سكوشنيج حصل على أكثر مما كان يريده • فلقد احترمت شكوكه الدستورية : وفى ختام المطاف فانه « عطل فقط صور الاجراءات التالية • » ولم يكن سايس ـ أنكيوارت باسوأ من الوطنيين الألمان الآخرين الذين كانوا فى الوزارة من قبل ، وكان فى الحقيقة صديق طفولة لسكوشنيج • ولم يحل ذلك دون أن يصبح نازيا فيما بعد • ان سكوشنيج قد أقر منذ زمن طويل بأن النمسا « دولة ألمانية » ، وأن هذا يتضمن تنسيقا فى السياسة • وقد تلقى ما أعتقد بأنه التنازل الحيوى : منع النشاطات غير المسموح بها من النازيين النمساويين ، كما ووفق على أن أى نازيين نمساويين غير مرغوب فيهم « يجب أن يحولوا اقامتهم نحو الريخ »

لم تكن اتفاقية ١٢ فبراير نهاية النمسا ، وانما كانت خطوة الى الأمام فى طريق « الحل المتطور » الذى وضعه هتلر • ولم يقم سكوشنيج بأية محاولة لانكاره عندما هرب من حضرة هتلر • وعلى العكس حصل على تأكيد بالموافقة عليه من الحكومة النمساوية ، وافترض هتلر ، من جانبه ، أن الأزمة انتهت • وفى ١٢ فبراير أخبر القادة الملازمين له أن يحافظوا على « النشاط المظهرى للضغط العسكرى » حتى ١٥ فبراير • وبعد هذا لم يتم التمسك حتى بأبسط مظاهر النشاط • وفى ٢٠ فبراير خاطب هتلر الريخستاج • وكان اهتمامه الأساسى أن يفسر اقالة الوزراء المحافظين ، ولكن الاتفاق بشأن النمسا فى ١٢ فبراير مكنه من أن ينتقل

الى موضوع أكثر اثارة • لم يكن هناك هجوم على سكوشنج ، الأمر الذى كان سيحدث بالتأكيد اذا ما كان هتلر قد قصـــد بالفعل العدوان على النمسا وعلى العكس من ذلك تماما ، أعلن هتلر فى نبرات رقيقة « أن التعاون الصادق بين الدولتين فى كل الميادين قد تأكد » ثم اختتم ، « انني أود أن أشكر المستشار النمساوى باســمى وباســم الشــعب الألمانى ، لفهمه وعطفه » • وفى اليوم التالى حافظ هتلر على دوره فى الصفقه • واستدعى ليوبولد ، قائد الحركة النازية السرية فى النمسا أمام هتلر وأخبر بأن ألوان نشاطه كانت شيئا « جنونيا » ، وأمر بأن يغادر النمسا ومعه شركاؤه الرئيسيون • وبعد ذلك بأيام قليلة رأى هتلر هؤلاء النازيين مرة ثانية ، وأعاد لهم التوبيخ مرة أخرى ، وألح فى أن « الأسـلوب المتطور يجب اتخـاذه ، سواء أكانت امكانية نجاحه أو فشله مما يمكن التنبؤ به ،وأن البروتوكول الموقع من سـكوشنج هو أفضل ما يمكن التوصل اليه بحيث أنه لو نفذ بحذافيره فان المشـــكلة النمساوية سوف تحل آليا » • (١)

وكان هتلر راضيا • ولم يعد أية اســـتعدادات للعمل ، ولكنه انتظر فى سلبية للحل الآلى حتى ينضـــج • أما الآخـرون فكانوا أقل استيســلاما للأمر الحتمي ـ أو ربما بحثوا فقط فى أن يجنوا الثمار منه • وفى ايطاليا كان موسولينى يستهويه دائما الاقتناع بنجاح هتلر ، بدلا من الانفجار من القلق ، وكان تشيانو ، وزير الخارجيـــة ، أكثر امتناعا فى الانجرار وراءه • ولم يتحقق أبدا حلمه فى سياسة خارجيـة مستقلة ، وربما لم تكن أكثر من حلم • وعلى كل حال فقد حاول تشيانو أن يســـتغل الوضـــع • وفى ١٦ فبراير كتب الى جراندى ، الســـفير الايطـالى فى لندن ، أن تلك هى الفرصة الأخيرة للاتفاق مع بريطانيا : « اذا ما أصبحت هى الحقيقـة الواقعـة •• وانه سيصبح شـيئا بالغ الصـعوبة لنا أن نصـل الى اتفاق أو حتى محادثات مع الانجليز » (٢) ورحب جراندى بهذه البداية : لقد كان دائما يريد أن يعود بسياسة ايطاليا نحو منهجها التقليدى وذلك بقدر ما يستطيع أى فاشيستى أن يقدم خطا تقليديا • ورحب تشمبرلن بها أيضا • وثار ايدن أخيرا •

---

(١) مذكرات كيبلر ٢١ ، ٢٦ فبراير ١٩٣٨ : سياسة المانيا الخارجية : ملزمة د ، ١ ، رقم ٣١٨ ، ٣٢٨ •

(٢) من تشيانو الى جراندى ، ١٦ فبراير ١٩٣٨ • مذكرات تشيانو الدبلوماسية ص ١٦١ •

وكان غاضبا من قبل لأن تشمبرلن ـ دون استشارته ـ قد رفض اقتراحا من الرئيس روزفلت لمؤتمر عالمي كبير لمناقشة كل مشكلة يمكن تصورها • وقد افترض ايدن ، وربما يكون مخلصا في هذا ، أن مثل هذا الاجتماع سوف يجر الولايات المتحدة الى جانب الدول الغربية • وخشي تشمبرلن، بتبرير أكبر ، أنه سوف يكون تكرارا لمؤتمر بروكسل الخاص بالشرق الأقصى ـ وأن الولايات المتحدة سوف تطرح مبادىء معنوية ، وأن على بريطانيا وفرنسا أن تقدم القوة المساندة لتلك المبادىء • وعلى كل حال فقد كان دنو ايطاليا هو الذي أوصل النزاع بين الرجلين الى القمة • ولم يكن ايدن قد نسي اذلاله في موضوع الحبشة ، وكان قد أثير غضبه من انعدام الشرف الذي لا حد له من لجنة عدم التدخل•وأصر على أنه لايمكن أن تكون هناك محادثات جديدة حتى ينفذ الايطاليون وعودهم بسحب ما يسمون بالمتطوعين من أسبانيا • وكان تشمبرلن مستعدا للتسامح مع نصر فاشستي في أسبانيا اذا ما استطاع أن يكسب المساندة الايطالية لجعل هتلر معتدلا •

وبدأ الجدال بين ايدن وتشمبرلن بأخذ صورة الصراع في ١٨ فبراير ، وفي حضور جراندي بالفعل • ووقف ايدن في حزم ازاء قضية المتطوعين الايطاليين في أسبانيا • ونحى تشمبرلن اعتراضاته جانبا • بموافقة جراندي وتأييده • وبعد ذلك بيومين استقال ايدن ، وأصبح هاليفاكس وزيرا للخارجية ـ ينفذ سياسة تشمبرلن • ودفع الثمن لايطاليا : بدأت المحادثات على الفور ، وكان من المتفق عليه مقدما قبول الشروط الايطالية ـ يمكن الاعتراف بامبراطوريتهم في الحبشة ، ويمكن أن يوعدوا بمشاركة متساوية في البحر المتوسط • ولم يرد ذكر النمسا ، وسجل جراندي أن سلوك بريطانيا هناك سوف يواصل اتجاهه ليكون احدى « التنازلات الخانقة » (١) • وكان هذا صحيحا • فلم يكن تشمبرلن ينوي أن يفعل شيئا بالنسبة للنمسا • ولكنه كان يأمل في أن تجعل الحقيقة البسيطة للمحادثات الانجليزية ـ الايطالية هتلر يتردد ، وربما توحي لموسوليني بالمقاومة • ولم يكن من السهولة خداع هتلر بهذه البساطة • فلقد أطلعه الايطاليون أولا بأول على المحادثات وأكدوا له أن المسألة النمساوية لن تثار : « انهم لن يتساهلوا في أية محاولة

---

(١) من جراندي الى تشيانو : ١٩ فبراير ١٩٣٨ : مذكرات تشيانو الديبلوماسية صفحة ١٨٣ •

لعصم العلاقات الألمانية ـ الايطالية » (١) . ان هذا هو الطريق الوحيد الذى كان على ايطاليا أن تسلكه . ولم يكن للايطاليين أية وسيلة لايقاف هتلر . وكما كتب تشيانو فى ٢٣ فبراير « ما الذى نستطيع أن نفعله فى حقيقة الأمر ؟ أنبدأ حربا مع ألمانيا ؟ ان فى أول طلقة نطلقها ، سوف يقف كل نمساوى بلا استثناء خلف ألمانيا وضدنا » (٢) . وربما لم يقدم تشمبرلن للايطاليين ثمنا غاليا ، ولكن أى ثمن كان لا يمكن أن يجعلهم يحاربون من أجل قضية استقلال النمسا المتداعية .

زادت هذه الأحداث فى لندن من ثقة هتلر بنفسه . وكان خصومه يتساقطون على جانبى الطريق . وكان المحور يزداد شيئا فشيئا من تشكيل شئون أوربا . وكان هو الذى يقرر سياسة المحور . ورغم هذا فانه ظل لا يفعل شيئا . واستمر فى افتراض أن الأحداث تؤدى ما يريد أن يعمله ، مرة أخرى ، وللمرة الأخيرة ، جاءت المبادرة من سكوشنج . وبطريقة مربكة ، ومترددة ، أقام استياءه من المعاملة التى تلقاها فى برختسجادن ومن مغبة ضعفه الذاتى . وقرر أن يوقف الانزلان الحتمى فى الوطنية الاشتراكية النمساوية بتحد درامى . وربما حفزته تأكيدات من الوزير النمساوى فى باريس بأن فرنسا سوف لا تقف مكتوفة اليدين اذا ما وقع تهديد صريح على النمسا ـ وربما كانت الفكرة قد ومضت من بنات أفكاره . اننا لا نملك الوسيلة لمعرفة ذلك . وعلى أية حال فقد قرر أن يستعمل طريقة هتلر الخاصة فى الاستفتاء العام ، وأن يسأل الشعب النمساوى عما اذا كان يرغب فى أن يظل مستقلا . وفى ٧ مارس تشاور مع موسولينى ، الذى أجاب فى اقتضاب : « انها غلطة » . وتجاهل سكوشنج هذا التحذير الواهى . وفى ٨ مارس أفصح لوزرائه عن خطته ، وفى ٩ مارس أعلنها للعالم . سوف يجرى الاستفتاء العام بعد ثلاثة أيام فى ١٢ مارس . لم يعد سكوشنج أية استعدادات للاستفتاء ، لم يكن قد قدر كيفية اجراء الاستفتاء . كانت فكرته منصبة على الاسراع به قبل أن يكون فى مقدور هتلر أن يتخذ رد فعل بوسيلة ما . ومهما كانت أسس الاستفتاء ، فان العالم كله عرف أنه تحد واضح لهتلر ، لقد حلت لحظة الصراع بين القومية الألمانية والنمسا المستقلة . ولابد أن سكوشنج أطال التفكير فى الكلمات التى وجهها اندراسى ذات مرة لرئيس

---

(١) مذكرات ريبنتروب ، ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٨ : سياسة ألمانيا الخارجية ، ملزمة د ، ١ ، رقم ١٢٣ .

(٢) مذكرات تشيانو ١٩٣٧/١٩٣٨ ، صفحة ٧٩ .

وزراء نمساوی آخر كان يباشر سياسة جريئة : « هل أنت مستعد لأن تستمر في هذه السياسة مستندا الى المدفع ؟ اذا لم تكن ، فلا تباشرها ».

واستجاب هتلر كما لو كان انسانا ما قد ركض فوق قدم مصابة . انه لم يتلق تحذيرا ، ولم يقم بأية استعدادات . وكان واضحا له أن « الحل المتطور » ، قد انتهى . وكان عليه اما أن يعمل أو أن يواجه الاذلال . ولم يكن في استطاعته أن يتقبل الاذلال والهوة بينه وبين الوزراء المحافظين من ورائه . واستدعى القادة العسكريون فورا الى برلين . ولم يكن الجيش الألماني قد أعد حتى ذلك الحين لخوض غمار معركة ، ولكن الأوامر صدرت بأنه يجب أن تكون مثل تلك القوات المعسكرة بالقرب من النمسا مستعدة لاختراق الحدود في ١٢ مارس . وكتبت رسالة الى موسوليني ، مصورة محاولات هتلر لأن يصل الى اتفاق مع سكوشنج ومنتهية بهذا التأكيد : « لقد رسمت حدودا ثابتة بين ايطاليا وبيننا . انه برنر » (١) حمل برنس أوفهس الرسالة الى موسوليني ، وكان ريبنتروب غائبا في لندن في زيارة وداع ، واستدعى نيوراث لأن يقوم بالواجبات الروتينية لوزير الخارجية . واستقرت مقاليد الأمور العامة بين يدى جورنج ، الذى كان عليه أن يبقى في برلين عندما لحق هتلر بقوات الغزو .

لقد أشعل سكوشنج الفتيل الزمنى لقنبلة خطيرة . وجاء دوره لكى يؤخذ على غرة عندما انفجرت . وفى ١١ مارس علم أن الحدود بين ألمانيا والنمسا قد أغلقت . وأصر الوزراء الوطنيون فى حكومته ، بتعليمات من جورنج ، على أن يلغى الاستفتاء . وتحول سكوشنج وهو مغموم الى الدول التى حمت ذات مرة الاستقلال النمساوى . وتلقى ردا فاترا . رفض موسولينى أن يرد على المكالمة التليفونية . وفى لندن أخبر هاليفاكس ريبنتروب أن التهديد باستعمال القوة أسلوب غير محتمل . وأضعف من تأثير هذا الاحتجاج قول تشمبرلن انهم يستطيعون بدء العمل بهمة نحو التفاهم الألمانى ـ الانجليزى « مجرد أن تصبح كل هذه الأمور ذكريات » (٢) وزاد من ضعفه ماحدث في برلين عندما اتفق نيفيل

(١) من هتلر الى موسولينى ، ١١ مارس ١٩٣٨ : سياسة ألمانيا الخارجيه ، ملزمة د ، ١ ، رقم ٣٥٢ .

(٢) مذكرات ريبنتروب ، ١١ مارس ١٩٣٨ ، سياسة ألمانيا الخارجية ، جزء د ، ١ ، رقمى ١٥٠/١٥١ .

هندرسون مع جورنج على أن « تصرف دكتور سكوشنج ليس الا تسرعا أحمق » (١) • وكان الرد الوحيد الذي أعطته الحكومة الانجليزية الى فيينا ، أنها لن تستطيع تحمل مسئولية اعطاء نصيحة قد تجر على النمسا المتاعب (٢) • وكانت الحكومة قد جست نبض العدو بنشرة محلية قبل ذلك الحين بثلاثة أيام • وقرر الوزراء ، وهم لا يزالون بعد بين اليقظة والحلم ، أن يتخذوا « اجراءات عسكرية » قاصدين بذلك استدعاء بعض الاحتياطى ـ اذا ماوافق الانجليز • ولم تأت أية موافقة من لندن ، ولم يستدع أى من الاحتياطيين الفرنسيين •

وتخلى الجميع على سكوشنج وغدا وحيدا • وفى ساعة مبكرة من بعد ظهر يوم ١١ مارس وافق على تأجيل الاستفتاء العام • ولم يعد هذا بعد كافيا • وأخبر جورنج سايس ـ أنكيوارت تليفونيا أن الألمان قد فقدوا الثقة فى سكوشنج : انه يجب أن يستقيل ، ويحل سايس ـ انكيوارت محله • وكان هذا حدثا فريدا فى التاريخ ـ أزمة دولية توجه منذ البداية الى النهاية بالتهديدات التليفونية • واستقال سكوشنج فورا • وعلى كل فقد رفض ميكلاس Mikles رئيس الجمهورية أن يعين سايس ـ أنكيوارت ، ـ كانت لفتة أخيرة ويائسة لاستقلال النمسا • وهرع جورنج مرة أخرى الى التليفون ليقول ان القوات الألمانية سوف تتوقف على الحدود فى حالة اذا ما نصب سايس انكيوارت فقط مستشارا قبل الساعة السابعة والنصف مساء • ولأن ميكلاس كان لا يزال متمسكا برأيه ، فان سايس ـ انكيورات نصب نفسه مستشارا فى الساعة الثامنة مساء • وجاء هذا بعد فوات الأوان • وطلب الى سايس انكيوارت أن يسأل الألمان امداده بالعون لاستعادة القانون والنظام • وفعل هذا ببرقية أرسلت فى التاسعة وعشر دقائق مساء • ولم يكن هتلر قد انتظر نداءه • كان أمر غزو النمسا قد صدر فى الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة مساء • ومع ذلك فقد تردد الألمان حتى اللحظة الأخيرة • وكانت خطط غزو النمسا قد أرجئت فى وقت مبكر من بعد الظهر عندما وصلت أنباء استقالة سكوشنج • وبالرغم من أن الاحتجاجات الانجليزية كانت ضئيلة الوزن ، فان الألمان خشوا التدخل التشيكى حتى اللحظة الاخيرة •

---

(١) من هندرسون الى هاليفاكس ، ١٢ مارس ١٩٣٨ • سياسة المانيا الخارجية ، الجزء الثالث ، ١ ، رقم ٤٦ •

(٢) من هاليفاكس الى باليرت Palairet ، ١١ مارس ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ٢٥ •

واخبر جورنج الوزير التشيكى « اننى أعدك وعد شرف بأنه لا موجب لان تحس تشيكوسلوفاكيا أدنى الاحساس بالقلق » ورد التشيكيون لتوهم بأنهم لن يعلنوا التعبئة · لقد صدقوا بصعوبة تأكيد جورنج ، ومع ذلك فانهم شعروا ــ كأى فرد آخر ــ بأنه ليس هناك مايستطيعون عمله· وكان موسولينى هو آخر من أعلن موقفه · وفى العاشرة وخمس وعشرين دقيقة مساء تكلم هيس تليفونيا مع هتلر من روما : ان موسولينى يبعث بأحسن تحياته ــ « ان النمسا لا تعنيه اطلاقا » · ان القلق الذى يكمن مختفيا خلف ثبـــات هتلر طفح الى الســـطح فى انفراج عاطفى « قل لموسولينى اننى لن أنسى هذا أبدا ··· أبدا ، أبدا ، أبدا ، مهما حدث··· أنا لن أنسى أبدا ، مهما حدث ··· واذا ماحدث وكان فى حاجة الى أية مساعدة أو كان فى خطر ما ، فانه يستطيع أن يثق أننى سأكون بجانبه ، مهما حدث ، حتى وان وقف العالم كله ضده » وكان هذا وعدا حفظه هتلر ··

كان الجيش الألمانى يغزو النمسا ، أو بمعنى أصح كان يسير يحوطه الحماس العام للشعب · ولكن لأى غرض ؟ · لقد أصبح سايس ــ انكيوارت مستشارا · وكان جورنج قد أخبر هندرسون أن القوات سوف تنسحب « بمجرد أن يستقر الوضع » وأنه بعد ذلك « سيجرى انتخاب فى جو تام الحرية خال من أى لون من ألوان الارهاب فى أية صورة » (١) وكانت تلك هى الخطة النازية الأصلية ، كما لفقت فى ١١ مارس · واعتقد سايس ــ انكيوارت أن بتعيينه يكون كل شىء قد كلل بالنجاح وفى الساعة الثانية والنصف من صباح ١٢ مارس طلب وقف الغزو · وأخبر أن ذلك مستحيل واستمرت القوات الألمانية فى زحفها ، وان لاقت فى ذلك بعض الصعوبة · لم تكن القوات مجهزة للحركة ، وتحطمت ٧٪ من عرباتهم عبر الطريق من الحدود الى فيينا · ودخل هتلر كذلك النمسا فى صباح ١٢ مارس · وفى لينز Linz حيث دخل المدرسة لأول مرة ، خطب فى الجماهير الهائجة · واستجاب هو نفسه لهذا الهياج · وبينما كان متوجها الى شرفة صالة بلدية لينز ، اتخذ قرارا مفاجئا وغير متوقع : بدلا من اقامة حكومة ائتلافية فى فيينا ، فانه سوف يضم النمسا الى الريخ · وأمر سايس ــ انكيورات ، المستشار ليوم واحد ، أن يصـــدر قانونا يحرم به نفسه والنمسا من حق الوجود · وفعل ذلك فى ١٣

(١) من هندرسون الى هاليفاكس : ١٢ مارس ١٩٣٨ : ســـياسة بريطانيـــا الخارجية ، الجزء الثالث ، ١ ، رقم ٤٦ ، ٤٨ ·

مارس • وقدمت الوحدة لاقرارها من شعب ألمانيا الكبرى • وفي ١٠ أبريل اقترع ـ ٩٩٫٠٨٪ في جانبها ، وكانت انعكاسا حقيقيا للشعور الألماني •

وانتصر هتلر • وحقق المهمة الأولى لطموحه • على أن ذلك لم يتم بالطريقة التي كان ينويها • لقد خطط على أن يلتهم النمسا دون أن يشعر أحد ، وذلك حتى لا يستطيع أحد أن يعرف متى تلاشى استقلالها • كما كان ينوي استخدام طرق ديمقراطية لكي يدمر استقلال النمسا كما فعل في تدمير الديمقراطية الألمانية • ولكنه بدلا من هذا دوفع لاقحام الجيش الألماني • لقد تخلى لأول مرة عن استخدام رصيد حكمة المظلوم وبدا فاتحا ، معتمدا على القوة • وسرعان ماساد الاعتقاد بأن اغتصاب هتلر للنمسا كان مؤامرة متعمدة ، دبرت منذ زمن طويل • وأنها الخطوة الأولى نحو السيطرة على أوربا • وكان هذا الاعتقاد خرافة • فأزمة مارس ١٩٣٨ : أثارها سكوشنيج لا هتلر • ولم تكن هناك أية استعدادات ألمانية ، عسكرية أو ديبلوماسية • وارتجل كل شيء في يومين ـ السياسة ، الوعود ، القوة المسلحة • وبالرغم من أن هتلر كان يعني بالتأكيد أن يفرض اشرافه على النمسا ، فان الطريقة التي تم بها هذا كانت بالنسبة له حادثا مرهقا ، واضطرابا في سياسته الطويلة المدى ، وليس نضجا لخطط مدروسة بعناية • على أن تأثيرها كان مما لا يمكن تلافيه • كان هناك التأثير على هتلر نفسه • لقد ألصقت به جريمة القتل ـ جريمة قتل دولة مستقلة ، حتى وان كان استقلالها صوريا الى حد كبير • وازدادت ثقة هتلر بنفسه ، كما ازداد معها استخفافه بساسة الدول الأخرى • وصار أقل صبرا وعدم مبالاة ، وأكثر استعدادا للاسراع في المفاوضات بالتلويح باستخدام القوة • وفي الوقت نفسه ، بدأ الساسة في البلاد الأخرى في الشك في نوايا هتلر الطيبة • حتى أولئك الذين كانوا لايزالون يأملون في أن يهدأ ، بدأوا في التفكير أيضا في المقاومة • ومال الميزان الدقيق ، وان كان ذلك بشكل طفيف ، عن اتجاه السلام ونحو الحرب • وقد تبدو أغراض هتلر وكأن لها مايبررها ، الا أن وسائله أدينت • وبقيام الوحدة ـ أو بمعنى أصح بالطريقة التي أنجزت بها ـ يكون هتلر قد اتخذ الخطوة الأولى في السياسة التي وصمته كأكبر مجرمي الحرب • ومع ذلك فانه اتخذ تلك الخطوة دون قصد • والواقع أنه لم يكن يعرف أنه اتخذها •

الفصل الثامن

أزمة تشيكوسلوفاكيا

بعد تقسيم الامبراطورية العثمانية فى اوربا سنة ١٩١٣ ، عزى الى باسيش رئيس وزراء سيربيا أنه قال : « لقد كسبت الجولة الأولى ، وعلينا الآن أن نجهز الثانية ضد النمسا » • وجاءت الجولة الثانية فى موعدها بعد سنة وان لم تكن من صنعه • وكان كل فرد فى أوربا يحس الشعور نفسه فى مارس ١٩٣٨ بعد الوحدة • لقد انتهت جولة النمسا ، وحان الوقت لأن تبدأ جولة تشيكوسلوفاكيا • ولم يكن من الضرورى الاعداد لهذه الجولة الثانية • لقد وضعت الجغرافيا والسياسة تشيكوسلوفاكيا آليا بحيث يحل الدور بها • ولما كانت حليفة لفرنسا وباعتبارها الدولة الديمقراطية الوحيدة شرقى الرين ، فقد اعتبرت تبكيتا دائما لهتلر ، طعنة عميقة فى الوطن الألمانى • ولم يكن من السهل تحملها• وكان لدى الايطاليين ، اذا مارغبوا ، سبل الاتصال المباشر مع النمسا • ولكن تشيكوسلوفاكيا معزولة من جميع النواحى • فألمانيا تفصلها عن فرنسا ، وبولندا-ورومانيا عن روسيا السوفيتية • وكان جيرانها المباشرون معادين لها • فالمجر احدى «المطالبات باعادة تصحيح الأوضاع» بصورة مريرة ، وبولندا ، بالرغم من أنها حليفة لفرنسا فانها كذلك « احدى المطالبات باعادة تصحيح الأوضاع بسبب تزين Tesin » • التى اغتصبها التشيك بعد الحرب العالمية الأولى ، وواثقة ثقة عمياء فى معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا • ولم يكن هناك سبيل « لمساعدة » تشيكوسلوفاكيا • اما حرب اوربية على نطاق شامل أو لا شيء •

كان يمكن أن تكون المسألة التشيكوسلوفاكيه أقل حدة اذا ماكانت الجغرافيا هى الوحيدة على مسرح الحوادث • وحتى ديمقراطيتها أو حلفاؤها كان يمكن الا يكونوا فى حد ذاتهم هم مثيرى الأزمة • ولكن

كانت هناك فى قلب تشيكوسلوفاكيا قرحة ، فهى على الرغم من ظواهرها دولة قوميات ، وليست دولة قومية واحدة • وكان التشيك وحدهم هم التشيكوسلوفاك الأصليون ، بل ان الأمر بلغ بهم حد تفسير ذلك فى صورة اقامة دولة مركزية تمثل الشخصية التشيكية • أما الآخرون ـ السلوفاك والمجريون ، والروتنيين ، والألمان قبل الجميع ، فكانوا أقليات قومية : يهدءون أحيانا ، ويبدون عدم الرضا أحيانا أخرى ، الا أنهم لم يكونوا أبدا مقتنعين باظهار الولاء للوضع القائم • وكان الثلاثة مليون ألمانى (الذين أطلق عليهم تجاوزا ، وان خطأ ، السوديت Sudetens) تربطهم تماما بالنمساويين أواصر التاريخ والدم برباط وثيق • لقد أثارتهم الوحدة الى هياج لا ضابط له • وربما كانوا أكثر حكمة لو أنهم ظلوا قانعين بنصيبهم ـ مواطنين أحرارا ، بالرغم من عدم مساواتهم فى مجتمع ديمقراطى • ولكن الناس يصبحون غير حكماء اذا ما سمعوا نداء القومية • ان الدولة الألمانية الكبرى ـ قوية ، متحدة ، قومية ـ تقوم ملاصقة تماما لحدودهم • لقد انضم اليها أبناء عمومتهم النمساويون منذ وقت قريب • ورغبوا هم أيضا فى الانضمام لها • ومما لاشك فيه أنهم رغبوا كذلك ، وبطريقة محيرة ، أن يظلوا فى تشيكوسلوفاكيا ، ولم يعرفوا أبدا كيفية التوفيق بين الرغبتين • على أن حركة القومية الألمانية فى تشيكوسلوفاكيا ، مهما كانت محيرة ، كانت حقيقة ، وان أولئك الذين رغبوا فى « الوقوف بجانب تشيكوسلوفاكيا » لم يشرحوا أبدا كيفية معالجة هذه الحقيقة • ان هتلر لم يخلق هذه الحركة • كانت فى انتظاره ـ مستعدة وشغوفة فى الواقع لكى يستخدمها • بل انها كانت أشد من حالة النمسا بحيث لم تجعل هتلر فى حاجة الى العمل • كان على الآخرين أن يعملوا من أجله • والأزمة حول تشيكوسلوفاكيا فرضت على هتلر • وكان دوره فقط أن يقطف ثمارها •

ومما لاشك فيه أن هتلر كان يرغب فى « تحرير » ألمان تشيكوسلوفاكيا • وكان معنيا أيضا ـ بدوافع أقوى من الناحية العملية ، بازالة العقبة التى أقامتها تشيكوسلوفاكيا المسلحة تسليحا ضخما والمتحالفة مع فرنسا وروسيا السوفييتية ، ضد الزعامة الألمانية • ولاجدال فى أن امكانية اتمام ذلك كانت واضحة لديه • على أنه كان كأى فرد آخر فى أوربا قد تجاوز الحدود فى تقديره لقوة فرنسا والتصميم الفرنسى • واعتقد أن هجوما ألمانيا مباشرا على تشيكوسلوفاكيا سيوجب تدخلا فرنسيا • وكان حله الفذ ، كما أعلنه فى مؤتمر ٥ نوفمبر سنة

١٩٣٧ ، هو الأمل فى نزاع ينشب فى البحـــر المتوسط بين فرنســا وايطاليا • وعندئذ ، وكما صوره فى وقت مافى أبريل سنة ١٩٣٨ « نعود بتشيكوسلوفاكيا فى الحقيبة » ، ولكن اذا مافشلت ايطاليا فى أن تتحرك « فسنعود بالحقيبة فارغة » (١) • وقد اعتمدت هذه الخطة أيضـا على خطأ فى التقديرات : لقـد جاوزت فى تقدير طاقة ايطاليا على العدوان • ولكن سواء جاءت حرب البحر المتوسط أم لم تأت فقد كان أعداد الوضع فى تشيكوسلوفاكيا بتشجيع حركة السوديت أمرا يستحق العناية • ومن المتطوع به كأقصى مايكون التأكد أن هتلر لم يكن ينوى أن يقهر النظام الفرنسى فى أوربا بتدبير جبهة هجومية • كانت «ميونخ» لاتزال مسيطرة على تفكيره وكانت ميونخ آنذاك لا تعنى بالنســبة له المؤتمر الناجح فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ وانما العصيان النازى المشئوم الذى ثار فى نوفمبر سنة ١٩٢٣ • كان قصده أن ينجح بالمكيدة والتهديد باستخدام العنف وليس بالعنف نفسه • وفى ٢٨ مارس قابل ممثلى السوديت وعين هنلين Henlein زعيمهم « نائبا له » • وكان عليهم أن يتفاوضوا مع الحكومة التشيكوسلوفاكية ، وفى كلمات هنلين « يجب علينا دائما أن نطالب بالمزيد حتى لا يمكن ارضاءنا أبدا » • كان على الحركة أن تبقى قانونية ومنظمة ، كما يجب عدم اعطاء التشيك أية فرصة للقضاء عليهم بالقوة (٢) • وربما يضع التشيك أنفسهم فى موضع الخطأ ، وربما ينشغل الفرنسيون أو يفقدون أعصابهم • وفى ربيع سنة ١٩٣٨ لم يكن هتلر يرى طريقه بوضوح • لقد زاد من حدة التوتر بأمل أن يحدث شىء ما فى مكان ما •

وكان لخصم هتلر ، الرئيس بينز Benes رئيس جمهـــورية تشيكوسلوفاكيا غرضا مماثلا • كان يرغب أيضا فى زيادة حدة التوتر ، ولكن بأمل الحصول على النتيجة المضادة تماما • كان يأمل أن يثوب الفرنسيون والانجليز الى رشدهم عندما يواجهون بالأزمة ، وأن يقفوا بجانب تشيكوسلوفاكيا ، بذلك يتراجع هتلر ، ولن يوقف هذا الاذلال سيره نحو السيطرة على أوربا فحسب ـ وانما قد يحطم النظام النازى فى ألمانيا نفسها • وكان لبينز رصيد عشرين ســـنة من الخبرة الديبلوماسية

---

(١) مذكرة سكميوندت ، ابريل ١٩٣٨ : سياسة ألمانيا الخارجية ، الجزء د ، ثانيا ، رقم ١٣٢ •

(٢) تقرير هنلين ، ٢٨ مارس ١٩٣٨ ا سياسة ألمانيا الخارجية ، الجـــزء د ، ثانيا ، رقم ١٠٧

والنجاح الديبلوماسي · كان هو متيرنخ الديموقراطية ، بنفس الثقة بالنفس ، وبمهارة الأسلوب والحجة نفسيهما ، وبالاعتماد نفسه المبالغ فيه أيضا على المعاهدات والحقوق الدولية · وقد تناول المشكلة السوديتية مثلما تناول متيرنخ المشكلة الايطالية منذ قرن مضى : عدم امكان حلها على الصعيد المحلي ، وامكانية الاتفاق عليها على الصعيد الدولي · وكان بينز مستعدا للتفاوض مع السوديت كاستعدادهم للتفاوض معه ، وبالأمل نفسه البسيط في نتيجة ناجحة · وربما حتى بأمل أقل ، ذلك لأن الاذعان للألمان في تشيكوسلوفاكيا قد يجلب معه المطالب من الأقليات القومية الأخرى ، ويؤدى الى دمار الدولة القائمة ، وبدأ بينز والسوديت بالمثل في التفاوض على حدة وآذانهم مرهفة على آراء الانجليز والفرنسيين · وحاول قادة السوديت اعطاء الاحساس بأنهم يطلبون مجرد المساواة في المعاملة داخل تشيكوسلوفاكيا · وحاول بينز أن يدفعهم الى مطلب مفتوح فيه ينعدم حل المشكلة · واعتقد عندئذ أن الدول الغربية سوف تثبت وجودها · لقد حكم على تلك الدول من خلال سنواته التي قضاها في فرنسا ابان الحرب العالمية الأولى ، ومن تجاربه الأخرى عندما سيطروا على عصبة الأمم في جنيف · وفشل ، كمعظم الناس ، بما فيهم هتلر ، في التعرف على ضعفهم الحالي ، معنويا وماديا ــ وبالأخص فرنسا ·

كانت لبينز ذاته امكانياته المحدودة · فالمخالفات التشيكية كانت تبدو هائلة على الورق · كان هناك محالفة تبادل الدفاع مع فرنسا المعقودة في سنة ١٩٢٥ ، والمحالفة مع روسيا السوفييتية في سنة ١٩٣٥ ، والتي تنفذ فقط في حالة قيام فرنسا بالعمل أولا ، والاتفاق الودي الصغير مع رومانيا ويوغوسلافيا الموجه ضد المجر ، لم يقم بينز بصنع معظم هذا الموقف · لقد أهمل عن عمد التحالف مع روسيا السوفيتية · فهو في نظره مكمل للحلف الفرنسي ، وليس عوضا عنه · وقد يفكر البعض ، وعادة في شيء من الشك ، فيما لو كانت روسيا السوفييتية ستساعد تشيكوسلوفاكيا حتى وان بقيت فرنسا على الحياد ، ولم يثر بينز هذا السؤال · لقد كان غربيا ، وريث مازاريك الذي كسب استقلال تشيكوسلوفاكيا بفضل المساعدة الغربية وليس بالمساعدة الروسية · وأخبر نيوتن الوزير البريطاني: «سوف يبقى للعلاقات التشيكوسلوفاكية مع روسيا دائما الاعتبار الثاني · ان دولته سوف تتبع وترتبط دائما بأوربا الغربية (تذييل : من نيوتن الى هاليفاكس ، ١٨ مايو سنة

١٩٣٨ : السياسة البريطانية الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ١ ، رقم ٣٢٩) لقد أضافت الحرب الأهلية الأسبانية تحذيرا آخر ضد الدفاع عن « الديمقراطية » اذا ما آزرتها روسيا • على أن بينز لم يكن فى حاجة الى هذا التحذير ، كان تفكيره قد تحدد منذ وقت طويل • انه حتى اذا ماكان قد تأثر ، فثمة قوى قمع ضخمة داخل تشيكوسلوفاكيا • كان حزب المزارعين ، أكبر حزب في الحكومة الائتلافية ، يخشى أى اتحاد مع الشيوعية • وكانوا كذلك ميالين الى القول بأن هتلر أفضل من ستالين وأكثر من ذلك كان بينز رجل سلام • وكان الجيش التشيكوسلوفاكى قوة هائلة ، وكانت فرقه الأربعة والثلاثين المعدة تمام الاعداد على الأرجح ندا فى حد ذاتها للجيش الألماني النصف مدرب لسنة ١٩٣٨ • ولم يكن بينز ينوى أبدا استخدامه فيما عدا اذا حدثت الحرب العامة البعيدة الاحتمال • كان التشيك شعبا صغيرا • ولقد استغرق الشفاء من نكبة « الجبل الأبيض » في سنة ١٦٢٠ مايقرب من ثلاثمائة عام • وكان فى بينز اصرار على وجوب عدم تعرضهم لنكبة أخرى مماثلة • كان مستعدا أن يؤدى دورا ضد هتلر من أجل ضمانات كبيرة ، ولكنه لم يكن مستعدا لأن يخاطر بأكبر ضمان فيها جميعا • وكوسيلة أخيرة كان يمكن أن يحنى رأسه للعاصفة ويأمل فى أن التشيك سوف يستمرون بعدها ـ كما فعلوا في الحقيقة •

وكان كل من هتلر وبينز يريدان زيادة التوتر وفرض أزمة • وكان للانجليز والفرنسيين وهم يقدرون التقدير نفسه غرض مضاد • كانوا يرغبون تجنب الأزمة لكى يتجنبوا الاختيار الرهيب بين الحرب والاذلال • وكان الانجليز الأكثر الحاحا فى الاثنين • وبدا الفرنسيون الأكثر تعرضا : فقد كان عليهم التزام حاد بالتحالف مع تشيكوسلوفاكيا، بينما كان الانجليز غير مرتبطين فيما عدا كونهم أعضاء فى عصبة الأمم المتحضرة • ولكن كان فى استطاعة الفرنسيين تحويل تورطهم الى الانجليز • كانوا يستطيعون أن يتحدثوا عن مقاومة هتلر ، فاذا مارفض الانجليز تعضيدهم ، فان اللوم سوف يقع على عاتق الانجليز • وكان لهذا نتيجة غريبة • وكان فى استطاعة هتلر وبينز وحتى الفرنسيين أن ينتظروا الأزمة حتى تنضج واثقين من أن هذا سوف يؤدى الى اغتصاب قرار من الانجليز • ولهذا السبب نفسه كان على الانجليز أن يتحركوا • كانوا أكثر الجميع بعدا عن المسألة التشيكوسلوفاكية ، ومع ذلك كانوا أكثر هم الحاحا فى اثارتها • كانت دوافعهم من أقوى الدوافع • كانوا

يرغبون فى منع الحرب الأوربية ، وكانوا يرغبون أيضا فى تحقيق اتفاقية أكثر تلاؤما مع المبدأ الكبير الخاص بالتصميم الذاتى من ذلك الذى تم فى سنة ١٩١٩ • وكانت المحصلة النقيض التـــام لنواياهم • كانوا يتصورون أن هناك حلا لمشكلة السوديت الألمانية وأن المفاوضات سوف تتمخض عنه • وفى الحقيقة كانت المشكلة غير قابلة للحل على أساس المساومة ، ولم تفعل كل خطوة فى المفاوضات شيئا سوى أن جعلت ذلك أوضح • وحيث جد الانجليز لتجنب الأزمة ، عملوا على ايجادها • ولم تكن المشكلة التشيكوسلوفاكية من صنع الانجليز ، وانما كانت الأزمة التشيكية من عملهم •

كان الانجليز يقظين للمشكلة من نفس لحظة الوحدة ــ منــذ زمن طويل قبل أن تتضح نوايا هتلر • وفى ١٢ مارس ، عندما دعى السفير الفرنسى لمناقشة المسألة النمساوية ، رد هاليفاكس بأن سأل : « ماهو التصور الفرنسى بشأن تقديم المساعدة لتشيكوسلوفاكيا ؟ » ولم يكن لدى السفير رد معد (١) • وبعد عشرة أيام قدم الانجليز ردهم الخاص ، أو عدم وجوده • وفى مذكرة للحكومة الفرنسية ، ركزوا على تعهداتهم ازاء معاهدة لوكارنو ، « وان تلك التعهدات من وجهة نظرهم وان كانت لا تلزمهم بصيانة السلم فى أوربا ، وأنهم بالرغم من أنه ليس لديهم أية نية للتخلى عن تلك التعهدات ، فانهم لا يستطيعون أن يروا مايضيفونه لها » • وكان هناك أمل ضئيل فى أن عمليات عسكرية تقوم بها فرنســا والاتحـــاد الســـوفيتى فى استطاعتها أن تمنع الاحتـــلال الألمانى لتشيكوســـلوفاكيا وأن الانجليز حتى وان دخلوا الحـــرب ، فانهم لا يستطيعون أن يقدموا أكثر من « الضغط الاقتصادى » بفرض الحصار• وعلى ذلك فيجب دفع الحكومة التشيـكوسلوفاكية لايجـــاد « لون من الحل » لمشـــاكل الأقلية الألمـــانية يكون ملائما لتأكيد تكامل الدولة التشيكوسلوفاكية (٢) واضاف هاليفاكس بصفة خاصة بعض الحجج الأخرى « بمنتهى الصراحة أن الوقت غير ملائم ، وأن خططنا فى كل من الهجوم والدفاع ، ليست ، متقـدمة بشـــكل كاف » (٣) • وقال أيضا

---

(١) من هاليفاكس الى فيبس : ١٢ مارس ١٩٣٨ : السياسة الانجليزية الخارجية السلسلة الثالثة ، ١ رقم ٦٢ •

(٢) من هاليفاكس الى فيبس ٢٢ مارس ١٩٣٨ : السياسة الخارجية الانجليزية• السلسلة الثالثة ، ١ ، رقم ١٠٦ •

(٣) من هاملتون الى فيبس ، ٢٣ مارس ١٩٣٨ المرجع السابق رقم ١٠٧ •

للسفير الفرنسى : « ان الفرنسيين ربما كانوا ميالين الى تقدير قيمة التصريحات القوية بشكل أكبر منا » (١) • لقد رفض الانجليز من قبل أحد تلك التصريحات • وفى ١٧ مارس اقترحت الحكومة السوفيتية مناقشة « داخل عصبة الأمم أو خارجها » ، لاجراءات عملية « للحفظ الجماعى للسلام » • ولم يؤمن هاليفاكس بأن لهذه الفكرة « أية قيمة كبرى » ، وأخبر السوفيت أن مؤتمرا « قد صمم بحيث يكون أقل صيانة لاتفاقيات المشاكل الكبرى منه لتنظيم عمل متفق عليه ضد العدوان ••• لن يكون له بالضرورة تأثير مستساغ على مطامح السلام الأوربى » (٢) •

كان الفرنسيون بطبيعة الحال يكرهون أن يدفعوا على التصميم على شيء بطريقة أو بأخرى • وفى ١٥ مارس ناقشت « اللجنة الفرنسية للدفاع الوطنى » مسألة المساعدة لتشيكوسلوفاكيا • وأجاب جاملين Gamelin : ان الفرنسيين يستطيعون أن « يعوقوا » بعض القوات الألمانية ولا يستطيعون اختراق خط سيجفريد Sieg Fried (الذى لم يكن فى الحقيقة موجودا فى هذا الحين) ومن ثم فان الطريقة الوحيدة الفعالة لمهاجمة ألمانيا كانت عبر بلجيكا ، ولضمان الاذن بذلك ، فان التأييد الدبلوماسى الانجليزى كان ضروريا (٣) كانت تلك هى مغالطته المعتادة • فلقد سأل الساسة سؤالا عسكريا ، وكان جاملين فى رده ، دبلوماسيا • وحاول بول بونكور Paul Boncour وزير الخارجية أن يسلك هذا الطريق القوى بالقدر الذى كان يعنى الدبلوماسية • وأخبر فيبس السفير الانجليزى فى ٢٤ مارس أن « تحذيرا محددا لألمانيا من الدولتين (بريطانيا وفرنسا) ••• سوف يكون أفضل الوسائل لتجنب الحرب ••• أن الزمن لم يكن فى جانبنا ، لأن ألمانيا ••• كانت تزداد قوة أكثر فأكثر ، لأن فى استطاعتها فى النهاية أن تنال الزعامة الكاملة على أوربا » (٤) • ولم يجب الانجليز على تلك الملاحظات التى سمعوها مرارا من قبل • ولم يكونوا كذلك فى حاجة الى الرد • كانت أيام بول بونكور معدودة • ففى ١٠ أبريل أقيلت حكومة ليون بلوم التى بقيت فى الحكم أقل من شهر • وفكر دلادييه رئيس الوزراء التالى ، أولا فى الابقاء

---

(١) من هاملتون الى فيبس ، المرجع السابق ، رقم ١٠٩ •

(٢) من هاليفاكس الى مايسكى ، ٢٤ مارس ١٩٣٨ ، المرجع السابق ، رقم ١١٦

(٣) جاملين ، سرفير Serfir ثانيا ، ص ٣٢٤ •

(٤) من فيبس الى هاليفاكس ، ٢٤ مارس ١٩٣٨ : السياسة الخارجية الانجليزية ، المجموعة الثالثة ، ١ ، رقم ١١٢ •

على بول ــ بونكور . ثم انزعج بعد ذلك من الحديث عن اتخاذ موقف حازم الآن بأكثر من الانزعاج من القتال فيما بعد في ظروف سيئة . وتحدث دلادييه مع بول بونكور تليفونيا : « ان السياسة التى تزكيها طيبة وجديرة بفرنسا . ولكننى لا أعتقد أننا فى وضع يسمح باتباعها . اننى سآخذ جورج بونيه(١) » واستمر دلادييه كرئيس للوزراء حتى ابريل سنة ١٩٤٠ ، واستمر بونيه كوزير للخارجية حتى سبتمبر سنة ١٩٣٩ وقدر لهذين الرجلين أن يقودا فرنسا نحو الحرب العالمية الثانية .

كانت زمالة غير مريحة . كان دلادييه راديكاليا من الطراز القديم ، طموحا للاحتفاظ بشرف فرنسا ، ومقتنعا بأن سياسة حازمة يمكنها وحدها أن توقف هتلر ، ولكنه كان فى حيرة فى كيفية عمل هذا . لقد خدم فى الخنادق خلال الحرب العالمية الأولى ، وانه ليرتعد خوفا من مجزرة بشرية جديدة . وكان فى كل مناسبة يتحدث فى حسم ضد التهدئة ، ثم يذعن لها بعد ذلك . وكان بونيه فى الجانب الآخر مؤمنا ايمانا شخصيا بالتهدئة ، مستعدا لدفع أى ثمن حتى يظل هتلر ساكنا . كان يعتقد أن أعمدة القوة الفرنسية قد انهارت ، وكان هدفه الرئيسى أن يلقى بلوم النتائج على الآخرين ــ الانجليز والتشيك ، والبولنديين والروس ، ولم يكن يهتم بأى منهم طالما أن سجله وسجل فرنسا يبدو نظيفا على الورق . ان أيا من دلادييه أو بونيه لم يفكر للحظة واحدة مطلقا فى أن يبادر بالعمل بأمل أن يتبعه الانجليز والآخرون . وكانا بالأحرى يتطلعان فى استعطاف نحو لندن عساها تحدث تحولا يساعدهما على الخروج من موقفهما العسير .

وفى لندن أيضا ، كانت الزمالة بين تشمبرلن وهاليفاكس ليست سهلة بأية حال . كان لتشمبرلن أقوى شخصية بين الرجال الأربعة الذين يقررون سياسة انجلترا وفرنسا . ولم يؤثر التهيب من قوة انجلترا أو الشك فيها من تقديراته ، بالرغم من أنه كانت لديه كراهية طبيعية للحرب . كان يعتقد أن هتلر يمكن اكتسابه لجانب السلام ،وأعتقد كذلك أن هتلر يمكن اقناعه طالما أن تشيكوسلوفاكيا هى المعنية بذلك . ومن ثم فانه كان مصمما على أن يعمل على أساس من هذين الاعتقادين ، مهما كانت المعارضة داخليا أو خارجيا . انه غالبا ما يرمى بالجهل فى المسائل الخارجية . ولكن كانت آراؤه تلقى مشاركة من أولئك المفترض أنهم أكثر القادرين على الحكم . وكان فيفيل

(١) بول بونكور : «خلال حربين» ، الجزء الثالث ، ص ١٠١ .

هندرسون ، السفير فى برلين ، واثقا بالقدر نفسه بأن هتلر ممكن اكتسابه لجانب السلام،ولقد اختير للمنصب بواسطة فانسيتارت باعتباره أفضل الديبلوماسيين الانجليز الموجودين (١) وأصر كل من هندرسون فى برلين ونيوتن فى براغ على أن مطالب السوديت كانت منطقية وأن الحكومة التشيكوسلوفاكية لم تكن تقوم بأية محاولة حقيقية للاستجابة لها • وركز فيبس فى باريس على الضعف الفرنسى وربما بالغ فيه • وكره بعض أعضاء وزارة الخارجية سياسة تشمبرلن • ولكنهم كانوا الى حد كبير فى مثل وضع دلادييه : فعلى الرغم من أنهم كانوا يكرهون السياسة ، فان أحدا منهم لم يستطع أن يقترح بديلا • لقد أسفوا لأن بريطانيا وفرنسا لم تقوما بعمل ضد اعادة الاحتلال الألمانى للرين ؛ واعتقدوا أن هتلر كان يجب « أن يضرب على أم رأسه » • ولكن لم تكن لديهم أية فكرة عن كيفية اجراء هذه العملية • ولم يأمل أحد منهم فى الولايات المتحدة • كما لم يدافع أى منهم عن التحالف مع روسيا السوفييتية ، وكان تشيلستون السفير فى موسكو ، أقلهم جميعا • فقد كتب على سبيل المثال فى ١٩ أبريل : ان الجيش الأحمر ، بالرغم من أنه كفء بلا شك لحرب دفاعية داخل حدود الاتحاد السوفيتى ، غير قادر على حمل الحرب داخل اقليم العدو ••• انني شخصيا أعتبر أنه من الأشياء البعيدة الاحتمال للغاية أن تعلن الحكومة السوفيتية الحرب لا لشىء الا لتوفى التزامات معاهدتها أو حتى لتتعجل من ضربة للهيبة السوفيتية أو تهديدا غير مباشر للأمن السوفيتى • ان الاتحاد السوفيتي لابد أن يعتبر خارج السياسات الأوربية » (٢) لقد قبلت وجهات النظر هذه تماما من وزارة الخارجية • وكان على تشمبرلن أن يبتكر سياسة حيث لم تكن هناك سياسة من قبل •

انه لمن الصعب القول عما اذا كان هاليفاكس متفقا مع تلك السياسة ، وسيظل الأكثر صعوبة اكتشاف سياسة خاصة به • كان خصبا فى مواقف النفى • كان فيه ازدراء للساسة الفرنسيين ، وخاصة بونيه ، كان يبدو وكأنه مرتاب فى روسيا السوفييتية والولايات المتحدة• ولم يكن فيه تجاوب مع التشيك ، غير صبور الى حد كبير مع بينز • أكان

---

(١) كان فانسيتارت غالبا مايقول هذا بنفسه فى مرح • وليس هناك أساس للاعتقاد بأن تشمبرلن اختار هندرسون كأداة تهدئة •

(٢) من تشيلستون الى هاليفاكس ، ١٩ ابريل سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجوعة الثالثة « ١ » ص ١٤٨ "

لديه أى ثقة أكبر فى التهدئة ؟ من الواضح أن زيارته لبرختسجادن قد ملأته نفورا دائما من هتلر ، ولكن هاليفاكس أمضى كثيرا من حياته بين أناس لا يحبهم . ان حاكما استطاع أن يرحب (بجاندى) فى قصره غير قابل لأن يتأثر بأحاسيس شخصية . وكان موضوع سياسته، وذلك بالقدر الذى كانت له فيه سياسة أن يكسب الوقت ـ وان كان هذا بلا فكرة واضحة عن كيفية الانتفاع به . كان شغله الشاغل ، مثل بونيه ، الابقاء على سجله نظيفا . ونجح ، حيث فشل بونيه . كان هاليفاكس مخلصا ثابت الاخلاص لتشمبرلن . وأخذ هذا الاخلاص صورة السماح لتشمبرلن بتحمل كل المسئولية ، التى كان شغوفا بتحملها . ومع ذلك فمن حين لآخر كان هاليفاكس يعطى دفعة فى الاتجاه المضاد ، وكانت هذه الدفعة أحيانا ذات تأثير فى اللحظة الحاسمة . وهكذا كان الرجال الأربعة، فيما بينهم ، يقررون أقدار الحضارة الغربية .

لقد اضطلع الرجال الأربعة بهذه المهمة مضطرين . ولو أنهم عرفوا فقط كيف يديرون ظهورهم الى أوربا الوسطى لما ترددوا فى ذلك . وفى أوائل ابريل بدأ بينز تدبير التنازلات التى يمكن تقديمها الى السوديت الألمان . كان هدفه أن يكسب تأييد بريطانيا ، فاذا ما بدت تنازلاته معقولة بالنسبة للانجليز ، سألهم الا يزكوها لبرلين ؟ وتملص الانجليز أنهم لن يقوموا بأية التزامات لتشيكوسلوفاكيا . بل لقد بلغ بهم الأمر حد التدليل بأنهم ان لم يقولوا شيئا لبرلين فربما لا يتنبه هتلر لتشيكوسلوفاكيا بعد هذا كله . ولقد نوقش بونيه كذلك لكى يفكر فى الأمر . وزار نويل سفير فرنسا فى وارسو وفى براج من قبل ، تشيكوسلوفاكيا ، وجاء الى باريس ومعه توصياته . وأشار الى أن لا التحالف الفرنسى مع بولندا أو مع تشيكوسلوفاكيا لم يزل بتقاليد عسكرية مرعية . انهما مرتبطان بالضمانات المسجلة على الورق فى عصبة الأمم ، وليس فى الاستطاعة الآن ترجمتهما الى حقيقة . وقال لبونيه : « اننا نتجه الى الحرب أو التسليم بشروط » ، وكانت وجهة نظره أنه يتحتم ابلاغ بينز أن أمامه فسحة من الوقت حتى بداية يوليو لارضاء السوديت ، وبعد هذا الوقت ، يجب الا يعتمد على المساعدة الفرنسية (١) ، وكان القرار فوق طاقة بونيه : لم يكن فى استطاعته أن يصمم حتى على الاذعان . واقترح بدلا من هذا تحويل القرار الى

(١) نويل ، المدوان الالمانى Allemande ص ١٩٨ ـ ٢٠٢ .

الانجليز : يجب أن يطلب اليهم أن يقفوا بحزم وعلنا لشد أزر تشيكوسلوفاكيا • واذا ما رفضوا ؟ ولم يحر بونيه جوابا •

وفى ٢٨ أبريل جاء دلادييه وبونيه الى لندن لحضور مؤتمر يستغرق يومين مع الوزراء الانجليز • وأميط اللثام بوضوح عن نمط السياسة • وركز الانجليز على التزامهم ازاء فرنسا فى ظل ضمان مارس سنة ١٩٣٦ ، وان ركزوا بشكل أكبر على ألا يتعدى ذلك امكانياتهم المحدودة كوعد جدى • لقد بلغ بهم الأمر حدا يجعل فى غير استطاعتهم أن يعدوا فرقتين مخصصتين لحرب فى القارة ، وانهم لن يوافقوا على محادثات بحرية خشية الاساءة الى ايطاليا • وقال تشمبرلن ان الرأى العام فى بريطانيا لن يسمح للحكومة بأن تخاطر بالحرب ، حتى وان بلغت نسبة الفرص ضد الحرب ١٠٠ الى ١ • وعدد هو وهاليفاكس الأدلة ضد الحرب ،وكانت مثل تلك البراهين سهلة الوجود دائما • ان انجلترا وفرنسا لاتستطيعان انقاذ تشيكوسلوفاكيا ، حتى اذا ما استطاعتا الدفاع عن نفسيهما • وكان هذا ، أيضا مشكوكا فيه • وكانت روسيا عديمة الجدوى ، وبولندا « لا يمكن التأكد منها » وقال تشمبرلن : « اذا قررت ألمانيا بالفعل أن تحطم تشيكوسلوفاكيا ، فاننى لا أرى كيف يمكن منع هذا » • وأثار عندئذ ملاحظة مملوءة بالأمل • ان الناس يعتقدون دائما ما يرغبون فى الاعتقاد فيه ، وكان تشمبرلن مستعدا للاعتقاد بأن هتلر سوف يكون راضيا اذا ما أجيبت مطالب السوديت الألمان • وعلى ذلك فانه اذا ما ضغطت بريطانيا وفرنسا على بينز للاذعان ، فان كل شىء سيسير على ما يرام •

ولم تجتذب احدى تلك التدليلات دلادييه • ان الحرب يمكن فقط تجنبها اذا ما صممت بريطانيا وفرنسا بشكل صريح على الابقاء على سلام أوربا باحترام حريات وحقوق الشعوب المستقلة ••• واذا ما عدنا مرة أخرى للتسليم عندما نواجه تهديدا آخر ، فاننا نكون عندئذ قد أعددنا الطريق للحرب نفسها التى كنا نرغب فى تجنبها • وكان دلادييه كذلك يعتقد فيما يريد أن يؤمن به : « ان السياسة الألمانية من نوع سياسة الخداع ••• اننا لا نزال حتى وقتنا هذا قادرين على وضع العراقيل فى سبيلها » • وكان الفرنسيون مستعدين أيضا لفرض التنازلات على بينز، ولكن كان يجب على الانجليز أن يوافقوا على الوقوف بجانب تشيكوسلوفاكيا اذا ما فشلت تلك التنازلات فى ارضاء هتلر • ورفض الانجليز • وتبع ذلك الفشل • كان جلوسهما الى الغداء على مائدة واحدة أمرا « كئيبا

للغاية » • وبعد ذلك سلم الفرنسيون • ولم يكن دلادييه مستعدا لأن يعمل على أساس اعتقاده : كان لا يمكن أن يسمح لبريطانيا واوربا بتولى زمام القيادة • وكان تشمبرلن مستعدا لأن يعمل على أساس اعتقاده : أن تنازلات من تشيكوسلوفاكيا سوف تمنع الحرب ـ ومما لا شك فيه أنه لم يضع فى اعتباره قيمة تلك التنازلات • ان « لا » أقوى دائما من « نعم » ، ورفض العمل سوف يؤدى الى مجىء يوم ضد العمل المؤدى بنصف ايمان • ودبرت تسوية توافق نظرة بريطانيا فعلا • لابد لكل من بريطانيا وفرنسا أن يحثا التشيك على قبول تنازلات • ولابد أن تحث بريطانيا هتلر على أن يكون متأنيا • واذا ما فشلت تلك التنازلات فان على بريطانيا عندئذ أن تحذر الحكومة الألمانية « من الأخطار التى كانوا يدركونها بمعنى أن الفرنسيين قد يدفعون للتدخل ... ولن تستطيع حكومة صاحب الجلالة أن تضمن أنها لن تفعل المثل » (١) •

وهكذا فى نهاية أبريل سنة ١٩٣٨ توقفت مشكلة الألمان فى تشيكوسلوفاكيا عن أن تكون نزاعا بين السوديت الألمان والحكومة التشيكوسلوفاكية ، وتوقفت عن أن تكون ـ أو أنها بمعنى أصح لم تعد كذلك ـ نزاعا بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا • وتقدمت الحكومتان الانجليزية والفرنسية الصفوف كدول أساسية ، وكانت مهمتهما مهما بدت خفية ، فرض التنازلات على التشيك وليس ردع ألمانيا • وجاء الضغط أساسا من الانجليز • أما الفرنسيون ـ المتحالفون نظريا مع تشيكوسلوفاكيا فقد تواروا عاجزين الى الوراء • وقلب هذا التطور الخطط التى كان بينز قد وضعها • كان خلال أبريل يضع اقتراحات لقادة السوديت ، آملا أن يدفعهم الى رفضها رفضا قاطعا • ونجح • وفى ٢٤ أبريل طالب هنلين فى خطاب له فى كارلسباد بتحويل تشيكوسلوفاكيا الى « دولة قوميات » ، مع حرية تامة للدعاية الاشتراكية الوطنية ، و ـ الأكثر من هذا ـ تغيير فى سياسة تشيكوسلوفاكيا الخارجية بحيث يجعلها تابعة لألمانيا • وكان واضحا لبينز ، وبالنسبة لهذا الأمر ، لنيوتن أيضا (٢) ، أن تشيكوسلوفاكيا سينتهى وجودها كدولة مستقلة اذا ما أجيبت مطالب السوديت • ومع ذلك فان الاستنتاج لم يكن له تأثير ظاهرى على الحكومتين الانجليزية والفرنسية : واستمرا فى المطالبة بأنه يجب على بينز أن ينتحر لكى يوفر لهما هدوءهما الفكرى الخاص •

(١) تذييل المحادثات الانجليزية ـ الفرنسية ، ٢٨ ، ٢٩ ابريل سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية . المجموعة الثالثة «١» رقم ١٦٤ .

(٢) من نيوتن الى هاليفاكس ، ١٦ مايو ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية . الجزء الثالث ، « ١ » رقم ٢٢١ .

ولم يدفع الانجليز والفرنسيون التشيك فقط الى مناقشة التنازلات وانما دفع الانجليز هتلر أيضا الى التقدم بمطالب ، وأخذوه على غرة ، كانت الحوادث تتحرك أسرع ، واكثر توفيقا عما كان يأمل ، وان لم تكن وفقا لتوقعاته تماما • لم تبد فى الأفق اشارة على حدوث حرب فى البحر الأبيض المتوسط بين فرنسا وايطاليا • والاتفاق الانجليزى الايطالى الذى الح تشمبرلن فيه على ايدن كان قد وقع فعلا فى ١٦ أبريل ، وحسن العلاقات بين الدولتين كما حسنه ضمنا بين فرنسا وايطاليا أيضا • ولقد اعتبر هتلر زيارته لروما فى أوائل مايو شيئا جديا باعتبارها دليلا على أن المحور لا يزال حيا • وفى أثنائها وصلت الأخبار اليه بأنه فى حاجة ماسة لشريكته ايطاليا : وكان الانجليز طموحين لأن يعتبروا فى جانبه • وكانت التأكيدات الانجليزية قاطعة • وقال هندرسون : « أن فرنسا كانت تعمل لصالح التشيك وألمانيا لصالح السوديت الألمان • وكانت بريطانيا تعضد ألمانيا فى هذه القضية » (١) وعلى مائدة الغداء أخبر كيرك باتريك Kirk Patrick، المسئول الثانى بعد هندرسون أحد المسئولين الألمانيين : « اذا ما نصحت الحكومة الألمانية الحكومة الانجليزية بأمانة عن حل مسألة السوديت الألمان التى تجاهد فى سبيله ••• فان الحكومة الانجليزية سوف تحمل هذا العبء الى براغ حتى تضطر الحكومة التشيكوسلوفاكية الى قبول المطالب الألمانية » (٢) وعنف هاليفاكس ممثليه على التمادى حتى هذا الحد • على أنه لم يكن هو نفسه متفاهما • فلقد أخبر السفير الألمانى « بانفعال واضح » : « ان أفضل ما هو ممكن أن تستطيع الدول الثلاث المتقاربة ، ألمانيا ، بريطانيا ، الولايات المتحدة ، أن تتحد فى عمل مترابط من أجل السلام » (٣) • ولم يكن هتلر متعجلا • فكلما تأخرت المسألة وسيطر على التوتر كلما ساعد ذلك على أن تؤدى الدول الغربية ما يريد أن يفعله : حتى أنه ليمكن أن تقسم تشيكوسلوفاكيا دون مجهود من الجانب الألمانى • وعلى هذا الأساس بعث هنلين Henlein الى لندن حيث استعرض سلوكه الوفاقى • وطالب بأن يعمل دون توجيه من برلين ، كما أقنع تقريبا أولئك المراقبين القساة من أمثال تشرشل

---

(١) من ويرمان الى ريبنتروب ، ٧ مايو سنة ١٩٣٨ • سياسة ألمانيا الخارجية ، المجموعة د ، ثانيا ، رقم ١٤٩ •

(٢) مذكرات بسمارك ، ١٠ مايو سنة ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ١٥١ •

(٣) من كوردت الى ريبنتروب ، ٢٩ ابريل سنة ١٩٣٨ المرجع السابق رقم ١٣٩

وفانسيتارت باخلاصه ، وحتى مع ذلك كان لا يزال هناك ما يثير مزيدا من الدهشة عن سر تحفظ هتلر ، والدليل عليه ، ففى ٢٠ مايو عرض القائد العام ، فى نصائحه ، خطة مبدئية لعمليات ضد تشيكوسلوفاكيا • كانت تبدأ بتلك الكلمات المحددة : «ان هدفى ليس تحطيم تشيكوسلوفاكيا بعمل عسكرى فى المستقبل القريب دون اثارة » ، وتتالت هنا المضاربات القديمة القائمة آنذاك عن الحرب بين ايطاليا والدول الغربية (١) •

كانت هناك دولة مهتمة بالمسالة التشيكوسلوفاكية بالرغم من أن الجميع بما فيهم التشيك حاولوا أن يتظاهروا بأن تلك لم تكن القضية • كانت تلك الدولة هى روسيا السوفييتية ، المتحالفة بطريقة محدودة مع تشيكوسلوفاكيا ، والتى كانت مضطرة لأن تتأثر بعمق اذا ما تغير ميزان القوى الأوربى • ولم تعترف الحكومتان الانجليزية والفرنسية بروسيا السوفيتية الا لتؤكد فقط ضعفها العسكرى ، وكانت وجهة النظر تلك بالرغم من أنها اعتمدت بلا أدنى شك على مخابراتهما ، الا أنها كانت تمثل أيضا رغبتهما • كانتا تريدان أن تطردا روسيا السوفييتية من أوربا ، وعلى هذا كانتا على استعداد لافتراض أنها كذلك بفعل الظروف • هل أتيح لرغباتهما أن تمتد الى ما هو أبعد من ذولك ؟ هل خططنا من أجل استقرار أوربا ليس فحسب بدون روسيا السوفييتية ولكن أيضا ضدها؟ أكان هدفهما هو أن تحطم المانيا النازيه « التهديد البلشيفيكى » ؟ كان هذا هو الشك السوفييتى فى كل من هذا الوقت وما بعده • وليس هناك من الشواهد على ذلك فى السجلات الرسمية أو حتى خارجها • كان الساسة الانجليز والفرنسيون غارقين لآذانهم فى المشكلة الألمانية لدرجة أهملوا معها تقدير ما يمكن حدوثه عندما تصبح ألمانيا الدولة المسيطرة فى أوربا الغربية • كانوا بطبيعة الحال يفضلون أن تتجه ألمانيا الى الشرق وليس الى الغرب اذا ما اتجهت أصلا • ولكن كان هدفهم هو منع الحرب، وليس التجهيز لواحدة ، واعتقدوا باخلاص ـ أو بمعنى أصح اعتقد تشمبرلن ـ أن هتلر سيكون سعيدا ومطمئنا اذا ما أجيبت مطالبه •

كانت السياسة السوفييتية لغزا أمام الساسة الغربيين ، ولازالت كذلك بالنسبة لنا • كان الموقف السوفييتى منيعا على الورق • كان السوفييت بموجب شروط حلفهم مع تشيكوسلوفاكيا يستطيعون بحزم تأكيد استعداداتهم للعمل ، ولكن فقط اذا ما قامت فرنسا بذلك أولا ،

---

(١) مسو للبيتيل ٢٠ مايو سنه ١٩٣٨ : المرجع السابق رقم ١٧٥ •

وطالما أن فرنسا لم تقم بعمل أبدا ، فان خدعتهم ـ اذا ما كانت خدعة ـ لم تكشف أبدا • ومن الواضح أنه كان من مصلحتهم أن يقووا مقاومة تشيكوسلوفاكيا ، سواء أكانوا يعنون تأييدها أم لا يعنون • أما ماذا كانوا سيفعلون اذا ما تطلب الموقف العمل فهذا سؤال افتراضي لا يمكن الاجابة عليه أبدا • ولابد لنا أن نكون راضين بتسجيل الأعمال السوفييتية طالما أنه في الامكان التحقق من ذلك • في ربيع سنة ١٩٣٨ بدأت الحكومة السوفييتية فى قطع مساعدتها الى الجمهورية الأسبانية • وبعد ذلك أوقفتها كلية • ولقد أبدى المفسرون المهرة رأيا بأن هذا كان بادرة لارتباطات طيبة مع هتلر ، ولكنه كان يرغب فى أن تستمر الحرب الأهلية الأسبانية ، ومن ثم لم يكن متأثرا بالمساعدة السوفييتية للجمهورية ـ والأقرب الى الظن أنه كان يفضل أن تستمر • ان تفسيرا أكثر بساطة يمكن أن يوجد في الحوادث في الشرق الأقصى ، حيث اليابان مشغولة الآن بهجوم كامل على الصين ، وقد تحتاج الحكومة السوفييتية الى كل أسلحتها للدفاع عن نفسها • واذا ما كان لديهم أية فكرة عن أوربا فان وضع حد للتدخل السوفييتي فى أسبانيا كان سيجعل اقامة علاقات طيبة مع بريطانيا وفرنسا أكثر سهولة • وقدر لهذا الأمل أن يخيب ••

كان التأييد السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا مبهما على الورق • وفى ٢٣ أبريل ناقش ستالين Stalin القضية مع رفاقه الرئيسيين • وقيل للتشيك « اذا ما استلزم الأمر ، فان اتحاد الجمهوريات السوفييتية مستعد ـ بالاتفاق مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ـ الى اتخاذ كل الخطوات الضرورية لضمان سلامة تشيكوسلوفاكيا » • وعليها أن تدبر كل الوسائل الضرورية لعمل هذا •••• ان فورشيلوف (رئيس هيئة أركان الحرب) متفائل للغاية (١) • وفى ١٢ مايو أثار ليتفينوف مستشار وزارة الخارجية المسألة التشيكية مع بونيه خلال اجتماع عصبة الأمم فى جنيف • وتساءل بونيه كيف تستطيع روسيا السوفييتية مساعدة تشيكوسلوفاكيا في ضوء رفض البولنديين والرومانيين بالسماح بمرور القوات السوفييتية • أجاب ليتفينوف بأن على فرنسا أن تحصل على تصريح بذلك طالما أنهم حلفاؤها • ومرة أخرى فان هذا قد يكون تحايلا متعمدا• على أن الاحتمال الأكبر هو أن ليتفينوف فشل في تقدير مدى تدهور

---

(١) من فيرلينجر الى كروفتا ٢٣ ابريل سنة ١٩٣٨ الوثائق الحديثة فى تاريخ ميونيخ رقم ٧ •
(New Documents on the History of Munich).

الكرامة الفرنسية وافتراض ان فرنسا تستطيع أن تملى على حلفائها بالقدر نفسه الذى تستطيع روسيا السوفييتية أن تملى على حلفائها اذا ما كان لها حلفاء • ولم يفعل بونيه سوى أن تنهد • وهذا ، فى رأى ليتفينوف ، « ما أنهى محادثتنا » (١) •

وفى الحقيقة لم يكن جزءا من سياسة بونيه أن يجعل التدخل السوفييتى ممكنا ، وثمة دليل آخر على ذلك • ففى منتصف مايو ، جاء كولوندر ، Coulondre السفير الفرنسى فى موسكو الى باريس ، وكان أحد القلائل القادرين على حسم الأمور فى الهيئة الدبلوماسية الفرنسية • وألح كولوندر أن تدبر محادثات عسكرية فورا بين القيادات العامة السوفييتية والتشيكية والفرنسية • ووافق بونيه بطريقته الضعيفة المعتادة • ولكن عندما عاد كولوندر الى موسكو لم يحدث شيء ، ولم تصل أبدا له أية معلومات خاصة بالمحادثات من باريس • وعلم فى يوليو من زميله التشيكى أن المباحثات لن تتم خشية الاساءة الى رأى المحافظين الانجليز • ولم تحدث أية تحريات فى لندن • لقد رفض بونيه المحادثات بصفة مبدئية • وهكذا احتفظت الحكومة السوفييتية بنزاهتها الأدبية ، وأبقت الدول الغربية على ضعفها المادى •

ومع ذلك فقد كان هناك أولئك الذين كانوا يعتقدون أن هتلر سوف يتقهقر ازاء استعراض القوة ، وقد تم هذا الاستعراض لتوه • ففى ٢٠ مايو استدعى التشيكوسلوفاكيون الاحتياطيين ، ودعمت الحدود بالرجال ، وأعلنت الحكومة التشيكوسلوفاكية أن هتلر وصل الى خبر بدء هجوم خاطف ، وذلك على شاكلة ما فعل ضد النمسا كما هو مفترض ـ وأنكر الألمان هذا ، مع استعراض لكل نواحى الشرف الذى لحقه الأذى، ويؤيد فحص تقاريرهم السرية ، المستولى عليها فى نهاية الحرب أن انكارهم كان صحيحا • لم تكن أية قوات المانية قد تحركت ، كما لم تتخذ أية استعدادات للعمل • اذن ما هو تفسير هذا الحادث الغامض ؟ ليس هناك أى تفسير • من الممكن أن التشيك قد خدعوا من جراء انذار غير حقيقى ، بل انه من الممكن أن يكون بعض السوديت المتطرفين كانوا يخططون للعمل على الأسلوب النمساوى رغما عن التعليمات الصارمة بالعكس • أو ربما كان الألمان يغذون التشيك بشائعات غير حقيقية لكى يستفزوهم

---

(١) من ليتفينوف الى الكسندروفسكى ، ٢٥ مايو ١٩٣٨ ، الوثائق الحديثة رقم ١٤ •

للتحرك · ولا تبدو واحدة من هذه التفسيرات محتملة · والأكثر احتمالا أن المظاهرة التشيكية قد اتخذت لكى تنقض أسلوب التهدئة ولكن تبين أن هتلر سوف يتقهقر ازاء استعراض القوة · من الذى كان يفكر فى هذا ؟ أهم التشيك ؟ انهم بالتأكيد ليسوا الروس الذين كانوا فى دهشة كأى فرد آخر ، وثمة دليل واه يرى الحركة قد أوحى بها الأعضاء « المتعنتون » فى وزارة الخارجية البريطانية ممن كانوا يكرهون الوضع القائم والذين رفضوا على هذا الأساس أن يصدقوا انكارات هندرسون بالرغم من أنها كانت صحيحة (١) ·

وعلى كل فقد تلقى هتلر « صفعة حادة » · كانت السياسة تعمل من أجل كسب المظهر الخارجى · وأصبح الألمان على اساءة فهم نواياهم السلمية ، وارتفعت معنويات التشيك · وكان التأثير الحقيقى فى جهة أخرى · فلقد دفعت كل من الحكومتين الانجليزية والفرنسية الى الاقتراب من حافة الفزع فى صورة الحرب · وأخبر هاليفاكس السفير الفرنسى أن بريطانيا سوف تؤيد فرنسا فقط فى حالة عدوان لا استفزاز فيه (٢) ولم يخبر بونيه فيبس وحده وانما السير الألمانى كذلك بأن « تشيكوسلوفاكيا اذا ماكانت غير معقولة حقيقة ، فان الحكومة الفرنسية سوف تعلن فى وضوح أن فرنسا فى حل من ارتباطها » (٣) · وأرسل سترانج « من وزارة الخارجية » الى براغ وبرلين ليتسقط آراء ممثلى انجلترا حول هذه النقطة · وعاد بتوصيات محددة · لابد لتشيكوسلوفاكيا من نبذ محالفتها القائمة وأن تصير دولة تابعة ، لألمانيا ، ولابد أن تمنح مناطق السوديت الحكم الذاتى أو قد يصل بها الأمر حد الاندماج فى ألمانيا · ونظرا لما أبداه التشيك من عناد دائما فلابد أن تفرض هذه السياسة عليهم بالقوة بواسطة الحكومة البريطانية · ان تلك ستكون « المحاولة الجدية الأولى التى ستتحقق منذ الحرب للقبض على زمام أحد أسباب القلق الأوربى (ان لم تكن احدى دلالاته) ولتطوير تغيير سلمى فى أحد

---

(١) هناك حاشية مملوءة بالأمانى الخادعة فى الوثائق الانجليزية ، المجموعة الثالثة : « ١ » ، رقم ٥٠ : « من شواهد ميولهم أن وزارة الخارجية لم تتفق مع وجهات نظر سير · ن · هندرسون أو الملحق العسكرى فى تلك المنطقة » ، ولم يقدم أى دليل على ذلك ·

(٢) من هاليفاكس الى فيبس ، ٢٢ مايو سنة ١٩٣٨ : المرجع السابق رقم ٢٧١

(٣) من فيبس الى هاليفاكس ، ٢٣ مايو ١٩٣٨ : السياسة الخارجية البريطانية ، المجموعة الثالثة « ١ » رقم ٢٨٦ · من فيلزنج الى ريبنتروب ٢٦ مايو سنة ١٩٣٨ : السياسة الخارجية الألمانية ، الجزء د « ٢ » رقم ٢١٠ ·

مواطن الخطر فى أوربا » (١) • لقد دفعت الحركة التشيكية الانجليز الى طريق العمل ، ولكن ليس اطلاقا فى الاتجاه الذى كان فى نية التشيك •

كان لحوادث ٢١ مايو كذلك تأثير درامى على هتلر • كان حانقا على اذلاله الواضح • وأمسك بمسودة أمر العمليات العسكرية الخاصة بالعشرين من مايو التى كان كيتل قد أعدها له ، حذف الجملة الأولى – التى تستبعد العمل العسكرى ضد تشيكوسلوفاكيا وكتب بدلا منها : « أن هدفى الذى لا بديل له هو سحق تشيكوسلوفاكيا بعمل عسكرى فى المستقبل القريب » (٢) • ويبدو هنا البرهان الحاسم على أن هتلر عقد العزم على مهاجمة تشيكوسلوفاكيا ، مهما كانت الظروف • والدليل أقل حسما مما يبدو • فحتى الوثيقة التى أخذت منها الجملة اللعينة ، تستمر فى التأكيد ، بطريقة هتلر العادية ، بأن فرنسا سوف تتردد فى التدخل « نتيجة لمسلك ايطاليا الصريح فى أخذهم جانبنا » • كانت الجملة فى الحقيقة بادرة تكشف النقاب عن شعور وقتى ، فسرعان ما ارتد هتلر الى خطه القديم • وجاء فى توجيه استراتيجى عام فى ١٨ يونيو « أننى سوف أقرر فقط أن أقوم بعمل ضد تشيكوسلوفاكيا اذا ماكنت، كما فى حالة احتلال المنطقة المنزوعة السلاح ودخول النمسا ، واثقا تماما من أن فرنسا لن تتدخل وعلى ذلك لن تتدخل بريطانيا أيضا » (٣) • وبطبيعة الحال كان هتلر يعرف أن قادته يخشون الحرب مع فرنسا ، وربما يكون قد خطط على أن يقحمهم فى هذه الحرب ضد رغبتهم • لقد لعبت مباراة فى الخداع مع الجميع – مع الدول الغربية ، ومع القادة ، وحتى مع نفسه • ان هناك أسبابا راسخة للاعتقاد بأنها كانت خدعة • فلقد أقيمت استعدادات ضئيلة حتى حرب دفاعية ضد فرنسا • لقد وضع جزء صغير من سلاح الطيران الألمانى فى غرب ألمانيا « لمنع فرنسا من احراز الحرية التامة فى العمل فى الجو » (٤) ، ولم توضع الا فرقتان من الجيش على خط سيجفريد ، أضيفت اثنتان فى سبتمبر – لمواجهة القوة الفرنسية الكامنة فى أكثر من ثمانين فرقة ، وأكثر من هذا وبالرغم

---

(١) من مدونات سترانج ، ٢٦ ، ٢٧ مايو ، ٢٨ ، ٢٩ مايو سنة ١٩٣٨ : السياسة الخارجية البريطانية ، المجموعة الثالثة «١» رقمى ٣٤٩ ، ٣٥٠ •

(٢) توجيهات هتلر ، ٣٠ مايو سنة ١٩٣٨ : السياسة الألمانية الخارجية ، سلسلة د « ثانيا » رقم ٢٢١ •

(٣) توجيه استراتيجى عام ، ١٨ يونيو ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ٢٨٢ •

(٤) مقتبسة من دراسة استراتيجية سنة ١٩٣٨ ، ٢ يونيو سنة ١٩٣٨ : سياسة المانيا الخارجية ، الجزء د « ٢ » رقم ٢٣٥ •

من أن هتلر حدد أول أكتوبر لتحديد الموقف نهائيا مع القيادة العامة ، فأنه لم يجعل ذلك شيئا عاما • لقد أبقى على خط طريق الرجعة مفتوحا ، حتى وضح أن التراجع غير ضرورى •

كانت الحكومة البريطانية واثقة من أن هتلر قد حدد موقفا نهائيا ، وان لم يكونوا يعرفون ما هو • وأوحوا الى أنفسهم بالاعتقاد بأنه « لن ينتظر طويلا » وأن صبره قد نفد ، بالرغم من أن الصبر ظل السمة البارزة فى خطته فى الحياة حتى تلك اللحظة • وقرروا ، بلا استناد الى أى أساس سوى الوهم ، أن هتلر قد حدد يوم الصفر فى ١٢ سبتمبر ، وهو اليوم الأخير لاجتماع الحزب النازى فى نورمبرج ، ومنذ تلك اللحظة، كانوا كمن نوم مغناطيسيا بذلك التاريخ • وقد أراد الانجليز أن يسبقوا هتلر ، بتحديد ١٢ سبتمبر بدلا من أول أكتوبر ، ونجحوا بالمصادفة • وقبل هذا التاريخ ، كان لابد أن يجبر بينز ـ فى وجهة النظر الانجليزية ـ لكى يعرض التنازلات الحاسمة التى فى استطاعتها وحدها أن تصد هتلر عن الحرب : يجب على تشيكوسلوفاكيا أن تنبذ محالفاتها القائمة مع فرنسا وروسيا السوفييتية ، ولابد أن ينال السوديت الألمان مطالبهم مهما كان أمرها • ولكن كيف يمكن صنع هذا ؟ ـ كان بينز عنيدا ـ « صلب الرأس » بتعبير هندرسون • ولقد أوجس البريطانيون خيفة من مهمة اجباره ، وكانوا يفضلون لو أنهم ألقوا بالمسئولية على الآخرين • ولم يكن ذلك سهلا • كان من الواضح أن الروس لن يتبرءوا من حلفهم ، بل على العكس من ذلك كانوا دائما يؤكدونه بشكل يدعو الى ارتباك الجميع • وربما برهن الفرنسيون على أنهم أكثر اذعانا • وهنا أيضا أصيب الانجليز بخيبة أمل • فلقد تمهل الفرنسيون أولا ، ثم ناقشوا بعد ذلك تنازلاتهم بالنسبة لبينز ، ولكن أساسا بحجة أن ذلك قد يجعل مؤازرة الانجليز لهم أكثر احتمالا • ولقد اشتكى هاليفاكس : « ان تلك المذكرة لا تحوى أى انذار خاص بأن فرنسا لابد أن تعيد النظر فى وضع معاهدتها اذا ما كانت الحكومة التشيكوسلوفاكية غير معقولة ازاء قضية السوديت » (١) •

لم يكن هناك مهرب • فالفرنسيون لن ينفذوا حلفهم مع تشيكوسلوفاكيا ، ومن ناحية أخرى لن يتخلوا عنه • ان الضعف معد •

---

(١) من هاليفاكس الى بونت ٧ يوليو سنة ١٩٣٨ : السياسة الخارجية الانجليزية السلسلة الثالثة ، رقم ٤٧٢ •

كان الفرنسيون يجرون الانجليز معهم • وكانت بريطانيا هي الدولة الأكثر بعدا عن المسألة التشيكية ، ومع ذلك كان عليها أن تأخذ الصدارة. ولم يكن في استطاعة الانجليز أن يهاجموا محالفات تشيكوسلوفاكيا صراحة ، وعلى ذلك كان عليهم أن يأخذوا على عاتقهم « حل » مسألة السوديت — أما عن كيفية ذلك فلم يكن هذا يعني كثيرا طالما أن الحرب ممكن منعها • وتعلق الفرنسيون بهذه الفكرة ، فلقد طرحت المسئولية في هدوء من فوق أكتافهم • وكان التشيك أكثر ترددا • كان بينز يهدف الى تصوير المسألة على أنها صراع بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا ، في حين جعلها الاقتراح الانجليزى صراعا بين السوديت الألمان وبين الحكومة التشيكوسلوفاكية • ومرة أخرى كشف السراب عن مساندة الانجليز • وكتب هاليفاكس « اذا ما كان على الحكومة التشيكوسلوفاكية أن تهيىء نفسها لطلب مساعدتنا في هذا الأمر ، فان هذا سوف يتمخض بلا شك عن تأثير مستساغ على الرأى العام هنا » (١) • ومرة أخرى انهار بينز • لقد برهن التعضيد البريطاني على صعوبة اكتسابه أكثر مما كان يأمل ، ولكنه كان لا يزال يفترض أنه ، ببعض الحكمة والتوفيق سيتأتى في النهاية • وفي ٢٦ يوليو كان في استطاعة تشمبرلن أن يعلن في مجلس العموم أن لورد رونسمان سيتوجه الى براغ كوسيط « واستجابة لدعوة من الحكومة التشيكوسلوفاكية » • كانت الدعوة أصعب من « خلع ضرس » • كان رونسمان رئيسا سابقا لهيئة التجارة ، واختير ظاهريا لمهارته المفترضة في فض المنازعات الصناعية ، ولكن ربما لجهله بالمواضيع الراهنة • وباعتباره ذات مرة ليبراليا متحمسا للتجارة الحرة ، ثم أخيرا « قوميا حرا » يطالب بالحماية ، فقد كان من المستطاع الاعتماد عليه في ايجاد حل « ناعم » وذهب الى براغ بصفته الشخصية وليس ممثلا لحكومته • وكان نص كلماته الى هاليفاكس « لقد وضعتني في التيار في قارب صغير وسط الأطلنطى » • وكشفت العبارة عن أصل رونسمان باعتباره صاحب سفينة : كان في الحقيقة في طريقه الى دولة مغلقة في وسط أوربا •

تثير مهمة رونسمان اهتماما كئيبا عند المؤرخين • كانت آخر كل المحاولات التي استمرت ما يقرب من قرن ، لتدبير « حل » للروابط بين الألمان والتشيكيين في بوهيميا Bohemia ولاكتشاف أن هذا الحل فيه اتفاق يستطيع الشعبان في ظله أن يعيشا في رضاء قل أو كثر معا

(١) من هاليفاكس الى نيوتن ، ١٨ يوليو ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ٥٠٨ .

في الدولة نفسها • ومثل هذا الحل لم يوجد من قبل ، بالرغم من أن كثيرا من الرجال الأبرع اقتدارا فى السياسة والادراك من رونسمان قد بحثوا عنه ، كما أنه لم يوجد فى ذلك الحين • وعندما ذهب رونسمان ، كانت الحكومة الانجليزية — وهو أيضا معها — ما زالت تفترض أن هناك حلا ينتظر الكشف عنه • وكانت الحكومة التشيكوسلوفاكية وقد وضح أنها تطلب رونسمان ، ملزمة بقبول نصيحته • وعلى ذلك اقتصرت مهمته على البحث عما قد يرضى السوديت الألمان ، وكان على التشيك أن يوافقوا على ذلك • ولم تفلح هذه الخطة • كان قادة السوديت وقد أخلصوا لتعليماتهم التى تلقوها من هتلر، يحتفظون دائما بمطلب فى المقدمة ، وخدعوا رونسمان بالأمانى الكاذبة كما فعلوا مع بينز • وتلا ذلك ما هو أسوأ • ومهما كانت عيوب بينز الأخرى فقد كان مفاوضا لا يبارى ، وسرعان ما استحوذ النبوغ الذى كان ندا للويد جورج فى سنة ١٩١٩ على رونسمان فى سنة ١٩٣٨ • لقد أرسل رونسمان الى الخارج ليستخلصوا التنازلات من بينز، أو ليكشف بدلا من ذلك عن عناد التشيك • انه اذا ما نجح فى الأولى ، فان الأزمة سوف يمكن تجنبها ، فاذا ما نجح فى الثانية فانه يمكن فضح بينز ، ويمكن دحض تشيكوسلوفاكيا ، وبذلك يمكن انقاذ شرف الدول الغربية • وبدلا من هذا تردى رونسمان فى شباك مناورة جعلته فى وضع كان عليه فيه أن يوافق على العروض التشيكية باعتبارها معقولة ، وأن يدين عناد السوديت وليس عناد بينز • وظهرت فى الأفق نتيجة مدهشة لم تبد قط من قبل : ان بينز اذا ما فعل كل ماطلبه رونسمان وأكثر ، فان بريطانيا سوف تلتزم أدبيا بتأييد تشيكوسلوفاكيا فى الأزمات التالية • ولتفادى هذه النتيجة ، كان على رونسمان — وهو أبعد ما يكون عن الاستمرار فى مناقشة بينز — أن ينصح بالتريث • ولم يسمح له بينز بالهرب • ففى ٤ سبتمبر استدعى بينز قادة السوديت ، وطلب اليهم أن يملوا شروطهم ، وعندما ترددوا فى يأس ، كتبها لهم بنفسه • وتلقى السوديت وعدا رسميا بكل ما كانوا قد طالبوا به • والذى لا شك فيه ان بينز لم يسلم بذلك الا عندما علم بأنها ستقابل بالرفض • ولكنه كسب بالتأكيد الارتباط الديبلوماسى • وكان على رونسمان أن يعترف بأنه ليس هناك مآرب فى شروطه المقترحة ، وذلك عندما وافق التشيك من قبل على كل شيء قد يقترحه • بل ان قادة السوديت كانوا فى حيرة عن كيفية رفض عرض بينز • واستمتع الرئيس بينز بآخر نصر فى المهارة الديبلوماسية •

ولم يؤثر هذا النصر الأدبي في اصطدام القوى • كان ذا أهمية حاسمة تماما • في بداية سنة ١٩٣٨ تعاطف كثيرون من أفراد الشعب الانجليزي مع الأحزان الألمانية ، مهما كانت شدة كرههم لطريقة هتلر في المجاهرة بها • كانت قضية السوديت الألمان عادلة : لم يكن لهم المساواة الوطنية ، أو ما يشابهها • وفي سبتمبر وبفضل بينز انفلت عن هذه القضية قاعها • واستمر القليلون على اعتقادهم بأن السوديت يرزحون تحت ظلم حقيقي ، وكان السوديت أنفسهم لا يكادون يصدقونها• ولم يعد هتلر بعد محررا مثاليا لأتباعه الوطنيين ، وتبدى بدلا من ذلك غازيا مستهترا ميالا الى الحرب والسيطرة • كانت « التهدئة » في الأصل محاولة ذهنية سامية لمعالجة منصفة للمظالم•وبنشوب الصراع بين بينز وبين السوديت بدا كما لو أن الانسان المغلوب على أمره قد أذعن أمام قوة أكبر كان -لايمكن تفاديها• لقد تساءل الانجليز في أول الأمر « هل المطالب الألمانية لها ما يبررها ؟ » وقد بدءوا الآن يسألون : «أنحن الآن على قدر من القوة تكفي لمقاومة هتلر ؟ » وقد ساعد رونسمان ، وان كان ذلك عكس ما يهدف اليه الى حد كبير ، في افساح الطريق أمام الحرب العالمية• كان همه الوحيد آنذاك بعد أن أدرك مناورة بينز هو أن يثقب سفينته ويرحل بها الى بلده • ولقد جالت بعثة رونسمان حول براغ لأيام قليلة أخرى ، ثم عاد الى لندن دون ايجاد أية خطة « لحل » مشكلة السوديت •

وبعدئذ ، وبعد رحلة تشمبرلن الى برختسجادن ، كتب رونسمان تقريرا من املاء وزارة الخارجية ، ولم يكن غير الموافقة على خطة تقسيم تشيكوسلوفاكيا التي كان قد تم الاتفاق عليها بالفعل بين تشمبرلن وهتلر • ولم يعر ذلك أحد التفاتا ، ولم يفترض أحد أن له أية قيمة • كانت صدى من الماضي الذي كان قد مات •

فشلت السياسة البريطانية في تجنب الأزمة • وكان ١٢ سبتمبر يقترب ، ولم تعد المسألة محصورة بين الحكومة التشيكوسلوفاكية والسوديت الألمان ، وانما أضحت مشكلة للدول الكبرى • كانت سياستهم لا زالت غير محددة • وظل هتلر سيد التأني ، رافضا أن يمد يده ، ومن المحتمل أن يكون هو نفسه لم يكن يعرف ، كما في مناسبات سابقة ، كيف يبدو منتصرا • وفي أول أكتوبر دفع بالاستعدادات خطوات الى الأمام لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا • كان هذا بعيدا عن أن يكون قرارا بالحرب • وثابر القادة الألمان على التأكيد بأنهم لا يستطيعون مواجهة حرب شاملة ، وأجاب هتلر على الفور بأن هذا ليس ضروريا • وتحدث بعض القادة عن ازاحة هتلر ، وربما كانوا يعنون ذلك • لقد زعموا

فيما بعد أن خططهم أحبطها نقص فى شجاعة الدول الغربية وبخاصة نتيجة طيران تشمبرلن الى برختسجادن • والواقع أن هتلر وقف حجر عثرة فى سبيل القـادة • كان فى امكانهم أن يعملوا فقط اذا ما تخطى بألمانيا متجاوزا الحافة ، الأمر الذى لم يفعله مطلقا • أما هو فانه لم يهب نفسه للحرب الا عندما استسلم الجانب الآخر • فحتى ذلك الحين احتفظ بيديه طليقتين • وخلال أغسطس كان لا يزال يحاول جاهدا أن يجد مخرجا • وكان من الواضح أن الأمل فى نشوب حرب بين ايطاليا وفرنسا التى كان يقدر وقوعها قد تبدد نشوبها • وعلى العكس تماما فان موسولينى الذى كان يهدد ويتوعد عندما كانت الحرب بعيدة ، أصبح الآن أكثر ترددا حتى لمجرد تأييد ألمانيا ضد تشيكوسلوفاكيا • وطلب على الأقل بابلاغه بالوقت الذى ينوى هتلر فيه أن يخوض الحرب • واقتصرت اجابة هتلر على مجرد القول : « ان الفوهرر ليس فى استطاعته أن يحدد أى وقت معين لأنه شخصيا لا يعرف ذلك » (١) • وكان هذا كثيرا بالنسبة لجدول أعماله المفترض • وبدا مخرج بديل يلوح كأمل فى الأفق عندما طالب المجريون أن يشاركوا فى تقسيم تشيكوسلوفاكيا • ولكن هذا برهن بدوره على أنه مخيب للآمال • فالمجريون قد يتبعون هتلر ، ولكنهم باعتبارهم ما زالوا منزوعى السلاح الى حد كبير ، لم يكن فى وسعهم أخذ المبادرة • فاذا كان هتلر يريد الحرب فهو وحده الذى يعطى الاشارة • وتلت ذلك نتيجة مفاجئة • لقد حل يوم ١٢ سبتمبر الرهيب • وألقى هتلر خطابا مهيجا فى نورمبرج • وسرد الظلم الواقع على السوديت ، مصرا على أنه لابد للحكومة التشيكوسلوفاكية من أن تعالجها • ثم ماذا بعد ذلك ؟ لا شىء • لا اعلان عن تعبئة ألمانية • ولا تهديد بحرب • ان صبر هتلر لم ينفد ، كان لا يزال فى انتظار أن تثور أعصاب الآخرين •

ولم يكن انتظاره عبثا • ففى ١٣ سبتمبر ، وهو اليوم التالى لخطاب هتلر ، أنهى قادة السوديت المفاوضات مع بينز ، وأطلقوا اشارة التمرد • وباء التمرد بالفشل • ففى خلال أربعة وعشرين ساعة أعيد استتباب النظام • أما ما هو أكثر من هذا ، فهو أن كثيرا من السوديت الألمان ممن ظلوا حتى ذلك الحين ملتزمين الصمت أو غير مبالين ، قد أصروا الآن على أنهم لم يكونوا غير موالين لتشيكوسلوفاكيا أو أنهم لا يرغبون فى أن

---

(١) من فيليب اوف هيس الى موسولينى ، سبتمبر سنة ١٩٣٨ : سياسة المانيا الخارجية ، المجموعة د ، ثانيا ، رقم ٤١٥ .

يغادروا الدولة القائمة . كان الأمر على العكس من معركة النمسا ، أو مملكة هابسبورج من قبلها ، بمعنى أن تشيكوسلوفاكيا لم تتحطم من الداخل ، وجاء الانهيار فى باريس ، وليس فى براغ . فلقد تجنبت فرنسا اتخاذ قرار حتى اللحظة الأخيرة . كان بونيه « تواقا بشكل يائس من أجل طريق ممكن للخروج من هذا «المأزق» دون أن يضطر للحرب »(١). كان على أية حال تواقا كذلك بصورة يائسة لأن يلقى باللوم على الآخرين. لقد حاول مرة أخرى أن يحوله الى روسيا السوفييتية . وكما حدث من قبل كان ليتفنوف عنيفا فى رده ، ورجع باجابة صارمة . كان حتما أن يتم الالتجاء الى عصبة الأمم بناء على المادة الحادية عشرة من الميثاق ، وذلك لكى يكون فى امكان القوات السوفييتية أن تخترق رومانيا ، كما كان حتما أن تجرى محادثات على مستوى القيادات بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتى ، هذا بالاضافة الى عقد مؤتمر من فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفييتى لاصدار تصريح مدو ضد العدوان الألمانى . وعلى أية حال فان روسيا السوفييتية سوف تنجز « كل التزاماتها » فى المعاهدة السوفييتية التشيكوسلوفاكية ، ولن يبقى الا ما هو خاص بفرنسا لكى تقوم بالخطوة الأولى (٢) . وربما كان الحل السوفييتى ضربا من الحيلة . ولم يكن فى الامكان اختبار هذا الا بالموافقة على محادثات القيادات ، كما اقترح ليتفنوت . وبالتهرب منها ، كشف بونيه عن خوفه من أن يكون الحل السوفييتى حقيقيا الى مدى كبير .

وأحسن بونيه العمل فى غير هذا المكان . كانت العزلة الأمريكية فى قمتها . وفى ٩ سبتمبر أعلن الرئيس روزفلت فى مؤتمره الصحفى أنه كان خطأ ١٠٠٪ أن تتحد الولايات المتحدة مع فرنسا وبريطانيا فى جبهة لمقاومة هتلر . وكان كل ما تلقته الدول الغربية من وراء الأطلنطى تأنيبا من المثقفين الأمريكيين ممن كانوا الى حد هين أقل جبنا من الولايات المتحدة . ومهما يكن من شيء . فكان لا بد للاجابة الحاسمة من أن تأتى من الانجليز . وتكررت هنا أيضا الأنماط القديمة ، والتأكيد الفرنسى على خطر الاذعان لهتلر ، ورفض هاليفاكس التعاطف مع « حجة حرب مؤكدة الآن ،

---

(١) من فيبس الى هاليفاكس ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثانيا ، رقم ٨٤٣ حاشية .

(٢) ما ليتفينوف الى الكسندروفسكى ، ٢ سبتمبر ، بوتيومكن مذكرات ٥ ، ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : الوثائق الحديثة ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ .

ضد امكانية الحرب ، فى ظروف غير مواتية ، فيما بعد » (١) • وأظهر تبادل الموقف فى آخر الأمر المراوغة البارعة لكل جانب • وتساءل بونيه : « ما هى الاجابة التى سوف تعطيها حكومة صاحب الجلالة لسؤال من الحكومة الفرنسية فى حالة الهجوم الألمانى على تشيكوسلوفاكيا : أننا فى طريقنا الى الزحف ، هل ستزحفون معنا ؟ » وأجاب هاليفاكس : « ان السؤال نفسه ، بالرغم من سهولته شكلا ، لا يمكن فصله عن الظروف التى يمكن وصفه فيها والتى هى بالضرورة فى هذه المرحلة افتراضية تماما » وكان بونيه « يبدو مسرورا جدا بشكل غير متصنع من الطبيعة السلبية للاجابة » (٢) • ولم يكن هذا داعيا للدهشة • كان يجمع السلبيات ليحمى نفسه فى جزء منها ، أما أكثرها فكان ليوهن عزم زملائه •

وكرر دلادييه كذلك نمطه السابق ، أولا التحمس للقتال ، ثم التذبذب بعد ذلك ، وأخيرا التسليم تحت شروط متفق عليها • وفى ٨ سبتمبر أخبر فيبس : « اذا ما اخترقت القوات الألمانية الحدود التشيكوسلوفاكية ، فان الفرنسيين يزحفون حتى آخر رجل » (٣) • وحل ١٣ سبتمبر بعد ذلك : السوديت الألمان على حافة التمرد ، وهتلر كما هو مفروض مستعد لمساعدتهم • وكان مجلس الوزراء الفرنسى ممزقا الى شطرين ـ ستة فى جانب الوقوف مع تشيكوسلوفاكيا ، وأربعة ، بما فيهم بونيه فى جانب الاذعان • ولم يقصد دلادييه لتولى زمام القيادة سواء فى هذا الجانب أو الآخر ، وتوجه بونيه من الاجتماع مباشرة الى فيبس وقال : « لابد من حفظ السلام بأى ثمن » (٤) • وكان فيبس يريد التأكد من التدهور الفرنسى ، فطلب أن يرى دلادييه • وكان دلادييه فى بداية المساء لا يزال مترددا • وعندما واجه سؤالا صريحا من فيبس ، أجاب وقد أعوزه الحماس : « اذا استخدم الألمان القوة فان الفرنسيين سيجدون أنفسهم مضطرين لذلك أيضا » وختم فيبس رسالته الى لندن :

---

(١) من هاليفاكس الى فيبس ، ٩ سبتمبر : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثانيا ، رقم ٨١٤ •

(٢) من هاليفاكس الى فيبس ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٨ وتذييلات : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثانيا ، رقم ٨٤٣ •

(٣) من فيبس الى هاليفاكس ، ٨ سبتمبر ١٩٣٨ : المرجع السابق رقم ٨٠٧ •

(٤) من فيبس الى هاليفاكس ، ١٣ سبتمبر ١٩٣٨ : المرجع السابق رقم ٨٥٥

« اننى أخشى أن الفرنسيين كانوا يخادعون » (١) . وفى العاشرة مساء أبلغ فيبس تليفونيا الى لندن « رسالة عاجلة » من دلادييه الى تشمبرلن: « ان الأمور تتحرك بسرعة وبطريقة خطيرة لدرجة أنه يخشى أن تفلت من الزمام فجأة .. انه يجب الحيلولة دون دخول القوات الألمانية تشيكوسلوفاكيا بأى ثمن » . واستحث دلادييه أن يعلن رونسمان خطته فورا . واذا لم يكف هذا فانه يجب أن يتم اجتماع دولى ثلاثي – ألمانيا عن السوديت ، وفرنسا عن التشيك وبريطانيا عن لورد رونسمان (٢) . وشحذ دلادييه ذهنه آخر الأمر : لقد قرر أن يذعن .

وأتت تشمبرلن فرصته : القرار الفرنسى بين المقاومة والاذعان الذى كان يضغط للحصول عليه منذ أبريل – قرار فى صالح النهج الآخر الذى استحقه تشمبرلن طويلا . ولم يحاول أن ينظم اجتماعا ثلاثيا للدول الكبرى . علمته التجربة أن دلادييه عندما يواجه التحدى ، يمكن أن يتملكه عزم كئيب يائس . وبدلا من ذلك طار تشمبرلن الى ميونخ فى ١٥ سبتمبر ، وحيدا الا من سير هوراس ، بل انه قابل هتلر فى برختسجادن دون مترجم انجليزى . ولم يبد دلادييه « سرورا بالغا » عندما قيل انه قوبل بالتجاهل ، وكل ما فى الأمر أنه أذعن مرة أخرى (٣). والى أبعد ما نستطيع أن نقوله من السجلات ، لم يأخذ تشمبرلن معه أى مذكرة ، تختص بالمسألة التشيكية . انه لم يتعرف عما اذا كان يمكن لتشيكوسلوفاكيا اذا ما قطعت أوصالها أن تظل مستقلة ولا ماذا ستكون النتائج الاستراتيجية بالنسبة للدول الغربية ، كذلك لم يأخذ فى اعتباره كيف يمكن تثبيت دعامة التكوين القومى لتشيكوسلوفاكيا . لقد ذهب غير مسلح الا بتحامل معظم الانجليز ضد « اتفاقية فرساى » ، وباقتناع حاسم بأنه يمكن تهدئة هتلر اذا ما أجيبت أسباب مظالم ألمانيا القومية . ولم يقم هتلر كذلك بأية استعدادات للاجتماع : وانتظر كالعادة تساقط المكاسب فى « حجره » المفتوح . كان اهتمامه الرئيسى أن يبقى على استمرار الأزمة حتى تتفكك تشيكوسلوفاكيا ، وركز على مطالب السوديت

---

(١) من فيبس الى هاليفاكس ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ٨٥٧ .

(٢) من فيبس الى هاليفاكس ، ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ٨٦١ .

(٣) من فيبس الى هاليفاكس ، ١٤ سبتمبر ١٩٣٨ : السياسة الخارجية البريطانية ، المجموعة ، الثالثة ، ثانيا ، رقم ٨٨٣ .

الألمان على أساس الاعتقاد بأنها لن تجاب ، ومن هنا كانت ميزته الأدبية . وكان له تفوق معنوى أسمى . ان خططه العسكرية لم تكن لتنضج قبل اول أكتوبر ، حتى وان كان ينوى تنفيذها ، ولهذا كان فى امكانه أن يعرض « أن يرفع يده » دون أن يكون قد تنازل عن شىء فى واقع الأمر .

كان اجتماع برختسجادن وديا وناجحا بأكثر مما توقع أى من الرجلين . وأدهش تشمبرلن التبجح الذى كان هتلر يبدأ به المفاوضات دائما ، ولكنه استمر أمينا لسياسته فى التهدئة . وقال : « ليس لدى ما أقوله أساسا ضد انفصال السوديت الألمان عن بقية تشيكوسلوفاكيا ، ما دامت الصعوبات العملية يمكن التغلب عليها » . وكان هذا عرضا لا يمكن لهتلر أن يرفضه ، رغم أنه لم يحقق هدفه الحقيقى بتحطيم استقلال تشيكوسلوفاكيا فى الشئون الدولية . ووعد هتلر من جانبه بألا يقوم بأى زحف عسكرى طالما المفاوضات جارية ــ وهو وعد أثر فى تشمبرلن كثيرا ، بالرغم من أنه كان لا يعنى شيئا . هنا تهدئة ظاهرة ــ نزاع ضخم على وشك الاستقرار دون لجوء الى الحرب . ومع ذلك فقد تمخض عن كل ما هو خطأ . كان تشمبرلن ينوى أن يعرض تنازلا على اساس عدل منصف . ولهذا السبب كان أكثر المدافعين عن هذه السياسة من ذوى النظرة الواضحة ، كنيفيل هندرسون ، يصرون دائما على أن الدول الغربية كانت ستكسب اذا ما دخلت الحرب . ولكن كان يجب لوضعنا الأدبى أن يتحصن . ولم يكن هذا ممكنا بالنسبة لتشيكوسلوفاكيا (١) . والآن بفضل الانهيار الفرنسى ، نحيت الحكمة جانبا ، وحل الخوف محلها . لم يمنح هتلر انصافا ، وكل ما فى الأمر أنه سئل عن الثمن الذى يمكن أن يتقاضاه حتى لا يشعل الحرب . وجعل التشيك الأمور أكثر سوءا بنجاحهم فى الابقاء على النظام رغم دعوة السوديت للتمرد . وطلب اليهم بدلا من انقاذهم من التفكك ، تسليم اقليم كانوا يقبضون على زمام الأمور فيه بحزم لا لشىء الا لكى تستطيع فرنسا أن تتجنب الحرب .

وعاد تشمبرلن الى لندن لكى يفوز بتأييد زملائه وموافقة فرنسا . ووافق مجلس الوزراء الانجليزى ، وان كان ذلك لم يتم كما يقال دون

---

(١) من هندرسون الى هاليفاكس ، ١٢ اغسطس ١٩٣٨ . سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، رقم ٦١٣ .

قيام بعض المشاحنات • وشطب رونسمان التقرير الذى كان قد أعده ، وكتب طواعية تقريرا اقتصر على مجرد تضمينه مطالب هتلر ــ تقريرا أعيد تعديله هو نفسه فى الأيام القليلة التالية كلما ازدادت مطالب هتلر • وفى ١٨ سبتمبر جاء دلادييه وبونيه الى لندن للاجتماع بالوزراء الانجليز، وسرد تشمبرلن بيانا بمحادثاته مع هتلر وركز على أن القضية كانت اما قبول تقسيم تشيكوسلوفاكيا ــ أو مبدأ تقرير المصير ، كما سماه • وحاول دلادييه أن يبدل الأرض : « وكان يخشى أن يكون هدف ألمانيا الحقيقى هو تفكيك تشيكوسلوفاكيا وتحقيق الأهداف الألمانية فى القارة بالزحف نحو الشرق » • وتدخل هاليفاكس مستخدما الحمية العملية التى كان غالبا ما يستخدمها :

> لم يكن هناك ماهو أبعد عن تفكيرهم من أن تتخلى الحكومة الفرنسية عن الوفاء بالتزاماتها قبل الحكومة التشيكوسلوفاكية .. ومن ناحية أخرى نحن نعلم جميعا ــ وكان يعتقد بكل تأكيد ان مستشاريهم الفنيين سوف يتفقون الى جانبهم فى هذا ــ انه مهما يكن الاجراء الذى سنتخذه من ناحيتنا ، أو الحكومة الفرنسية ، أو الحكومة السوفيتية ، فى أية لحظة معينة ؛ سيكون من المستحيل فيه أن نقدم اى حماية فعالة لدولة تشيكوسلوفاكيا . اننا قد نقاتل فى حرب ضد العدوان الالمانى ، ولكن فى مؤتمر السلام الذى سيلى مثل تلك الحرب ، لايظن أن الساسة الذين سيضمهم سيعيدون رسم الحدود الحالية لتشيكوسلوفاكيا .

وكان لدى تشمبرلن فكرة بارعة • لقد اعترض التشيك على التنازل عن اقليم نتيجة لاستفتاء عام ، خشية أن يكون ذلك سابقة يحتذيها البولنديون والمجريون عندهم ، ولذا فلندع الأمر يتم دون استفتاء عام • «انها فكرة يمكن عرضها باعتبارها تمت بناء على اختيار الحكومة التشيكوسلوفاكية ذاتها •• ان هذا سيقضى على كل فكرة بأننا نقسم الأراضى التشيكوسلوفاكية» واستسلم دلادييه • ولكنه وضع شرطا أساسيا : يتحتم على بريطانيا أن تشارك فى ضمان سلامة تشيكوسلوفاكيا الباقية • ولم يكن هذا من أجل التشيك ــ فلقد فرغ الانجليز والفرنسيون من قبل على الاتفاق بأنهم لن يستطيعوا عمل شىء لمساعدة تشيكوسلوفاكيا سواء حاليا أو مستقبلا • ولقد طلب من الانجليز أن يؤمنوا على قول هتلر بأنه يبغى الانصاف ، وليس السيطرة على أوربا • وقال دلادييه : « لو أنه كان على ثقة من أن الهر هتلر صادق عندما كرر الدعاية النازية العادية بأنه ليس هناك ما هو مطلوب أكثر من السوديت الألمان ، ومن أن آمال الألمان تنتهى عند هذا ، اذن لما أصر على تعهد انجليزى • ولكنه على يقين تام من أن ألمانيا كانت تهدف الى ما هو أبعد من هذا بكثير •• ان

الضمان الانجليزى لتشيكوسلوفاكيا قد يساعد فرنسا على هذا الاساس وذلك بمفهوم أنه قد يساعد على وقف الزحف الألمانى نحو الشرق ٠ »

وقع الانجليز فى الفخ ٠ كانت سياسة تشمبرلن ترتكز على عقيدة أن هتلر يعمل بنية سليمة ، ولم يكن فى استطاعته أن يشجب هذه العقيدة دون قبول حجج دلادييه عن المقاومة ٠ وهكذا كان لزاما اعطاء الضمان ٠ وانسحب الوزراء الانجليز لمدة ساعتين ٠ وعند عودتهم قال تشمبرلن : « اذا قبلت الحكومة التشيكوسلوفاكية المقترحات الجارى وضعها الآن لهم ويتم التعهد لهم بأن انقلابا عسكريا لن يحدث فى الوقت نفسه ، فان حكومة جلالة الملك مستعدة للمشاركة فى الضمان المقترح » ٠ وبهذه الطريقة العرضية ، فان الحكومة الانجليزية التى رفضت بحزم أن تمد التزاماتها شرقى الرين وأعلنت أنها غير قادرة على مساعدة تشيكوسلوفاكيا عندما كانت قوية ، تعهدت الآن بحماية تشيكوسلوفاكيا عندما أصبحت ضعيفة ، أما ما هو أكثر من ذلك ، فانها تعهدت ضمنا بحماية نظام الحدود القائم فى أوربا الشرقية ٠ ولقد أعطى الضمان على أساس أمل أكيد وواثق بانه لن يلجأ اليه ــ أعطى ببساطة لكى يسكت آخر بنود العناد الفرنسى ٠ على أن دلادييه كان قد ارتفع بالبناء أكثر مما كان يعلم ٠ لقد أقحم بريطانيا لمناوأة زحف هتلر نحو الشرق ، وبعد ذلك بستة أشهر حل الالتزام ليجثم على الداخل ٠ ففى حوالى السابعة والنصف مساء ليلة ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٨ أعطى دلادييه بريطانيا الدفعة الحاسمة ، رغم تأخرها ، التى انتهت بها الى الحرب العالمية الثانية (١) ٠

وسأل تشمبرلن سؤالا أخيرا « ماذا سيكون الموقف اذا ما قال دكتور بينز « لا » ؟ ٠ وأجاب دلادييه : «سيطرح السؤال للمناقشة فى مجلس الوزراء ٠ » وتحولت الأحداث تحولا مختلفا ٠ ففى ١٩ سبتمبر وافق الوزراء الفرنسيون على المقترحات الانجلو ــ فرنسية ، ولكن بدون الوصول الى أى قرار فيما قد يحدث اذا ما رفضها التشيك ، كانت المعاهدة الفرنسية ــ التشيكية لا تزال نظريا فى تمام قيامها ٠ وفضلا عن ذلك ففى ١٩ سبتمبر طلب بنيز من الاتحاد السوفيتى الرد على سؤالين : هل سيقدم الاتحاد السوفيتى مساعدة سريعة وفعالة اذا ما بقيت فرنسا صادقة وتقدم أيضا المساعدة ؟ ، هل سيساعد الاتحاد السوفيتى تشيكوسلوفاكيا .

---

(١) المحادثات الانجليزية ــ الفرنسية ، ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثانيا ، رقم ٩٢٨ ٠

كعضو في عصبة الأمم ، طبقا للمادتين ١٦ ، ١٧ ؟ (١) • وفى ٢٠ سبتمبر أجابت الحكومة السوفييتية عن السؤال الأول « نعم ، فورا وبشكل فعال » وبالنسبة للثاني : « نعم ، وفي كل حالة » (٢) •

وحاول بينز أيضا أن يستشف من جوتولد ، الزعيم الشيوعى التشيكى ما اذا كان الاتحاد السوفيتى سيقوم بعمل حتى اذا لم تفف فرنسا بالتزاماتها • ورفض جوتولد أن يستدرج : « ليس من شأنه أن يجيب عن اتحاد الجمهوريات السوفييتية ، ولكن ليس لدى أحد أسباب للشك فى أن اتحاد الجمهوريات السوفييتية سوف يقوم بالتزاماته • أما اذا كانت المسألة عن شيء أكثر وأكبر من الالتزامات ، فعندئذ يجب على بينز أن يقرر ماهيته بالضبط وأن يسأل فيه حكومة الجمهوريات السوفييتية » (٣) • وهذا ما كان بينز لا يرغب أن يفعله • لقد أخبر رونسمان فى اجتماعهم الوداعى : « ليس لدى تشيكوسلوفاكيا أية اتفاقات خاصة مع روسيا حتى فى حالة حدث الحرب ، وانها لم تقم بأى شيء ، ولن تقوم بشيء ، بدون فرنسا » (٤) • واستمر بينز «غريبا» بالرغم من تكرار خيبة آماله ، بل انه حتى اذا ما استهواه الاعتماد على روسيا السوفييتية وحدها ، فان أغلبية الوزارة التشيكية ــ بقيادة هودزا رئيس الوزراء ــ كانت من القوة بحيث توقفه •

ومع ذلك لم ييأس بينز • كان وثيق الصلة بالجماعات الأكثر حزما فى باريس ، التى تتضمن بعض الوزراء ، وكان لا يزال يعتقد أنه يمكن رد فرنسا للوقوف خلف تشيكوسلوفاكيا اذا ما توفر عنصر الحذق فى تصرفاته • وفى خلال ذلك كان بينز يبالغ فى تقدير فرصة تحويل السياسة الفرنسية ، وربما يكون قد بالغ كذلك فى التقليل من أهمية تحويل تلك الخاصة بانجلترا • وعلى كل فقد كانت عيناه على باريس فى تلك اللحظة الحاسمة • وفى ٢٠ سبتمبر رفضت الحكومة التشيكوسلوفاكية المقترحات الأنجلو ــ فرنسية ، ودعت بدلا منها الى معاهدة للتحكيم مع ألمانيا • وبعد ذلك بنصف ساعة ، وهذا ما يبدو ،

---

(١) من الكسندروفسكى الى ليفنوف ، ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٨ • الوثائق الحديثة ، رقم ٣٦ •

(٢) من نيرلينجر الى كروفتا ، ٢٠ سبتمبر ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ٣٩

(٣) من الكسندروف الى ليتفنوف ، ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ٣٧ •

(٤) من كروفتا الى ماساريك واوسوسكى ، ١٦ سبتمبر ١٩٣٨ : الوثائق الحديثة ، رقم ٣٢ •

أخبر هودزا ممثلى بريطانيا وفرنسا أن المقترحات اذا ما كانت قد قدمت، باعتبارها « نوعا من الانذار النهائى » ، فان بينز والحكومة فى امكانهم أن يشعروا بالقدرة على الانحناء أمام « القــوة القهرية » (١) • وكان هودزا يحاول ، تبعا لتقديره الخاص ، مجرد اكتشــاف ما اذا كانت فرنســا تنوى حقيقة أن تتخلى عن حليفتها أم لا ، وفى تقدير الوزارة الفرنســية ، كان هودزا يلتمس انذارا أخيرا « كتغطية » للحــكومة التشيكوسلوفاكية التى كانت ترغب فى الاذعان • ان هذه نقطة لن تعرف فيها الحقيقة أبدا • فربما كان هودزا ورفاقه يرغبون فى التســليم ، ولكن مما لا شك فيه أن بونيه كان يريد منهم أن يفعلوا ذلك • فاذا كان بينز مشتركا فى مناورة هودزا ، فان ذلك لا يزال باحتمال الأمل فى اطلاق شرارة المقاومة فى خضم « المتاعب » فى باريس • وعلى أية حال فقد قفز بونيه ليقبض على زمام الفرصة ، سواء أكان مدفوعا من هودزا أو لم يكن • وكتبت مسودة القرار النهائى فورا فى باريس ، واعتمدت فى منتصف الليل من دلادييه والرئيس لوبران فقط ، وسلمت الى بينز فى الثانية من صباح ٢١ سبتمبر • وكان واضحا بما فيه الكفاية : أن التشيــك اذا ما رفضــوا المقترحات الانجلو ــ فرنســية ، فانهم يكونون مسئولين عن الحرب المقبلة ، وســتتحطم وحدة التماســك الأنجلو ــ فرنسى ، وتحت تلك الظروف لن تتحرك فرنسا ، « اذ ستكون مساعدتها غير فعالة » (٢) • وعندما اشتكى بعض الوزراء الفرنسيين فى صــباح اليــوم التالى من أن التشــيك قد تخلى عنهم دون أى قرار من مجلس الوزراء ، كان فى وسع بونيه أن يجيب أن هذا تم بناء على طلب هودزا ، ومرة أخرى أذعن المخالفون فى الرأى • كانت صفقة مخجلة ، ومع ذلك فانها قالت فى كلمات واضحة ما كان حتميا منذ تلك اللحظة فى أبريل عندما قرر الفرنســيون أنهم لن يستطيعوا القيــام بحرب دون تأييد انجلترا ، وعندما قرر الانجليز من جانبهم ألا يتورطوا فى الدفاع عن تشيكوسلوفاكيا • ومما لا شك فيه أنه كان من الأكثر شــفقة وأسمى شرفا أن يوضح هذا لبينز منذ البداية • ولكن الدول التى ظلت دولا عظمى لمدى طويل يفزعها أن تعترف بأنها لم تعد عظمى بعد • لقد كانت كل من انجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٣٨ تدعوان « للسلام بأى ثمن » •

---

(١) من نيوتن الى هاليفاكس ، ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثانيا ، رقم ٩٧٩ .

(٢) بونت ، من واشنطون الى وزارة الخارجية الفرنسية ، ص ٢٥٠ ؛ من كروفتا الى ماساريك وأوسوسكى ، ٢١ سبتمبر ١٩٣٨ : الوثائق الحديثة ، رقم ٤٢ .

وكانت كلتاهما تخشى الحرب أكثر من الهزيمة ، ومن ثم كان انعدام دقة التقديرات عن قوة ألمانيا والحلفاء ، والمناقشات عما اذا كان من الممكن هزيمة ألمانيا • واستطاع هتلر أن يشق طريقه بالتهديد بالحرب، دون حاجه الى ادخال النصر في حسابه •

ولم يعد التشيك يترددون • ففي منتصف ٢١ سبتمبر قبلوا المقترحات الأنجلو ـ فرنسية بلا قيد أو شرط • ومع ذلك فان بينز لم يكن قد هزم بعد • ظن أن هتلر ، وقد واتته فرصة النجاح ، سيتنازل عن شروطه ، كما كان يأمل أن يتمرد أخيرا الرأى العام الانجليزى والفرنسى آنذاك • وكان تخمينه صحيحا • ففى ٢٢ سبتمبر قابل تشمبرلن هتلر مرة أخرى فى جودسبرج • وأعلن هتلر أن المقترحات الأنجلو ـ فرنسية لم تعد كافية • لقد ذبح السوديت الألمان ـ وهو قول لم يكن صحيحا ، وان اقليمهم يجب أن تحتله القوات الألمانية فورا • لماذا سلك هتلر هذا السبيل ، وهو الذى كان على وشك أن يتلقى بواسطة المفاوضات كل ما كان قد طلبه ؟ • أكان يريد الحرب لذاتها ؟ لقد قبل معظم المؤرخين هذا التفسير • ولكن هتلر كان لا يزال المتآمر الناجح ، وليس بعد « أعظم قائد حربى على مر الأزمنة » • وهناك تفسير أكثر قبولا • فقد تقدم الآخرون ـ بايحاء من المثل الألمانى ـ بمطالب فى الأراضى التشيكوسلوفاكية • كان البولنديون يطالبون باقليم تشن ، وكان المجريون ، أخيرا ، يطالبون بسلوفاكيا • كانت الفرصة مواتية لتقسيم تشيكوسلوفاكيا الى أجزاء ، كما حدث لها بالفعل فى مارس ١٩٣٩ • وهنا كان يمكن لألمانيا أن تتدخل باعتبارها صانعة سلام ، لتخلق نظاما جديدا ، وليس لتحطيم نظام قديم • وكان فى استطاعة هتلر « أن يضحك فى وجه تشمبرلن » (١) • ومن ثم فان هتلر فى جودسبرج كان يعمل لكسب الوقت • كانت ادعاءات تشمبرلن وتهديداته ، بل حتى ايماءة بأنه يمكن تبديل الحدود الجديدة لتشيكوسلوفاكيا مرة ثانية بالمفاوضات ، جميعها غير ملائمة • لم يعد هتلر مهتما بتشيكوسلوفاكيا ، وقد توقع أنها ستزول من الوجود عندما ينفجر اللغمان البولندى والمجرى •

وعلى هذا انتهى اجتماع جودسبرج بالفشل • وعاد تشمبرلن الى لندن ، ليواجه الاختيار الواضح بين الحرب وبين التخلى عن فكرة الدولة

---

(١) محادثات بين هتلر وكساكى ، ١٦ يناير سنة ١٩٣٩ : سياسة المانيا الخارجية ، المجموعة د ، خامسا ، رقم ٢٧٢ .

العظمى . وكان يبدو شخصيا أنه قد استهواه الاتجاه الأخير ، وذلك اذا ما استطاع أن يتلقى قليلا من الاعتراف به . ومهما يكن من شيء فليس هناك في رأيه ما يحول دون منع تقسيم تشيكوسلوفاكيا . فما الحاجة اذن لخوض الحرب لا لشيء الا من أجل موضوع الوقت الذى قد يحدث فيه هذا على وجه التحديد ؟ على أنه فى لندن كان هاليفاكس ثائرا — ربما كما زعم بعد أن أهاجه ضميره « فى ساعات الليل » ، وان كان الأقرب الى الظن أن ذلك نتيجة ايعازات موظفيه الرسميين فى وزارة الخارجية ، وفى ٢٣ سبتمبر كان قد أخبر التشيك بالفعل ، رغم رأى تشمبرلن الذى أوضحه ، انه ليس من الممكن أن يكون هناك أى اعتراض على تعبئتهم ، وقد تمت التعبئة في الحال . واستفسر هاليفاكس كذلك من ليتفنوف الذى كان حاضرا اجتماع العصبة في جنيف « ما هو الاجراء الذى ستتخذه الحكومة السوفييتية فى حالة ما اذا أقحمت تشيكوسلوفاكيا فى حرب مع المانيا » وكان هذا هو أول تقرب بريطانى من روسيا السوفييتية خلال الأزمة . وأعطى ليتفنوف اجابته : « اذا ما بادرت فرنسا الى مساعدة التشيك ، فان روسيا لن تتردد فى اتخاذ اجراء » . ويبدو أن الروس كانوا يرون طريقهم بشكل أكثر وضوحا ، بمجرد أن هددت بولندا بالتحرك ضد تشيكوسلوفاكيا . لقد تهيأ لهم الآن طريق مفتوح فى قلب أوربا ، وفى حالة الحرب كان فى استطاعتهم أن يستعيدوا الأرض التى فقدوها وأخذتها بولندا فى سنة ١٩٢١ ، حتى ولو لم يساعد هذا التشيك كثيرا . وفى ٢٣ سبتمبر أنذرت الحكومة السوفييتية بولندا أنها ستلغى فورا معاهدة عدم الاعتداء السوفييتية البولندية ، فى حالة اعتداء البولنديين على تشيكوسلوفاكيا . وفى ٢٤ سبتمبر سأل جاملين الروس أيضا ماذا يستطيعون أن يفعلوا . وأجابوا : هناك ثلاثون فرقة مشاة على الحدود الغربية (وفى هذا الوقت لم يكن للفرنسيين الا مجرد خمسة عشر فى خط ماجينو) . وكانت قوات الطيران والمدرعات « على أتم استعداد » . كذلك استحثوا بدء محادثات سريعة على مستوى القيادة من الفرنسيين والتشيك ومنهم . ووافق جاملين ، مفترضا موافقة بريطانيا (١) . ولكن لم تعقد أية محادثات على مستوى القيادة فى واقع الأمر .

---

(١) من فيرلنجر الى كروفتا ؛ ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : الوثائق الحديثة ، رقم ٥٥ .

كان الفرنسيون لايزالون يترددون.وفي ٢٤ سبتمبر أبرق فيبس من باريس « ان كل ما هو حسن في فرنسا ضد الحرب وذلك بأي ثمن تقريبا » ، وحذر من « حتى الظهور بمظهر التشـجيع لجماعة الحرب الصغيرة ولو صاحبتها الضجة والتشويه » (١) • وأبرق فيما بعد تفسيرا بأنه كان يعني « الشيوعيين الذين تدفع لهم موسكو » • ولم ترحب وزارة الخارجية بتلك الاجابة ، وطلبت الى فيبس أن يقوم باستقصاء أوسع • وقد نفذ ما طلب اليه ، وأجاب بعد يومين : « ان الشـعب مستسلم لكنه ثابت العزم ••• ان » البورجوازي الصغير ربما لا تستهويه المخاطرة بحياته من أجل تشيكوسلوفاكيا » بينما يقال أن أكثرية العمال في جانب فرنسا الملتزمة بارتباطاتهـا (٢) ولم يكشف مجلس الوزراء الفرنسي الا عن القليل من هذه الروح الصلبة • وفي ٢٤ سـبتمبر فشـل الوزراء في الوصول الى اتفاق فيما يجب على فرنسا أن تفعله اذا ما اعتدى هتلر على تشيكوسلوفاكيا • وطلب الى دلادييـه وبونيـه التوجـه الى لندن للتوصل الى اجابة شـافية • وفي ٢٥ سـبتمبر قابلا الوزراء البريطانيين • وكالعـادة بدأ دلادييه بعـبارة نفسـية مقاتلة – لا بد أن يطلب من هتلر أن يرتد الى المقترحـات الأنجلو – فرنسية في ١٨ سبتمبر • واذا رفض « فليقم كل منا بواجبه » • ورد تشمبرلن : « ان أحدا لا يستطيع أن يدخل في مثل هذا الصراع العنيف معصوب العينين وقد أصم أذنا • كان من الضروري معرفة الشروط قبل اتخاذ أي قرار • وعلى ذلك فانه يريد معلومات أكثر وسوف يطلب الى سيرجون سيمون أن يحدد بعض النقط لمسيو دلادييه • وعندئذ استجوب المحامي الكبير رئيس وزراء فرنسا كما لو أنه كان شـاهدا معاديا أو مجرما • هل ستغير فرنسا على المانيا ؟ هل سيستخدمون سلاحهم الجوي؟ كيف يساعدون تشيكوسلوفاكيا ؟ وحاور دالادييه وداور ، واستغاث بالقوة السوفييتية ، وظل متمسكا بالرجوع الى سؤاله المبدئي • « ان هناك تنازلا واحدا ليس في استطاعته مطلقا أن يفعله ، وكان هذا ••• تحطيم دولة وسيطرة هير هتلر على العالم » (٣) • ومرة أخرى عاد التوقف

(١) من فيبس الى هاليفاكس ٢٤ سبتمبر ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ؛ المجموعة الثالثة ، ثانيا ، رقم ١٠٧٦ •

(٢) من فيبس الى هاليفاكس ، ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : المرجع السـابق ، رقم ١١١٩

(٣) المحادثات الانجلو – فرنسية ، ٢٥ سـبتمبر ١٩٣٨ : المرجـع السـابق ، رقم ١٠٩٣ •

القديم ، الخوف من الحرب فى ناحية ، والعناد من الاذعان فى الجانب الآخر • ولقد تقرر أخيرا أن يطلب من جاملين أن يحضر وأن يجتمعوا فى اليوم التالى •

ولم يتضمن رأى جاملين أملا • كان سلاح الطيران الألمانى أقوى • « اننا سنقاسى ، وخاصة السكان المدنيين ، ولكن اذا ما تحكم العقل ، فان ذلك يحول دون ظفر جيوشنا بنتيجة سعيدة » • وظن جاملين أيضا أن التشيك ، بثلاثين فرقة ضد أربعين لألمانيا ، يستطيعون أن يناوروا ، اذا ما انسحبوا الى مورافيا (١) • ثم أخطر الخبراء العسكريون الانجليز فيما بعد بأن روسيا السوفييتية كانت على وشك أن تهاجم بولندا — « مطمح لا يرضى حلفاءنا » • ومهما يكن من شىء فلم يستشر الوزراء المجتمعون جاملان ولم يقيموا وزنا لآرائه • وعندما التقوا أخبرهم تشمبرلن أنه أرسل هوراس ويلسون الى هتلر برسالة شخصية ، داعيا الى السلام • ووافق الوزراء الفرنسيون على هذا الحل وعادوا الى بلدهم• كان هاليفاكس لا يزال قلقا • واستحث ونستون تشرشل وزير الخارجية أن يقف بحزم • وفى حضور الرجلين كتب ركس ليبز أحد الرسميين مسودة بلاغ رسمى : « اذا ما قامت ألمانيا بهجوم على تشيكوسلوفاكيا •• فان فرنسا ستجد نفسها مضطرة الى مساعدتها ، وستقف بريطانيا وروسيا بالتأكيد الى جانب فرنسا » • وبالرغم من أن هاليفاكس « اعتمد » البلاغ الرسمى ، الا أنه لم يوقعه • وبتلك الطريقة الملتوية مكن لوضعه سواء فى الحاضر أو المستقبل : احتفظ بثقة تشمبرلن ، ومع ذلك أصبح فيما بعد « رجل ميونخ الوحيد » الذى استمر فى الوقوف موقفا كبيرا ازاء تشرشل • وفى ذلك الوقت كان للبلاغ الرسمى أثر بسيط • ففى باريس شجبه بونيه كما لو كان شيئا مزيفا ، وأخيرا رفضه تشمبرلن فعلا فى المساء فى خطبة خاصة واعدا مرة أخرى بتحقيق كل مطالب هتلر •

وقابل ويلسون هتلر فى ٢٦ سبتمبر دون جدوى • وعلى العكس تماما ألقى هتلر خطابا فى هذا المساء أعلن فيه للمرة الأولى ، تصميمه على احتلال اقليم السوديت الألمانى فى أول أكتوبر • وعلى هذا أرسلت الى ويلسون تعليمات بأن يسلم رسالة خاصة ، « فيها من الأسف أكثر مما فيها من الغضب » •

---

(١) جاملين • سيرفير ، ثانيا ، ص ٣٥٢ •

اذا هاجمت ألمانيا تشيكوسلوفاكيا فان فرنسا ستشعر بالضرورة أنها يجب أن توفي بالتزامات معاهدتها ... واذا كان معنى هذا أن تصبح قوات فرنسا وقد التحمت في معارك حربية ضد ألمانيا فان بريطانيا ستشعر بأنها مضطرة الى تعضيدها » (١) .

وادعى هتلر أن هذا التهديد المزعوم قد أخرجه عن شعوره . انه تهديد لايحمل طابعا جادا . كانت بريطانيا تستحث الفرنسيين ألا يبدءوا بالعدوان حتى وان هوجمت تشيكوسلوفاكيا ، طالما أن هذا سيشعل « آليا » حربا عالمية دون أى أمل لانقاذ تشيكوسلوفاكيا » (٢) . ووافق بونيه موافقة كاملة ، وكتب فيبس تقريرا : « ان فرنسا ... لن تحارب باخلاص في حرب هجومية لا أمل فيها ضد ألمانيا وهي ليست مستعدة لها » (٣) . واستمرت النداءات تتدفق على هتلر : انها الآن نداءات من تشمبرلن ، وتأكيدات من فرنسا بأن ألمانيا تستطيع أن تحصل على أى وضع على ثلاثة أرباع اقليم السوديت في أول أكتوبر ، وأخيرا ، وفي ٢٨ سبتمبر وصل نداء من موسوليني . واستجاب هتلر لهذا العرض الأخير بالموافقة : سوف يكف يديه لمدة أربع وعشرين ساعة ، ليفسح المجال أمام عقد مؤتمر من الدول الكبرى الأربع في ميونخ . لماذا توقف هتلر في اللحظة الأخيرة ؟ هل اهتز نتيجة تحذيرات متجددة من قادته ؟ هل خمن أن الشعب الألماني ضد الحرب ؟ هل أخافه تردد موسوليني ؟ انها جميعا تفسيرات ممكنة ، على أساس افتراض أنه كان قد عقد النية على الحرب . ولكن المضمون كان شيئا مختلفا تماما . كانت أحكام هتلر قبل الأزمة ، وقدرته على ابقاء الباب مفتوحا للمساومة ــ أو بمعنى أصح لنصر سلمى ــ تومىء الى أنه لم يفقد أبدا السيطرة على نفسه . انتظر بالنسبة لتشيكوسلوفاكيا حتى تتفكك . ولكن هذا لم يحدث لم يكن مطلب بولندا « بتشن » كافيا بالرغم من الضغط عليه بلا أدنى رحمة . ان التحرك المجرى وحده هو الذى قد يهز تشيكوسلوفاكيا ، وكان المجريون ، ربما خوفا من « الاتفاق الودى الصغير » وعداءا منهم

(١) المحادثات بين هتلر وويلسون ، ٢٧ سبتمبر ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثانيا ، رقم ١١٢٩ .

(٢) من هاليفاكس الى فيبس ، ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثانيا ، رقم ١١٤٣ .

(٣) من فيبس الى هاليفاكس ، ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، المرجع السابق ، رقم ١١٦٠ .

من ربط أنفسهم كلية الى جانب هتلر ، قد فشلوا فى القيام بأى عمل . كان ٢٨ سبتمبر هو اللحظة الأخيرة التى يستطيع هتلر فيها أن يبعد شبح الحرب . كان فى استطاعته أن يبدو رجلا يبغى الاتفاق ويستمر مع ذلك فى اجتناء الأرباح .

وفى ٢٨سبتمبر تحدث تشمبرلن فى مجلس العموم . وكان قد أرسل نداء من قبل الى موسولينى باعتباره وسيطا ، وكانت لديه أسباب قوية للاعتقاد بأن هذه الوساطة ستكون ناجحة . كان الرأى الانجليزى قد غدا صلبا : ان الكثيرين يعتبرون التشيك وليس السوديت الألمان آنذاك الشعب المضطهد . وكان تشمبرلن يرغب فى اسكات تلك المعارضة ، وعلى ذلك فقد ركز على خطر الحرب ، وليس عدالة المطالب الألمانية . ولعبت المناورة دورها . وعندما أعلن قرب نهاية خطابه ـ بطريقة دراماتيكية مرسومة ـ أنه يجب أن تجتمع الدول الأربع الكبرى فى ميونخ ، انفجر المجلس لنجدته فى هستيرية ، على أية حال من جانب المحافظين . « وشكرا لله من أجل رئيس الوزراء » ، وكان هذا نصرا محملا بالثمار المرة المذاق . لقد بدأت التهدئة كتقدير غير منحاز لمطالب الجانب المنافس وعلاج لأخطاء الماضى . وبررت بعدئذ بخوف فرنسا من الحرب والآن بدأ واقعها وهو خوف من جانب الانجليز أنفسهم . لقد ذهب تشمبرلن الى ميونخ لا ليبحث عن انصاف السوديت الألمان ولا حتى لينقذ الفرنسيين من الحرب ، وانما ذهب ، أو هكذا كان يبدو ، لينقذ الانجليز أنفسهم من هجوم جوى . لقد فقدت التهدئة قوتها المعنوية . وأرسل تشمبرلن قبل أن يرحل برقية الى براغ : « أرجو أن تؤكدوا للدكتور بينز أننى سوف أضع مصالح تشيكوسلوفاكيا فى اعتبارى بصورة كاملة » (١) . والواقع أن التشيك أبعدوا عن الاجتماع خشية اثارة المتاعب ، وأبعد الروس أيضا . وحاول هاليفاكس أن يبقى أملا فى المستقبل بالتأكيد لميكاسكى ، السفير السوفيتى ، أن هذا الابعاد « لا يعنى بأى طريقة أى ضعف فى الرغبة من جانبنا ، وأيضا ، وبلا شك من جانب الحكومة الفرنسية ، فى الاحتفاظ بتفهمنا وعلاقاتنا بالحكومة السوفييتية ، لقد بدأ سلوك مايسكى لهاليفاكس « كما لو كان فى الواقع ، شيئا من الشك أو شيئا قابلا لأن يكون كذلك » (٢) .

---

(١) من هاليفاكس الى نيوتن ، ٢٨ سبتمبر ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ؛ ثانيا ، ؛ رقم ١١٨٤ .

(٢) من هاليفاكس الى شيلستون ، ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ١٢٢١ .

ولم يلتق تشمبرلن ودلادييه قبلها لينســقا سياستهما • فليس هناك ما يدعو الى تنسيق الاذهان ، أو ربما يكون تشمبرلن قد خشى أن يحاول دلادييه مرة أخرى بلا جدوى تنســيق المقاومة • وقابل هتلر موسوليني ، وحذره من مغبة حروب خاطفة ضد فرنسا ، كان يتوقع أن تشارك فيها ايطاليا • وقبل أن يتم اجتماع المؤتمر مباشرة تلقى موسوليني من أتوليكو Attolico ، سفيره في برلين ، شروطا كتبت مسودتها من وزارة الخارجية الألمانية — دون علم هتلر كما زعم • وسواء أكان الأمر كذلك أم لم يكن ، فانه كان ترتيبا ملائما بالنسبة لهتلر • وتناول موسوليني الشروط من زاوية الوسيط المنصف ، وأوتى هتلر القدرة على اظهار الوفاق بقبولها • وتم تفادى مظهر « مملى الشروط » • وحتى النهاية ، لم يقدم هتلر مطالب ، وانما قبل بروح طيبة ما قدمه الآخرون• ولم تكن الشروط التي تمت الموافقة عليهـــا الا مساومة على أساس أن اقليم السوديت يحتل على مراحل ، تتم في أول أكتوبر ، بدلا من احتلاله دفعة واحدة في أول أكتوبر — وهى خطة كانت في أية صورة مستحيلة فنيا • ولم يستفسر أحد عن المناطق التي سيتم التنازل عنها • وكابر تشمبرلن في التفاصيل المالية • وأثار موسوليني مطالب الجنس المجرى، ونحى جانبا بواسطة هتلر الذى لم يكن لديه اهتمام بالمجريين منذ ان فشلوا في تحطيم تشيكوسلوفاكيا • وامتدت المناقشة الى ما بعد منتصف الليل بقليل ، تخللتها راحة طويلة للعشاء • وعندئذ تم تبنى الشروط التي سبق تقديمها من موسوليني بلا تغيير في الواقع • وعندما جلس الساسة الأربعة للتوقيع ، وجدوا أنه ليس هناك « مداد » في المحبرة المزخرفة •

كان ممثلو تشيكوسلوفاكيا منتظرين في غرفة الانتظار ، بأمل اثارة متاعب عملية • لقد حيل بينهم وبين الاســتماع • وفى الثانية صباحا اســتدعوا لمقابلة تشمبرلن ودلادييه وعرض عليهم الاتفاق • وأوضح دلادييه «انه قضاء ليس فيه حق القبول وبدون امكانية التعديل»• ويجب على تشيكوسلوفاكيا أن تقبل قبل الساعة الخامسة مساء ، أو تتحمل النتائج • وتثاءب تشمبرلن ، ولم يعقب ، « كان متعبـــا ولكنه تعب المبتهج » • وفى الصباح التالي في براغ اتجه بينز بيأس الى السفير السوفيتي • « ان تشيكوسلوفاكيا مواجهة بالاختيار بين أن تبدأ الحرب مع المانيا وبذلك تجعل ضدها بريطانيا وفرنســـا •• أو التســليم للعدوان » • ماذا عساه يكون موقف اتحاد الجمهوريات السوفييتية ازاء

هذين الاحتماليين « وهما الصراع الأكثر ضراوة ، أو التسليم ؟ » • وقبل أن تتمكن الحكومة السوفييتية من مناقشة الموضوع ، أفادتهم برقية أخرى انه لا ضرورة للرد : « لقد قررت الحكومة التشيكوسلوفاكية بالفعل قبول جميع الشروط » (١) إنه من الصعب تصديق أن الاستقصاء كان جادا • لقد ظل بينز على يقين من تحليله بأن تشيكوسلوفاكيا يجب ألا تحارب بمفردها أو مع روسيا السوفييتية كحليف مفرد • وبعد سنوات ، وفى سنة ١٩٤٤ زعم أن التهديد البولندى بالنسبة لتيشن Tesin قد أعطاه الدفعة الأخيرة للاذعان ، واذا كان الأمر كذلك ، فهى ليست الا دفعة نحو الاتجاه الذى صمم أن يتجه اليه • كان بينز لا يزال يعتقد — وبحق — وقد خرجت الأحداث من بين يديه — أن هتلر قد يضيع من فرط حرصه ، ولكن العملية أخذت وقتا أطول مما كان يأمل • وفى الوقت نفسه كان التشيك قد نسوا أهوال الحرب ، وليس فقط فى سنة ١٩٣٨ ولكن فى خلال الحرب العالمية الثانية • وبعد ذلك كان فى استطاعة بينز أن يقول وهو يطل على براغ من قصر الرئاسة : « أليس هذا شيئا جميلا ؟ انها المدينة الوحيدة فى وسط أوربا التى لم تتحطم • ان كل هذا من صنعى » •

وفى ٢٠ سبتمبر عقد اجتماع آخر بين تشمبرلن وهتلر • وقال تشمبرلن : « اننى مسرور جدا من نتائج اجراءات الأمس » • وعندئذ وبعد مناقشة شاملة عن نزع السلاح والقضية الأسبانية ، أنهى حديثه « انه لمما يعين الدولتين والعالم بصفة عامة لو أنهما استطاعتا أن تصدرا تصريحا يظهر الاتفاق بينهما رغبة فى ايجاد علاقات انجليزية — ألمانية أحسن ، ومؤديا الى استقرار أوربى أكبر » ، وقدم مسودة كان قد أحضرها معه • كانت هذه المسودة تبين « أن الاتفاق الذى وقع الليلة الماضية والاتفاق البحرى الانجليزى — الألمانى هما رموز لرغبة شعبينا بألا يخوضا حربا ضد بعضهما مرة أخرى » واستمرت :

لقد عقدنا النية على ان اسلوب المشاورة سيكون الاسلوب الذى نتبناه لمعالجة اى موضوع آخر قد يهم بلدينا ، واننا مصممون على استمرار جهودنا لازاحة الاسباب الممكنة للخلاف ، وبذلك نساهم فى تأكيد سلام أوربا(٢) •

---

(١) من الكسندرفسكى الى ليتفنوف ، ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : الوثائق الحديثة أرقام ٥٧ ، ٥٨ •

(٢) المحادثات بين تشمبرلن وهتلر ، ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثانيا ، رقم ١٢٢٨ •

وترجمت المسودة لهتلر • ورحب بها بحماس • ووقع الرجلان • وأرسل التصريح الى كل من البلدين • وأوجس دلادييه خيفة منأن يقابل بمظاهرة عدائية • وأدهشته الهتافات التى قوبل بها • ولم يكن لدى تشمبرلن مثل تلك الهواجس • فما أن ترجل من الطائرة ، حتى لوح بالاتفاقية التى وقعها مع هتلر وصاح « لقد حصلت عليها » • وفى الطريق الى لندن استحثه هاليفاكس بألا يستغل شعور اللحظة الجارف باجراء انتخابات عامة بل أن يؤلف حكومة ائتلافية حقيقية مكونة من الأحرار والعمال بالاضافة الى تشرشل وايدن • لقد سجل عن تشـــمبرلن أنه شارك هاليفاكس شكوكه ، وأنه قال : « ان كل هذا سينتهى بعد ثلاثة شهور » ولكنه ظهر فى هذا المساء من نافذة « ١٠ دوننج ستريت » ، وخاطب الحشد قائلا : انها المرة الثانية التى يرجع فيها السلام من ألمانيا الى دوننج ستريت مقرونا بالكرامة • اننى أعتقد أنه سلام لعصرنا » •

الفصل التاسع

سلام لستة شهور

أريد لمؤتمر ميونخ أن يحدد بداية حقبة فى الشئون الأدبية • ولم تكن « معاهدة فرساى » ـ أسلوب سنة ١٩١٩ ـ قد ماتت فحسب وانما دفنت • وكان لابد لأسلوب جديد ، مبنى على المساواة والثقة المتبادلة بين الدول الأربع العظمى ، أن يأخذ مكانه • وقال تشمبرلن • « أعتقد أنه السلام لعصرنا » ، وأعلن هتلر : « ليس لدى أى مطالب اقليمية أخرى أطالب بها في أوربا » • كانت لا تزال هناك مع ذلك قضايا هامة لابد من البت فيها فى الشئون الدولية • فالحرب الأهلية الأسبانية لم تكن قد انتهت • وألمانيا لم تكن قد استردت مستعمراتها • وأبعد من هذا ، كان لابد من الوصول الى اتفاقيات فى السياسة الاقتصادية وفى التسلح قبل اعادة الاستقرار فى أوربا • ولم يكن أى من هذه المسائل يهدد باشعال حرب شاملة • لقد بنى الاستنتاج على أنه في استطاعة ألمانيا أن تحتل بالمفاوضات السلمية المكان الذى تخوله لها مواردها فى أوربا • لقد تم بنجاح قهر الحاجز الكبير : فالأسلوب الذى وجه ضد ألمانيا قد جرد من سلاحه بالاتفاق وبلا حرب • ومع ذلك ، ففى خلال ستة شهور اتبع أسلوب جديد ضد ألمانيا • وفى خلال سنة كانت بريطانيا وفرنسا وألمانيا تخوض غمار الحرب • هل كانت « اتفاقية ميونخ » خدعة منذ البداية ـ ومجرد مرحلة بالنسبة لألمانيا للاتجاه نحو غزو العالم ، أم كانت من جانب بريطانيا وفرنسا ، مجرد خدعة لكسب الوقت للسير قدما نحو اعادة تسلحهما ؟ هكذا تبدو الأمور عند اعادة تأملها • فعندما فشلت سياسة « ميونخ » أعلن كل انسان أنه قد توقع لها أن تفشل ، ولم يتهم المساهمون فيها الآخرين بالخداع فحسب ، وانما تباهوا بأنهم كانوا يخدعون أنفسهم أيضا • وفى الحقيقة لم يكن واحد منهم بمثل الوضوح فى الرؤية ، كما

زعم من قبل ، وكان رجال ميونخ الاربعة جميعا مخلصين بطرقهم المختلفة ، بالرغم من أن كلا منهم كان لديه تحفظات أخفاها عن الآخرين ٠

كان الفرنسيون أكثر الخاضعين ، مع أضأل أمل فيما يتعلق بالمستقبل ٠ تنازلوا عن وضعهم كدولة أوربية كبرى ، وهو الوضع الذى كان يبدو أنهم يستمتعون به منذ سنة ١٩١٩ ٠ ولكن ما تنازلوا عنه كان مصطنعا ٠ خضعوا للحقيقة أكثر مما خضعوا للقوة ٠ كانوا يفترضون دائما أن المزايا التى كسبوها فى سنة ١٩١٩ وما ترتب عليها ــ القيود على ألمانيا والمحالفات مع دول شرق أوربا ــ أرصدة يستطيعون التمتع بها وهم مستلقون ، وليست مكاسب لابد أن يدافعوا عنها بشراسة ٠ ولم يرفعوا أصبعا ليؤكدوا أسلوب فرساى بعد احتلال الرور فى سنة ١٩٢٣ ٠ تخلوا عن التعويضات ، وأذعنوا لاعادة تسلح ألمانيا ، وسمحوا باعادة احتلال ألمانيا للرين ، ولم يفعلوا شيئا لحماية استقلال النمسا ٠ ولم يحتفظوا بأحلافهم فى أوربا الشرقية لا لشىء الا لاعتقادهم بأنها سوف تهيىء لهم المساعدة اذا ما هوجموا من ألمانيا ٠ وتخلوا عن حليفتهم ، تشيكوسلوفاكيا ، فى اللحظة التى هددتهم فيها بأنها ستجر عليهم المخاطرة بدلا من الطمأنينة ٠ كانت ميونخ هى الترسب المنطقى للسياسة الفرنسية وليس العكس ٠ لقد اعترف الفرنسيون بأنهم فقدوا سيطرتهم فى أوربا الشرقية ، وعرفوا أنه ليس فى الامكان اعادتها ٠ وهذا بعيد عن القول بأنهم كانوا يخشون على أنفسهم ٠ فعلى العكس قبلوا النظرية البريطانية ، التى بشر بها منذ « لوكارنو » بأنهم سيكونون فى خطر أقل بالنسبة للحرب ، اذا ما انسحبوا الى ما وراء الرين ٠ وفضلوا السلامة على العظمة ــ وربما تكون هذه سياسة مشينة ، ولكنها ليست خطيرة ٠ وحتى فى سنة ١٩٣٨ وبالرغم من أنهم كانوا يخشون قصف القنابل من الجو ، لم يكونوا يخشون الهزيمة اذا ما فرضت الحرب عليهم ٠ كان جاملين يؤكد دائما أن القوى الديمقراطية سوف تنتصر ، وصدقه الساسة ٠ ولكن ما هى النقطة التى من أجلها تثار الحرب ؟ تلك كانت الحجة التى حالت بين فرنسا وبين التحرك منذ سنة ١٩٢٣ ، والتى منعتها آنذاك ٠ فألمانيا ، حتى اذا ما هزمت ، فسوف تستمر كما هى ، عظيمة ، قوية ، مصممة على تجديد نفسها قد تستطيع الحرب أن توقف عجلة الزمن ، ولكنها لا تستطيع أن تعيدها الى الوراء ، وبعد ذلك ستتحرك الأحداث الى الأمام نحو النهاية نفسها ٠ ولهذا كانت مشيئة الفرنسيين التسليم بكل شىء فيما عدا سلامتهم ، ولم يصدقوا أنهم قد تنازلوا عنها فى ميونخ ٠ كان

لديهم ايمان راسخ ، له أسسه القوية كما تبين ، ان خط ماجينو لا يقهر ـ بالدرجة نفسها التى اعتبروا فيها أن خط سيجفريد لا يقهر وان كانوا فى ذلك أقل دقة • لقد افترضوا أن استحالة تفوق أى الأطراف أصبح هو الوضع فى أوربا الغربية • لم يكن فى استطاعتهم أن يعرقلوا تقدم قوة ألمانيا فى أوربا الغربية ، بالقدر نفسه الذى لم تكن ألمانيا تستطيع فيه غزو فرنسا • لقد أذل الفرنسيون فى ميونخ ولم يعرضوا للخطر ـ كما كانوا يظنون •

كان الموقف البريطانى أكثر تعقيدا • ان الحكمة لم تدخل فى تقديرات فرنسا ، أو أنها دخلت فقط لكى يلقى بها بعيدا • كان الفرنسيون يدركون أن من واجبهم أن يساعدوا تشيكوسلوفاكيا ، ورفضوا هذا الواجب اما لانه خطير جدا أو صعب جدا • ولقد عبر ليون بلوم عن الشعور الفرنسى أحسن تعبير عندما رحب باتفاقية ميونخ بخليط من الخجل والراحة • أما الحكمة مع البريطانيين فى الناحية الأخرى فلها وزنها لمدى كبير • لقد استخدم الساسة الانجليز أدلة عملية : الخطر من الهجوم الجوى ، تأخر مستوى اعادة تسلحهم ، استحالة مساعدة تشيكوسلوفاكيا ، حتى وان كانوا مسلحين بما فيه الكفاية • على أن هذه الأدلة استخدمت لتعزز الحكمة ، وليس لاسكاتها • لقد تأسست السياسة البريطانية ازاء تشيكوسلوفاكيا على أساس الاعتقاد بأن ألمانيا لها حق أدبى فى اقليم السوديت الألمان ، وعلى أساس من مبدأ القومية ، وجر هذا النتيجة الأبعد بأن هذا النصر لحق تقرير المصير سوف ينتج وضعا أكثر استقرارا ، وسلاما أكثر دواما فى أوربا • لم تدفع الحكومة البريطانية الى الاعتراف بتقسيم تشيكوسلوفاكيا لمجرد خشيتها من الحرب • لقد بدءوا بمحض ارادتهم فى فرض هذا التنازل عن الاقليم على التشيك قبل أن يرفع التهديد بالحرب رأسه • وكانت الاتفاقية فى ميونخ نصرا للسياسة البريطانية ، التى عملت بدقة لادراك هذه الغاية ، وليست نصرا لهتلر ، الذى بدأ بهدف ليس له هذا الوضوح • كذلك لم يكن مجرد نصر للساسة البريطانيين الأنانيين أو الساخرين ، غير المكترثين بمصير الشعوب البعيدة أو المقدرين أن هتلر قد يدفع نحو حرب ضد روسيا السوفييتية • كان نصرا لكل ما هو حسن والأكثر استنارة فى الحياة البريطانية ، نصرا لأولئك الذين بشروا بقيام عدالة متساوية بين الشعوب، نصرا لأولئك الذين دحضوا بشجاعة جفاء وقصر نظر معاهدة فرساى • كتب بريلسفورد المؤلف الاشتراكى القيادى فى الشئون الخارجية ، فى

سنة ١٩٢٠ عن اتفاقية السلام « كانت أسوأ اساءة هي خضوع أكثر من ثلاثة ملايين ألمانى للحكم التشيكى » (١) · كانت تلك هي الاساءة التى رد اعتبارها في ميونخ · وكان في استطاعة المثاليين أن يزعموا أن السياسة البريطانية بطيئة ومترددة · وفى سنة ١٩٣٨ كفرت عن تلك العيوب · وبالكفاءة والمثابرة جذب تشمبرلن ، فرنسا أولا ، ثم التشيك بعد ذلك لكى يسيروا فى طريق الحكمة ·

كانت هناك دعوى ضد تسليم اقليم السوديت الى ألمانيا ــ هى دعوى أن الروابط الجغرافية والاقتصادية ، أكثر أهمية من روابط القومية · وتلك كانت الدعوى ضد تقسيم ملكية الهابسبورج ، ولم يستطع التشيك الذين أخذوا مركز الصدارة فى تقسيم المملكة أن يستخدموا هذا الدليل ، ولا أن يستخدمه المدافعون عنهم فى أوربا الغربية · وكان لابد أن يتحول الصراع من حقل الحكمة الى ميدان الاعتبارات العملية ــ الى ما يدعى باستهجان « السياسة الواقعية » · وأكد أكثر المعارضين صراحة لمعاهدة ميونخ ، مثل ونستون تشرشل ، بمنتهى البساطة أن ألمانيا فى طريقها لأن تكون قوية أكثر مما يجب فى أوربا ، وأنه لا بد أن توقف بواسطة التهديد بتحالف كبير ، أو اذا قضت الضرورة ، بالقوة المسلحة · كان حق تقرير المصير وهو المبدأ الذى تدين له تشيكوسلوفاكيا ببقائها قد غض الطرف عنه باعتباره صوريا · وكان الدليل المنطقى الوحيد الذى استخدم هو أن حدود الدول القائمة مقدسة وأن كل دولة تستطيع أن تتصرف كما تشاء داخل حدودها ، كانت هذه هى حجة الشرعية ، حجة مترنخ ومؤتمر فيينا · ولو وجدت هذه الحجة قبولا اذن لوقفت ليس فحسب دون تقسيم مملكة هابسبورج ، بل وكذلك دون كسب المستعمرات البريطانية فى أمريكا لاستقلالها · كانت حجة غريبة لأن يستخدمها اليسار الانجليزى فى ١٩٣٨ ، ولقد زجروا بشدة ــ منذ أن اتسم نقدهم بالتردد وعدم الفعالية · ولم يكن لدى دوف كوبر القائد العام للبحرية مثل تلك الشكوك عندما استقال احتجاجا على اتفاقية ميونخ · ومنذ أن أصبح مؤرخا لسيرة تاليران الذاتية Talleyrand توازن القوى والشرف البريطانى ، وليس بتقرير المصير أو ألوان عسف فرساى · ولم تعد تشيكوسلوفاكيا تعنى الموضوع الحقيقى بالنسبة له فى سنة ١٩٣٨ مما كانت بلجيكا فى سنة ١٩١٤ · وحطمت هذه الحجة

---

(١) بريلسفورد « بعد السلام » (١٩٢٠) ص ٤٧ ·

الحكمة الراسخة للموقف البريطاني في الحرب العالمية الأولى ، ولكنها أصبحت تستهوى أغلبية المحافظين في مجلس العموم • وكان على تشمبرلن أن يرد عليها بما تمثل فيها نفسه من جوانب قوية • لم يكن يستطيع أن يركز على عدم رغبة الفرنسيين في القتال ، التي كانت تمثل الضعف الحقيقي الحاسم في الجانب الغربي • ولذلك كان عليه أن يفسر أن بريطانيا نفسها لم تكن في موقف يؤهلها لمحاربة ألمانيا •

ولقد أوتى تشمبرلن من حجته • أن بريطانيا اذا بلغت من الضعف حدا لا يؤهلها للحرب، فاذن كان لابد على الحكومة أن تسرع باعادة التسلح، وهذا يتضمن الشك في نوايا هتلر الحسنة ، سواء صرح بهذا أم لا • وبتلك الطريقة ، عمل تشمبرلن لتحطيم دعوى سياسته الخاصة أكثر من أي فرد آخر • والأكثر من هذا أن أي شك يتولد عنه شك آخر • من المشكوك فيه أن هتلر قد أخذ اخلاص تشمبرلن بشكل جدى قبل ميونخ أما المؤكد فانه لم يفعل هذا بعد ذلك بأيام قليلة • فما كان يعنى به التهدئة قد تحول الى تسليم ، كما بدا في مظهر تشمبرلن الخاص • لقد استخلص هتلر الدرس بأن التهديدات هي أمضى أسلحته الفعالة • كان اغراء التباهي بميونخ كعنصر للقوة ، أكبر من أن يقاوم • ولم يعد هتلر يتوقع أن يحصل على مكاسب باستعراض أحزانه نتيجة فرساى ، وتوقع أن يحصل عليها باللعب على مخاوف انجلترا وفرنسا • وبذلك أيد شكوك أولئك الذين هاجموا ميونخ باعتبارها اذعان مهين • كانت الحكمة الدولية في موقف لا يؤبه بها فيه • وعلى غير المألوف ، كان بينز المنتصر الحقيقي لميونخ في المدى الطويل • لأنه بينما فقدت تشيكوسلوفاكيا اقليما ثم استقلالها أيضا فيما بعد ، فقد هتلر الميزة الأدبية التي جعلته حتى ذلك الحين لا يقاوم • وأصبحت ميونخ كلمة عاطفية ، رمزا للعار ، لا يزال الناس لا يستطيعون التكلم عنها دون أن يتحيزوا • كان ما تم في ميونخ أقل أهمية من الطريقة التي تم بها ، وما قاله كلا الجانبين عنها بعد ذلك لا زال موضع تقدير أكبر •

كان هناك مقعدان شاغران في ميونخ ، أو بمعنى أصح لم يؤت بمقاعد لدولتين كبيرتين ، بالرغم من أن كلا منهما كان لها مايبرر دعوتها• فقد ألح الرئيس روزفلت والأزمة في قمتها الى اجتماع يعقد في عاصمة محايدة • ولم يشر الى ما اذا كان الممثلون الأمريكيون سيحضرون ، وعلى أية حال » فان حكومة الولايات المتحدة ••• لن تأخذ على عاتقها أية

التزامات خلال المفاوضات الجارية » • ولقد هنا روزفلت تشمبرلن على أخبار مؤتمر ميونخ : « رجل موفق » • وبعدئذ وعندما تحولت التهدئة الى شيء مر ، ابتهج الأمريكيون لأنهم لم يكونوا في ميونخ • واستباحوا ادانة البريطانيين والفرنسيين بعمل كانوا أنفسهم سيقومون به لو كانوا في مكانهم • لقد ساعد على تقاعس أمريكا عن بذل المساعدة على الاتجاه نحو استسلام الدول «الديمقراطية» • ومع ذلك فقد استخلص الأمريكيون من ميونخ حكمة أنه يجب أن يقللوا من تأييدهم لتلك الدول العاجزة • ولم يكن لدى روزفلت ، الغارق في متاعب السياسة المحلية ، أية نية لأن يضيف الى متـــاعبه ما يثير جدالا حول الشئون الخارجية • فأوربا تستطيع أن تمضي في طريقها بدون أمريكا •

كان الروس أكثر دقة في رسم خطتهم بالنسبة للمؤتمر • كانوا يريدون اجتماعا « للدول المحبـة للســلام » لكي تنسق المقاومة ضـد المعتدي • وكان في استطاعتهم كذلك افتراض مسلك من السمو الأدبي • وباستعراض ولائهم نحو التزاماتهم قبل المعاهدة ، ألقوا بكل اللوم على الضعف الفرنسي • وقال أحد الديبلوماسيين السوفييت في ٣٠ سبتمبر « لقـد داست أقدامنا فوق أرضية عفنة ، والآن نحن متجهون الى مكان آخر » • وأوضح بوتيومكين المستشار المساعد ، هنا المعنى عندما قال لكولندور : « يا صديقي المسكين ، ماذا فعلتم ؟ بالنسبة لنا لست أرى مخرجا غير تقسيم رباعي لبولندا » • وادعى الروس أنه ليس لديهم أية مخاوف فيما يتعلق بأمنهم الذاتي • وقال ليتفنوف لكولندر : « سيكون هتلر قادرا على مهاجمة بريطانيا أو اتحاد الجمهوريات السوفييتية•وسوف يختار الحل الأول • ولكي ينفذ هذا المشروع بنجاح فسيفضل أن يصل الى تفاهم مع اتحاد الجمهوريات السوفييتية » (١) • وكان الروس ، في باطنهم أقل اطمئنانا ، فلم تأت من هتلر بادرة من التقريب ، وبدلا من ذلك كان زعمه بأنه أنقذ أوربا من البلشفية • وتوقع المراقبون الحاذقون أن تكون خطـوة هتلر التالية في أوكرانيا ــ خطـوة توقعها الســاسة الغربيون ببعض السرور ، والســاسة الســوفييت ببعض الرعب • ومن المحتمل أن الحكام الروس كانوا يفضلون أن يعزلوا أنفسهم عن أوربا ، ولكنهم كانوا بأية حال متأكدين أن أوربا لن تعزل نفسها عنهم • وعلى ذلك وبعد فترة قصيرة من المهاترة ، كان عليهم أن يجددوا الدعوة لجبهة

---

(١) كولندر ، من ستالين الى هتلر ، صفحات ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧١ •

شعبية ولأمن جماعي ضد العدوان • وانه لمن الصعب التصديق بأنهم توقعوا لهذه السياسة أن تنجح •

لقد تكلم الجميع عن حركة هتلر التالية في هذا الاتجاه أو الآخر• وكان أقل من تكلم ، وفكر فيها بوضوح هو هتلر نفسه • وظل الجدول الزمني الدقيق الذي نسبه اليه كثير من الكتاب — جدول ميونخ في سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، وبراغ في مارس سنة ١٩٣٩ ، ودانزج في سبتمبر ، بلا دليل معاصر • وعاد هتلر بعد نجاحه الباهر في ميونخ الى برغوف حيث أمضى وقته برسم خطط أحلامه في اعادة بناء لينز ، البلدة النمسوية التي ذهب فيها الى المدرسة • ومن حين لآخر كان يزمجر من القول بأنه أنكر الحرب ضد تشيكوسلوفاكيا • على أنه يجب أن يحكم على الرجال بما يفعلونه ، وليس بما يقولونه بعد ذلك ومرة أخرى انتظر الأحداث لتمده بالنجاح في المستقبل • وكان العسكريون يبحثون عن توجيه نحو نشاطاتهم التالية • ورد هتلر في ٢١ أكتوبر : « أن مجلس الدفاع عليه في جميع الأوقات أن يستعد لما يلي :

١ — تأمين حدود الريخ الألماني والحماية ضد هجوم جوي مفاجيء •

٢ — تصفية بقايا المسألة التشيكية ، وكانت هذه تدابير من الحذر ، وليست خططا للعدوان • واستمرار التوجيه يجعل هذا واضحا : « لابد أن يكون في الامكان ازالة بقية الدولة التشيكية ، اذا ما اتبعت سياسة معادية لألمانية » (١) • وفي ١٧ ديسمبر أعلن مجلس الدفاع « غني عن البيان أنه يجب أن يكون من الواضح تماما — ظاهريا — أنه مجرد اجراء سلمي وليس تدبيرا حربيا » (٢) • لقد استشهد دائما بتلك الأوامر كبرهان على أن هتلر لم يكن أبدا مخلصا في قبول اتفاقية ميونخ • وربما كانت الحقيقة أن هتلر كان يشك فيما اذا كانت الاتفاقية ستنفذ • وبالرغم من أنه كان يعتبر دائما جاهلا سياسيا ، فانه فهم مشكلة بوهيميا بشكل أفضل من الساسة الأوربيين الآخرين ، واعتقد ، بلا نوايا سيئة ، ان تشيكوسلوفاكيا المستقلة لا يمكن أن يكتب لها البقاء ، اذا ما جردت من حدودها الطبيعية ومن الكرامة التشيكية المحطمة • لم تكن تلك رغبة لتحطيم تشيكوسلوفاكيا • ولكنه اعتقاد آمن به أيضا ماساريك بينز ،

---

(١) أوامر هتلر ، ٢١ اكتوبر سنة ١٩٣٨ : سياسة المانيا الخارجية ، المجموعة د ، رابعا ، رقم ٨١ •

(٢) أوامر كيتل ، ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٨ ، المرجع السابق ، رقم ١٥٢ •

عندما خلقا تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩١٨ ، كان مبدأ استقر عليه استقلال تشيكوسلوفاكيا من البداية حتى النهاية ·

اذا ما تجزأت تشيكوسلوفاكيا الى أقسام ، فماذا سيحل مكانها ؟ وفي جودسبرج خلال الأزمة التشيكية ، وافق هتلر على توزيع سخى للأراضى التشيكوسلوفاكية للمجر وبولندا ، مكافأة لهما على أخذهما المبادرة · ثم غير رأيه بعد ذلك · وتراجعت كلتا الدولتين حتى انتهت الأزمة تماما ، وكان واضحا أن كلتاهما كانت تأمل فى أن تلعب على الجانبين · وقال الممثل المجرى فى ١٤ أكتوبر : « اننى لست منزعجا بالنسبة للمجر ، ولكن لقد فاتها القطار » (١) · ان تشيكوسلوفاكيا التابعة تبدو الآن شيئا مفضلا لديه · كان هتلر سياسا عقلانيا ، بالرغم من أنه كان بلا شك شريرا · كان شغله الشاغل التاسع الذى لا التواء فيه لقوة ألمانيا ، وليس ألاعيب النصر المسرحية · ولهذا الغرض ، فان الدول التابعة كانت أكثر فائدة من ضم الأراضى المباشر ، ولقد جمع الدول التابعة بصبر كبير · كانت ترجمة مختلفة عن طريقته المفضلة التى بها يصنع الآخرون عمله له · وبعد مؤتمر ميونخ مباشرة طبق الممثلون الألمان فى اللجنة الدولية القواعد التى اختلقوها بأنفسهم ، بلا رحمة فى صالح السوديت لدرجة أن تشيكوسلوفاكيا فقدت فعلا اقليما أكبر مما كان يمكن أن تفقد فى ظل المطالب التى قدمت فى جودسبرج · وكانت تلك قصة أخرى عندما تقابل ريبنتروب ، وشيانو فى فيينا لاقرار الحدود الجديدة بين المجر وبين تشيكوسلوفاكيا · وكانت لدى شيانو الفكرة التى تميزت بالدهاء والعقم وهى بناء المجر كسد أمام ألمانيا · وأدرك ريبنتروب هذه السياسة مباشرة ، وبلغت مؤازرته للقضية السلوفاكية حدا جعل شيانو يشكو : « انك تستخدم الآن فى صالح تشيكوسلوفاكيا كل الحجج التى استخدمتها ضدها فى سبتمبر » · وكان السلوفاك عنصرا جديدا فى تقديرات هتلر : حرا من كل من الولاء التشيكى للديمقراطية ، ومن الأوهام المجرية فى العظمة · « لقد أسف لأنه لم يعرف من قبل الكفاح السلوفاكى من أجل الاستقلال » (٢) · ولقد كان من المعتقد دائما أن هتلر كان يفضل سلوفاكيا باعتبارها طريقا لغزو أوكرانيا · والواقع أن

---

(١) هتلر : محادثاته مع داراني، ١٤ اكتوبر ١٩٣٨ : سياسة ألمانيا الخارجية، المجموعة د ، رابعا ، رقم ٦٢ ·

(٢) محادثات بين هتلر وتوكاكى ، ١٢ يناير سنة ١٩٣٩ : سياسة ألمانيا الخارجية ، المجموعة د ، رابعا ، رقم ١٦٨ ·

الجغرافيا تجعل هذا غير عملي تماما كالفكرة المناقضة لها بأن روسيا السوفييتية تستطيع تهديد ألمانيا من خلال تشيكوسلوفاكيا • لقد عضد هتلر سلوفاكيا لذاتها ـ كتابعة موالية يمكن التعويل عليها ، وذلك ما برهنت عليه خلال الحرب العالمية الثانية •

واذا كان هتلر يطمح حقا في أن يصل الى أوكرانيا ، فانه كان عليه أن يخترق بولندا ، وفى خريف سنة ١٩٣٨ ، بدت تلك الخطة وهما سياسيا • وبرغم أن بولندا كانت اسميا متحالفة مع فرنسا ، فقد وسعت من معاهدة عدم الاعتداء الى مدى كبير في مصلحة ألمانيا • وشكرا كثيرا لها ، فلم يعد الحلف الفرنسي ـ السوفييتي ذا موضوع • وخلال الأزمة التشيكية كان سلوكها يحكم بابعاد أية امكانية فى المساعدة السوفييتية لتشيكوسلوفاكيا ، وفى نهاية تلك الأزمة ، كان الانذار البولندى لتشيكوسلوفاكيا المطالب بعودة اقليم تيزان هو ما جعل بينز يقرر فى النهاية ، بتقديره الخاص أن يتخلى عن أى فكرة في مقاومة اتفاقية ميونخ • كانت بولندا مطية أكثر فائدة لألمانية فى الشرق من ايطاليا فى البحر الأبيض • ولم يكن هناك سبب لتخلى كلتيهما عن ذلك الدور • كانت هناك عقبة كأداء فى كل من الحالتين : كان فى ايطاليا نحو ثلاثمائة ألف ألمانى فى جنوب التيرول ، وفى بولندا حوالى مليون ونصف ألمانى فى سيليزيا والممر • ولكن كان من الممكن التغلب على تلك العقبات ، كان هتلر مستعدا أن ينسى الألمان تحت حكم مغاير ، فى مقابل تعاون أو اخضاع سياسى • وفعل هذا مع ايطاليا ـ ووافق بالفعل على ترحيل الألمان من جنوب التيرول ـ بالرغم من أنه ـ كنمسوى ، كان يحس فى أعماقه بمسائلتهم •

وكان تعاطفه مع الألمان فى بولندا أقل عمقا ، ومن المحتمل أن ميول صداقته نحو البولنديين كانت تفوق ميوله نحو الايطاليين • وكانت العقبة هنا هى المشاعر الألمانية وليست أحاسيس هتلر • كان فقدان الأراضى لبولندا بالنسبة لمعظم الألمان ، الضيم الذى لايحمي لمعاهدة فرساى • وكان هتلر قد أخذ على عاتقه القيام بمهمة جريئة ضد هذا الحلف عندما انتهج أسلوب التعاون مع بولندا • ولكن كان هناك مخرج • كان من الممكن اغفال الألمان الحقيقيين تحت حكم بولندى ـ أو كان من الممكن سحبهم ، ولكن ما كان لا يمكن التسامح فيه هو « الممر البولندى » الذى فصل بروسيا الشرقية عن الريخ • وحتى فى ذلك أيضا ، كانت هناك ترضية ممكنة • فلقد كان من الممكن أن ترضى ألمانيا بمجرد عبر الممر انها فكرة كانت لها سوابق كثيرة فى التاريخ الألمانى •

وكان من الممكن تهدئة الشعور الالمانى باسترداد دانزج ۰ وكان هذا يبدو سهلا ، فدانزج لم تكن جزءا من بولندا ۰ وكانت مدينة حرة ، لها ادارتها المستقلة ذاتيا تحت رئاسة مستشار أعلى معين بواسطة عصبة الأمم ۰ وتولى البولنديون أنفسهم ، بكبريائهم الكاذب كدولة كبرى ، القيادة فى تحدى سلطة العصبة ۰ ولهذا ، وبالتأكيد ، لم يكونوا ليعترضوا اذا ما أخذت ألمانيا مكان العصبة ۰ وأكثر من هذا فان المشكلة تغيرت منذ سنة ١٩١٩ ۰ وبعد ذلك كان ميناء دانزج حيويا لبولندا ۰ والآن وبعد أن أنشأ البولنديون جديينيا Gdynia فان دانزج كانت فى حاجة الى بولندا أكثر من حاجة البولنديين الى دانزج ۰ وعلى ذلك فانه كان من السهل الترتيب بصيانة المصالح الاقتصادية البولندية ، وأيضا لاستعادة دانزج الى الريخ ۰ كان من الممكن التغلب على العقبة الكأداء ، وفى استطاعة ألمانيا وبولندا أن تعملا معا فى أوكرانيا ۰

وفى ٢٤ أكتوبر كشف ريبنتروب للمرة الأولى عن تلك المقترحات لليبسكى Lipski السفير البولندى ، اذا ما استقر وضع دانزج والممر ، فانه من الممكن أن تكون هناك سياسة موحدة تجاه روسيا على أساس حلف مناهضة الكومنترن (١) ۰ بل أن هتلر كان أكثر صراحة عندما زاره بك Beck وزير الخارجية البولندى فى يناير سنة ١٩٣٩ : « ان القوات العسكرية التى وضعتها بولندا على الحدود الروسية وفرت على ألمانيا نفقات عسكرية كبيرة » ثم أضاف « أن دانزج ألمانية بلا شك ، وستظل ألمانية ، وستصير جزءا من ألمانيا ان آجلا أو عاجلا ، فاذا ماحلت مسألة دانزج فسأكون على استعداد لضمان الممر البولندى(٢)۰ وربما كان هتلر يخدع البولنديين فيما يختص بدانزج فى كل هذا — مطالبا بعودتها كمقدمة لدمارهم ۰ ولكن مطامع بولندا فى أوكرانيا كانت بعيدة المدى ، وكانت دانزج تبدو شيئا تافها نسبيا ۰ « ولم يبق بك سرا عن حقيقة أن بولندا لها مطامع مباشرة تجاه أوكرانيا السوفيتية » ، وذلك عندما زار ريبنتروب وارسو فى أول فبراير (٣) ۰

---

(١) هنا استنادا الى رواية ليبسكى ۰ واقتصر ريبنتروب على مجرد تسجيل « من الممكن ان تذعن بولندا لحلف مناهضة الكومنترن ولكن الأمر ينتهى الى الشىء نفسه » ۰ سياسة ألمانيا الخارجية ، المجموعة د ، ٥ ، رقم ٨١ ۰

(٢) المحادثات بين هتلروبك ، ٥ يناير سنة ١٩٣٩ ، سياسة ألمانيا الخارجية ؛ مجموعتى (٧٢ ، رقم ١١٩) ۰

(٣) دفتر سجلات ريبنتروب ، أول فبراير سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ١٢٦ ۰

ومع ذلك لم يستجب البولنديون لعرض هتلر ــ وبالثقة العمياء فى قوتهم الذاتية واحتقارهم لليونة التشيكية ، أصروا على عدم التفريط فى بوصة واحدة ؛ وكما اعتقدوا كانت تلك هى الطريقة السليمة الوحيدة فى التعامل مع هتلر ــ وأكثر من هذا ــ وتلك نقطة لم يفهمها هتلر أبدا ــ بالرغم من أنه لم يكن من المحتمل أن يتعاونوا مع روسيا السوفيتية ضد ألمانيا ، فانهم كانوا عاقدى العزم بنفس الدرجة على عدم التعاون مع ألمانيا ضد روسيا السوفيتية . ونسوا أنهم كسبوا استقلالهم في سنة ١٩١٨ لا لشىء الا لأن كلا من روسيا وألمانيا كانتا قد هزمتا . والآن كان عليهم أن يختاروا بين ألمانيا وروسيا . ولم يختاروا أيا منهما . وانما منعت دانزج قيام التعاون بين ألمانيا وبولندا . ولهــذا السبب أراد هتلر أن ينحيها عن الطريق ولهــذا السبب نفسه ، تماما احتفظ بك بهـا فى الطريق . ولم يمر بخاطره أن هذا قد يتمخض عن ثغرة مهلكة .

ان سحابة التباعد الخفيفة بين بولندا وألمانيا لم تلاحظ فى أوربا الغربية . وعلى العكس فانه كان من المعتقد أن غزوة مشتركة لأوكرانيا كانت وشيكة الوقوع . وتساءل تشمبرلن فى قلق فى باريس عما اذا كانت الاتفاقية الفرنسية السوفييتية سوف تنفذ « اذا ما طالبت روسيا فرنسا بالمساعدة على أساس أن ألمـــانيا قامت بحركة انفصـــالية فى أوكرانيا (١) . وكان تشمبرلن يريد بشكل واضح ألا يقوم بشىء فى أوربا الشرقية . وكان هاليفاكس ، المدرب بوزارة الخارجية ، أقل دقة . وكتب الى فيبس فى أول نوفمبر : « انه شىء واحد ، أن نسمح بالتوسع الألمانى فى أوربا الوسطى ، الذى ــ يبدو بالنسبة لتفكيرى ــ شيئا عاديا وطبيعيا ، ولكن يجب أن يكون فى قدرتنا أن نقاوم التوسع الألمانى فى أوربا الغربية والا فان وضعنا جميعا سيقوض » . ان توازنا ضد ألمانيا كان لا يزال ضروريا . « ان بولندا يمكنها فقط ، على سبيل الاحتمال ، أن تسقط أكثر فى الفلك الألمانى .. ولكن أن تصبح روسيا السوفييتية .. حليفا لألمانيا طالما أن هتلر على قيد الحياة فهذا أمر نادر » . ولكن « نزولا فقط على الاعتبار الذى آمله فى أن تحمى فرنسا نفسها ــ وتحمينا ــ من أن تورطنا روسيا فى حرب مع ألمانيا ، فاننى يجب أن أتردد فى

---

(١) الاجتماع الانجليزى ــ الفرنسى ، ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثالثا ، رقم ٣٢٥ .

أن أنصح الحكومة الفرنسية فى أن تشجب الحلف الفرنسى ـ السوفيتى طالما أن المستقبل أبعد ما يكون عن التأكيد » (١) ٠

وبانجليزية واضحة : يجب على روسيا أن تحارب من أجل المصالح البريطانية ، ولكن على بريطانيا وفرنسا ألا تحاربا من أجل مصالح روسيا ٠

وعلى كل فلم يضع شىء لتأمين الصداقة السوفييتية ٠ كان الانجليز أكثر حرصا على الابتعاد عن مثل تلك الارتباطات فى أوربا الوسطى كما كانوا من قبل ٠ أما الضمان الذى وعدت به تشيكوسلوفاكيا عرضا ، فقد أصبح الآن عبئا ثقيلا عليهم ٠ كان حمقا واضحا ضمان سلامة دولة لا حول لها ومن المستحيل الدفاع عنها حتى فى حالة تسليحها تماما ٠ وتوسل الانجليز الى الفرنسيين أن يحلوهم من وعدهم ٠ وفى ٢٤ نوفمبر تقابل الوزراء الانجليز والفرنسيون فى باريس ٠ ودفع تشمبرلن بأن يكون الضمان جماعيا فقط ، « ان ضمانا قد أعطى بواسطة حكومة صاحب الجلالة فقط لا يعنى شيئا كبيرا ٠٠ وأنه لم يتصور أبدا وضعا يكون على بريطانيا فيه أن تنفذ التزامها بمفردها » ٠ وكان هاليفاكس يعتقد أن ضمانا مشتركا « لا يبدو غير متناسب مع خطاب الاعلان الانجلو ـ فرنسى » ٠وحتى بونيه تشامخ « انه غير متناسب مع روح الاعلان » ٠ وحيث أن الفرنسيين لن يذعنوا ، فانه قرر أن يسأل التشيك أن يخلصوا الانجليز من ورطتهم (٢) ٠ فان اكتفت تشيكوسلوفاكيا بالضمان الجماعى ، فان الضمير الانجليزى سيكون قانعا أيضا ٠ وعندما لم يستجب التشيك ، فقد هالفاكس صبره ٠

« ان حكومة جلالة الملك ليست على استعداد أن تنظر فى ضمان قد يلزمها ، بمفردها أو بالاتحاد مع فرنسا ، أن تقدم مساعدة لتشيكوسلوفاكيا فى ظروف لا يستطاع فيها تقديم المساعدة الفعالة . ويمكن أن يكون هذا فى حالة ما اذا كانت كل من المانيا وايطاليا هما المعتديتان وانحرف الآخر عن الوفاء بالضمان (٣) » ٠

وهكذا أصبح الوضع : التزم البريطانيون بضمان كانوا مصممين على عدم احترامه ٠

---

(١) من هاليفاكس الى فيبس ، أول نوفمبر سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا المرجع السابق ، رقم ٢٨٥ ٠

(٢) الاجتماع الانجلو ـ فرنسي ، ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ٣٢٥ ٠

(٣)من هاليفاكس الى نيوتن ، ٨ ديسمبر ١٩٣٨ : المرجع السابق ، رقم ٤٠٨

وفى خلال شتاء ١٩٣٨ كان البريطانيون فى شك بالغ بالنسبة للوضع فى أوربا الغربية ، منفصلين تماما عن التزاماتهم المستحيلة فى الشرق . وسرعان ما فقد فخر تشمبرلن الخاص . وهو الاعلان الانجلو ـ ألمانى عن الصداقة ، بريقه . وهدف هتلر الى « شرخ » الرأى العام الانجليزى . وافترض أن زيادة التسلح سوف تثير المعارضة بين الموالين للألمان ، كما شهر بتجار الحرب الانجليز ـ تشرشل ، وايدن وذوف كوبر ـ معتقدا أن هذا سوف يؤدى الى انفجار ضدهم . وكان لهذا تأثير عكسى . كان الأعضاء المحافظون فى مجلس العموم غير صبورين على تحذيرات تشرشل الرزينة ، وغضبوا عندما استقال كوبر . على أنهم استاءوا لتدخل هتلر فى شئونهم . كانوا يأملون فى عدم تدخل متبادل . فهتلر يستطيع أن يفعل ما يريد فى أوربا الشرقية ؛ يستطيع أن يقوض تشيكوسلوفاكيا أو يغزو أوكرانيا . ولكنه يجب أن يترك الساسة البريطانيين وشأنهم . وكان المحافظون يرددون دائما أن نقد هتلر من الخارج يقتصر على مجرد تقوية قبضته على ألمانيا . وكان هتلر يعطى لتجار الحرب فى بريطانيا آنذاك شعبية ما كان فى استطاعتهم أن يحصلوا عليها لأنفسهم . وكان الساسة البريطانيون حيارى ازاء سلوك هتلر . كانوا يعيدون التسلح لكى يزيدوا من أمنهم الذاتى . وقد يجعل هذا من الأسهل لهم أن يقبلوا تقدم القوة الألمانية فى أوربا الشرقية . ومع ذلك وبدل أن يثنى هتلر على سياستهم ، نسف أسسها وخرج من الخط الذى التزمه لكى يبرر نقدها . ومع ذلك فان هجومه لم يهز اصرار القادة البريطانيين على أن ألمانيا يجب أن يتم تهدئتها بطريقة أو بأخرى . لقد فشلت التنازلات الاقليمية والقومية فى تهدئة هتلر . وعلى هذا ارتد البريطانيون الى نوع من الماركسية الفجة . وبدءوا مرة أخرى فى مناقشة ان الرفاهية وحدها هى التى ستجعل هتلر هادئا . وظهر حشد من المفاوضين التجاريين فى ألمانيا يحملون عروضا سخية من التعاون الاقتصادى ، وفيها اغراء اضافى من الجانب البريطانى بأن تلك المشروعات سوف تدعم المساعدة الألمانية أمام المنافسة الأمريكية . وكانت كل زيارة لكل رجل أعمال له شأنه أو ممثل لهيئة التجارة تزيد من ايمان هتلر بضعف بريطانيا . ولم يكن ليدرى أنهم يقرءون فقط للكتاب اليساريين فى الأسباب الاقتصادية للحرب .

وكان لدى البريطانيين مشاغل أبعد مدى . فقبل ميونخ كانوا هم صانعى المسيرة نحو التهدئة ، وكان الفرنسيون يلهثون معترضين من

خلفهم . أما بعد ميونخ فقد أصبح الاتجاه مغايرا . كان بونيه غيورا من اتفاقية تشمبرلن الخاصة مع هتلر ، وتمنى أن يتفوق عليها . واعتقد ريبنتروب أن اعلانا فرنسيا - ألمانيا عن الصداقة سوف يهز الى مدى بعيد اصرار بريطانيا على التدخل فى أوربا . وفى ٦ ديسمبر زار باريس ، ووقع أعلانا فى هذا النوع . ولكنه كان فى حد ذاته لا يتضمن الا القليل : نوايا طيبة متبادلة واعتراف بالحدود ؛ واستعداد للتداول معا ، اذا ما أثيرت متاعب دولية فى المستقبل . وربما كان أحد أهداف الفرنسيين أن يتبرأ هتلر ، عن هذا الطريق الملتوى ، من الالزاس واللورين ، وربما استهوتهم ميونخيات فى المستقبل . وذهبت الاشاعة الى ما هو أبعد من هذا . وعلى هذا ، وافق ريبنتروب على ألا يضغط على المطالب الألمانية الخاصة بالمستعمرات ، وتبرأ بونيه ، فى مقابل هذا ، من كل المصالح الفرنسية فى أوربا الشرقية . ومن المحتمل أن مناقشتهم كانت أقل تحديدا وأقل سوء طوية . ومما لا شك فيه أن بونيه تراخى فى اظهار الاخلاص الملتهب للحلف الفرنسى السوفييتى . ولكن ماذا قيل عن التحالف الفرنسى مع بولندا ؟ لقد زعم ريبنتروب فيما بعد أن بونيه رفضها فعلا . وأنكر بونيه الادعاء . وتبدو الحقيقة : أن بولندا لم ينوه عنها . وفى ديسمبر سنة ١٩٣٨ كانت تبدو وكأنها لا تثير أى متاعب للعلاقات الفرنسية - الألمانية . فكلا الرجلين افترض أن بولندا تابعة وفية لألمانيا وأنه يجب أن تستقر دانزج دون أن تثير أزمة أوربية . وعلى كل حال ، فان هذا الافتراض اعتنقه البولنديون أنفسهم . ولم يكن مدهشا أن يشارك فى ذلك ريبنتروب وبونيه .

جعل الاعلان الفرنسى-الألمانى ، الانجليز قلقين . كانوا قد استحثوا فرنسا على أن تقطع التزاماتها بالنسبة لأوربا الشرقية ، ولم يكونوا يريدون منها أن تتخلى كلية عن مكانتها كدولة كبرى . وكانت تلك مشكلة كبرى . فاذا كانت ألمانيا حرة فى متابعة أهدافها فى أوربا الشرقية بدون تدخل فرنسا ، فانها ستصبح من القوة بحيث يكون أمن فرنسا « تحت التهديد الوشيك الوقوع » . واذا قررت الحكومة الفرنسية ، فى الجانب الآخر ، ألا تترك ألمانيا طليقة اليد فى أوربا الشرقية ، فان بريطانيا قد تجر الى حرب لمساندة فرنسا (١) . وارتد البريطانيون الى معينهم القديم من محاولة استخدام موسولينى كوسيط صاحب نفوذ معتدل على هتلر .

(١) من هارجنت الى فيبس ، ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٣٨ . سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثالثا ، رقم ٣٨٥ ، حاشية ١.

« وبعثت الحياة » فى اتفاقية ١٦ أبريل الانجليزية ـ الايطالية ، بالرغم من أن الايطاليين لم يحققوا نصها الخاص بسحب قواتهم من أسبانيا • وكتب هاليفاكس : « بالرغم من أننا لا نتوقع عزل ايطاليا عن المحور ، فاننا نعتقد أن الاتفاقية ستزيد من قوة موسولينى فى المناورة ، وبذلك تجعله أقل اعتمادا على هتلر وبالتالى أكثر حرية فى استعادة دور ايطاليا القليدى فى الوازن بين ألمانيا والدول الغربية (١) • وفى كلمات أخرى ، بدفع رشوة الى موسولينى ، سوف تشجعه على أن يطلب المزيد • ورد موسولينى الجميل لتوه • لقد سير حملة الى الحدود الفرنسية • وعادت ايطاليا تردد مطالبتها بكورسيكا وسافوى ونيس • ومهما يكن مقدار خشية فرنسا من هتلر فانها لم تكن تخشى موسولينى • وردوا بحسم على تحدى موسولينى • ولم يفعل الانجليز شيئا سوى مضايقة الفرنسيين دون استرضاء موسولينى • وفى يناير سنة ١٩٣٩ ذهب تشمبرلن وهاليفاكس الى روما • وعادوا بخفى حنين • وكان موسولينى يتوقع تنازلات على حساب فرنسا • ولكنه ، بدلا من ذلك ، تلقى ادعاء رفيع المستوى من تشمبرلن يتضمن بعض التأكيد بأن هتلر لن يدخل الحرب • « وكشف موسولينى عن أنيابه » ، وثار بهجوم على الصحافة البريطانية • وبدلا من ذلك حددت زيارة روما ، التى كانت مرسومة على أساس اعتبارها قمة سياسة تشمبرلن ، نهاية الوهم الايطالى • وأكثر من هذا ، فقد دفعت موسولينى الى مدى أبعد فى الجانب الألمانى بالرغم من أن الانجليز لم يعرفوا ذلك • وبعد الزيارة مباشرة ، أخبر الألمان أنه مستعد أن ينجز تحالفا رسميا • وعلى كل فقد قرر هتلر أن يلقنه درسا وتركه منتظرا •

ووضع البريطانيون أنفسهم بذلك فى حالة قلق بالغ ، وزادوا الطين بلة بمجهوداتهم فى الحذر • كان هاليفاكس ووزارة الخارجية يعتقدان أن هتلر « يضمر هجوما على الدول الغربية » (٢) • وتوقعوا هجوما على هولندا ، وعزموا على معاملة ذلك على اعتبار أنه « حالة حرب » • ووضع فى الاعتبار أيضا أن تكون سويسرا معرضة للخطر ، أو أن يقع هجوم جوى خاطف على انجلترا • كانت كل تلك الأشياء أضغاث أحلام بلا أساس • لم يكن هناك أدنى دليل على أن هتلر أعد على وجه الاطلاق

---

(١) من هاليفاكس الى فيبس ، أول نوفمبر سنة ١٩٣٨ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، ثالثا ، رقم ٢٨٥ •

(٢) من هاليفاكس الى ليند ساى ، ٢٤ يناير سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق ، رقم ٥ •

مثل تلك الخطط حتى على أبعد مدى • وكان نيفين هندرسون أكثر دقة عندما كتب فى ١٨ فبراير : « أن احساسى المحدد هو أن هتلر لا يفكر فى مغامرات فى هذه اللحظة » (١) لماذا يحب أن يفعل ذلك ؟ فأوربا الشرقية كانت تتساقط بين يديه • وكانت المجر ، ورومانيا ويوغوسلافيا تتنافس لمرضاته • وتخلت فرنسا عن أوربا الشرقيـة • وحيـل بين روسـيا السوفييتية والدول الغربية • وظلت بولندا على علاقات طيبة مع المانيا ، بالرغم من الفشل المثير فى ايجاد حل لموضوع دانزج • وأتت السحابة الوحيدة من تشيكوسلوفاكيا • ولم يكن ذلك لأنهـا تسـتطيع أن تتبع سياسة خارجية مستقلة عن المانيا أو عدائية لها • ولكن كما تنبأ كل من بينز وهتلر ، كان من المستحيل الابقاء على تماسك ضم الدولة وقد اهتزت الكرامة التشيكية وقوتها • وقدر القليل هذا الموقف فى الغرب • وبقى المعجبون بتشيكوسلوفاكيا صامتين بالنسبة له • وفى نظر الغرب ، كانت تشيكوسلوفاكيا دولة سـعيدة ديمقراطية ، جزئت باستهتار بواسـطة هتلر • وفى الحقيقة كانت دولة قوميات ، أوجدها التشيك الذين يمتلكون القدرة على المبادرة وأبقت عليها السلطة التشيـكية • وما أن تحطم هـذا حتى تبعه حالة الانحلال ، تماما كما تبع انهيار مملكة هابسبورج الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى •

ولم يقبل السلوفاك بصفة خاصة ، كشركاء على قدم المساواة • كان القليـل منهم يرغب فى أن يختفى فى الاندماج التشـيكوسلوفاكى الظاهرى • وأدى مطلب الحكم الذاتى للسلوفاك ، الى تذمر حتى خـلال العشرين سنة من التاريخ التشيكوسلوفاكى ، ثم ظهر على السطح بعد ميونخ • وناصر هتلر الحكم الذاتى السلوفاكى لكى يكيد المجر ، التى كانت سلوفاكيا مملوكة لهم أصلا • ولم تخلق الحركة بواسطته ، وانما اقتصر على مجرد انتهاز فرصتها ، كمـا فعـل بالنمسـاويين الألمـان ، والسوديت الألمان • وكان سيرضيه الحكم الذاتى السلوفاكى من خلال دولة تشيكوسلوفاكية خاضعة • ولم يكن السلوفاك راضين • فانهم وقد تحرروا من رعبهم القديم من براج ، ازدادوا هيـاجا • وفى نهـاية فبراير سنة ١٩٣٩ (وان كان ذلك قد تم فى أكتوبر السابق) ، كانت تشيكوسلوفاكيا تتحطم • وقد لا يكون هناك الا قدر ضئيل من الاستقلال قد ترك لحكومة براج ، ومع ذلك كانوا لا يزالون يشعرون بالقوة الكافية

---

(١) من هندرسون الى هاليفاكس ، ١٨ فبراير سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق ؛ رقم ١١٨ •

لأن يؤدبوا السلوفاك ــ وكان جديرا بهم أن يفعلوا هذا اذا ما كان على تشـيكوسلوفاكيا أن يكتب لها البقــاء • وفى ٩ مارس أقيلت الحكومة السلوفاكية الذاتية ، واستعدت القوات التشيكية للدخول • ومرة أخرى أخذ هتلر على غرة ، حلت عليه تلك الأزمة دون أن يتوقعها • ولم يكن فى قدرته أن يسمح للتشيك باستعادة كرامتهم المحطمة • ومن ناحية أخرى ، فانه اذا ما أصر على أن تبقى القوات التشيكية خارج سلوفاكيا فان المجريين قد يدخلون ، كمــا كانوا ينوون أن يفعلوا فى ســبتمبر السـابق • وبذلك تحول هتلر الآن ضـد المجريين ، وطالما أن الجيش التشيكى لا يستطيع أن يدخل سلوفاكيا لكى يصدهم ، كان عليه أن يفعل ذلك بنفسه •

وعلى عجل اعترفت ألمانيا باستقلال السلوفاك ، وبذلك تكون قد وضعت النهاية لتشيكوسلوفاكيا • ما الذى كان سيحل ببقايا التشيك ؟ لم يكن هناك من يقودها • فبيز كان قد استقال وغادر البلاد بعد ميونخ مباشرة • وكان خليفته هاشا Hacha محاميا متقدما فى السن بلا تجارب سياسية•ولم يكن فى استطاعته من خلال عجزه ويأسه الا يلجأ الى الديكتاتور الألمانى الكبير • وكما فعل سكوشنج من قبله طلب أن يقابل هتلر ، وحقق له طلبه • واستقبل فى برلين بالمراسيم الواجبة نحو رئيس دولة ، ثم أعطيت له التعليمات الخـاصة بتوقيـع التنـازل عن استقلال بلاده • كانت أى بادرة اباء تخمد بالتهديد بأن يتم هذا أو أن تقذف براج فورا بالقنابل • كانت هذه أكثر الخبطات العشـوائية فى مرتجلات هتلر الكثيرة • وكما اعترف فيما بعد (١) ، كانت المطارات الألمانية محوطة بالضباب ولا تستطيع أى طائرة أن تغادر الأرض • ولم يكن هاشــا فى حاجة الى اقناع • لقـد وقع كما طلب منه ، وان أضمر القليل من الاستياء لأنه خدم كتابع ألمانى وفى حتى نهاية الحرب • وفى ١٥ مارس أصـبحت بوهيميا محمية ألمانية • واحتلت القوات الألمانية الدولة • وقضى هتـلر ليلة ١٥ مارس فى براج ــ زيارتـه الوحيـدة الرسمية • ورأى كل العالم فى هذا نقطة التجمع لحملة خطط لها منذ زمن طويل • انها فى الحقيقة كانت المحصلة غير المرئية للتطورات فى سلوفاكيا ، وكان هتلر يعمل ضـد المجريين أكثر ممـا كان يعمـل ضـد التشـيك • كذلك لم يكن هناك ما هو سيىء أو متعمد فى فرض الحمـاية على بوهيميا• كان هتلر والمفترض أنه ثورى ، يرتد ببساطة بأقصى الاساليب

رجعية الى نمط القرون السالفة . فلقـــد كانت بوهيميا دائما جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت جزءا من الاتحاد الألمانى فيما بين سنة ١٨١٥ وسنة ١٨٦٦ ، ثم ضمت بعد ذلك الى النمسا الألمــانية حتى ســنة ١٩١٨ . وكان الاســتقلال ، وليس التبعية هو البدعة فى التاريخ التشــيكى . وبطبيعة الحال جلبت حماية هتلر الاســـتبداد لبوهيميا – البوليس السرى ، ورجال المخابرات ، ومعسكرات الاعتقال المركزية ، ولكن ليس بأكثر مما فى ألمانيا نفسها . وكان هذا هو ما أثار الرأى العام فى بريطانيــا . لقـــد كان سلوك هتلر المحلى ، وليست سياسته الخارجية ، هو الجريمة الحقيقية التى قذفت به – وبألمانيا – أخيرا الى الحضيض . ولم تكن تبدو هكذا فى هذا الوقت . لقد خطا هتلر الخطوة الحاسمة فى مستقبله عندما احتل براج . فلقد فعل ذلك دون خطة مرسومة ، ولم تعد عليه الا بفائدة قليلة . انه لم يتصرف الا عندما حطمت الأحداث بالفعل اتفاقية ميونخ من قبل . ولكن كل فرد خارج ألمانيا ، وخاصة صانعى الاتفاقية الآخرين ، يعتقدون أنه قد حطمها عمدا .

وحتى موسولينى ، كان ساخطا . واشتكى تشيانو فى ١٥ مارس. « فى كل مرة يحتل فيها هتلر بلدا يرسل لى رسالة » . كان يحلم بخلق جبهة معادية لألمانيا ، يكون أساسها المجر ويوغوسلافيا . وفى المساء ، استعاد هدوءه : « اننا لا نستطيع تغيير سياستنا الآن . فاننا بعد لسنا عاهرى ســياســـة » ، ومرة أخــرى أعرب عن ولائه للمحور . وتلقى الفرنســـيون الضربة الجديدة بلا شــكوى . لقد أذعنوا فى ســـــتمبر الماضى ، ولم يكن هناك ما يستطيعون عمله الآن . وقال بونيه فى بشاشة « ان الصدد المتجدد بين التشيك والسلوفاك لا يكشف الا عن اننا كدنا ندخل الحرب فى الخريف المــاضى لا لشىء الا لكى نعضد دولة لم يكن من الممكن وجودها » (١) وكان رد الفعل فى بريطانيا أكثر حسما – فحتى ١٥ مارس كان الشــعب الانجليزى لا يزال يحــاول الاعتقاد أن ميونخ كانت نصرا للحكم ، وليســت اذعانــا للقوة وبرغم انــذارات وزارة الخارجية ، اعتقد الوزراء القياديون أن كل شىء كان على ما يرام . وفى ١٠ مارس قال سير صامويل هور Samuel Hore لناخبيه أن عصرا ذهبيا يقترب ، فاعادة التسلح قد انتهت ، وان تعاونا بين الدول الأوربية الكبرى « سوف يرفع مستويات المعيشة الى درجة عالية لم نكن قادرين أبدا من

---

(١) من فيبس الى هاليفاكس ، ١٤ مارس سنة ١٩٣٩ : السياسة البريطانية الخارجية ، الجزء الثالث ، رابعا ، رقم ٢٣٤ .

قبل على أن نحاول بلوغها » . كذلك لم يهز اختلال براج فى البداية التفاؤل الرسمى . فلقد أخبر هاليفاكس السفير الفرنسى « أن الميزة التعويضية الوحيدة التى أراها هى أنها أدت بالالتزام المربك بعض الشىء للضمان الى نهاية طبيعية ، ذلك الالتزام الذى كنا نحن والفرنسيون نشترك فيه » (١) . وأعلن تشمبرلن فى مجلس العموم أن نهاية تشيكوسلوفاكيا « قد تكون أو لا تكون أمراً لا مفر منه » ، وشرح سير جون سيمون أنه كان من المستحيل الوفاء بضمان لدولة انتهت من الوجود .

وتبع ذلك انفجار كامن تحت السطح للرأى العام من ذلك النوع الذى لا يستطيع المؤرخ تتبعه فى دقة ، لم يمثل احتلال براج أى شىء جديد فى سياسة هتلر أو سلوكه ــ فلقد استسلم الرئيس هاشا بسهولة أكثر من سكوشنج وبينر وبرغبة أكبر . ومع ذلك فان الرأى العام البريطانى استثير . كما لم يستثيره (ابتلاع) النمسا أو التسليم بدون قيد أو شرط فى ميونخ . وافترض أن هتلر قد تجاوز الحدود . ان كلمته أصبح غير موثوق فيها مرة أخرى . وربما تكون التوقعات المبالغ فيها بعد ميونخ هى التى انتجت رد الفعل هذا . ذلك لأن الناس افترضوا ، بلا أى دليل ، أن « السلام لعصرنا » كان يعنى أنه لن يكون هناك تغييرات أبعد فى أوربا . ولربما كان هناك اعتقاد ، بلا أساس أيضا ، أن اعادة التسلح البريطانى أصبح الآن أكثر كفاية . ومرة أخرى أقلق الأمر « المربك » ضمان المحافظين ، وهو الأمر الذى افترضوا أنه كان يعنى شيئا حقيقيا . وبطريقة مستحيلة التحديد ، أصبح أولئك الذين أعطوا تحذيرات من هتلر ، يلقون آذانا صاغية حيث كان الناس ينكرونهم من قبل . وعمل المتنبئون بالهجوم من خلال المقدمات المنطقية المختلفة . ونظر البعض الى هتلر ، مثل تشرشل والأعضاء المعارضين لألمانيا فى وزارة الخارجية ، باعتباره آخر المتحدثين عن العسكرية البروسية . وعزا الآخرون اليه الخطط الجديدة والضخمة التى أدعوا أنهم اكتشفوها بقراءة « كفاحى » فى الأصل (كان هتلر قد منع نشره بالانجليزية) . أما البعض الآخر ، وخاصة اليسار ، فقد وصفوا الاشتراكية الوطنية على أساس الماركسية باعتبارها « المرحلة الأخيرة للعدوان الامبريالى » أو اعتقدوا أن هتلر لابد أن يتبع منهجا عدوانيا لكى يرضى الرأسماليين الألمان . وكانت كراهية معاداة السامية هى الباعث

(١) من هاليفاكس الى فيبس ، ١٥ مارس سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق ، رقم ٢٨٠ .

للكثيرين ، وكانت الصداقة للتشيك أو البولنديين ذات أثر قليل · وكان البعض يريد تحرير ألمانيا ، والآخرون يريدون هزيمتهـا · أما ألوان العلاج فكانت متعددة : الأمن الجماعي ، العقوبات الاقتصادية ، زيادة الأسلحة البريطانية · ولم تكن الاختلافات شيئا هاما فلقد قال كل « المتنبئين » ان هتلر لن يبقى راضيا أبدا : سوف يسير من نصر الى آخر ، ولا يمكن ايقافه الا بالقوة أو بالتهديد بالقوة · وسرعان ما نفذت أصواتهم مخترقة قشرة الريبة تماما مثلما يفلق الماء الحجر · لقد بدا أنهم برهنوا على أنهم على صواب وأن « دعاة التهدئة » خاطئون · ولم يكن التغيير نهائيا أو حاسما · كان لا يزال هناك أمل فى استرضاء هتلر على أساس العزم على مقاومته ، تماما كما كان هناك فى الماضى اتجاه للمقاومة تحت سطح القشرة الأولى للتهدئة · ولكن منذ ان التزم دعاة التهدئة جانب الدفاع ، أصبح من السهل صرفهم عن عملهم وهم فى دهشة من فشلهم ·

كان لتغير الرأى العام تأثيره على تشمبرلن ـ تفاعل آخر لم يستطع المؤرخون اثبـاته ـ ربما قدم زعماء الحكومة تقارير حافلة بسوء الظن وهم فى المقاعد الخليفة · وربما يكون هاليفاكس قد أنصت مرة أخرى لصوت الضمير فى ساعات الليل · وربما لم يكن هناك شىء من الوضوح يمكن القطع به ، وانما مجرد متواليات ، تركة من الشكوك والحنق هزت ثقة تشمبرلن السابقة · وبكيفية ما ، وفى مكان ما ، استقر فى ذهنه أنه يجب أن يرد بشكل أكثر قوة على احتلال هتلر لبراج · وفى ١٧ مارس استدعى نيفيل هندرسون من برلين ، ظاهريا للاستشارة ، واحتجاجا فى حقيقة الأمر · وفى ذات المسـاء خطب تشـمبرلن فى برمنجهام ، وتساءل : « هل هذا هو الهجوم الأخير على دولة صغرى ، أم انه سيتبعه هجمات أخرى ؟ أهو فى الحقيقة ، خطوة فى اتجاه محاولة السيطرة على العالم بالقوة ؟ » انه لا يزال يبرر اتفاقية ميونخ · لم يكن « فى امكان أحد انقاذ تشيكوسـلوفاكيا من الغزو والدمار » ، حتى بعد حرب ظافرة ، « اننا لم يكن فى استطاعتنا مطلقا اعادة بناء تشيكوسلوفاكيا كما حددت فى معاهدة فرساى · « كان لا يزال » غير مستعد أن يشغل تلك الدولة بارتباطات جديدة غير محددة تعمل تحت ظروف لا يمكن الآن التنبؤ بها · « ولكن تشمبرلن استجاب أيضا الى النداء الذى جاء من زعماء الحزب ، ومن ضمير هاليفاكس ، أو من ضميره الخاص · انه لن يضحى من أجل السلام ، « بالحريات التى تمتعنا بها مئات السنين » ، و « أية محاولة للسيطرة على العالم بالقوة هى التى يجب على الديمقراطيين

أن يقاوموها » . وظل التحذير نظريا . واستمر التحدى للسيطرة على العالم باديا لتشمبرلن « لا يمكن تصديقه » ، وعلى كل فقد تم الانذار .

هنا كانت نقطة التحول فى سياسة بريطانيا . انها لم تكن مقصودة على هذا النحو . رأى تشمبرلن فيها تغييرا فى التأكيد وليس تغييرا فى الاتجاه . وفيما سبق كانت الحكومة البريطانية تحذر هتلر بشكل دائم سرا ، بينما كانت تتبع سياسة الترضية علنا . والآن حذروه علنا واستمروا فى أسلوب الترضية سرا ، وعلنا فى بعض الأحيان . لقد اعترفت بريطانيا بالسلطات الألمانية فى بوهيميا ، وسلمهم بنك انجلترا أكثر من ٦ ملايين جنيه من الذهب التشيكى . وبذلك حدد هور موقف الحكومة البريطانية مستمدا العبرة من الماضى : « ان درس براج ليس معناه أن مجهودات أبعد مدى للسلام كانت متمرة ، وانما الأقرب الى الصواب ، انها بدون قوة أكبر تساندها ، كانت المفاوضات والاتفاقيات مع هتلر غير ذات قيمة دائمة » (١) . لقد ظلت اتفاقية شاملة مع هتلر شغل الانجليز الشاغل ، ولقد وضعوا العقبات فى طريقه عسى أن يستهويه استعداد أكبر للاتفاق . لم يكن الوزراء البريطانيون يخفون الهزيمة فى الحرب ، وان كانوا بطبيعة الحال يفزعون من الحرب فى حد ذاتها . كانوا يفترضون أن موقف بريطانيا وفرنسا الدفاعى آمن بشكل مطلق ، وافترضوا أكثر من هذا ، أنه اذا خاضت انجلترا وفرنسا الحرب مع ألمانيا ، فانهم سينتصرون ، بل لقد افترضوا أن هتلر يسلم بهذا . أما ما كانوا يخشونه ، ولهم بعض التبرير ، فهو أن هتلر ربما اعتمد على موقفهم جانبا . وعلى هذا اتخذوا من الخطوات ما يبرهن على أنهم لن يفعلوا هذا . وفرضت الخدمة العسكرية الاجبارية من نوع محدود فى نهاية ابريل ، وبذلت الضمانات للدول المفترض تهديدها . ولم تكن الخطوات عملية أو كانت استعدادات فعالة لحرب عامة ، وانما كانت تحذيرات ، رسمت لتجنب مثل تلك الحرب . واشتكى الكثيرون من أن تلك الخطوات كان ينقصها صدق الاخلاص . وكان هذا متعمدا . وظل الباب مفتوحا للمفاوضات ، وكان الضغط يتوالى على هتلر لكى يدخل ، وجاهدت الحكومة البريطانية لتحفظ التوازن . وكما تزايدت التحذيرات ، كثرت الاغراءات أيضا . يجب أن « يردع » هتلر ، ولا يجب أن « يستفز » .

كان ذلك هو النمط المثالى الذى حاولت السياسة البريطانية أن

---

(١) تمبلوود ، تسع سنوات عصيبة ، ص ٣٧٧ .

تتبعه . ومن الناحية العملية ، دفع البريطانيون بشكل أكبر بالأحداث وبشكل أقل بالتحكم فيها بأكثر مما رغبوا فى التفكير فيه أو فيما صنعوه مؤخرا . وفور الاحتلال الألمانى لبراج ، توقعوا ، دون الاستناد الى دليل ، تحركات ألمانية فى مكان ما . واعتقد الفرنسيون أن هتلر سيؤيد مباشرة المطالب الايطالية فى شمال أفريقيا ، واعتقد الانجليز انه قد يشن هجوما خاطفا على أسطولهم . فاستدارت آذانهم للاستماع الى انذارات أخرى . وسرعان ما جاء أحدها . ففى ١٦ مارس ظهر تيليا ، وزير رومانيا المفوض فى لندن فى أروقة وزارة الخارجية باخبار أن بلاده فى خطر وشيك . وعاد مرة أخرى فى اليوم التالى وهو أكثر الحاحا : أن القوات الألمانية قد تدخل رومانيا فى أية لحظة . كان الانذار غير صحيح . فقد أنكرته بشدة الحكومة الرومانية ووزير انجلترا المفوض فى بوخارست . كانت رومانيا فى حقيقة الأمر قد أجبرت على أن تدخل ضمن فلك الاقتصاد الألمانى ـ ولكن بضغط التجارة الخارجية المرسومة ، وليس بتهديد الفرق العسكرية الألمانية . كان ابتكار شاخت بعقد محالفة ثنائية عن طريق بذل الضمانات السياسية مثل صيد حيوان ضخم بقطيع من كلاب الصيد ـ شىء لطيف ولكن غير فعال . وربما كان تيليا يلعب لعبته من أجل قرض بريطانى عندما أثار التحذير . وربما كان يشارك فى سوء الفهم البريطانى . وعلى كل ، فقد بلغ الوزراء الانجليز الانذار ، ورفضوا انكاره . وكان لابد أن يتم فورا عمل شىء كتظاهر ضد مزيد من زحف الألمان . وفى ١٩ مارس كتب تشمبرلن بنفسه مسودة بيان للأمن الجماعى ، ودعيت الحكومات الفرنسية والسوفييتية والبولندية لتوقيعه . كان لابد أن يتعهدوا « فورا باجراء مشاورات جماعية عند وجوب اتخاذ خطوات لبذل مقاومة موحدة ضد أى نشاط يشكل تهديدا للاستقلال السياسى لأية دولة أوربية » . وبرغم غموض عبارات الاقتراح وعدم وضوحه ، فقد تداخل فى الواقع مع التهديد المفترض حدوثه لرومانيا ومن ثم مع اختيار الموقعين المقترحين .

وافق الفرنسيون فورا . فقد كانوا من قبل ملتزمين باستشارة بريطانيا فى كل شىء تقريبا . واستشارات أبعد لن تضربهم ، بل على العكس ، سوف تهون من عبء تحالفهم مع رومانيا ، الذى كان لا يزال قائما نظريا . ووافق الروس كذلك : انه الأمن الجماعى الذى دافعوا عنه دائما . ولكنهم كانوا مصممين على ألا يعرضوا لمقاومة ألمانيا وحدهم « فجبهة السلام » لابد أن تكون صلدة قبل أن ينضموا اليها . وعلى هذا أضافوا شرطا : لابد أن توقع فرنسا وبولندا أولا . ولم تكن فرنسا

عقبة • على أن « بك » كان يمثل اعتراضا ، وقد استخدمه • كان لايزال يهدف الى أن يوازن بين روسيا وألمانيا ، وسوف يجعله البيان مرتبطا بالجانب الروسى • كان على استعداد لأن يوقع بيانا مباشرا مع بريطانيا • وكان يظن أن هذا سيقوى من قبضته على دانزج دون استفزاز سخط ألمانيا • وحرص على ألا يخبر الانجليز بأن المفاوضات مع ألمانيا كانت قد بلغت حد الفشل • بل على العكس ، كان مضمون كلامه أن موضوع دانزج سرعان ما سيستقر • ومرة أخرى أخذ البريطانيون جانب الحذر • كانوا يخشون من أن تنجذب بولندا الى ألمانيا ، كما حدث فى سنة ١٩٣٨ • وكانت مشاركة بولندا « فى جبهة السلام » تبدو لهم أمرا حيويا • ففى استطاعتها وحدها أن تجعل التهديد بجبهة ثانية ، حقيقة • انها كما وصفها بونيه بموافقة هاليفاكس فى ٢١ مارس :

« كان شيئا مطلق الاهمية أن تنضم بولندا ، فالمساعدة الروسية لن تكون فعالة الا بزمالة بولندا . فاذا اشتركت بولندا ، كان فى استطاعة روسيا تقديم مساعدة كبرى ، فان لم تشترك ، فان روسيا لن تعطى الا قدرا ضئيلا (١) » .

كان رأى بريطانيا فى الجيش الأحمر لا يشرفه • وقد بالغوا بلا تحريات ، فى تقدير قوة البولنديين المقاتلة ــ « تلك الدولة العظمى الشجاعة » على حد تعبير تشمبرلن • ومما لا شك فيه أنهم ارتاحوا كذلك لعدم الاشتراك مع روسيا البلشفية ، ومن أن يحرزوا بديلا • وكتب تشمبرلن فى ٢٦ مارس « لابد لى أن أعترف بعدم الثقة فى روسيا الى درجة لا حد لها • ليس عندى أى ايمان بأية صورة من الصور فى قدرتها على شن هجوم فعال ، حتى ولو توفرت لديها الرغبة • لست أثق فى دوافعها ، التى تبدو لى على ارتباط ضئيل بأفكارنا عن الحرية ، وأن شغلها الشاغل هو جر أى فرد آخر من أذنيه » (٢) • ولكن الجغرافيا على بساطتها كانت العامل الحاسم • كانت بولندا جارة لألمانيا ، أما روسيا فلم تكن •

ولم يفكر الانجليز فى أنهم باختيارهم بولندا ، قد يفقدون روسيا • وكان عند هاليفاكس ، بموهبته فى رؤية الشىء بزاويتيه ، بعض الايحاء فى هذا • لقد قال فى ٢٢ مارس « انه لشىء سيىء الحظ اذا

---

(١) المحادثات بين هاليفاكس وبونيه ، ٢١ مارس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، رابعا ، رقم ٤٥٨ .
(٢) تشمبرلن ، تأليف فيلنج ، ص ٤٠٣ .

وصل بنا الأمر الان حـدا يجعلنا نعمل كمـا لو أننـا نعطى الحكومـة السوفييتية فكرة بأننا ندفعها الى اتخاذ جانب واحد » (١) • ولم تتخذ أية خطوات لازالة هذا الأثر • لم يكن فيها ما يظن بأنه ضرورى • كان الانجليز مقتنعين فى صلابة بأن روسيا السوفييتية وألمانيا النازية أعداء لايمكن التوفيق بينهما • وعلى هذا فلم تكن هناك حاجة لدفع ثمن للصداقة السوفييتية • وكان من الممكن لموسكو أن تستجيب لأية ايماءة انجليزية عارضة • فاذا لم تفعل ، فلن تكون هناك خسارة ما • ان « الحياد الاحسانى » من روسيا السوفييتية ، قد يكون بنفس مستوى فائدتها كاشتراكها فى حرب — وأفضل فى الحقيقة ، طالما أنها لن تزعج بولندا ورومانيا(٢) • ان « جبهـــة السـلام » يمكن أن تـكون أقوى ، وأكثر استقرارا وأكثر احتراما ، لو أن الاتحاد السوفيتى ظل خارجها • وعلى أية حال يمكن دعوته للاتحاد اذا ما وافق الآخرون ، وبالأخص بولندا •

وفى هذه الأثناء ، تبع ذلك انذار آخر ، كان يبدو أنه يوضح أن ألمانيا لم تكف عن مسيرتها • وجاء هذا الانذار من ميمل ، وميمل تقع فى طرف الركن الشمالى الشرقى لبروسيا الشرقية • وبالرغم من أن أغلبيتها من السكان الألمان مثل دانزج ، فقد ألحقت ، بطريقة شاذة بعض الشىء ، بليتوانيا بعد الحرب العالمية الأولى • وكان السكان يرغبون فى العودة الى ألمانيا • وكان هتلر يقف حائلا دونهم — ربما مخططا لاســتخدام ليتوانيا كحليف ضد بولندا ، أما الأكثر احتمالا فهو التلويح بها كتعويض لبولندا فى حالة تحالف ألمانى بولندى • وأثار الاحتلال الألمانى لبراج شعب ميمل الى هياج أفلت معه الزمام ، ولم يعد هناك ما يوقفهم • وفى ٢٢ مارس جاء وزير خارجية ليتوانيا الى برلين ، حيث وافق على تسليم ميمل فورا • وفى ٢٣ مارس تمت عملية ضمها ، وزار هتلر ، بعد عودته من براج مباشرة ، المكان الجديد الذى حصل عليه • وقد سافر بطريق البحر ، وهى احدى رحلاته البحرية القليلة المسجلة • ولقد قيل له انه قد أصيب بدوار البحر ، وربما كان هذا هو الذى أعطاه سببا عمليا للاستياء من الممر البولندى • وبدا ضم ميمل وكأنه يتضمن خطة ألمـانية تم نضجها على مدى طويل • وليس من الممكن العثور على مثل تلك الخطة فى السجلات • وظهر موضوع ميمل وكأنه انفجر من تلقاء نفسه • وعلى

---

(١) المحادثات الانجليزية الفرنسية ، ٢٢ مارس ١٩٣٩ : سياسـة بريطانيـا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، رابعا ، رقم ٤٨٤ .

(٢) من هاليفاكس الى كينارد ، ٢٧ مارس سنة ١٩٣٩ : المرجع السـابق ، رقم ٥٣٨ •

أيه حال فقد كان الغرض من ضمها ، اذا ما كان له غرض ، هو التحضير لعقد صفقة مع بولندا : فميمل قد تفهم على أنها عوض لدانزج • ومما لا شك فيه أنه كان هناك أيضا عنصر من التحذير : ان ما حدث فى ميمل قد يحدث فى دانزج أيضا • ولكن تلك النتائج لم تلق عناية جدية ، ولم تلعب ميمل أى دور فى العلاقات الألمانية البولندية التالية •

وفى هذا الوقت ، أضاف الضم الحاحا جديدا للسياسة البريطانية ، وبدا خلق « جبهة السلام » على الفور أمرا حيويا للانجليز ، وهنا تحول كل شىء الى بولندا • فاذا ما كان فى الاستطاعة كسبها ، فستكون « جبهة السلام » ثابتة الدعائم ، فان هى ظلت خارجها فسيكون من الصعوبة ايجادها • ولم يفترض الانجليز أن بولندا نفسها كانت فى خطر وشيك من ألمانيا • بل على العكس ، كانوا يخشون من أنها قد تختار الجانب الألمانى ، وعلى الأخص وميمل ما ثلة أمام الأنظار • وكذلك ، لم يشعر البولنديون بأى خطر • وكانوا لا يزالون مقترحون أن يتبعوا ، واضعين ألمانيا فى اعتبارهم ، دورا مستقلا وان كان مطابقا لما فعلوه من قبل خلال أزمة ميونخ • كانوا ساخطين من أن هتلر قد أنشأ سلوفاكيا دون استشارتهم ، ودون أن يقدم لهم أية مكاسب • وأصروا على تأكيد مساواتهم • وفى ٢١ مارس استدعى « ليبسكى » ريبنتروب واحتج على سلوك ألمانيا ازاء سلوفاكيا ــ الذى يمكن اعتباره كأنه ضربة ضد بولندا » • وكان ريبنتروب فى موقف ضعيف وكان يعرفه • ولكى يحمى نفسه أعد بدوره الشكايات • فشكا من أن الصحف البولندية كانت تسلك سلوكا سيئا : « ان تجمدا تدريجيا فى العلاقات الألمانية البولندية قد صار شيئا واضحا » يجب اعادة دانزج الى الريخ • ان هذا قد يربط بولندا بالجانب الألمانى • وعندئذ يمكن أن يكون هناك ضمان ألمانى بالنسبة للممر ، ومعاهدة عدم اعتداء لمدة خمس وعشرين سنة ، و « سياسة مشتركة فى أوكرانيا (١) • وذهب ليبسكى لكى يضع هذا العرض أمام « بك » • كان التعاون مع بولندا لا يزال أمل ألمانيا ، وكانت دانزج مجرد الضمان له • وقد اعتقد هتلر نفسه هذا • وفى ٢٥ مارس أصدر أمرا عسكريا :

« ان الفوهرر لا يرغب فى أن يحل موضوع دانزج بالقوة • انه لا يريد أن يدفع بولندا فى ذراعى الانجليز بهذا • ان امكانية احتلال

---

(١) مذكرات ريبنتروب ، ٢١ مارس سنة ١٩٣٩ : سياسة ألمانيا الخارجية ، المجموعة الرابعة ، سادسا ، رقم ٦١ •

دانزج عسكريا يمكن أن ينظر فى أمره فقط اذا ما أعطى ليبسكى دليلا على أن الحكومة البولندية لا تستطيع تحقيق التنازل الاختيارى عن دانزج لشعبها · وان الحقيقة الواقعة قد تجعل الحل أسهل لهم (١)

كان هدف هتلر هو التحالف مع بولندا وليس تحطيمها · وكانت دانزج أولية منهكة اذا ما أريد ازاحتها عن الطريق · ومثلما حدث في الماضى ابقاها « بك » في الطريق · وطالما أن دانزج كانت تقف بين بولندا وألمانيا ، كان فى استطاعته أن يتجنب العرض المربك لتحالف ألمانى ، وهكذا على حد تفكيره ، يحفظ استقلال بولندا ·

نجحت تقديرات «بك» ، وان لم تكن بالدقة كما كان يقصد · وفى ٢٦ مارس عاد ليبسكى الى برلين ، وأحضر معه رفضا حاسما للاذعان بالنسبة لدانزج ، وان لم يكن رفضا للتفاوض · وحتى تلك اللحظة كان كل شيء يسير فى سرية ، بدون تلميح علنى للتباعد الألمانى-البولندى · والآن تكشف الأمر للعيان · واستدعى «بك» الاحتياطى البولندى ، لكى يظهر تصميمه · وسمح هتلر للمرة الأولى للصحافة الألمانية أن تكتب عن الأقلية الألمانية فى بولندا ، وذلك لكى يهون الأمور كما افترض · وثارت اشاعات عن تحركات للقوات الألمانية تجاه الحدود البولندية ، تماما مثلما كانت هناك اشاعات مماثلة من قبل عن تحركات المانية ضد تشيكوسلوفاكيا فى ٢١ مايو سنة ١٩٣٨ · كانت تلك الاشاعات الجديدة - مثل السابقة - بلا أساس · وكان يبدو أن البولنديين هم البادئون باثارتها · ومهما يكن من شيء فقد عاونهم فى طريقهم بعض القادة الألمان الذين أعلنوا بأنهم معارضون لهتلر · لقد « حذر » هؤلاء القادة الحكومة البريطانية · بأى هدف ؟ ألكى تروع بريطانيا هتلر بتهديده بالحرب ؟ أم لكى تخدعه فى حربه بأن تجعل البولنديين يتنازلون عن دانزج ؟ ربما كان ربطا بين الأمرين مع ميل نحو الثانى · وعلى أية حال فقد أوجز هؤلاء القادة ذلك لمراسل « النيوكرونكل » الذى كان قد أبعد لتوه عن ألمانيا ، وفى ٢٩ مارس أذاع هو بدوره التحذير فى وزارة الخارجية · ووجد آذانا مخلصة · وبعد احتلال براج والانذار المزعوم لرومانيا كان الانجليز مستعدين لتصديق أى شيء · ولم يعيروا دانزج التفاتا · لقد ظنوا أن بولندا نفسها كانت فى خطر وشيك ، وأنها قابلة للاستسلام · ولم يأت أى انذار - وهذا أمر حقيقى - من السفير البريطانى فى برلين · على أن

(١) امر عسكرى من الفوهرر ، ٢٥ مارس سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق ، رقم ٩٩ ·

وزارة الخارجية كانت قد ضللت الطريق بواسطته فى مناسبات سابقة . أو هكذا تصورت ، والآن كانت تفضل تقارير الصحفيين · كان يبدو أن عملا سريعا أمر ضرورى اذا ما أريد تقوية أعصاب البولنديين وانقاذ « جبهة السلام » ·

وفى ٣٠ مارس كتب تشمبرلن بيده مسودة تأكيد ضمان للحكومة البولندية :

« انه .. فى حالة اتخاذ اى اجراء يهدد صراحة استقلالها ، والذى تشعر معه الحكومة البولندية بالتالى بأنها مضطرة للمقاومة بواسطة قواتها الوطنية ، فان حكومة جلالة الملك والحكومة الفرنسية سوف تمنحانها كل العون الذى فى وسعهما » .

وكان «بك» فى تلك الأمسية يتشاور مع السفير البريطانى فى كيفية انجاز اقتراحه الذى قدمه منذ أسبوع مضى عن اعلان تصريح عام ، عندما وصلت برقيته من لندن · وقرأ السفير تأكيد تشمبرلن · واقتنع به «بك» «بين نفضتين من رماد سيجارته» · نفضتان ، ثم يجب أن يموت المشاة الانجليز من أجل دانزج · نفضتان ، ووقعت بولندا العظمى المزعومة ، والتى خلقت فى سنة ١٩١٩ ، تفويض موتها · كان التأكيد بلا قيد أو شرط : وكان على البولنديين فقط أن يحكموا ما اذا كان يجب اعلانه · كان البريطانيون لايستطيعون الضغط طويلا على تنازلات من أجل دانزج ، وبالمستوى نفسه كانوا لا يستطيعون حث بولندا على التعاون مع روسيا السوفييتية · كانت ألمانيا وروسيا تعتبران فى الغرب دولتين خطيرتين ، تحكمان حكما ديكتاتوريا ، وتستخدمان أقسى الوسائل · ومع ذلك فانه منذ تلك اللحظة توقف السلام على افتراض أن هتلر وستالين ربما يكونان أكثر ادراكا وحذرا مما كان تشمبرلن ــ ان هتلر قد يستمر فى قبول شروط فى دانزج يعتبرها معظم الانجليز غير محتملة ، وأن ستالين سيكون مستعدا أن يتعاون على أساس شروط واضح فيها عدم المساواة · ولم تكن هذه الافتراضات قابلة التحقيق ·

كان هناك افتراض آخر فى السياسة البريطانية : ان فرنسا ستسير بلا تذمر أينما اختار الانجليز أن يقودوها · لقد أبلغ تأكيد ٣٠ مارس بالفعل الى «بك» باسم فرنسا تماما كما كان باسم انجلترا ، قبل أن يستشار الفرنسيون · ولم يكن لهم أى خيار غير القبول · بالرغم من الحنق الملاحظ ، فى رأيهم من أن بولندا لم تكن فى خطر وشيك ــ وكان لهم عذرهم فى أن يبدوا متبرمين · فلم يكن لدى البريطانيين أية وسائل

عملية للوفاء بتأكيدهم ، كان تصريحا من الكلمات فقط . وبترجمته الى أسس عملية ، يمكن فقط أن يكون وعدا بريطانيـــا بأن الفرنسيين لن يتراجعوا عن تحالفهم مع بولندا ، كما فعلوا كذلك مع تشيكوسلوفاكيا . ومع ذلك كان لدى الفرنسيين معلومات ثابتة جعلتهم يشكون فى القوة المقاتلة للجيش البولندى ، وكان عليهم التزام أدبى ضئيل بالنســـبة لبولندا ، وذلك عقب الدور الذى لعبته ضد تشيكوسلوفاكيا . وحسمت نفضتا رماد «بك» هذا الموضوع أيضا . وفى سبتمبر سنة ١٩٣٩ كان على فرنسا أن تحارب من أجل شبح عظمتها السابقة عندما ضحت بالجوهر فى ميونخ السنة السابقة .

وسرعان ما تردى الانجليز فى الشــقوق التى أحـدثوها بصـورة أكثر مما قدروها : فلم يكن هناك شرط بأن يكون البولنديون فى دانزج ، ولا وعد من بولندا بتأييد لرومانيا ، ولا أمل بأن تتعاون بولندا مع روسيا السوفييتية . وصمموا على علاج تلك الفجوات عندما جاء «بك» الى لندن فى الأيام الأولى من أبريل . وخابت آمالهم . لقد وقف «بك» أمام هتلر دون أن يجفل ، ولم يكن قابلا لأن تحركه الحوافز الرقيقة من تشمبرلن وهاليفاكس . وبكبريائه فى « القوة الكبرى » المعتــادة ، كان مهيئا أن يقلب الضمان البريطانى ذا الجانب الواحد الى حلف مساعدة متبادلة — « الأساس الوحيد الذى تقبله أى دولة لها احترامها الذاتى » . والا فانه متشبث برأيه فى عناد . انه « لم يلاحظ بوادر نشاط عسكرى خطير من جانب ألمانيــا » ، « ولم تجر أية مفاوضات » حول دانزج ، « ولم تنــكر الحكومة الالمانية الحقوق البولندية فى دانزج ، وقد أيدتها أخيرا » ، « واذا ما كان عليه أن يساير ما يقوله الألمــان أنفسهم ، فانه يقول ان أهم قضية هى مسألة المستعمرات » . وبذلك فانه يكون من السماحة كما هو مفهوم ضمنا حتى ليظهر بولندا وكأنها كانت تمنح جميلا لبريطانيا بالموافقة على حلف . ولكنه أصر على أن يكون التحالف مقصورا بين الاثنين ، وتلاشت « جبهة السلام » والأمن الجماعى من فوق المسرح . ومد الاتفــاق بحيث يشمل رومانيا كان شيئا خطيرا جدا . ان هذا قد يدفع المجر بين يدى المانيا ، و « فى حالة نزاع بين بولندا وألمانيا ، فان المســاعدة التى قد تتوقعها بولندا من رومانيا ستكون ضئيلة بحيث يمكن تجاهلها » . وكان « بك » أكثر حزما ضد أى ارتباط بروسيا السوفييتية . » لقد كان هناك شيئان يستحيل على بولندا أن تفعلهما ، بمعنى أن تجعل سياستها معتمدة على أى من برلين أو موسكو ... ان أى حلف بمساعدات متبادلة بين بولندا وروسيا السوفييتية ســـيؤدى الى رد فعل عدائى سريع من برلين ومن

المحتمل أن يعجل ، بنشوب نزاع » • ان البريطانيين يستطيعون التفاوض مع روسيا السوفييتية اذا ما رغبوا فى ذلك ، بل يستطيعون أن يتعهدوا بالتزامات تجاهها • « ان تلك الالتزامات لن تشمل بأية حال الالتزامات المتكفل بها من قبل بولندا » (١) •

قبل تشمبرلن وهاليفاكس هذه المهارة الفنية بلا احتجاج تقريبا • ولم تلق أقوال «بك» شيئا من النقد المريب الذى لقيته مثيلاتها من أقوال دلادييه • ولم تكن هناك أية محاولة للاستقصاء عن قوة بولندا أو مناقشة مزايا المصالحة • لقد عجل انذار ٣٠ مارس المزيف الحكومة البريطانية على بذل الضمان لبولندا • والآن يستطيع «بك» أن يملى شروطه ، وأن يجنى ثمارها الكاملة • ولم تنضم بولندا « لجبهة السلام » • ولم يكن هناك وعد بتأييد بولندى لرومانيا ، كما كان هناك فى الواقع اعتراض بولندى على علاقات أوثق بروسيا السوفييتية • ولم يترك المجال للبريطانيين لفتح أية ثغرة للتوسط فى موضوع دانزج • وكان على التحالف الأنجلو ـ بولندى أن يظل مهمة معزولة ، بلا أى شركاء فيما عدا فرنسا دون تطابق عام • لم يصدق «بك» أن بولندا مهددة من ألمانيا ، كان يريد ببساطة أن يقوى موقفه المساوم فى دانزج • ولم تكن دانزج تعنى الانجليز فى شىء ، وحتى ان اهتموا فانما تعاطفا مع القضية الالمانية • كانوا ينوون فقط اظهار بعض الحركات الغامضة والكريمة لتخفيف حدة التقدم الألمانى • والمنفذ الوحيد الذى ترك لهم هو أن التحالف الأنجلو ـ بولندى ظل موقوتا ـ فما زالت الاتفاقية الرسمية فى حاجة الى اقرارها ، وكذلك الرغبة التى أبديت من أن ينضم اليها الآخرون بما فى ذلك روسيا السوفييتية • ولكن المنفذ لم يكن له وجود حقيقى ، اذ كان فى استطاعة « بك » أن يبقيه مغلقا حسب ارادته • ولم تقع الحكومةالبريطانية بضمانها لبولندا فى الفخ بهذا القدر الكبير الذى حدث لها بعلاقاتها السابقة مع تشيكوسلوفاكيا • فلقد فرضوا عليها التنازلات ، كما فشلوا فى الوفاء بتعهداتهم ازاءها • ولم يكن فى استطاعتهم أن يتراجعوا عن كلمتهم مرة ثانية ، وذلك اذا ما أرادوا أن يحتفظوا بأى احترام فى العالم أو مع شعبهم • كانت فرصة النجاح فى الحرب قليلة الاحتمال ، كما كانت القضية الألمانية حول دانزج أقوى مما كانت عليه مع السوديت الألمان • ولم يكن هناك جدوى من كل هذا • فلقد فرضت المقاومة على الحكومة البريطانية • وجنى «بك» حيث بذر بينز •

---

(١) المحادثات البريطانية مع بك ، من ٤ الى ٦ ابريل سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، خامسا ، أرقام ١ ، ٢ ؛ ١٠ •

الفصل العاشر

حرب الأعصاب

كان التحالف الأنجلو ـ بولندى حدثا ثوريا فى الشئون الدولية . وكان الانجليز قد دخلوا بالتزامهم بمرحلة السلام الأولى بالقيام بدورهم كدولة قارية كبرى منذ ثلاث سنوات فقط ، عندما عقدوا محالفتهم مع فرنسا . وبعد ذلك ركزوا على أنها يجب أن تكون ائتلافية ومقصورة فى حسم على الغرض الدفاعى فى أوربا الغربية . والآن غاصوا فى تحالف مع دولة تقع هناك بعيدا فى أوربا الشرقية ، ودولة اعتبرت ، حتى اليوم السابق للتحالف لا تستحق ، عظام مقاتل بريطانى واحد . ودارت سياسة الدول الأخرى حول تلك الحقيقة الجديدة المذهلة . وكان الالمان يخططون بهدف حل التحالف الأنجلو ـ بولندى ، والروس يرمون الى استغلاله . وكان كل من الفرنسيين والايطاليين يخشون توريطاته لهم وبحثوا ـ بلا طائل ـ عن طريق للهروب . كانت أوربا تطن بالنشاط الديبلوماسى ، وكانت لندن محوره . لقد جعلت السياسة البريطانية دانزج ، دون تخطيط ، هى قضية المصير لسنة ١٩٣٩ ، تماما كما أظهرت بعمد أكبر موضوع السوديت الألمان ، باعتباره الموضوع الحاسم فى سنة ١٩٣٨ . ولكن بهذا الاختلاف . لقد أثير موضوع السوديت الألمان بواسطة التشيك والفرنسيين . وكانوا هم الذين يضغطون لايجاد تنازلات ، أو مواجهة خطر الحرب . أما فى سنة ١٩٣٩ فقد كان الانجليز أنفسهم فى المشكلة ، مواجهين بالاختيار بين المقاومة أو التراضى . وفضل الوزراء البريطانيون الوضع الثانى . لقد كانوا ما زالوا هم رجال السلام الذين طربوا لاتفاقية ميونخ . وكانوا لا يزالون يكرهون منظر الحرب ، ولا يزالون يأملون فى أن يجدوا مخرجا بوسائل المفاوضات . وأكثر من هذا ، وباشتداد الضغط اليابانى فى الشرق الأقصى ، تزايدت الرغبة لديهم فى أن يديروا ظهورهم الى أوربا . وبجانب هذا ، وبأخذهم موقفا من دانزج ، كانوا يقفون على أرض ضعيفة بشكل غريب . كانت دانزج أكثر شكايات

المانيا تبريرا : مدينة مقتصرة على السكان الالمان ترغب علنا فى العودة الى الويخ والتى لم يستطع هتلر نفسه أن يكبحها الا بالقوة . وكان الحل كذلك يبدو سهلا بصورة غريبة . لم يكل هاليفاكس أبدا من اقتراح أن دانزج لابد أن تعود الى السيادة الالمانية ، مع حماية للتجارة البولندية .

وكان هتلر يريد هذا أيضا . لم يكن تحطيم بولندا جزءا فى مشروعه الأصلى . بل على العكس كان يرغب فى حل موضوع دانزج لكى تستطيع ألمانيا وبولندا أن تبقيا على علاقات طيبة . أكان العناد البولندى اذن الشيء الوحيد الذى حال بين أوربا وبين نتيجة سلمية ؟ اطلاقا . ففيما سبق كان يمكن أن تستقر دانزج دون أن يتضمن ذلك أى اضطراب فى العلاقات الدولية . ولكنها الآن صارت رمزا لاستقلال بولندا ، ثم بالتحالف الأنجلو ـ بولندى رمزا للاستقلال الانجليزى بالمثل . ولم يعد هتلر بعد يرغب فى مجرد الوفاء بالطموح الوطنى الألمانى أو ارضاء سكان دانزج . كان يهدف الى أن يظهر أنه فرض ارادته على الانجليز والبولنديين وكان عليهم ، عندئذ ، بدورهم أن ينكروا عليه هذه السيطرة . كانت كل الأطراف تهدف الى تسوية بالمفاوضات ، ولكن ليس الا بعد انتصار فى حرب للأعصاب . كان هناك بطبيعة الحال تفسير متبادل . وربما كانت بعض الأطراف أو كلها مدفوعة عمدا للحرب . ومن الصعوبة وجود فرد واحد يستطيع أن يصدق هذا بالنسبة لبولندا . وهناك القليل ، حتى فى المانيا ، من يعتقد الآن ان الانجليز كانوا يخططون « تطويق » المانيا لغرض « عبودية » فرساى مرة أخرى . ومع ذلك فهناك الكثيرون ممن يعتقدون أن هتلر كان « أتيلا » جديدا ، يحب الهدم لذاته ، وعلى ذلك انكب على الحرب دون التفكير فى السياسة . وليس هناك أية مناقشات للرد على مثل تلك المعطيات . كان هتلر رجلا غير عادى ، وهم أيضا قد يكونون صادقين . ولكن سياسته كانت قادرة على التفسيرات المنطقية ، وعلى تلك المقولات يبنى التاريخ . ان الهروب الى اللامنطق هو الأسهل بلا شك . ان اللوم بالنسبة للحرب يمكن أن يلقى على «فوضوية هتلر» بدلا من أن يلقى على أخطاء وألوان فشل الساسة الأوربيين ـ الأخطاء وألوان الفشل التى يشاركهم فيها الرأى العام عندهم . ان الأخطاء الانسانية ، تعمل عادة أكثر فى تشكيل التاريخ مما تعمله الشرور الانسانية . وعلى أية حال فان هذه معطية منافسة تستحق التطوير ، ولو حتى باعتبارها تمرينا أكاديميا . وبطبيعة الحال لعبت طبيعة هتلر وعاداته دورها . كان سهلا له أن يهدد ، وصعبا عليه أن يسترضى . ان هذا بعيد جدا عن القول بانه كان يتنبأ بالسيطرة الأوربية التى كان يبدو

أنه أنجزها فى سنة ١٩٤٢ أو أنه كان يخطط لها عمدا . ان كل الساسة يهدفون الى الكسب . وكثيرا ما يدهشهم حجم المكاسب .

لقد أوجدت الأسباب المنطقية لدفع المانيا عمدا للحرب فى سنة ١٩٣٩ . وكان الاقتصاد واحدا منها ، مقولة أخرى ، وهى هذه المرة من النوع الماركسى الفج . ان النهضة الصناعية ، كما ارتئى ، أظهرت المانيا فى أزمة فائض انتاج . وفى مواجهة الحواجز الجمركية للدول الكبرى الأخرى ، كان عليها أن تغزو أسواقا جديدة أو تنفجر ، وليس هذا الا شاهدا ضئيلا على هذه المعطية . كانت مشكلة المانيا هى تضخم القروض ، وليس فائض الانتاج ، كما حذر شاخت من قبل عندما استقال فى سنة ١٩٣٨ . كان هناك فائض من الأوراق النقدية الحكومية ولا توجد قوة انتاجية كافية لامتصاصها . كان الانتاج « يساق بالسوط » ، ولا يختنق بافراطه الذاتى . وعندما جاءت الحرب ، كانت فتوحات المانيا ــ البعيدة عن أن تكون أسواقا للامداد ــ مستغلة بشراهة لآلة الحرب . كان لكل دولة تابعة ــ فيما عدا المجر ــ ميزان مدفوعات كبير فى برلين فى نهاية الحرب ــ ومعنى هذا أن الألمان قد أخذوا الكثير وصدروا القليل . وحتى مع هذا ، خفض انتاج الأسلحة الألمانى فى سنة ١٩٤٠ ومرة أخرى فى سنة ١٩٤١ ، كان الضغط شديدا . ومن ثم فان الحجة الاقتصادية تساق ضد الحرب وليس فى صالحها . أو ، على أحسن الفروض ، كان الدليل استهلاكا محليا ذاتيا . كانت المانيا تحتاج الى مكاسب الحرب ، لكى تجعل الحرب أكثر نجاحا .

ان الأسلحة الالمانية فى حد ذاتها تعطى سببا ثانيا ممكنا عن سبب اندفاع المانيا للحرب . كانت المانيا قد حققت سبقا على الدول الأخرى ، وكان هذا السبق يضيع تدريجيا . وقد استخدم هتلر نفسه هذه الحجة ولكن فى صيف سنة ١٩٣٩ فقط عندما كان قد اقحم فى الحرب ، ولم تكن بأكثر جدية من حجته من أنه كان يريد أن يخلص من الحرب لكى يكرس نفسه للخلق الفنى . وكان قد أكد من قبل ، بصدق أكثر ، أن رجحان كفة المانيا ستبلغ قمتها بين ١٩٤٣ ، ١٩٤٥ ، ومثل كل تلك الأرقام كانت هذه تعنى « هذه السنة ، السنة التالية ، ذات يوم ... » . وكان أفضل القادة الألمان المؤهلين للحكم ، قد جادلوا باصرار ضد الحرب فى سنة ١٩٣٩ على أسس فنية ، وكلما ازدادت كفايتهم ، ازدادت معارضتهم . ولم ينكر هتلر دعواهم ، ورفضها باعتبارها غير ملائمة . كان ينوى أن ينجح بدون حرب ، أو على أية حال بحرب اسمية لدرجة

لا يمكن تمييزها عن الدبلوماسية • لم يكن يهدف الى حرب كبرى ، ومن ثم فلم يكن يهم أن ألمانيا لم تكن مجهزة لخوض مثل هذه الحرب • لقد نبذ هتلر عمدا «اعادة التسلح الجذرى» الذى فرض عليه بواسطة مستشاريه الفنيين • ولم يستهوه الاستعداد لحرب طويلة ضد الدول الكبرى • واختار بدلا منها « اعادة التسلح بالعرض » ــ جيشا لخط الجبهة بدون احتياطى، ذا كفاية فقط لتوجيه ضربة سريعة • وتحت قيادة هتلر كانت ألمانيـــا مجهزة لكسب حرب للأعصاب ــ الحرب الوحيدة التى كان يفهمها ويحبها ، ولم تكن مهيأة لغزو أوربا • وكانت انجلترا وفرنسا قد أصبحتا آمنتين من قبل من وجهة النظر الدفاعية المحضة • وبمرور السنين كان من الممكن أن يكونوا أكثر أمنا • ولكن فرصة ألمانيا المواتية لتوجيه ضربة مباشرة ظلت باقية • وكان من الممكن ألا يفقد شيء بمرور الوقت ، ودبلوماسيا ، كان من الممكن كسب الكثير • وبأخذ الأسلحة الألمانية فى الاعتبار فاننـا نبعد عن الجوانب النفسية الغـــامضة لهتلر • ونجد اجابة « فى دائرة الحقيقة » • والاجابة واضحة • ان حالة التسلح الألمانى فى سنة ١٩٣٩ تعطى البرهان الحاسم على أن هتلر لم يكن يفكر فى حرب شاملة ، ولم يكن بشكل محتمل ينوى الحرب كلية •

ولكن يظل هناك سبب أكثر عمقا وهو لماذا جدت ألمانيا فى طلب الحرب سنة ١٩٣٩ • كان الميزان العالمى يتحرك ضد ألمانيا لا بالشكل الكبير فى الخطة السريعة فى التسلح وانما ضد ما لديها من احتياطيات فى القوة الاقتصادية • كانت ألمانيا دولة أعظم اقتصاديا من كل من انجلترا أو فرنسا ــ وأعظم قليلا منهما اذا ما ضمتا معا • وكانت بريطانيا مازالت تحتل مركزها كدولة عظمى ، وكانت فرنسا تحتل بصعوبة مركزا على حافة الدرجة الثانية • وكان هذا التوازن يناسب تماما صالح ألمانيا • وكانت الصورة مختلفة عندما وضع باقى العالم فى الاعتبار • فالولايات المتحدة كانت ذات موارد اقتصادية أعظم من الثلاث الدول الأوربيـــة الكبرى مجتمعة ، وكان سبقها يتزايد بمرور السنين • وربما كان من المعقول لو أن هتلر قد خطط لتوحيد أوربا ضد « الخطر الأمريكى » • ولكنه لم يفعل ذلك • ولسبب غامض ، ربما بسبب جهل النمســاوى المحصور داخل أرضه ، لم يقم وزنا مطلقا للولايات المتحدة بصورة جدية، سواء من النواحى الاقتصادية أو السياسية • كان يفترض أنها ، مثــل الدول الغربية ، تعفنت من الديمقراطية ، وزادت تحــذيرات روزفلت الأدبية من استخفافه • وكان يبدو غير معقول بالنسبة له أن تترجم تلك التحذيرات فى يوم ما الى قوة مادية ، ولم تكن لديه أية فكرة بأنه كان

يصنع عدوا هائلا لألمانيا عندما أعلن الحرب على الولايات المتحدة فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ٠

وفى الجانب الآخر ، أذهل التقدم الاقتصادى لروسيا السوفييتية هتلر ٠ كان فى الواقع مثيرا للدهشة ٠ فخلال السنوات العشر بين ١٩٢٩ و١٩٣٩ وفى حين زاد الانتاج الصناعى لألمانيا بنسبة ٢٧ ٪ ، ولانجلترا بنسبة ١٧٪ ، زاد فى روسيا السوفييتية بنسبة ٤٠٠٪ ، وكان التقدم فى بدايته فقط٠وفى سنة ١٩٣٨ كانت روسيا السوفييتية الدولة الصناعية الثانية فى العالم ، فى المرتبة بعد الولايات المتحدة مباشرة ٠ وكان لا يزال الشوط أمامها طويلا : فشعبها كان لايزال يعانى الفاقة ، وكانت مواردها قد استغلت بالكاد ٠ ولكن لم يكن لدى ألمانيا متسع من الوقت اذا ما كان عليها أن تهرب من أن تكون فى الظلال ، وقليل أيضا اذا ما رغبت فى الاستيلاء على أوكرانيا السوفييتية ٠ وهنا أيضا كان من المعقول لهتلر لو أنه خطط لحرب كبرى ضد روسيا السوفييتية٠ ولكن ، وبالرغم من أنه كان يتكلم كثيرا عن مثل تلك الحرب ، فانه لم يخطط لها ٠ لم توضع خطة التسلح الألمانى لمثل تلك الحرب ٠ فاعادة التسلح الذى أقامه بالعرض كان الغرض منه تدعيم حرب دبلوماسية للأعصاب ، وحتى اعادة التسلح الذى أراده القادة الألمان أن يكون جذريا كان من الممكن أن يهيىء ألمانيا لحرب طويلة المدى من الانهاك فى الجبهة الغربية كالتى تم القتال فيها خلال الحرب العالمية الأولى ٠ كان على الألمان أن يرتجلوا بشراسة عندما ذهبوا الى الحرب ضد روسيا السوفييتية فى يونيو سنة ١٩٤١ ، وفشلوا الى حد كبير فى تحقيق نصر سريع حاسم هناك لأنهم أهملوا كلية تجهيز عنصر النقل لحرب بهذه الطبيعة ٠ ومن الصعب فى النهاية الاخبار عما اذا كان هتلر أخذ مشروع الحرب ضد روسيا السوفييتية بصورة جدية ، أو عما اذا كانت هذه رؤية جذابة كان يأمل أن ينوم مغناطيسيا بها الساسة الغربيين ٠ فان كان أخذها بجدية ، فان ذلك يجعل حرب سنة ١٩٣٩ الفعلية ــ ليست حربا ضد روسيا السوفييتية ، وانما حرب ضد الدول الكبرى الغربية ، وبالمانيا وروسيا السوفييتية فى منتصف الطريق تجاه تحالف ــ ليس له تفسير من أى وقت مضى ٠ أو بمعنى أصح فان التفسير البسيط القديم يؤكد نفسه ٠ كانت حرب سنة ١٩٣٩، بعيدا عن أن تكون متعمدة ، غلطة ، ونتيجة الأخطاء الدبلوماسية التى يقع وزرها على الجانبين ٠

ان هتلر أعار موضوع الدبلوماسية فى الفترة بين أبريل وأغسطس

سنة ١٩٣٩ القليل من اهتمامه . وكما فى مناسبات سابقة ، كان راضيا بأن يحضر وينتظر ، واثقا من أن العقبات سوف تتحطم بطريقة ما من أمامه . كان مثل الأزمة التشيكية ماثلا دائما فى ذهنه . فهنـــاك ووجه بجيش تشيكى قوى وبحلف ظاهر القوة بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا . وفى النهاية أذعنت فرنسا ، والتشيك أيضا . وقد يكون الأمر كذلك مع بولندا . وقال عن الساسة الغربيين : « ان خصومنا مخلوقات بائســـة (ديدان صغيرة) . لقد رأيتهم فى ميونخ » . لم يعد يتعب نفسه طويلا بالنسبة لفرنسا . كان يعرف أنهم سيذهبون أينما يقودهم الانجليز ، بالرغم من أنهم كانوا يعملون كفرملة فى الطريق الى الحرب . وفى هذا الوقت كان على الانجليز أن يقرروا بصورة أكثر مباشرة ، وتوقع منهم أن يقرروا الاذعان . هل توقع كذلك أن يذعن البولنديون بدون حرب ؟ كان الرد على ذلك أصعب . وفى ٣ أبريل أعلنت القوات المسلحة بأن تكون مستعدة لمهاجمة بولندا فى أى وقت بعد ١ سبتمبر ، بتأكيد مع ذلك بأن هذا سيحدث فقط اذا ما عزلت بولندا ــ تأكيد ردده هتلر بصورة أكثر وحشية فى ٢٣ مايو . ولكن هذه الاستعدادات كانت ضرورية سواء خطط هتلر أن يشق طريقه بالحرب أو التهديدات . لم يقولوا لنا شيئا عن نواياه الحقيقية ، ومن المحتمل أنه نفسه لم يكن قد قررها . وكانت حرب الأعصاب كافية لأن تستمر . وهنا ألقى هتلر بتهديده صراحة . ففى ٢٨ أبريل أنكر كلا من معاهدة عدم الاعتداء لسنة ١٩٣٤ مع بولندا ، والاتفاق البحرى الأنجلو ــ ألمانى سنة ١٩٣٥ . وفى اليوم نفسه خاطب الريخستاغ . وتلا عروضه لبولندا ، وشهر بالاثارة البولنـــدية . كان الألمان يرغبون فى انهاء موضوع دانزج بالمفاوضات الحرة ، ورد البولنديون بالاستناد الى القوة . كان مستعدا لأن يعقد اتفاقا جديدا ، ولكن فقط اذا ما غير البولنديون مسلكهم ــ بمعنى ، اذا ما أذعنوا بالنســـبة لدانزج وتخلوا عن تحالفهم مع بريطانيا . وتكلم عن البريطانيين بأحكام مختلفة تماما : أثنى على الامبراطورية البريطانية باعتبارها « عاملا فوق كل تقدير كقيمة لكل الحياة البشرية الاقتصادية والثقافية » ، ونبذ فكرة تحطيمها باعتبارها « ليست الا فيضا من طيش بشرى للتدمير » ، وتطلع بحماس للأمام نحو اتفاق جديد عندما يثوب الانجليز الى رشدهم . وهنا أيضا كان الثمن هو الشىء نفسه : التنازل عن دانزج والتخلى عن التحالف مع بولندا . وبعد أن فرغ من وضع شروطه ، انسحب فى هدوء . كان بعيدا عن متناول السفراء ، وكان ريبنتروب كذلك تقريبا . ولم يعد هنـــاك

تعامل دبلوماسي بعد ذلك مع بولندا قبل نشوب الحرب ، ولا تمثيل مباشر مع بريطانيا حتى منتصف أغسطس ٠

وبقى القرار على هذا معلقا ببريطانيا ، أو أنه قد أملى عليهم بمعنى أصح عن طريق الحلف الأنجلو ـ بولندى ٠ ولم يكونوا يستطيعون الهروب منه حتى اذا أرادوا ٠ لم يكونوا فحسب سجناء رأيهم العام ٠ وانما اعترفوا بأنهم ، بالتقهقر عنه ، فانهم سيرتدون فحسب الى المتاعب التى كانوا فيها سابقا ٠ وكانوا مستعدين ، بل شغوفين ، لأن يتنازلوا بالنسبة لدانزج ، ولكن على شرط أن يستقر هتلر على السلام٠وهو لن يكون راضيا الا بالاستيلاء على دانزج بدون شروط ٠ وعلى أية حال فان البولنديين رفضوا أن يتنازلوا عن شبر واحد ٠ واكتشف الانجليز مؤخرا أن «بك» كان « أقرب الى أن يكون غير صريح » بالنسبة لدانزج ، لقد أعطاهم الاحساس بأنه ليست هناك مشكلة عاجلة عندما كان هتلر فى الحقيقة يضغط بشروطه بالفعل ٠ واستعملوا هذا كعذر طالبوا «بك» بموجبه أن يستخدم أسلوبا أفضل فى اعلامهم مستقبلا ، وأضافوا تذكرة بأن الضمان لن يأخذ شكله العملى الا اذا ما قررت الحكومة البولندية أن تقوم بالمقاومة فى حالة ما اذا هدر الاستقلال البولندى (صراحة) (١) ٠ وفى هذا ايماءة حذره بأن بريطانيا ليست مستعدة للتمسك « بالوضع القائم » فى دانزج ٠ وكان «بك» غير آسف : « لن تنشب حالة حرب فيما يختص بمسألة دانزج ما لم يستخدم الألمان أسلوب القوة هناك » (٢) ـ انها ليست وجهة نظر متفائلة من الزاوية البريطانية ٠ لم يجرؤ أى من الطرفين أن يناقش مشكلة دانزج مناقشة مفتوحة خشية أن تقوم معركة ، وعلى ذلك لم يناقشوا شيئا ، بأمل أن يسلك كل سبيله فى اللحظة الحاسمة ٠ ولم يتم التحالف الرسمى ، الذى لاحت بوادره فى أبريل ، الا فى ٢٥ أغسطس ٠

وبطرق أقل صراحة ، عمل الانجليز كل ما فى وسعهم على كبح جماح البولنديين ٠ ففى محادثات القيادة التى قامت بين الدولتين ، لم يكشف البريطانيون عن شيء ، ولكن لم يكن هناك ما يكشفون عنه ٠ وكان من الواضح أنه لا يمكن أن يطمع البولنديون فى مساعدة عسكرية مباشرة ،

---

(١) من هاليفاكس الى كينارد ، ٣ مايو سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، خامسا ، رقم ٣٤٦ ٠

(٢) من كينارد الى هاليفاكس ، ٤ مايو سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق ، رقم ٣٥٥ ٠

وكان أقصى ما يمكن أن يلتمسوه هو المساعدة المالية • وهنا أبدى البريطانيون عنادا بصورة غريبة • فقد طلب البولنديون قرضا بستين مليون جنيه نقدا • وأجاب الانجليز فى أول الأمر بأنه ليس لديهم نقد ، وأنهم يستطيعون فقط أن يقدموا سندات ، وأصروا على أن السندات يجب أن تنفق فى بريطانيا ، وأخيرا وبعد أن خفضوا الرقم الى ٨ ملايين ، أوضحوا بأنه طالما أن مصانع الأسلحة الانجليزية مشغولة الى أقصى طاقتها ، فانه لا يمكن استعمال السندات بأية حال • ولم يصرف أى سند حتى لحظة اندلاع الحرب ، ولم ترسل قنبلة واحدة أو بندقية بريطانية الى بولندا • ومن غير المعقول أن البولنديين قد تمت تهدئتهم بشرح هاليفاكس : « فى حالة حدوث الحرب ، فان من أقوى الأسلحة التى يجب أن تكون فى يد بريطانيا قوتها الاقتصادية الراهنة ، والذى كان ضروريا بالتبعية عدم اضعافها » (١) وأوضح هذا المسلك الغريب الطبيعة التنائية فى السياسة البريطانية • فبقدر اهتمام البريطانيين بتهدئة البولنديين كان اهتمامهم بردع هتلر • وكان أملهم أعز من أن ينالوه • فبك لم يكن هو بينز • ففى تفكيره ، كانت خطوة واحدة فى طريق الاذعان ستقود حتما الى ميونخ ، وعلى هذا لم تتخذ أى خطوة • ولم تتح للورد رونسمان أية فرصة لأن يحزم حقائبه لنزهة قارية أخرى فى سنة ١٩٣٩ •

وهرع البريطانيون نحو وسيلة أخرى برهنت على نفعها فى السنة السابقة • كانوا لا يزالون يأملون فى أن يلجأ الى موسولينى فى وقت ما باعتباره ذا تأثير رادع على هتلر • كان هذا الاتجاه مفيدا ومميتا فى وقت واحد • كانت المضايقة الوقتية عندما احتل هتلر براج هى همهمة موسولينى الأخيرة فى السخط • وكان الآن يلعب دوره الخاص فى العدوان بتحويل الحماية الايطالية على البانيا الى ضم تام • وقاد هذا الى نشاط ديبلوماسى جم — الضمان البريطانى لليونان ثم لرومانيا ، التفاوض لغير ما سبب معين من أجل حلف مع تركيا ، لم يقدر له أن يتحقق مطلقا • وكان لهذه التحركات ، على الرغم من تضخيم حجم أوراق وزارة الخارجية ، ارتباط ضئيل بالقضية الكبرى لألمانيا • كانت ايطاليا الآن مثل فرنسا فى الخطوط الجانبية ، وكان مصير كلتا الدولتين يحدد بأعمال شركائهما الكبار • وألقى الفرنسيون بأنفسهم فى الخضم برفضهم مطالب ايطاليا فى شمال أفريقيا • وهنا كان خصما من مستواهم نفسه • كانوا على

---

(١) من هاليفاكس الى كينارد ، أول يونيو سنة ١٩٣٩ ، المرجع السابق ، رقم ٦٩٢ ..

استعداد لتحديه · وأخيرا أكمل موسوليني من جانبه القفزة بالتحالف الرسمي مع ألمانيا · ووقع « حلف الصلب Pacto Psteel » في ٢٢ مايو ملزما الدولتين بشن الحرب معا · ومما لاشك فيه أن موسوليني كان يأمل في أن الاتفاقية ستعطيه بعض ما يقوله في نصائح ألمانيا · وما أن تعهد موسوليني بتأييد ألمانيا في الحرب ، حتى كان يأمل في أن يكون قادرا على أن يقرر متى تقوم الحرب ، وحاول أن يؤكد بأن ايطاليا لن تكون مستعدة للحرب الا في سنة ١٩٤٢ ، أو سنة ١٩٤٣ فحسب · وعلق الألمان أهمية أقل على الحلف · لقد التزموا بها بطريق المصادفة ، باعتبارها مكافأة يتعزون بها عن فشل ضمان تحالف ثلاثي مع اليابان ·

كان تقدير وزن الشرق الأقصى يمثل عنصرا صعبا في نظر ديبلوماسية سنة ١٩٣٩ · فمن الواضح أنه كانت هناك روابط بين الوضع في أوربا ونظيره في الشرق الأقصى · ولكن ما هي طبيعة تلك الصلات ؟ كان اليابانيون في حرب مع الصين ، وكانوا أيضا يعتدون على المصالح الأجنبية هناك ، وبالأخص على الاتفاقيات البريطانية · ومن الواضح أن البريطانيين كانوا يرغبون في الفراغ من أوربا لكي يدافعوا عن موقفهم في الصين ، ولكنه من الصعب اكتشاف الى أي مدى أثر ذلك على مجريات سياستهم العملية · وفي الجانب الآخر أراد الألمان أن يزيدوا متاعب بريطانيا في الشرق الأقصى ، كما أراد اليابانيون أن يزيدوها في أوربا · كانت هناك حرب في شد الحبل بين الدولتين المعتديتين كسب فيها اليابانيون · وحاول الألمان أن يحولوا معاهدة مناهضة الكومنترن الى تحالف ضد كل الوافدين · ولم يكن في امكان اليابانيين الا الموافقة فحسب على التعاون ضد روسيا · والذي لاشك فيه أنهم كانوا يأملون في استخلاص تنازلات من البريطانيين دون حرب ، وربما كانوا قد روعوا بفكرة البحرية الأمريكية · وأشد من كل هذا ، فانهم شكوا فيما اذا كان التحالف العام سيعقبه حرب في أوربا ، فاذا ما كانت هناك ميونخ جديدة على حساب بولندا ، فان اليابانيين سيتركون بمفردهم أمام البريطانيين · وانتهت المفاوضات بين ألمانيا واليابان الى لا شيء · واعتصر اليابانيون تنازلات من الانجليز ، الذين أذعنوا بلا تردد · وتأجل الصدام في الشرق الأقصى ، وأدى هذا الى أن الصدام في أوربا أصبح أكثر قابلية للوقوع ·

كانت هناك عقبة أخرى في وجه التعاون بين ألمانيا واليابان ، بالرغم من أن كلا الجانبين لم يشر اليها بشكل مكشوف · كان اليابانيون

يريدون تأييدهم ضد روسيا السوفييتية • وأصبح الألمان الذين كانوا في يوم ما حاملي لواء مناهضة الشيوعية ، يتارجحون الآن ناحيـة الاتجاه المضاد • ومنذ اللحظة التي اصبحت فيها بولندا الهدف المباشر للعداء الألماني ، تحولت روسيا السوفييتية آليا بالنسبة لألمانيا الى محايد ممكن ، بل الى حليف مرتقب • كذلك لم يكن الروس يعلقون اهمية خاصة على ألمانيا وحدها : كانت على كل دولة أوربية ان تحسب حسابهم • كان هذا حدثا من أحداث يدبرها العصر • وشاهدت سنة ١٩٣٩ اندلاع الحرب العالمية الثانية • بل انه سيبدو أكثر دلالة على مدى الرؤية الأبعد مدى أنها شاهدت عودة روسيا السوفييتية كدولة كبرى ، للمرة الأولى منذ سنة ١٩١٧ • كانت روسيا السوفييتية بعد الثورة البلشفية تمثل غالبا « مشكلة » ، وكانت الشيوعية الدولية خطرا سياسيا ، وكامنا على أية حال • على أن روسيا السوفييتية لم يحسب حسابها باعتبارها دولة كبرى • وعندما قدم ليتفنوف مقترحات في عصبة الأمم ، قدمها كما لو كان يتحدث من كوكب آخر • ولم تفكر الدول الغربية مطلقا في جدية في التعاون مع روسيا السوفييتية ، فيما عدا الحلف الفرنسي السوفيتي • ولم يتوقعوا هم أو الألمان التدخل الروسي خلال الأزمة التشيكية في سنة ١٩٣٨ • كانت روسيا السوفييتية تبدو نائية في اللانهائية • وكان هذا يرجع الى حد كبير الى التشدق في المظهر السياسي والى العرف الطويل ، عند كلا الجانبين ، بعدم الاعتراف الفعلي • وكان لها أيضا أساس عملي • كانت روسيا السوفييتية معزولة حقيقة عن أوربا منذ قيام الستار الحديدي • فاذا ما تسنى لها أن تعمل اطلاقا كان حتما أن يتم هذا من الخارج ، تماما كاليابان أو الولايات المتحدة • وما أن أثير موضوع بولندا حتى تغير كل هذا • لقد وصلت أوربا الى أبواب روسيا • وسواء شاءت أو لم تشأ فقد غدت مرة أخرى قوة أوربية •

ما هو الدور الذي كان يتحتم على روسيا أن تلعبه الآن وقد رجعت الى أوربا ، أو رجعت أوربا لها ؟ • لقد سألت كل الدول الكبرى هذا السؤال الضخم • سأله الانجليز ، وهكذا فعل الفرنسيون ، والبولنديون والألمان • وسأله الروس أنفسهم بالحاح • وكان من المستحيل في البداية التنبؤ بالاجابة ، أو حتى تحديد بديل لها • ان معظم القضايا السياسية لها مقدمات طويلة • ويستطيع الساسة أن يستنتجوا على أساس خبرتهم السابقة ويمكنهم أن يقطعوا شوطا طويلا على ضوء الخطوط التي وضعت من قبل • كانت هنا مقدمات قليلة ، وطالما أنها كانت كذلك فقد قادت الى الاتجاه الخاطىء — عودة الى زمن العزلة الروسية وانسحابها • وكانت

لتلك المقدمات المضللة بعض التأثير • ولم يستطع البريطانيون التخلص من عادة معاملة روسيا السوفييتية باعتبارها دولة ذات أهمية ضئيلة ، وكان الروس لا زالوا يميلون الى فرض أنهم يستطيعون أن يديروا ظهورهم لأوربا حسبما تمليه ارادتهم • وكان للألمان ميزة هنا • كانت لهم سابقة من هذا النوع فى صورة معاهدة راباللو والصداقة السوفييتية الألمانية اللاحقة • ولكن الزمن تغير • ففى راباللو اتفقت دولتـــان مهزومتـــان ومتوجستان خيفة على ألا تقوما بعمل عدائى احداهما ضد الأخرى • وأعطى هذا شاهدا بسيطا عن العلاقات بين من هم الآن أعظم دولتين فى القارة الأوربية • ومرة أخرى كان هتلر راضيا لأن ينتظر حتى تمده الأحداث بسياسة يتخذها • كانت مناهضة الشيوعية قد خفت فى ألمانيا ، وحل محلهـــا مناهضة السامية • ولاحت بوادر بأن الألمان يرغبون فى تنمية تجارتهم مع روسيا السوفييتية بل وتحسين العلاقات السياسية معها • ولم تتخذ أية محاولة من جانب الألمان لتفسير المظهر الذى ســـيأخذه هذا التحسين ، وكان الروس لا يزالون ملتزمين الصمت • وظلت المبادرة فى مكان آخر •

كان الفرنسيون ، فى الطرف الآخر من السلم ، واضحين فيما كانوا يريدونه : لابد من قيام تحالف عســـكرى مباشر بين روســـيا السوفييتية والدول الغربية الكبرى • ولم يكن لدى الفرنسيين أى ايمان فى تهدئة هتلر ، وعلى ذلك بالمثل خوف قليل بأن التحالف مع السوفييت قد يستفزه • كانوا يعتقدون أن هتلر لن يرتدع الا بمظهر شامل للقوة ، والتحالف السوفييتى سوف يساعد على التكفل بذلك • فاذا فشـــل المظهر ووصل الأمر الى حد قيام الحرب ، فان التهديد الروسى سوف يجزىء مرة أخرى القوات الألمانية ، كما حدث فى سنة ١٩١٤ ، فاذا ما كان الهجوم الألمانى على روسيا ، فان الفرنسيين سيبقون فى أمان وراء خط ماجينو • ولم يكن لدى الفرنســـيين أية فكرة عن الاعتراضـــات البولندية ، بل ان هذه الاعتراضات جعلتهم أكثر الحاحا • كان وفاء فرنسا تجاه بولنـــــدا فى أدنى درجات أنماطه • حطم الخلل فى موقف بولندا أية امكانية فى قيام جبهة غربية خلال الأزمة التشيكية ، وكان الفرنسيون على استعداد الآن فى رد جحود بولندا بالمكيال نفسه • كان رأى جاملين فى الجيش البولندى أنه ضعيف ، وتولد عنـــده ميل ، وان كان فى كثير من التردد ، بأن الجيش السوفييتى أعلى مستوى • فاذا ما استخدمت بولندا بناء على ذلك التحالف الفرنسى السوفييتى كعذر لكى تشجب تحالفها الخاص مع فرنسا ، فسيكون ذلك أكثر فائدة الى حد

كبير من وجهة النظر الفرنسية . كانوا كمن يتنصلون من تبعه ليحرزوا رصيدا . وفى ١٠ أبريل أخبر بونيه السفير السوفييتى أنه يجب عليهم أن يرسلوا شروط التعاون العسكرى بينهما ، وأضاف « يجب علينا عندئذ أن نقرر المسلك الذى يتخذ فى حالة ما اذا رفضت كل من رومانيا أو بولندا هذه المساعدة » (١) . وكان هذا حلا ســـهلا ، الا أنه كان مستحيلا . فقد يتجاهل الفرنسيون تحالفهم مع بولندا ، ولكنهم لن يستطيعوا تجاهل تحالفهم مع بريطانيا ، وهو الذى عليه يعتمد موقفهم بأكمله فى العالم. كان التحالف الأنجلو ــ بولندى نكبة بالنسبة لفرنسا ، فطالما لم يكن لدى الانجليز قوة خاصة بهم لحرب قارية ، فان الحلف كان فى الواقع ضمانا بريطانيا بأن فرنسا لن تخذل البولنديين كما سبق وخذلت التشيك . ومع ذلك كان هذا تماما ما أراد الفرنســـيون أن يغفلوه . وما أن سد أمامهم الطريق للهرب ، حتى كان الأمل البـــاقى لهم هو جر الانجليز الى تحالف مع روسيا السوفييتية أيضا

لم تأت الحوافز من فرنســـا وحدها . فأن الحاجة الى الحلف السوفيتى كانت واضحة لكل مراقب بريطانى ماهر ، بعد أن منح الضمان مباشرة لبولندا ، لقد حدد تشرشل هذه النقطة فى مجلس العموم فى ٣ أبريل :

«ان نقف هنا بضمان لبولندا سيكون كمن يتوقف فى ارض محايدة معرضا لنيران خنادق كلتا الجبهتين وبلا حماية منهما .. واما وقد بدانا فى خلق تحالف ضخم ضد العدوان ، فلن نتحمل خذلانه ، ســـوف نتعرض لخطر مميت اذا ما خذلناه .. ان أسوأ حماقة ، مما ليس فى مقدور احد ان يقترح علينا وجوب اقترافها ، ستكون ان نثبط العزم وان نبعد أى تعاون طبيعى تشعر روسيا السوفيتية فى أعمق مصالحهـــا انه من الضرورى لها ان تقبله » (٢) .

بل أن لويد جورج خطب بقوة أكبر :

اذا ما كنا نسير بدون مساعدة روسيا فاننا نسير لنسقط فى شرك، انها الدولة الوحيدة التى تستطيع قواتها العسكرية أن تصل الى هناك .. واذا ماكانت روسيا لم تشارك فى هذا الأمر بسبب بعض المشاعر التى لدى البولنديين بانهم لا يريدون الروس هناك ، فمن المحتم علينا ان نعلن الشروط وما لم يكن البولنديون مهيئين لقبول الشروط الوحيدة التى نستطيع مساعدتهم بها ، فان المسئولية يجب أن تكون مسئوليتهم » (٣)

---

(١) بونيه : نهاية أوربا ، ص ١٣٨ .
(٢) هانسارد : المجموعة الخامسة ٣٤٥ : ٢٥٠٠ ــ ٢ .
(٣) المرجع السابق ٢٥٠٧ ــ ١٠ .

تكرر مجيء تلك المجادلات من مقاعد المعارضة . وكانت الجماعات المتصارعة في حزب العمال بصفة خاصة تستطيع أن تعيد وحدة صفوفها على أســـاس مبدأ التحـالف مع روسيا السوفييتية ـ البعض على أسس عسكرية عملية ، والآخرون على أساس المبدأ الاشتراكى . كانت الحجج العملية لا يمكن مقاومتها فى الحقيقة ـ كانت ماثلة على الخريطة أمام الجميع ليروها ، وأثر نقاد تشمبرلن لأول مرة على أسماع الجماهير ، كانوا فى الماضى يبدون وكأنهم يعظون بشن حرب أيدولوجية ضد هتلر ، والآن بدأ تشمبرلن وكأنه يمارس تباعدا أيديولوجيا تجاه الاتحـــاد السوفيتى . ومما لا شك فيه أن هذا النقد من المعارضة دفع تشمبرلن تجاه المفاوضات مع موسكو ، ولكنها في الوقت نفسه زادت من عناده . كانت الحكومة البريطانية ستفقد الثقة من كلا الطريقين ، مهما كانت النتيجة . ستلام ان فشلت المفاوضات ، فاذا ما نجحوا فان تشرشـل ولويد جورج وحزب العمل سوف يلقون التأييد . كان تشمبرلن يجيد الكراهية ، على أية حال فى السياسة الداخلية ، وعندما أمعن النظر فى المسافة تجاه الكرملين ، رأى هناك وجوها ذكرته بمقاعد جبهة المعارضة .

كانت هناك اعتقادات أخرى جعلت الحكومة البريطانية تتردد . وبالحكمة الضيقة المستفادة من سـكير صلح حاله ، أصبح الرجال الذين لم يكونوا مترددين فى التخلى عن بينز يجدون أنفســـهم الآن مضطرين لمراقبة كل نزوة « لبك » . كان الانجليز يضـــمنون حقوق كل الدول الصغيرة . كيف يكون فى استطاعتهم اذن أن يتغلبوا على اعتراضات البولنديين فى التورط مع روسيا السوفييتية ؟ وأكد هاليفاكس هذا فى مجلس اللوردات : « ان سياستنا موضوعة على أســـاس أن حقوق الدول الأصغر يجب ألا تهمل بواسطة الدول الأقوى ، وان القوة يجب ألا تكون العامل الحاسم فى العلاقات بين الشعوب ، وان المفاوضات يجب ألا يسودها أو يسيطر عليها الضغط » (١) . لم تكن الحكومة البريطانية تفكر ، كما كان يفكر ناقدوها ، على أساس وجوب قيام حرب حتمية . بل لم يكونوا حتى يتوقون الى « ردع » هتلر بمظهر غامر للقوى . كانوا يبحثون فى صنع مظاهرة أدبية ، وكان التأثير الأدبى لتحالف مع روسيا السوفييتية سيضيع اذا ما اقترن بمعارضة من الدول الصغرى . بل ربما كان من الممكن أن يعد التأثير الأدبى فى صالح هتلر . وبذلك يكون للاتهام « بالتطويق » ما يبرره . « يمكن أن يقال ـ بغض النظر عن أية

---

(١) ١٩ ابريل سنة ١٩٣٩ : هانسارد ، الجزء الخامس ، ١١٢ : ٦٩٧ ـ ٨ .

محـــاولة تبذل بعد ذلك للبقاء محايدين ــ اننا نخطط عمدا لحرب بين مجموعات الدول المتنافسة » • ستستثناء ايطاليا وأسبانيا واليابان ، « كما يجب أيضا ألا ينسى أن الفاتيكان Vatican يعتبر موسكو ضد المسيحية الى مدى أبعد بكثير من برلين » (١) •

كانت الحكومة البريطانية تكافح لحفظ السلام لأوربا ، لا لتكسب حربا • كانت سياســـتها تحددها الحكمـــة ، وليســـت التقديرات الاستراتيجية • وحتى حكمتهم كانت وكأنها تحجبها الســـحب • لقد اعترفوا بأن تظلمات ألمانيا من اتفاقية فرساى كانت قوية • ومع ذلك لم يخطر لهم أبدا أن روسيا السوفييتية قد تشـــعر بحماس ضئيل فى الاحتفاظ بالوضع الراهن فى أوربا الشرقية وهو الوضع الذى عورض أساسا منذ المعاهدتين المذلتين : برست ــ ليتوفسك ، وريجا • وأسخطهم احجام روســـيا عن تأييد جبهة سلام ، على أن الذى زاد من فزعهم هو استعداد روسى لدخول الحرب ضد ألمانيـــا • كان ما يريدونه هو أن تفتح المساعدة الروسية وتقفل كما يريدون تماما ، كالصنبور ، وأن يكونوا هم ، أو ربما البولنديون ، بمفردهم الذين لهم الحق فى ادارته • وفسر هاليفاكس مسلكهم لجافكو وزير خارجيـــة رومانيا : « كان من المرغوب فيه عدم ابعاد روسيا ، بل ابقاؤها دائما على المسرح » (٢) • وكان الساسة الروس فى هذا الوقت يتوهمون أن الانجليز يخططون لأن يورطوا روسيا فى حرب مع ألمانيا ، بينما يبقون هم على الحياد ، وردد المؤرخون السوفيت هذا الاتهام • وكان هذا بسبب عدم فهم وجهة النظر البريطانية • كان الانجليز لا يريدون الحرب مطلقا : لا من جانبهم ضد ألمانيا ، ولا من ناحيتها ضد روسيا • ان محصلة حرب عامة فى أوربا لا بد أن تكون نكبة من وجهة النظر البريطانية • ذلك لأنه اذا ما كسبت أى من ألمانيا أو روسيا ، فان مركز بريطانيـــا كدولة كبرى ســـوف يتضاءل ، ان لم يتحطم مهما كان من أمر ما يحدث • كان هناك شىء واحد ملائما فى التحالف الأنجلو بولندى • كانت كلتا الدولتين مستفيدة من الظروف غير العادية التى انتهت اليها الحرب العـــالمية الأولى ، مع هزيمة كل من ألمانيا وروسيا • فبولندا مدينة لتلك الظروف باستقلالها

---

(١) مذكرات وزارة الخارجية ، ٢٢ مايو سنة ١٩٣٩ : سياســـة بريطانيـــا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، خامسا ، رقم ٥٧٦ •

(٢) محادثات هاليفاكس مع جافينكو ، ٢٦ ابريل سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ٢٨٠ •

الصورى ، وبريطانيا مدينة لها بالعظمة والنفوذ اللذين ، ان لم يكونا صوريين تماما ، فقد كان يمكن الاحتفاظ بهما بمجهود قليل • كانت كلتا الدولتين تريدان أن تجمدا العالم عند اللحظه التى انتهى اليها سنة ١٩١٩ • ورفضت بولندا أن تتجه مع أى من المانيا أو روسيا • ورفض الانجيز أن يتصوروا نصرا حاسما يحرزه أى منهما • واستنكر الانجليز الغزو البلشفيكى لأوربا الشرقية • الى هذا المدى كانت الشكوك السوفييتية لها ما يبررها • ولكنها أيضا بدت بعيدة • توقع الانجليز أن ينتصر الألمان فى حالة حرب ضد روسيا بمفردها • وكان هذا ، بالرغم من أنهم ربما أقل اشمئزازا منه لهم ، أكثر رعبا منه • ان ألمانيا التى تسيطر على أوربا من الرين الى جبال الأورال سوف تتحول ، فى رأى الانجليز ضد الامبراطوريتين الانجليزية والفرنسية • وعلى ذلك ، عندما اتهم الحكام السوفييت الانجليز بتخطيط حرب سوفييتية ـ ألمانية ، تملقوا أنفسهم عن طريقين : أولهما ، أن « الخطر الأحمر » كان مقلقا للانجليز بشكل ضئيل للغاية لدرجة أن الرغبة فى حرب تملكتهم فى القضاء عليه ، والثانية أنهم كانوا موقنين بأن الألمان سينتصرون بسهولة كبيرة وبخطورة كبيرة •

كان هناك خوف وحيد على روسيا السوفييتية وهو ما حرك الساسة البريطانيون بصدق عندما وضعوا فى اعتبارهم التطورات الممكنة : الخوف من أن تظل بعيدا بينما الدول الأوربية الأخرى تمزق بعضها البعض الى أجزاء • « كان من الضرورى ، اذا ما كان لا بد من الحرب ، محاولة اقحام الاتحاد السوفيتى فيها ، والا فسيسيطر الاتحاد السوفيتى فى نهاية الحرب بجيشه الذى لم يمس على أوربا فى حين ستصبح انجلترا وألمانيا أطلالا » (١) • هنا ، فى رواية أخرى ، كانت سياسة الصنبور الذى عليه أن يفتح أو يقفل حسب المشيئة البريطانية • ولكن لنفرض أن الحكام السوفيت حادوا عن هذا الدور المريح • لقد حذر الانجليز المرة تلو الأخرى من أن روسيا السوفييتية وألمانيا قد تصلان الى بعض الاتفاق ، أو أن روسيا السوفييتية على أقل تقدير قد تجلس فى المقاعد الخلفية بينما تسرع بقية أوربا نحو خوض المتاعب • لقد حذرهم سيدس Seeds سفيرهم فى موسكو ، وحذرهم دلادييه ، حتى انهم حذروا بطريقة غير مباشرة بواسطة جورنج ، الذى كان يكره الخط المؤمل فى

(١) وزارة الخارجية ، ٢٢ مايو سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، خامسا ، رقم ٥٧٦ .

السياسة الألمانية للتقارب مع السوفيت . وبقى تشمبرلين وهاليناكس ووزارة الخارجيه دون رغبة فى التعديل . رفضت التحذيرات مرة أخرى باعتبارها « بعيدة الاحتمال تماما » (١) . ألم ير البريطانيون أنهم ، بموجب الحلف الأنجلوا ــ بولندى ، كانوا قد ارتبطوا بالتبادل دفاعا عن حدود روسيا السوفييتية ، كيف افترضوا اذن أن المساعدة السوفييتية كانت لا شيء سوى أنها ذات فائدة لا جدوى منها ؟ انه من المستحيل اكتشاف اجابة منطقية لتلك الأسئلة . اذا كانت الديبلوماسية الانجليزية قد تاقت بصورة جدية للتحالف مع روسيا السوفييتية فى سنة ١٩٣٩ ، فان المفاوضات التى جرت لادراك هذه الغاية تكون بذلك أكثر العمليات عجزا منذ أن فقد لورد نورث المستعمرات الأمريكية . وربما يكون العجز هو أبسط تفسير . كان الانجليز مستغرقين بمتاعب موقفهم ــ تدبير سياسة لدولة عالمية ، ترغب فى أن تدير ظهرها لأوربا ، ومع ذلك تريد أن تتولى القيادة فى الأمور الأوربية . لقد وزعوا الضمانات فى أوربا الشرقية ، وتاقوا الى عقد أحلاف عسكرية . ومع ذلك فان ما كانوا يريدونه فى أوربا هو السلام واعادة النظر سلميا على حساب الدول التى أعطوها ضماناتهم . لم يثقوا فى هتلر وستالين . ومع ذلك كافحوا من أجل السلام مع واحد ومن أجل التحالف مع الآخر . وليس مما يثير الدهشة أنهم فشلوا فى كلا الهدفين .

وزادت اختلافات وجهة النظر الشخصية من حدة الاضطرابات فتشمبرلن لم يكن يريد بأى حال الاتحاد مع روسيا السوفييتية ، الا بشروط مستحيلة . لقد جره الى هذا هاليفاكس ، الذى جرته الى هذا ، وهو الشكاك بطبيعته ، وزارة الخارجية . فحتى الموظفين الدائمين كانوا لايثقون فى هتلر أكثر من عدم ثقتهم فى ستالين ، وعلى قدر سرعتهم فى رؤية أخطار التحالف مع روسيا السوفييتية ، لم يروا الا القليل من مزاياه . وكان من الممكن بذل محاولة بسيطة لو لم يتوال الضغط من مجلس العموم ومن الرأى العام ، وأذعن الوزراء لهذا الضغط بقدر غير كبير لأنهم ظنوا أنه صحيح كما لم يكن فى استطاعتهم ايجاد بديل له ولكن الرأى العام لم يكن فى اتجاه واحد تماما . كانت المطالبة بحلف سوفيتى لها دويها ، ولكن ربما كانت معاداة روسيا السوفييتية ، وان كانت اقل دويا ، الا أنها كانت اقوى ــ وبالأخص بين أصحاب المقاعد

---

(١) محضر وزارة الخارجية عن هندرسن وهاليفاكس ، ٨ مايو سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق ، رقم ٤١٣ .

الخلفيه من المحافظين • كان هناك اعتقاد سائد بالفشل النهائي ـ والحقيقه أنه آزاح عقبه نفسيه فى سبيل الحرب • كانت النتيجة المنطقية للسياسة البريطانية ، اذا ما كان يمكن تصور شيء كهذا ، هو الحياد السوفيتى ، بالرغم من أن الانجليز كانوا شديدى الحنق عندما حدثت هذه النتيجة فى حينها •

أكان فى خيال الحكام السوفيت من جانبهم هدف منطقى وواضح منذ البداية ؟ لا أحد يعرف الاجابة ، ربما فيما عدا مولوتوف الذى طواه النسيان والذى يبدو كشفه عن ذلك أمرا بعيدا • ليس لدينا أدنى دليل عن العمليات الداخلية في السياسة السوفييتية • ولا نعرف ما اذا كان السفراء السوفييت قد كتبوا تقارير الى موسكو وما اذا كانت الحكومة السوفييتية قرأت تقاريرهم • ولا نعرف ماذا قال الساسة السوفيت لبعضهم البعض أو بماذا كان يخبرهم مستشاروهم الفنيون • وحيث يعوز الدليل ، لا يستطيع المؤرخون الا أن يخمنوا نتيجة المظاهر الخارجية ـ أو من ميولهم • وزعم المؤرخون السوفيت (الذين بدوا وكأنهم استقوا معلومات مضللة مثلنا) عدالة حكومتهم وعذر الحكومات الأخرى • وفى رأيهم أن روسيا السوفييتية جاهدت بكل اخلاص من أجل جبهة سلام ، وأن بريطانيا وفرنسا خططتا لاغوائها فى حرب منفصلة ضد المانيا ، وأن ستالين تملص من هذا الخطر بضربة عبقرية فى اللحظة الأخيرة • ويرى المؤرخون الغربيون الأشياء من الجانب الآخر وهم يقاتلون الحرب الباردة بولاء • وتبعا لروايتهم الأكثر تطرفا ، أن الحكومة السوفييتية اضطرت الى التعامل مع ألمانيا طوال كل هذا ، وتفاوضت مع بريطانيا العظمى وفرنسا لا لشيء الا لتستثير عرضا ألمانيا • وبدلا من ذلك ، كانت روسيا السوفييتية تتفاوض مع كلا الجانبين ، وهى تراقب المزايدة ترتفع حتى تقفل على الأكثر ارضاء لها • وكان الحكام السوفيت ، من احدى وجهات النظر يبحثون عمدا لاثارة حرب فى أوربا ، وفى وجهة نظر أخرى ، كانوا مصممين ، فى أية ظروف ، أن ينأوا بأنفسهم بعيدا عن الحرب • وبالرغم من أنه قد يكون هناك بعض الحقيقة فى وجهات النظر هذه ، فان فيها عيبا عاما • انهم ينسبون الى القادة السوفيت علمهم مقدما بأحداث لاحقة ، ومهما يكن مقدار ما عليه هؤلاء الساسة من سوء طوية ، فمن المشكوك فيه ما اذا كان الشيطان قد شارك بامتيازه معهم الى هذا المدى • فلقد قيل مثلا أن الحكومة السوفيتية كانت تعرف منذ البداية أن هتلر سيدخل الحرب فى أول سبتمبر ، وأنهم قد وقتوا تكتيكهم مع

هذا عمدا • وربما كان هتلر يعرف ذلك ، أما الساسة السوفيت فلم يكونوا يعرفون • وفى هـذا ، كما فى موضـوعات أخرى ، كان يجمل بالمؤرخين أن يذكروا عبارة ميتلاند الحكيمة : « من الصعب جدا التذكر ان الأحداث التى أصبحت الآن فى الماضى منذ زمن طويل كانت ذات مرة فى المستقبل » •

ان بعض التصميمات التى تعزى الى القـادة السوفيت تحطمت على صخرة الاختبار الفعلى • فمن المعتقد أنهم أطالوا فى أمد المفـاوضات مع الدول الغربية لـكى يحصلوا على عرض باهظ من هتـلر فى اللحظة الحاسمة • ويكشف التبادل الديبلوماسى أن التأخير أتى من الغرب وأن الحكومة السوفييتية ردت بسرعة البرق • وقدمت الحـكومة البريطانية اقتراحها التجريبى الأول فى ١٥ أبريل ، وجاء الاقتراح السوفييتى المضاد بعد يومين ، فى ١٧ ابريل • واستغرق الانجليز ثلاثة أسابيع قبل تحديد اجابة فى ٩ مايو ، وكان التأخير السوفيتى عندئذ خمسة أيام • وعندئذ استغرق الانجليز ثلاثة عشر يوما ، واستغرق السوفيت خمسة أيام مرة أخرى • ومرة أخرى استغرق الانجليز ثلاثة عشر يوما ، وردت الحكومة السوفييتية فى خلال أربع وعشرين ساعة • وبعد ذلك زادت السرعة • ورد الانجليز فى فترة خمسة أيام ، وجاء الرد السوفييتى فى خلال أربع وعشرين ساعة • واحتاج الانجليز الى تسعة أيام ثانية ، واحتاج السوفيت الى يومين • خمسة أيام أخرى بالنسبة للانجليز ، ويوم بالنسبة للروس• ثمانية أيام فى الجانب الانجليزى ، والرد السوفيتى فى اليوم نفسه •

وكان التأخير البريطانى لمدة ستة أيام ، والرد السوفيتى فى اليوم نفسه وبهذا انتهى التبادل فعلا • واذا ما كانت التواريخ تعنى شيئا ، فان الانجليز كانوا يمطون الأمور ، وكان الروس شـغوفين لأن ينتهوا وهناك دليل آخر على أن البريطانيين عالجوا المفاوضات بطريقة اتفـاقية أقرب الى تهدئة الرأى العام من تحقيـق أى شىء • وعرض أنتونى ايدن أن يذهب الى موسكو فى مهمة خاصة ، ورفض تشمبرلن عرضه • وكتب عضو فى وزارة الخارجية أرسل الىموسكو لغرض غامض (لم يكن بالتأكيد لعقد تحالف) باستخفاف فى ٢١ يونيو (اننى أجرؤ أن أقول اننا سنصل الى شىء فى النهاية • وعندما أقول «فى النهاية» أستعيد ملاحظة لنجيار (السفير الفرنسى) بعد ظهر اليوم بأنه قد وصل على الأرجح الى سن المعاش وأحيل الى التقاعد قبل أن أرحل عن موسكو (١) ، أكان هـذا الموظف

(١) من سترانج الى سيرجنت ٢١ يونيو سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق سادسا رقم ١٢٢ •

سيكتب بمثل انعدام المسئولية البادية اذا ما كان هو أو رؤساؤه فى الواقع قد اعتبروا التحالف السوفيتى صانعا لكل الاختلاف بين السلام والحرب ؟ ٠

وهناك لغز عجيب آخر متصل بتلك المفاوضات ٠ كانت تدار بنقص واضح فى السرية وملحوظ حتى وان كانت فيه الديبلوماسية السرية ذات الطابع القديم وقتها قد تحطمت فى كل مكان ٠ كانت كل المفاوضات الرسمية الأخطر أو الأقل منها شأنا قبل الحرب العالمية الثانية معروفة للرأى العام ، وكانت تستخدم البعثات الغربية أو غير المرغوب فيها عندما تتجه الرغبة الى استخدام السرية الحقيقية ومع ذلك كانت التفاصيل لا تتسرب عادة فى الحال ٠ ومهما يكن من شىء فان المفاوضات الانجلو ــ سوفيتية كانت غالبا ما تصل الى الصحافة قبل أن تصل الى الفريق الآخر ٠ عندما كانت لا تصل الى الصحافة فانها كانت تصل الى الألمان ، وتسرب من هذا النوع يجعل عملية المتابعة أمرا مستحيلا ومن العبث استنتاج الكثير منها ٠ ويبدو بقدر ما يستحق هذا منا من اهتمام أن الحكومة السوفييتية كانت المصدر الذى استقت منه الصحافة معلوماتها بهدف مضايقة الجانب البريطانى ٠ كانت العروض السوفيتية دائما تذاع مباشرة ، والاقتراحات الانجليزية فقط بعد أن تبلغ الى موسكو ، وفى الجانب الآخر كانت وزارة الخارجية الألمانية تتلقى معلوماتها من «مصدر ثقة » أحيانا قبل أن تصل هذه الى الصحافة وغالبا قبل أن تعرف فى موسكو ٠ ولا بد على هذا أن يكون ذلك المصدر الذى يمكن الاستناد اليه فردا فى وزارة الخارجية البريطانية سواء أكان يعمل على أساس تعليمات أم يفشى الأسرار للألمان لحسابه الخاص ٠ ان بعض الاستنتاجات لا يمكن استخلاصها من تلك الحقائق الا بحذر ، فليس فى استطاعة الحكومة السوفيتية أن تعنى باطلاع شعبها أو استمالته ، فقد كان من الممكن تحويله باشارة بسيطة ، اذن كان الهدف من الافشاء أن يكون للرأى العام البريطانى مع افتراض وجود نية الزام الحكومة البريطانية ، وقد يتضمن هذا أن الحكومة السوفييتية كانت تريد الحلف باخلاص ومن الممكن أنها كانت تلعب لعبة سياسية أكثر اتقانا آملة أن تثير فى بريطانيا انقلابا سياسيا يؤدى الى مجىء اليسار الى الحكم ٠ ولكن حتى هذا الأمر كان لابد أن يكون شيئا مرغوبا فيه لتأمين الحلف ، وفى الجانب الآخر كان لا بد للمصدر الذى يمكن الاستناد اليه فى لندن أن يتولى مسألة تحذير الألمان وذلك لكى يثير اتفاقا انجليزيا ــ المانيا وذلك اذا ما كانت له نوايا سياسية أساسا ٠ وقد يكون هناك بطبيعة الحال تفسيرات أكثر فجاجة ، وربما كان للروس مجرد شغف الى اثبات صواب رأيهم كما فعلوا فى

أغلب الأحيان في مناسبات لاحقة ، ومن الممكن أن يكون مبلغ لندن كان يعمل فقط مدفوعا بالمنفعة الشخصية وأقصى ما يمـــكن أن نقــوله ونحن آمنون هو أن الأخطاء لم تكن ملقاة على عاتق جانب واحد ٠

ان التأمل سيكون أكثر فائدة اذا نسينا المحصلة وحاولنا أن نعيد بناء الصورة الســوفيتية عن العــالم ٠ ومما لا شــك فيه ان الساسة السوفييت نظروا الى كل الدول الاجنبية فى شك كبير وكانوا على استعداد لأن يكونوا غير هيابين بدورهم ٠ لقد كان موضع تقــديرهم ، فى وعى متوســط ، انهم قد انشغلوا فى دبلوماسية خطيرة للمرة الأولى ٠ ولقــد تركت السياسة الخارجية للشيوعيين من المرتبة الثــانية ــ لتشــشترين أولا ، ثم ليتفنوف (ولم يكن أى منهما عضوا فى المكتب السياسى) وذلك منذ لم يعد تورتسكى قوميسارا للسياسة الخارجية فى أوائل سنة ١٩١٨ ٠ وفى ٣ مايو سـنة ١٩٣٩ تسلمها مولوتوف من ليتفنوف ، وعومل هذا أحيانا كقرار فى صالح ألمــانيا والأرجح أنه ليس الا اعترافا بأن الشئون الخارجية أصبحت شـــيئا له أهميته ٠ كان مولوتوف هو الرجل الثانى بالنسبة لستالين مباشرة فى الاتحاد الســـوفيتى ٠ ولم يحــط اتصاله بالشئون الخارجية بالشك فحسب ، وانمــا كذلك بتلك العناية المتحذلقة بالذلاقة اللفظية التى ميزت البلشنيك فى منازعاتهم الداخلية ٠

ولا مجال للشك فى انه أخذها بجدية ٠ ولا مجال كذلك لشك كبير فيما يختص بالباعث الرئيسى للسياسة السوفيتية ٠ وانمــا كانت هناك رغبة فى أن يتركوا وشأنهم ٠ كان السوفييت واعين بضعفهم الذاتى ، وكانوا يخشون تآلفا عدائيا للدول الرأسمالية ، وكانوا شغوفين فى أن يضغطوا بتوسعهم الاقتصادى ٠ واتفقوا مع الحكومة البريطانية فى رغبتهم نحو اقامة السلام ٠ واختلفوا فى كيف يمكن الاحتفــاظ بالسلام ٠ ولم يؤمنوا أن هتلر يمكن تهدئته بالتنــازلات ٠ وانما اقتنعوا بأنه يمكن أن يردع فقط بمظهر حازم من المعارضة المتحدة ٠

كانت هناك أسباب أخرى للتباعد ٠ فبالرغم من أن الشكل مختلف عن هتلر ، من أنه لم تكن لديهم رغبة فى هدم الوضع الراهن ، لم يكن لديهم أيضا لا الميل أو الحماس له ، وأثبتت الدعوة للعمل لصالحه فى أول الأمر الى أى مدى كانوا يكرهونه ٠ كانوا عنيدين فى القيام بأى عمل كلية ، ولكن اذا ما عملوا ــ وبالأخص فى حالة دخول الحرب ــ فلن يكون ذلك للابقاء على اتفاقيتى برســـت ــ ليتوفسك ــ وريجــا ٠ كانوا يشترطون العــودة الى الاهتمام بالشئون العمالية باعتبارهم دولة كبرى فقط ٠ الند لبريطانيا والدولة الكبرى فى أوربا الشرقية ٠ واختلف الجانبان بشكل ابعــد فى

تقديرهم لقوة الطرف الآخر · افترض الانجليز أن روسـيا السوفيتية ستهزم حتما فى حالة الحرب مع ألمانيا · وعلى ذلك كان اهتمامهم بمنع نشوب الحرب بين ألمـانيا وروسيا السوفيتية على مستوى رغبتهم نفسه فى تجنب الحرب مع ألمـانيـا · وزعم الروس أن بريطـانيا وفرنسـا يستطيعان أن يحتفظا بوضعهما الدفاعى وعلى هذا فان حـربا فى الغرب سترهق كل المتحاربين جميعا بالتبادل · ومن ثم فانهم اذا ما فشلوا فى تحقيق السلام العام أمكنهم أن يقامروا بالحرب ، الأمر الذى لا يستطيعه البريطانيون · كان على البريطانيين أن يقاوموا هتلر اذا ما فشـلوا فى استرضائه وكان على الروس أن يختاروا بين السلام والحرب ـ أو هـذا ما تخيلوه ، وكانت حرية الاختيار لدى الروس موجودة لذلك بطريقة أكثر رسمية ، كان البريطانيون ملزمين بالفعل بالمقاومة بسبب حلفهم مـع بولندا ـ كان لابد من كسب الروس ، ولم يـكن من المحتمـل كسبهم بأسلوب المعالجة العشوائية التى تلقوها من لندن ـ هذا بغض الطرف عن العناد الذى رفض به البولنديون تصور المساعدة السوفيتية · ويجعل سرد تلك الاختلافات المفاوضات تظهر وكأنما قد قضى عليها مقدما · ومع ذلك فمن المحتمل أن أحدا من الطرفين لم يقدر ذلك عند البداية بل وربما حتى الى ما قرب النهاية · وافترض الروس أن الدول الغربية كانت يائسة من المساعدة ، كما كان يجب أن يكونوا فى الواقع ، واعتمد الانجليز فى ثقة على التباعد الأيدرلوجى بين الفاشية والشيوعية ، وتخيلوا أن الحـكومة السوفيتية سوف تستشعر الملق لدى أية ايماءة بالاعتراف بها ·

وأقيم نمط التباعد منذ البداية · اقترحت الحكومة السوفيتية مؤتمرا للدول الداعية للسلام بعد احتلال ألـمانيا لبراج مباشرة ورفض الانجليز هذا باعتباره « سابقا لأوانه » ـ وهى كلمة أثيرة لديهم · وبدلا من هـذا وزعوا ضمانات على الدول المهددة فرضا · كان يمكن أن يكونوا راضـين بهذا اذا ما تركوا وشأنهم · ولـكنهم لم يتركوا وشأنهم فلقد أقلق مجلس العموم مضاجعهم حتى أنهم فوق هذا أنذروا بوجود أخبار بأن الحـكومة الفرنسية كانت تبحث فى عقد اتفاقية تبـادل المسـاعدة مع روسـيا السوفيتية · كان هذا هو رد فرنسا المضاد على الطريقة التى انتهجهـا الانجليز بالنسبة للضمان لبولنـدا · كان البريطانيون فى خطر أنهم أقحموا فى حلف مع روسيا السوفييتية تماما مثلما دفع الفرنسيون ضد رغبتهم الى حد كبير الى ضمان الاستقلال البولندى ·

ومن هنا كان على الانجليز أن يتملـكوا زمام القيادة اذا ما أرادوا درء هذا الخطر ، وصممت مفاوضاتهم مع روسيا السوفيتية ، وفى الجزء

الأكبر للحيلولة دون التحالف المباشر الذى أراده الفرنسيون . وفى ١٥ أبريل تقربت الحكومة البريطانية مكرهة الى موسكو – وطالبوا ببيان يوضح أنه اذا ما هوجمت احدى جارات روسيا « فان مساعدة الحكومة السوفييتية ستكون ممكنة اذا طلب اليها ذلك ، وستمنح بطريقة ملائمة تماما » وهنا ، باختلاف بسيط فى الكلمات ، كان المبدأ الوحدوى نفسه الجانب الذى سبق أن ظهر في المعاهدة التشيكية السوفيتية والذى ناقض السياسة السوفيتية فى سنة ١٩٣٨ ، ولم يكن فى استطاعة السوفييت فى ذلك الحين القيام بعمل آلا اذا قامت فرنسا بالعمل أولا ، أما الآن فكان عليهم أن يعملوا اذا ما تفضلت بولندا أو رومانيا أو دولة بلطيقية بدعوتهم ولربما كان السوفييت فى سنة ١٩٣٨ يرحبون بالعذر فى ألا يعملوا شيئا ، وبعد ذلك بستة شهور(١) تغير مسلكهم . وما أن انهار الستار الحديدى حتى أحسوا بأنفسهم فى خط الجبهة . لم يكن يعنيهم تعضيد بولندا أو اظهار شيء من التفاخر المعنوى ضد هتلر وانما رغبوا فى ضمان تعضيد محكم وصلب من الدول الغربية فى حالة ما اذا هاجم هتلر روسيا سواء عن طريق بولندا أو بشكل أكثر مباشرة .

وفى ١٧ ابريل قدم ليتفنوف اقتراحه المضاد : لابد أن تكون هناك اتفاقية مساعدة متبادلة بين انجلترا وفرنسا وبين الاتحاد السوفيتى لمدة خمس أو عشر سنوات . والأكثر من هذا أن الاتفاقية لابد أن تقدم كل أساليب المساعدة متضمنة المساعدات ذات الطبيعة العسكرية ، للدول الأوربية الشرقية الواقعة بين البلطيق والبحر الأسود ، الواقعة على حدود اتحاد الجمهوريات السوفيتية ، وفى حالة العدوان على تلك الدول(٢) ، وكان شيئا سيئا تماما من وجهة النظر البريطانية أن تقترح الحكومة السوفيتية أن تساعد بولندا دون دعوة سابقة ، وكان الاقتراح بمساعدة الدول البلطيقية أكثر سوءا . واعتقد البريطانيون أن الروس كانوا يقومون بمجرد محاولة للتهريب فى طموح «امبريالى» وتكرر هذا الاتهام دائما منذ ذلك الحين . ومع ذلك فقد كان الاتهام السوفيتى بالنسبة لتلك الدول مخلصا . كان الروس يخشون هجوما ألمانيا على ليننجراد ومع ملاحظة التفوق البحرى الألمانى فى البلطيق ، كانت هذه مخاطرة شبه معقولة .

---

(١) من الغريب ان مؤرخى « الحرب الباردة » الذين ادانو الاتحاد السوفيتى لمحافظتهم على هذا القيد فى سنة ١٩٣٨ ، ادانوه بالشدة نفسها لرفض اى قيد مشابه فى سنة ١٩٣٩ .

(٢) من سيدس الى هاليفاكس ، ١٨ ابريل سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة ، خامسا رقم ٢٠١ .

ولهذا رغبوا فى تقوية وضعهم العسكرى بريا بالتحكم فى دول البلطيق ، ولأنهم كانوا يعرفون جيدا أن تلك الدول قد تفضل ألمانيا على روسيا اذا ما أجبروا على ذلك ، فانهم رغبوا أيضا فى أن يشترطوا أن تقدم « المعونة » السوفيتية دون دعوة ، ولقد كان هذا الاهمال لاستقلال الدول الصغيرة استهتارا بلا شك ولكن ـ اذا سلمنا بأن روسيا السوفيتية كانت تسلك سبيلا عدائيا بالنسبة لألمانيا ـ فان هذا بزغ من مخاوف حقيقية ـ وكانت بريطانيا قد تعهدت بالضمان لبولندا ورومانيا وعلى ذلك فانها اذا ما حافظت على وعدها كان عليها أن تدخل الحرب اذا ما هاجمت ألمانيا وروسيا السوفيتية عن طريق احدى تلك الدولتين • ولم يكن هناك أى التزام بريطانى تجاه دول البلطيق ، وهنا كان المنفذ لهجوم ألمانى على روسيا السوفيتية ، فى حين تظل الدول الغربية على الحياد • ولقد أقنع الرفض الانجليزى للاقتراح السوفيتى ، الحكام السوفييت أن شكوكهم كانت سليمة وكانوا على حق • كان الانجليز يكنون احتراما حقيقيا لاستقلال الدول الصغيرة وقد أبقوا الأمر على هذا الاحترام بالنسبة لبلجيكا الى حد بعيد أدى بهم وبالفرنسيين الى نكبة استراتيجية فى مايو سنة ١٩٤٠ • ومما لاشك فيه أن الدافع الرئيسى لمعارضتهم هو عنادهم فى ترك اتخاذ قرار السلام أو الحرب بين أيدى السوفييت كان يمكن ترك القرار للبولنديين ، وكان يمكن تركه لدول البلطيق ـ أما الحكومة السوفيتية فأبدت « أن حكومة جلالة الملك قد تجر الى حرب لا لوقاية دول أوربية صغيرة ولكن لتعضيد الاتحاد السوفيتى ضد ألمانيا وفى هذا المجال فان الرأى العام فى هذه الدولة قد ينقسم » (١) ، وكان هذا ما يخشاه الروس تماما • وكلما ازداد دفاع الانجليز عن استقلال دول البلطيق ازداد اتجاه الروس الى الضغط ضده ، وكلما ازداد ضغط الروس كلما أصبح الشك البريطانى أكثر قوة • ولم يتم الوصول بتاتا الى اتفاق فى هذا الموضوع ، وكانت هى النقطة التى تحطمت فيها المفاوضات فنيا • ولم تكن تلك ذات أهمية كبيرة فى حد ذاتها ولكنها كانت تمثل الاختلاف الأساسى بين الجانبين • كان الانجليز يريدون حلفا يحمى الآخرين ، وبذلك تردع هتلر دون حرب • وكان الروس يريدون الحلف الذى يحميهم •

ولقد حام الانجليز حول هذا الموضوع لمدة أسبوعين بعد استلام رد ليتفنوف • سألوا بولندا ورومانيا عن أى نوع من الاتفاق تسمح به الدولتان للتعاون مع روسيا السوفيتية • قيل لهم انهم يستطيعون عقد أى اتفاق يريدونه طالما أنه لا يورط بولندا أو رومانيا ، وحاول البريطانيون

---

(١) مذكرات وزارة الخارجية ٢٢ مايو سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ٥٧٦ .

أيضا أن يستفزوا براعة الدبلوماسية الفرنسية ، وخيب بونيه أملهم فأعلن للسفير السوفيتي « أثناء اشتداد لهيب المحادثات » : ان فرنسا تفضل حلفا لتبادل المساعدة ، وكان الانجليز لازالوا مستمرين في اصرار للوصول الى هدف أفضل • وفي ٨ مايو اقترحوا ـ نظرا للضمانات الانجليزية لبولندا ورومانيا ـ يجب أن تلتزم الحكومة السوفيتية بأنه في حالة اقحام بريطانيا وفرنسا في خصومات يعرضها انجازها لهذه الالتزامات تكون مساعدة الحكومة السوفيتية في متناول اليد فورا اذا ما طلبت ، وتقدم بالطريقة والشروط التي يتفق عليها » • هنا كان لايزال تصور «الصنبور» الذي يمكن فتحه « اذا ما رغب في ذلك » بواسطة البريطانيين ولكن ليس تحت اشراف السوفيت• وكان قبول هذا الاقتراح هو أول ظهور مولوتوف باعتباره قوميساراً للخارجية السوفيتية • ولم تكن فيه فرصة لبعث الثقة المتبادلة ، وكان المناخ قد تغير وان اعترف مولوتوف بأن السياسة السوفيتية لم تتغير ، ولم يكن هناك شيء من تعليقات مولوتوف المرحة ـ لا استهزاءات أو تعليقات جانبية خفيفة الدم عن (بك) أو غيره من البولنديين كان هناك بدلا من ذلك « تساؤل لا يلين » وقضى السفير الانجليزي وقتا عصيبا الى أقصى حد • وفي ١٤ مايو رفض مولوتوف رسميا الاقتراح الانجليزي وطالب « المبادلة » لابد من وجود حلف تبادل للمساعدة ضمانا لكل الدول الأوربية الشرقية سواء رغب فيها أو لم يرغب ، « والخاتمة لاتفاقية واقعة (بالنسبة لشكل ومدى المساعدة) » •

وفي هذه المرة رفضت الحكومة البريطانية تقريبا في يأس ـ أو على أساس مبدأ • والسبب الذي قرروا من أجله المحاولة ثانية غير واضح • كانوا لا يزالون بطبيعة الحال يواجهون النقد في مجلس العموم ـ وفي ١٩ مايو قال لويد جورج : « لعدة شهور كنا نتفرس في فم هذا الحصان القوي الذي جاءنا كهدية •• لماذا لم نحزم أمرنا ونصمم دون أي ضياع للوقت على أن نصل الى الشروط نفسها مع روسيا كما فعلنا مع فرنسا » (١) ولم تكن تلك الحجج برغم قوتها ذات وزن كبير لدى تشمبرلن أو أصحاب المقاعد الخلفية من المحافظين وربما العكس • كان الاستياء ضد ألمانيا ، الذي تبع احتلال براغ لايزال يتزايد وكانت الخصومة القديمة لروسيا السوفييتية تستعيد قوتها وخاصة عندما رفض الحكام السوفييت الضغط عليها بالتماس من بريطانيا بالمساعدة فيه معنى التفضل • وحجب « العناد » السوفييتي عدوانية هتلر ، ومن ناحية أخرى كانت مازالت المشاكل قائمة • كانت تظلمات فرنسا وشكاياتها على الأرجح هي

(١) هانسارد الجزء الخامس ١٨١٥ ـ ١٨١٩ •

العنصر الحاسم فى دفع بريطانيا الى الأمام · كان الفرنسيون مكبلين « بالمسئولية تجاه بولندا ، ومع ذلك فقد حالت شكوك بريطانيا بينهم وبين شد أزر السوفييت·ولجعل الأمور أسوأ من وجهة نظر الفرنسية حاول البولنديون في اصرار أن يتوسعوا ويستحدثوا بنودا فى التزامات التحالف كانوا يهدفون بالنسبة لدانزج الى أن يستخلصوا من الفرنسيين الالتزام ذاته الذى تجنبه الانجليز طويلا ، وطالبوا أيضا بطريقة شبه معقولة تماما وجوب تدعيم التحالف القديم آخر الأمر بمعاهدة عسكرية وأرجأ دلادييه وبونيه النقطة الأولى وكانوا يؤمنون بتفوق الانجليز بأن من المعقول تماما أن تعود دانزج الى السيادة الألمانية ، وسلموا بالنسبة للنقطة الثانية صوريا أوصى دلادييه جاملين بأن يتفاوض لاتفاق عسكرى تم فورا فى ١٩ مايو · وكان هذا الاتفاق تزويرا · أشترط ألا يصبح فعالا الا فى حالة الوصول الى اتفاق سياسى ، الأمر الذى لن يتم · كانت الوعود الفرنسية ذاتها عاجزة - ووافق جاملين · على أن « كتلة » القوات الفرنسية يمكنها أن تشن هجوما فى حالة هجوم ألمانيا على بولندا · وأخذ البولنديون تعبير « كتلة » يعنى الجيش الفرنسى بأكمله بعبارة أخرى وعداً بهجوم فرنسى وكان جاملين يعنى فقط ، أو هكذا قال - أن يقصر تلك القوات التى تصادف وجودها فى خط ماجينو فى ذلك الوقت - على مجرد القيام بعملية على الحدود ·

من الغريب أن البولنديين اقتنعوا بسهولة ولكنهم وقد ملأهم الزهو بأنفسهم ، كان من السهل على الآخرين أن يغرروا بهم أو ربما وهم لم يتوقعوا أن نزاعا بعيد المدى سيحدث - استمروا على يقين حتى النهاية بأنهم سيكسبون حرب الأعصاب · وكان بونيه مغتبطا بعمله المراوغ ، أما دلادييه فكان كالعادة خجولا وحانقا على ما فعله · وفى هذا الوقت نفسه تماما وصل هاليفاكس الى باريس فى طريقه الى جنيف ووجد دلادييه ساخطا على البولنديين ومستعدا لأن يولى مدبرا · كان دلادييه يريد اتفاقية مباشرة بتبادل المساعدة مع روسيا السوفييتية وعندما اعترض هاليفاكس بأن بريطانيا وفرنسا ستكونان على هذا ملزمين بالحرب حتى اذا ما هاجمت ألمانيا روسيا بتغاض من بولندا ورومانيا أو اذعان منهما ، أجاب دلادييه فى مثل تلك الحالة ستتدخل فرنسا على أساس الاتفاقية الفرنسية السوفيتية كما أن الأمر لو تم بهذه الصورة فسيكون من المستحيل علينا قطعا (بريطانيا) أن تقف جانبا(١) ولم يكن هذا

---

(١) من هاليفاكس الى كدوجان ، ٢١ مايو سنة ١٩٣٩ ، سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، خامسا ، رقم ٥٧٦ ·

مطمحا مفرحا من وجهات النظر البريطانية كان آخر مايريدونه هو أن يكونوا طرفا ثالثا فى تحالف فرنسى روسى متجدد • وكان المخرج الوحيد هو قبول حلف تبادل المساعدات من ناحية المبدأ على أن تفرض عليه القيود لدى تطبيقه • ووافقت الوزارة البريطانية على هذا الاسلوب فى ٢٤ مايو•

غيرت المفاوضات مع موسكو الآن من طبيعتها ، كانت بريطانيا تتفاوض من قبل بمفردها ، وكان الفرنسيون ينتظرون جانبا وهم على أحر من الجمر ، ومنذ الآن أصبحت تؤخذ موافقة فرنسا أولا على كل خطوة وكان الثمن تأخيرا لا حد له ، وبالرغم من هذا كان الفرنسيون يساندون الاعتراضات السوفيتية كلما أثيرت • ودفع الانجليز من تنازل الى آخر وابتلعوا تقريبا كان جزء من النص السوفيتى بعناء واضح فى كل مرة •

ولم يكن من الممكن زحزحتهم عن النقطة الأساسية • رفضوا أى تحديد « للاعتداء غير المباشر » الذى أباح لروسيا السوفيتية وليس للدولة المهددة أن تقرر أنه قد تم : لم يكن على دول البلطيق أن تقبل المساعدة ضد رغبتها وكان هذا — ظاهريا — دفاعا على استقلال الدول الصغيرة وبقى الاختلاف الحقيقى أكثر عمقا : يمكن أن يتعاون البريطانيون مع روسيا السوفيتية فقط فى حالة ما اذا ما هوجمت بولندا • ووافقت على قبول المساعدة السوفييتية ، والآن فان على الروس أن يحاربوا بمفردهم ودلت المفاوضات التى اتسمت بالسماجة والعناد شهرين — من ٢٧ مايو الى ٢٣ يوليو — واستمرت النقطة الرئيسية بلا حل • وعندئذ حول مولوتوف المشكلة بأن اقترح انهم يجب أن ينتقلوا الى المحادثات العسكرية على أمل أن موضوع «العدوان غير المباشر ، قد يحل نفسه بنفسه • ووثب الفرنسيون على هذا الاقتراح ، كانوا مستعدين دائما لقبول الشروط السوفيتية السياسية اذا ما حصلوا فى مقابلها على تعاون عسكرى حاسم• واذعن الانجليز مرة أخرى تحت ضغط الاحتجاج ، ولكنهم لم يذعنوا بالنسبة للموضوع الرئيسى • والواقع وبتقدم المحادثات العسكرية « نشعر أنه يمكننا تقبل اتخاذ خط أكثر صلابة نوعا ما فيما يختص بالنقطة الوحيدة التى كنا نكشف بها دائما كأمر له أهميته الرئيسية (١) وبرهن الاتجاه الأشد حربا على عدم جدواه ، فقد أوقفت المفاوضات السياسية ولم تستأنف مطلقا بصورة جدية ولم يقدر أبدا لمسودة المعاهدة التى أعدت بهذه الصورة المرهقة أن توقع أبدا • واجتمع المبعوثون — الانجليز والفرنسيون على مهل — وبعد ذلك بالقدر نفسه من التمهل

(١) من هاليفاكس الى سيدس ، ٢٨ يوليو سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق ، سادسا رقم ٤٧٢ •

اتجهوا الى لينجراد عن طريق البحر • كان من المعتقد أنهم لن يستطيعوا اختراق ألمانيا بالقطار وهيأت فرصة غريبة عدم وجود طائرات معدة ، وسلك البريطانيون وكأنهم يملكون كل الزمن فى العالم • وفى الوقت الذى وصلت فيه البعثة العسكرية موسكو كانت الأزمة الأخيرة فى انتظارهم •

هل كان هناك على الاطلاق أى تعقل أو واقعية فى تلك المفاوضات التى لا حد لها ؟ انه لمن الغريب ألا نظن ذلك ، فمن المؤكد ان مسلكهم أثار الشك المتبادل بصورة ضخمة ، وبنهاية يوليو كان الروس على يقين تام أن الانجليز والفرنسيين كانوا يحاولون اغراءهم بالحرب مع ألمانيا على حين يبقون هم أنفسهم على الحياد • وكان مما يدعو للغرابة تماما أن الانجليز من جانبهم لم يتوقعوا عقد صفقة بين موسكو وبرلين • لقد ظلوا مفترضين أن الموانع الايديولوجية كانت من الضخامة بحيث لا يمكن التغلب عليها • ان لم يعد الساسة السوفييت بعد شيوعيين مخلصين ، فان هتلر كما كان والاعتقاد شائعا لن يضعف أبدا فى معاداته للشيوعية • وأبرق هاليفاكس الى موسكو فى ٢٨ يوليو « ليس هناك خطر الآن من انهيار وشيك خلال الأسابيع القادمة الحرجة » أكانت هذه غباوة لها ما يبررها ؟ أكان حتما أن يرتاب الانجليز فى نوايا روسيا تجاه ألمانيا بالقدر نفسه الذى كان فيه الروس يرتابون فى نواياهم ؟ وبالنسبة لهذا الأمر أكانت شكوك روسيا لها ما يبررها ؟ لم تحتمل قضايا عبء الجدل، أو سادها اضطراب الأفكار الخلفية بقدر ما حدث لهذه القضايا • وعندما نشرت السجلات الألمانية أوضح الدليل بأن كلا من بريطانيا وروسيا السوفييتية يتفقان على اتصال مع ألمانيا ، وأن الصيحات المتهللة ارتفعت من كلا الجانبين بأن هجمات الخيانة المتبادلة كانت ذات أساس جيد • ومع ذلك فان الدليل لا يكاد يسند الا فى عصر التشييدات المتقنة التى قامت عليه ، وجاءت الصادرات كما هى العادة ، من الألمان ، ولم يفعل ممثلو بريطانيا والسوفييت أكثر من الانصات بروح ملؤها النقد لما وضع أمامهم • ومن المعترف به ان فريقا منهما لم يحذر الآخر ، بأن من المرغوب فيه التخلى عن القضية العامة ولربما أرغم سلوكها الذاتى أى سبب للشكوى ، وعلى كل حال كانت محادثاتهم مع الالمان اعادة للتأمين وليست الموضوع الرئيسى لدبلوماسيتهم •

وآزر هذا فى وضوح جانب السوفييت ـ كان يبدو دائما وكان هناك عنصرا مناصرا للالمان • ففى المستشارين السوفييت رجال نموا التجارة الروسية الالمانية من قبل وماركسيون حرفيون يكرهون الاتحاد « مع

المجرمين الوفاقيين » وروس من المدرسة القديمة ممن كانوا يفكرون فقط في آسيا ، ويرغبون في أن يديروا ظهورهم لأوروبا . كان في هؤلاء الرجال قابلية لكل نقاط قيام علاقات روسية ـ ألمانية أفضل ، وعلى استعداد لأن يقدموا تلك النقاط بأنفسهم . ومن غير المقبول انهم انتظروا توجيهات من الكرملين ، كما أن ملاحظاتهم العفوية لا تنبىء الا عن القليل بالنسبة للسياسة السوفييتية . وربما كشفت الأحداث عما هو أكثر من ذلك . فالشرق الأقصى كان من العوامل التى كان لها قطعا ثقلها بالنسبة للروس ، ولو أنه من الغريب تماما أنه لم يرد ذكره اطلاقا خلال المفاوضات مع بريطانيا وفرنسا . لم يكن هذا مشكلة نظرية بالنسبة للمستقبل . فالشرق الأدنى كان ملتهبا حتى فى ذاك الحين . وفى صيف سنة ١٩٣٩ اصطدمت القوات السوفيتية واليابانية على الحدود بين منشوريا ومنغوليا الخارجية وتطور هذا الى حرب على نطاق كامل ، حتى هزم اليابانيون في نونونبان في أغسطس متحملين ١٨٫٠٠٠ اصابة . وكان مما لم يبرق للحكومة السوفيتية عندما ابتلع البريطانيون فى يسر وأنظارهم محولة الى أوروبا الاذلال من اليابانيين فى تيانتسين tientain أن تكون أخبارا سارة بالنسبة لهم أن تفشل المفاوضات بين ألمانيا واليابان وذلك اذا ما عرفوا بها . كانت روسيا السوفيتية تبحث عن الأمن فى أوروبا وليس الفتوحات ، وأنه لمما يثير الدهشة أنها لم تسع الى ذلك قبل هذا بعقد صفقة مع الالمان . ويطفو التفسير على السطح .. كان الساسة السوفييت يخشون قوة ألمانيا ولا يتقون فى هتلر . وكان التحالف مع الدول الغربية يبدو المسلك الأكثر أمناً طالما أنه يهيىء سلامة متزايدة لروسيا السوفيتية وليس مجرد التزام متزايد لتعضيد بولندا غير الراغبة فى ذلك . ولأنه يعوزنا الدليل المباشر لاثبات العكس ـ وفى الحقيقة ينقصنا أى دليل مماثل فى السياسة السوفيتية ـ نستطيع أن نخمن ونحن فى مأمن ان الحكومة السوفيتية لم تتحول عن ألمانيا الا عندما برهن هذا الحلف على استحالته .

وكانت تلك هى وجهة النظر حتى لدى أولئك الألمان الذين دافعوا عن علاقات أفضل مع روسيا السوفيتية . كانوا كذلك رجالا ينتمون الى مدرسة قديمة ـ المفترض أنهم وارثو بسمارك ، والجنرالات الدبلوماسيين الذين صنعوا نظام رابلو كانوا يدركون أنهم فى استطاعتهم أن ينتظروا فقط فتح ثغرة مناسبة . وبجانب هذا كان عليهم أن يسيروا بحذر من جانبهم وقطع هتلر صلاته بروسيا السوفيتية بالفعل فى سنة ١٩٣٤ ؛

ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ أحد أن يتســـاءل بصراحة عن موقفه المعادى للكومنترن ، وبدلا من ذلك حاول « انصار الروس » أن يعرضوا مغريات التجارة السوفيتية وانتعش هذا بعض الشيء فى فترة زوال سوء التفاهم بين روسيا والغرب الذى تلى ميونخ · وضـــعف مرة أخرى بعد احتلال براغ · كان خبراء التجارة من السوفييت والالمان ما زالوا يريدون التعاون ويتقابلون بين الحين والآخر ، ومما لا شك فيه أن كل فريق أرجع المبادرة للآخر حتى لا يثير حنق سادته المبجلين · ولم تأت الدفعة الجدية الاولى الا فى نهاية مايو ، وغنى عن البيان أنها جاءت من الجانب الألمـانى · فلقـــد اشتاق سيكوليبزج السفير فى موسكو ووزكير الى خطر راباللو القديم ، وأراد كل منهما أن يصنع « عرضا سياسيا » كبـيرا وفى ٢٦ مايو وضـع وزير الخارجية الألمـانى الشروط النهائية : سوف تتوســـط ألمـانيا بين روسيا واليابان ، وسوف تقيم أقصى اعتبار للمصالح الروسية « بالنسبة لبولندا »(١) ولكن المسودة الغيت فورا ، ربما بتعليمات من هتلر ذاته : ان أى تقدم « قد يقابل برنة من قهقهة التترى » ·

وتبع ذلك صمت طويل وفى ٢٩ يونيو حاول سكولينبرج أن يقوم باتصال من جانبه ، ولم يحصل على شيء من مولوتوف فيما عدا تأكيد بأن روسيا السوفيتية تريد علاقات طيبة مع كل الدول بما فيها ألمانيا، وأبلغه ريبنتروب انه قد قيل ما فيه الكفاية · واستؤنفت المحادثات التجارية بين الدولتين ، واتخذ ريبنتروب قرب نهاية يوليو ، من تلك المحادثات ذريعة لكى يثير موضوعات ســياسية أيضـــا · وفى ٢ أغسطس أخبر القائم بالأعمال السوفيتى ·· « لا توجد أى مشكلة من البلطيق الى البحر الأسود لا يمكن حلها بيننا نحن الاثنين »(٢) · وفى اليوم التالى وجد سكولينبرج مولوتوف « صريحا بشكل غير عادى » ، ومستعدا للتعاون الاقتصادى · أما من الناحية السياسية فقد كان مولوتوف عنيدا كما كان دائما : كان يشكو من أن ألمانيا تشجع اليابان ، وأن الحل السلمى للمسألة البولندية يتوقف على ألمانيا ، ان الأدلة على مسلك متغـــير ما زالت ناقصة ولخص سيكولينبرج الأمر فى ·

« ان الشعور العام هو أن الحكومة السوفيتية مصممة حاليـــا على أن تنجز اتفاقا مع بريطانيا وفرنسا اذا ماحققتا كل الرغبات السوفيتية ·

---

(١) من وزكير الى سكولينبرج مسودة ، ٢٦ مايو سنة ١٩٣٩ : سياسة المانيا الخارجية ، المجموعة د سادسا رقم ٤٤١ ·

(٢) من ريبنتروب الى سكولينبرج ٣ اغسطس سنة ١٩٣٩ : المرجع الســابق رقم ٧٦٠ ·

وسيستلزم مجهودا كبيرا من جانبنا أن نحدث نقصا فى أسلوب الحكومة السوفييتية (١) .

لم يكن هناك من الخارج من هو أفضل حكما على السياسة السوفيتية من سكوليبزج ، وفى ٤ أغسطس كان لايزال يؤمن بالتحالف مع الدول الغربية . وربما ـ بطبيعة الحال ـ كان هتلر قد رتب كل شىء من قبل بطريقة خاصة مع ستالين ، ولم يتسن لأحد كشفه . ولكن اذا ما كان الدليل يعنى شيئا ، فان التوفيق بين روسيا السوفيتية وألمانيا فضلا عن أنه قد استغرق مرحلة طويلة ، كان ارتجالا بشكل كبير من الجانب السوفيتى ،وبالقدر نفسه تقريبا من الجانب الألمانى .

كانت التهدئة البريطانية مرتجلة أيضا فى أساسها وان كانت بالاختلاف التالى : ان تسوية سلمية مع هتلر ، فى مقابل تنازلات ذات قيمة ، كانت دائما الهدف الذى تجاهر به السياسة البريطانية . ولكن الساسة البريطانيين انتظروا لتعقب هذا الهدف حتى يحسنوا موقفهم المساوم اما بتأمين التحالف مع روسيا السوفييتية أو بنصحهم البولنديين بالاتفاق حول دانزج . ولم يتحقق واحد منهما حتى نهاية يوليو ، وعلى ذلك لم يقم تشمبرلن أوهاليفاكس بأية دفعة فيما عدا التعميم حول سياستهم فى أحاديث عامة . وانتظر هتلر أيضا آملا الا تتحقق الأمانى البريطانية بالنسبة لروسيا وبولندا ، وعندئذ يكون « فى امكانه هذا أيضا أن يساوم على أسس أكثر ملاءمة . ولم يكن هناك فى الواقع أى أخذ وعطاء دبلوماسى بين انجلترا وألمانيا رسميا فيما بين نهاية مارس ومنتصف أغسطس.ولم ير هندرسون ريبنتروب مطلقا ، فضلا عن هتلر. ولم تتقدم المحادثات القليلة مع وزيكر خطوة واحدة وذلك لأن وزيكر لم يجرؤ على السماح لها بالتقدم . وأثار ريبنتروب عقبة لا يمكن تخطيها غالبا ، ذلك أنه باعتباره سفيرا فى لندن قبل ان يصبح وزيرا للخارجية بدأ بالتباهى بتحقيق تسوية انجليزية ـ المانية . وفشل ، وأصبح الآن مصمما على أنه حيث فشل يجب الا ينجح أى فرد آخر . لم يتلق سلفه ديركسين أية تعليمات وأهملت تقاريره فى حين لم تدان من الناحية الواقعية .. ولم يمل ريبنتروب ابدا فى اخبار هتلر ان البريطانيين لن يذعنوا الا بالتهديدات ، وليس بالوفاق ، ولاقى تصديقه هوى فى نفس هتلر .

لم تلق تلك الأفكار قبولا عاما فى الدوائر النازية العليا . فلقد كان

---

(١) من سكولينبرج الى ريبنتروب ٤ اغسطس ١٩٣٩ : المرجع السابق ، رقم ٧٦٦ .

جورنج رغم أنه كان مشاغبا جعجاعا ، يريد ان يتجنب الحرب اذا ما كان هذا ممكنا بأى شكل من الأشكال • كان لديه المجد الـسكافى فى الحرب العالمية الأولى ، وهو يعيش الآن الحياة الفخمة لامبراطور رومانى راحل ، وكان يروق له أن يتصرف كلسان حال الجنرالات الالمان ، وكانوا أنفسهم خائفين من الحرب ، ولربما أدرك باعتبـاره المدير المفترض للاقتصاديات الألمانية ، أن ألمانيا لم تكن مهيأة لأن تواجه حربا عامة •

ولقد جاء التقارب الألمـانى نحو كل من روسيا السوفيتية وبريطانيا من الخبراء الاقتصاديين ضاربا بذلك برهانا آخذا على أن الحرب العالميـة الثانية لم تكن نتيجة لأسباب اقتصادية لقد جاءت اتصـالات جورنج الأولى للتقرب من الانجليز على يد رجال أعمال سويديين ممن تعرف بهم خلال منفاه في السويد واستجاب رجال الأعمال الانجليز فى لهفة ، ولقد رسمت تلك الوساطات فى جو محير ــ كان فيها مبالغة فى استعداد فى كلا الجانبين للاتفاق كما يحدث دائما عنـدما يزج الهواة بأنفسـهم فى الدبلوماسية • ومع ذلك ظلت الاستجابات التى ملؤها الضـغينة من هالفاكس تحدد الموقف البريطانى بشكل واضح تماما : ــ سيكون هناك القليل من الصعوبة فى الالتقاء مع الرغبات الالمانية بمجرد أن يبين هتلر استعداده للسلام بعد ذلك • وكان هذا يمثل الشىء الكثير ممـا قاله هاليفاكس من آن طويل ، منذ نوفمبر ١٩٣٧ والذى حدد الصراع الأساسى بين الجانبين • وكان لكل وضع شبه معقول ، وكان الانجليز يستطيعون أن يحتجوا بأنه لا توجد هناك نقطة يقدم فيها تنالازت لهتلر ــ أكثر خطرا فى الحقيقة ــ عندما كان هتلر لا يفعل سوى زيادة تهديداته بعد كل صفقة وكان فى استطاعة هتلر أن يرد وهو على القدر نفسه من الحق بأنه لم يتلق التنازلات «المعقولة» التى تكلم عنها هاليفاكس الا عندما بدأ فقط بالتهديد ، وأن حالات النمسا وتشيكوسلوفاكيا ودانزج موجودة لتبرهن على ذلك • وكانت « اعادة » النظر السليمة التى اتقاها كلا الطرفين نظريا ، متعارضة فى اشتراطاتها وضعت اعادة النظر فى المقدمة باعتبارها الطريقة لتجنب الحرب ، ومع ذلك لم يكن من الممكن تحقيقها الا بوسائل تقرب الحرب •

وكان لدى الوسطاء السويديين غـير الرسميين القليـل ليظهروه بالنسبة لمجهودهم بالرغم من أن واحدا منهم وهو دالير داوم على أن يلعب دورا كبيرا فى الأزمة النهائية وتقدم ولتـات وهو أحـد عمـلاء جورنج الاقتصاديين الرئيسين بالمفاوضات الى مستوى عملى أكبر وكان « ولتات » شخصية هامة كفلت ضمان اشراف ألمانيا الاقتصادى على دول البلقان • وكان مستعدا دائما للحديث عن حاجة ألمـانيا للمواد الأولية وعن نقص

رأس المال فيها وناسب هذا الحديث تماما وجهة نظر كثير من الانجليز الذين تقبلوا العقيدة المتداولة التى تضمن الأسباب الاقتصادية للحرب • وكان ولتات فى لندن بين ١٨ ، ٢١ يوليو عندما قابل سيهوراس ويلسون وهدسون سكرتير ادارة تجارة ما وراء البحار وركز الرجلان الانجليزيان على أهمية المكافأة التى تنظر ألمانيا اذا ما تخلت عن مسلكها العدوانى وعقدت صفقة مع بريطانيا • ولوح هادسون أمام ولتات بالأمل فى قرض بريطانى ضخم ـ ألف مليون جنيه كما جاء فى واحد التقارير ـ للتغلب على مصاعب نزع السلاح • وأضاف «أن دانزج فى التعبئة الاوربية شىء، ودانزج فى أوربا المنزوعة السلاح والملزمة بالتناسق الاقتصادى شىء آخر »(١) وأعد ويلسون مذكرة على احدى أوراق ١٠ داونتج ستريت ، وكان مما يدعو للدهشة ، أنها اختفت من السجلات البريطانية ، وهذه اقترحت معاهدة انجلو ـ ألمانية بعدم الاعتداء وعدم التدخل ، واتفاقية بنزع السلاح وتعاون فى التجارة الخارجية • ان اتفاقية من هذا النوع تمكن بريطانيا من التحرر من التزاماتها تجاه بولندا(٢) وقيل عن ويلسون أنه كان جاهلا فى الشئون الخارجية • ولم يتهمه أحد أبدا بعدم الولاء لرؤسائه السياسيين ، ومما لا يمكن تصوره أن تلك الاقتراحات قد تمت دون علم تشمبرلن أو موافقته • كذلك لم يكن فى ذلك مايدعو للدهشة • فالاقتراحات كانت تمثل برنامج التناسق الانجلو ـ ألمانى الذى كان تشمبرلن يتطلع اليه دائما • ولكن حتى ويلسون جعل من الواضح أن هناك شرطا لا بد من تحقيقه أولا : فالقضايا المثارة بين ألمانيا وبولندا لا بد أن تحل بالمفاوضات السلمية •

أنه من الممكن مسامحة الحكومة البريطانية لاستمرارها فى تأكيد المكاسب التى ستجنيها ألمانيا باتباعها سياسة وفاقية • ويكون خطؤهم الحقيقى فى موضع آخر : فى فشلهم فى توضيح عزمهم الثابت اذا ماتبع هتلر الاتجاه المضاد ـ وكانت خطب تشمبرلن وهاليفاكس ذات ثقل ضئيل فلقد سمع هتلر تلميحات مماثلة فى السنة السابقة ، وكان يعرف ماذا يرمى اليه • ولم يكن أيضا متأثرا بالمفاوضات التى طال مداها مع روسيا السوفيتية ولربما هز كيانه التوقيع المباشر • ولكن ثلاثة شهور من

---

(١) المحادثات بين هادسون وولتات ، ٢٠ يوليو ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة ، سادسا رقم ٣٧٠ •

(٢) المحادثات بين ولتات وويلسون ، ٢٤ يوليو تستحيل بواسطة دركسين ٢١ يوليو سنة ١٩٣٩ ـ سياسة ألمانيا الخارجية المجموعة سادسا رقم ٧١٦ مذكرات دركسين ، رقم ١٣ •

المساومة لم تفعل سوى زيادة ثقته فى نفسه وبقى نفيل هندرسون فى برلين وأنه لمن الصعب أن تصدق أنه لم يعبر عن عدائه للبولنديين الا فى خطاباته الخاصة الى بلده • لم يكن هناك عجز فى المنشورات الحكيمة ، ففى أوائل يوليو كان كوسنت فون شورين من وزارة الحرب الالمانية فى انجلترا • وتكلم بصراحة «ان هتلر لا يضع فى حسبانه الاعمال وانما فقط الأفعال ويجب على الانجليز أن يقوموا بمظاهرة بحرية فى البلطيق ويجب أن يدخلوا تشرشل فى الوزارة كما يجب أن يرسلوا القوات الجوية الضاربة الى فرنسا (١) • وأهملت النصيحة • لا يستطيع الرجال أن يغيروا طبيعتهم مهما غيروا كثيرا من كلماتهم • كان الساسة البريطانيون يحاولون أن يقيموا ميزانا بين الجزم والتساهل ، ولانهم رغم ما كانوا عليه ، فأنهم سلكوا رغما عنهم الاتجاه الخاطىء • لقد أعطت المحادثات بين « ولتات » وويلسون صورة عادلة عن وجهة نظر تشمبرلن ، ولكن لم يكن لها تأثير فى ألمانيا • قد يكون جورنج قد تأثر بها • ولكن ريبنتروب لم يفعل سوى أن زجر ويركسن للسماح بأجرائها• وأنه لبعيد عن الاحتمال أن يكون هتلر قد سمع عنها كلية • وأثارت المحادثات بين هيدرسون وولتات ، بالرغم من أنها كانت أقل أهمية ، ضجة أكبر تسربت الى الصحف من الجانب البريطانى بشكل واضح (٢) • ولقد ظل الغرض من التسرب غير معروف • وربما يكون مجرد ثرثرة من جانب هدسون ، وربما تكون محاولة معتمدة لتحطيم المفاوضات مع روسيا السوفيتية ــ وكان هناك كثيرون فى الجانب الحكومى يرغبون فى عمل هذا • وقاد الافشاء الى أسئلة فى مجلس العموم ، وقر قرار تشمبرلن وهو يجب عليها ، على مقاومة ألمانيا حتى وان كان أقل اقتناعا مما كان بالفعل • وفى الوقت نفسه تجاهلت الحكومة السوفيتية القصة فى حينها ، ثم أثاروها فيمابعد كاعتذار مناسب عن تصرفاتهم ازاء هتلر • ولا يحتاج المؤرخون للوقوف طويلا أمام تلك الاتهامات المتبادلة • لقد أنصت الانجليز والسوفيت فى تعاطف الى محاولات التقرب الالمانية ، وحتى نهاية يوليو كان البريطانيون فى انصاتهم هم الأكثر تعاطفا • ومع ذلك فان مفاوضاتهم من أجل التحالف لم تحطمها الوساوس الالمانية وانما تحطمت بالفشل على الاتفاق•

---

(١) محادثات بين شورين ومرشال ــ كورنوال وجيب ، فى السابع والثامن من يوليو سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة سادسا رقم ٢٦٩ و ٢٧٧ •

(٢) قال دركسن أن التسرب لم يأت من ولتات أو السفارة الالمانية مفكرة بقلم سارجنت ٢٤ يوليو سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة سادسا رقم ٤٢٦ •

كان كلا الجانبين يريد اتفاقا ولكنه ليس الاتفاق نفسه · كان البريطانيون يريدون مظاهرة أدبية قد تمكنهم من الوصول الى اتفاقية مع هتلر بشروط أفضل · وكان الروس يريدون تحالفا عسكريا محكما لتبادل المساعدات يمكن اما من ترويع هتلر أو يضمن هزيمته وكان البريطانيون يخشون على بولندا وكان الروس يخافون على أنفسهم · غزو ألمانيا وليس مجرد تحول التوازن الاوربى الى صالح ألمانى هو كابوسهم · كانوا يبحثون عن حلفاء ولم يوهبوا سوى فقدان تلك الحرية فى الحركة التى كانت طوع ارادتهم يوما ما ·

أكان حتى فى استطاعة عقد نوع من الاتفاق الانجلو ـ سوفيتى أن يؤدى الى كل هذا الاختلاف ؟ ان الأحلاف تصبح ذات قيمة عندما تصوغ طائفة حقيقية من المصالح فى كلمات والا فانها لا تؤدى الا الى الارتباك والشرور كما حدث مع الأحلاف الفرنسية · وكان من غير المتصور فى ظروف سنة ١٩٣٩ أن يضع البريطـانيون أنفسهم بشكل لا علاج له وحاسم فى صالح روسيا السوفيتية وضد ألمانيا ، وكان مما لا يتصوره العقل بالمستوى نفسه أن يجبر الروس أنفسهم على الدفاع عن الوضع القائم · لقد صارت بريطانيا وروسيا السوفيتية حليفتين أخيرا ، ولكن ليس على أساس من الوجهة السياسية أو الاقتناع ، وانما فرض هتلر التحالف عليهما ببساطة · ففى سنة ١٩٤١ كان هتلر قد فقد هبته القديمة وهى الصبر واندفع لتحقيق الهدف الثانى قبل الاول · ففى سنة ١٩٣٩ كان لا يزال أستاذا فى فن الانتظار · فقد يستسلم عدد أقل من الألمان للقلق وتنطفىء جذوة آمالهم فى موسكو أو لندن ولكن هتلر ظل صامتا ·

ولم تتعطل المفاوضات الانجليزية السوفيتية بنتيجة العروض الالمانية ، وانما تعطلت نتيجة نقص فى تلك العروض · وبدأت المفاوضات كما لو كانت تحركا محكما فى حرب للأعصاب ، وكان المقصود بها الزعزعة من عزم هتلر ، وبدلا من ذلك زادت قوة · قامر هتلر بأن المفاوضات ستفشل ، ومرة أخرى قامر بنجاح لم يعتمد على المعرفة أو المعلومات المنطقية ، ولكن وكالعادة على الحاسة السادسة ، ولم تتخل عنه · كانت حرب الاعصاب هى تخصصه ؛ وعندما حل أغسطس سنة ١٩٣٩ كان يبدو أنه قد كسب نصرا آخر فى تلك الحرب ·

وغنى عن البيان بأن تحالفا انجليزيا سوفيتيا كان يمكن أن يمنع الحرب العالمية الثانية · ولكن الفشل فى تحقيق ذلك التحالف كان له أكبر الأثر فى قيامها ·

الفصل الحادى عشر

الصراع على دانزج

كانت أزمة أغسطس سنة ١٩٣٩ التى أدت الى الحرب العالمية الثانية ولو من الناحية الظاهرية نزاعا ، حول دانزج • ولقد تكون هذا النزاع فى الأيام الأخيرة من مارس • عندما أثارت ألمانيا مطالب خاصة بدانزج والمجر • ورفضها البولنديون ومنذ تلك اللحظة توقع الجميع أن تكون دانزج الموضوع الضخم التالى فى النزاع العالمى • ومع ذلك وعلى النقيض الغريب من الازمات السابقة لم تجر مفاوضات بالنسبة لدانزج ولا محاولات للعثور على حل ، بل ولاحتى محاولات لازالة التوتر • ولقد تسبب الهدوء المتناقض جزئيا نتيجة للوضع المحلى لدانزج ، وهنا كانت كل من ألمانيا وبولندا فى وضع حصين طالما أنهما لم تتحركا • وكانت أى خطوة من احداهما ستؤدى الى الانهيار حتما • ومن ثم لم يكن من الممكن أن يوجد شىء من المؤامرات أو المساومات التى ميزت الأزمة التشيكوسلوفاكية • ولقد زاد السوديت النازيون ، مثلما فعل النمساويون قبلهم ، التوتر تدريجيا دون توجيه من هتلر • وفى دانزج كان التوتر على أشده بالفعل طالما أنه لا يفعل أى شىء يسند ظهر النازيين المحليين ، كانوا قد فرغوا من غزو دانزج داخليا ؛ وكان مجلس الشيوخ فى المدينة الحرة تحت اشرافهم بصورة حاسمة • ولكن هتلر لم يستطع أن يستفيد من هذا الوضع • ان النازيين فى دانزج اذا ما تحدوا معاهدة الاستقرار بالتصويت صراحة بالاندماج فى ألمانيا لحق للبولنديين أن يتدخلوا بموافقة حلفائهم الغربيين؛ ولأصبح هذا التدخل فعالا ، ذلك لأن دانزج اقتطعت من روسيا الشرقية ، وهى الاقليم الالمانى الوحيد المتاخم بنهر الفتولا القديم الجسور • هذا فى حين كان البولنديون يتحكمون فى ثلاثة خطوط حديدية وسبعة طرق تؤدى اليها • ولهذا فقد كان من المتعذر وجود مؤازرة نصف قلبية لدانزج ، وانما حرية فى أشمل صورها ، وسيكون هتلر مستعدا لمثل تلك الحرب عندما تنضج استعداداته العسكرية فى نهاية أغسطس فحسب •

وحتى ذلك الحين ظلت دانزج تحت رحمة برلندا — ولكن البولنديين كذلك لم يستطيعوا تحويل هـذا الوضـع لمصلحتهم • كانوا بالرغم من أحلافهم مع بريطانيا وفرنسا قد فشلوا فى ضمان أى وعد حازم بالمساعدة بالنسبة لدانزج ذاتهـا • كانوا فى الواقـع يعرفون ان كلا الحليفتين تتعاطفان مع القضية الالمانية • ولم يكن فى امكانهم ألا أن يستبقوا جميل حلفائهم بارجائه وانتظار « التهديد الصريح » لاستقلال بولندا • وكان لابد من اظهار أن العمل فرض عليهم ، ولم يحدث على الاطلاق بالنسبة لدانزج ، وتحت ظروف مماثلة تلمس خصوم هتلر السابقون سكوشنج وبينز فى يأس عن طريقة للنجاة محاولين بشتى الوسائل ايجاد اتفاقيات لتجنب الأزمة المهددة • وواجه البولنديون الأزمة المقتربة بثبات جأشي واثقين من أن النقاب سيكشف عن هتلر باعتباره معتديا وأن الآلام التى لها مايبررها لدانزج سوف تنسى عندئذ• انهم لن يستجيبوا للاستفزاز النازى ، ولكنهم تجاهلوا بالمثل الالتماسات بالتنازل التى جاءتهم من الغرب •

وفى الحقل الأوسـع للسـياسة العظمى ، شـغل كل من هتلر والبولنديون مواقع جامدة فى حرب الأعصـاب وبعد ٢٦ مارس لم يكن لهتلر مطالب تتعلق بدانزج حتى اليوم السابق لاشتعال الحرب • ولم يكن هذا مثيرا للدهشة ، كانت تلك هى طريقته المعتادة فعلى هذا النحو انتظر من قبل العروض من سكوشنج فى النمسا ، وهكذا انتظر من قبل العروض من بينز ، ومن تشمبرلن ، وأخـيرا من المؤتمر المنعقد فى ميونخ حول تشيكوسلوفاكيا واذن فانه لم ينتظر عبثا • هل قدر أن العروض لن تأتى من البولنديين ؟ هـذا ما تكشف عنه السـجلات : ففى ٣ ابريل أصدر تعليمات بأن استعدادات الهجوم على بولندا «لا بد أن توضع بطريقة يمكن بواسطتها أن تبدأ العملية فى أى وقت من أول سبتمبر سنة ١٩٣٩»(١) ولكن بعد اسبوع من ذلك فسر أمر عسكرى لاحـق أن تلك الاستعدادات كانت وقائية بحتة ما لم تبدل بولندا من سياستها •• واتخـذت اتجاها تهديديا تجاه ألمانيا(٢) على أنه فى ٢٣ مايو وجه حديثه فى تحفظ أقل لجمع من الجنرالات • « ستكون هناك حرب » ان واجبنـا هو عزل بولندا •• يجب ألا يصل الأمر الى احتكاك فى الوقت نفسه مع الغرب»(٣) وكان معنى هذا واضحا بما فيه الكفاية • ولكن خطط هتلر الحقيقية لا تكشف بمثل

---

(١) أمر عسكرى من كيتل ، ٣ ابريل ١٩٣٩ : سياسة المانيا الخارجية ، المجموعة د سادسا رقم ١٤٩ •

(٢) أمر عسكرى من هتلر فى ١١ ابريل سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ١٨٥ •

(٣) مضبطة المؤتمر ، ٢٣ مايو سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ٤٣٣ •

هذه السهولة . فلقد تكلم بتلك الشجاعة نفسها عن الحرب ضد تشيكوسلوفاكيا في سنة ١٩٣٨ ، ومع ذلك فيكاد يكون من المؤكد تماما أنه كان يلعب من أجل النصر في حرب الأعصاب والآن أيضا كان لابد من القيام بالاستعدادات للحرب سواء كان يخطط ليكسب بالحرب أو بالدبلوماسية . وعندما خاطب هتلر قادته فانه تكلم بغرض التأثير وليس ليفشي ما يدور في رأسه . كان يعلم أن الجنرالات يكرهونه ، ولا يثقون فيه . وكان يعلم أن بعضا منهم كان يدبر للاطاحة به في سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، ومن المحتمل أنه كان يعلم أنهم كانوا ليستشعرون النذير باستمرار في السفارتين الانجليزية والفرنسية . وكان يهدف الى الضغط على القادة وفي الوقت نفسه الى تخويفهم . ومن ثم فانه تحدث في ٢٣مايو لا عن الحرب ضد بولندا فحسب ، وهي التي ربما كان جادا فيها ، بل وتحدث كذلك عن حرب عظمى ضد الدول الغربية وهي التي لم تكن بلا شك جزءا من خطته وصح ما قدره هتلر — فبمجرد أن انتهى مؤتمر ٢٣ مايو حتى كان القادة ابتداء من جورنج الى ما دون ذلك يبتهلون الى الدول الغربية كي يعيدوا بولندا الى الصواب ولما يزل هناك وقت لذلك.

ويوحي سلوك هتلر فيما بعد بأنه لم يكن قد عقد عزمه بالحزم نفسه الذي أوضحه في ٢٣ مايو . وحتى اللحظة الأخيرة كان لا يزال يتحرق شوقا للعرض البولندي الذي لم يأت أبدا ، وربما لم يتوقع أن تتحطم أعصاب بولندا من تلقاء نفسها ، ولكنه توقع أن تصنع الدول الغربية التحطيم له ، كما سبق وفعلوا بالنسبة لبينز في سنة ١٩٣٨ ولم يتنبأ تماما بالصورة التي ستتحطم بها أعصاب الدول الغربية أو بشكل أدق بمدى تأثيرها هذا على البولنديين . كذلك لم يكن ذا أهمية كبرى بالنسبة له أن يستسلم البولنديون دون حرب أو أن يتركوا ليتحطموا نتيجة عزلتهم فالنتيجة واحدة في كلتا الحالتين . وبالنظرة الأشمل فانه لم يشك أبدا — في انهيار أعصاب الدول الغربية . وهناك دلالات أيضا على أنه بانقضاء الصيف بدأ يتنبأ بكيفية حدوث ذلك . يمكن لانتهاء المفاوضات الانجلو — فرنسية — سوفيتيةكما تصور أن تقوم بالخديعة . ان ثقة هتلر بفشل تلك المفاوضات سمة غير عادية حتى في تلك القصة غير العادية — كيف أمكنه أن يكون بمثل هذا التأكيد ؟ كيف بذل مجهودا ضئيلا للتقرب من الروس وتأكد أن الروس سيهرعون الى جانبه من تلقاء أنفسهم ؟ أكان لديه وسائل سرية للاستعلام يتعذر على المؤرخين اقتفاء أثرها — عميل ما في ويتهل White hall أو في الكرملين وربما خطا مباشرا مع استالين نفسه ؟ أكان تحليلا اشتراكيا عميقا — تقدير أن

الساسة البورجوازيين والشيوعيين لا يمكن أن يجدوا شروطا للتفاهم المتبادل ؟ ربما ، أما نحن فلا نملك أى وسائل للمعرفة • من المحتمل أنها ببساطة اقتناع المقامر الذى يرى بأن احساسه لا بد أن يكون صحيحا — والا فرغم كل شىء ، فانه لن يقامر • أن عبارة عرضية تكشف عن سياسة هتلر أكثر من كل الحديث الرائع الفصاحة لقادته • فلقد قال جورنج فى ٢٩ أغسطس وهو يطمح لتسوية « لقد حان الوقت لوقف هذه الدعوة الى الحرب » وأجاب هتلر : « انها الدعوة الوحيدة التى وجهتها » (١) •

كان من سوء حظ هتلر (وليس سوء حظه بمفرده) أن يصطدم بمقامرين سياسيين بولنديين ينتمون الى المدرسة نفسها ولم تكن الدعوة الى الحرب مجرد الدعوة الوحيدة التى وجهوها ، وانما كانت الدعوة الوحيدة التى يستطيعون أن يوجهونها اذا كان عليهم أن يحتفظوا بوضعهم الصورى لدولة عظمى مستقلة • ولو أنهم كانوا ساسة أكثر رشدا لأذعنوا فى تعقل عندما أمضوا الفكر فى الأخطار المحدقة ببولندا وقصور وسائلها • كانت ألمانيا قوية ومعتدية فى جانب ، وكانت روسيا السوفيتية المشحونة عداء فى الجانب الآخر ، وعلى البعد حليفتان مسلوبتا الارادة شغوفتان بالاتفاق مع هتلر وغير قادرتين جغرافيا أن يمنحا مساعدة فعالة وكان على البولنديين أن يعتمدوا على مثل تلك المصادر التى كانت فى حوزتهم بل والتى لم يطوروها بحيث تصبح ذات فاعلية • وتلقى أقل من نصف الشباب فى سن التجنيد ، تدريبا عسكريا ومع ذلك كان أقل من هذا العدد له أمل الحصول على معدات • كانت لدى تشيكوسلوفاكيا فى السنة السابقة ذات التعداد الذى لا يزيد كثيرا عن ثلث سكان بولندا قوة من الرجال أكثر تدريبا ، وكان التشيك مسلحين بأسلحة حديثة فضلا عن ذلك • ومن تلك الاسلحة لم يكن لدى البولنديين شىء بالفعل — نحو ٢٥٠ طائرة للخطوط الأمامية من النوع القديم وكتيبة دبابات واحدة ليست من النوع الحديث أيضا • وتحت تلك الظروف ماذا كان أمام البولنديين أن يفعلوا فيما عدا رفض تهديدات هتلر باعتبارها خدعة ؟ ومن الواضح أن أى حركة منهم كانت لا بد أن تتضمن تنازلا وعلى ذلك لم يقوموا بشىء • وبعد كل شىء فان الوقوف ساكنا هى خير سياسة لكل من يفضل الوضع الراهن وربما كانت السياسة الوحيدة • كان حلفاء بولندا الغربيون بطبيعة الحال سببا اضافيا لجمودها الدبلوماسى ، وكان من الواضح أن بريطانيا وفرنسا سوف تذعنان بالنسبة لدانزج ، اذا ما فتح البولنديون الباب للمفاوضات • وعلى ذلك أبقوا الباب موصدا •

---

(١) وزيكر ص ٢٥٨ •

كانت « ميونخ تلقى ظلا طويلا » وانتظر هتلر لأن تحدث مرة ثانية ، وكان مصير بينز نذيرا وعاه بيك ٠

تمسكت ألمانيا وبولندا بمواقع جامدة ٠ وانكمشت الدول الغربية الثلاث ، وايطاليا وفرنسا وبريطانيا من اثارة قضية دانزج لسبب مخالف لأن مرافقهم كانت أكثر ليونة ٠ كان الثلاثة جميعا مقتنعين من أن دانزج لا تستحق حربا ، وكان الثلاثة متفقين على أنها يجب أن تعود الى ألمانيا ، مع حماية لتجارة بولندا ٠ ولكن الثلاثة سلموا بأن بولندا لن تستسلم دون قتال وأن هتلر لن يجيء دانزج حتى لحظة أكثر سلما ٠ كانت ايطالية ملزمة أمام ألمانيا بحلف ستيل Pact Steel وكانت بريطانيا وفرنسا ملزمتين أمام بولندا ٠ لم تكن واحدة من الثلاثة تريد القتال فى دانزج ، ولم يكن من المنتظر أن يستسلم أحد القطبين ٠ وعلى ذلك فقد كان المسلك الوحيد هو تجاهل موضوع دانزج مع الأمل فى أن يتجاهله الآخرون كذلك ٠

وصنعت الدول الغربية الكبرى الثلاثة كل ما فى وسعهم لاخراج دانزج من حيز الوجود :

بينما كنت أصعد الدرج ،
قابلت رجلا لم يكن هناك ،
ولم يكن هناك أيضا اليوم ،
ولكم أرغب بشدة أن يرحل ،

تلك كانت روح الدبلوماسية الأوربية فى صيف ١٩٣٩ ٠ لم تكن دانزج هناك ولو أن كل الدول الكبرى توفرت لديها النية الصادقة لما أصبح لها وجود ٠

عندما حل أغسطس أصبح من الواضح أن مشكلة دانزج لم تتلاش٠ استمر النازيون المحليون فى استفزازاتهم للبولنديين ، ورد البولنديون فى حسم متحد ٠ وزادت حدة التقارير عن تحركات القوات الالمانية ، وفى هذا الوقت وجد أن الشائعات لها أساس راسخ ٠ وأصبح من المتوقع أن هتلر سوف يعمل فورا ، ولكن كيف ؟ والأكثر أهمية متى ؟ كان هذا هو السؤال الحيوى فى كل من الأزمتين التشيكية والبولندية ٠ وفى كل مناسبة افترضت الدول الغربية أن هتلر سيفجر الأزمة علنا ، فى اجتماع الحزب النازى فى نورمبرج — وفى كل مناسبة برهن هذا الغرض على خطئه ٠ ولكن فى الأزمة التشيكية زلت أقدام الدول الغربية الى الجانب الصحيح أما فى الأزمة البولندية فالى الجانب المخطىء ٠ وفى سنة ١٩٣٨ عقد اجتماع الحزب فى ١٢ سبتمبر ، ولم تبدأ

خطط هتلر العسكرية الا فى أول اكتوبر ، وعلى ذلك كان هنـاك فسحة اسبوعين لا غير لان تعمل «التهدئة» عملها • أما فى سنة ١٩٣٩ فقد حدد الأسبوع الأول من سبتمبر لاجتماع الحزب ، لقد قرر هتلر فى هذه المرة أن يحقق النجـاح سلفا • وفى «اجماع الصلح» يستطيع أن يعلن النصر لا أن يجهز له • ولم يكن فى استطاعة أحـد أن يخمن أن الخطط العسكرية الألمانية قد حدد لها أول سبتمبر • والتاريخ – مثل أول أكتوبر فى العام السابق – لم يتم اختبـاره على أى أساس منطقى مبنى على علم الارصاد الجوية أو غيره برغم تأكيدات معظم الكتاب اللاحقين بعكس ذلك ، ولقد تقرر كثير من التواريخ بغرس دبوس فى النتيجة ، وعلى كل حال كان المجال أمام المفاوضات ضيقا ، وأخطأت الخطط الدبلوماسية للدول الغربية الهدف جزئيا لأن المدى كان أضيق بحوالى أسبوع عما ظنوا •

ففى بداية أغسطس كانت الدول الغربية لا زالت تؤمـل فى الوقت بأمل أن تردع علاقاتهم غير المحددة بالاتحاد السـوفيتى ، هتلر • وكانت دول أخرى أقل ثقة • وحاول سيل من الزوار الى برختسجادن أن يقيس نوايا هتلر وربما كانت جسـات النبض أولا جعلته يقرر حقيقتها وكان المجريون أول من طرق الميدان وكتب تيلكى رئيس وزراء المجر فى ٢٤ يوليو خطابين الى هتلر • وعد فى واحد منهما « أنه فى حالة حدوث نزاع شامل فان المجر ستجعل سياستها تطابق سياسة المحور » • ولكن فى الخطاب الآخر « ليس فى استطاعة المجر ، لأسـباب أدبية ، أن تكون فى موقف يسمح لها أن تقوم بعمل حربى ضد بولندا »(١) •

وفى ٨ أغسطس تسلم كساكى Csaky وزير خارجية المجر فى برختسجادن ردا عنيفا • ان هتلر لا يريد مساعدة من المجر ولكن بولندا لا تشكل مشكلة عسكرية بالنسبة لنـا وانه لمن المؤمل أن تلتزم بولندا جانب العقل فى اللحظة الأخيرة •• والا فسيتحطم ليس الجيش البولندى فحسب وانما الدولة البولندية أيضا •• ولن تستطيع فرنسا وبريطانيا أن تمنعنا من صنع هذا وتلعثم كساكى واعتذر وسحب خطابات تيليكى « باعتبارها كما يبدو لسوء الحظ ، قد فهمت خطأ » (٢) وبعد ثلاثة أيام كان الدور على بركهاردت المستشار السـامى للعصبة فى دانزج • ومرة أخرى تقمص هتلر شخصية المشاغب « سوف أضرب كالبرق بكل مافى

---

(١) مذكرات وزيكر ٢٤ يوليو سنة ١٩٣٩ : سـياسة المانيا الخـارجية ، والمجموعة د ، سادسا ، رقم ٧١٢ •

(٢) مذكرات اردمانسدورف ، ٨ أغسطس سنة ١٩٣٩ : المرجع السـابق ، رقم ٧٨٤ •

جيش ميكانيكي من قوة ، جيش ليس للبولنديين أي مفهوم عنه » ولكنه أظهر أيضا علامات الوفاق « اذا ما ترك البولنديون دانزج في هدوء مطلق ٠٠ فانني عندئذ أستطيع الانتظار ، وأوضح ما يمكن أن ينتظر من أجله ٠ يستطيع مع ذلك أن يكون راضيا بالشروط التي طالب بهـا في ٢٦ مارس « والتي رفضها البولنديون رفضا باتا لسوء الحظ » ثم ويكرم أكثر ، «لاأريد شيئا من الغرب ٠٠ ولكن لا بد أن تطلق يدي في الشرق٠٠ أريد أن أعيش في سلام مع انجلترا وأن أنجز حلفا نهـائيا لتأمين كل الممتلكات الانجليزية في العام وأنسق جهودي معها » (١) من الواضح أن هتلر كان يتحدث الى كل من كساكي وبركهاردت للتأثير مشاغبا في لحظة وسلميا في اللحظة التالية ٠ وكان هذا تماما تكتيك العام السابق ٠ لماذا ليس الآن ؟ فاذا ما كان حديثه عن السلام خدعه فهـكذا كان حديثه عن الحرب أيضا ٠ وأيهما سيصبح حقيقيا معتمدا على الأحداث وليس على قرار يتخذ من هتلر قبل ذلك ٠

وفي ١٢ أغسطس ظهر زائر على جانب أكبر من الاهمية ــ شـيانو وزير الخارجية الايطالي ٠ وكان الايطاليون راغبين في القتال طالما أن الحرب تبدو بعيـدة الاحتمال ولكنهم غدوا قلقين عندما أجمعت التقارير على أن الحرب تقترب ٠ كانت ايطاليا مجهدة في تدخلها الذي طال مداه ــ وربما كان هذا هو التأثير الوحيد الذي له دلالتـه في الحرب الاهلية الاسبانية وتدهور رصيدها من الذهب والمواد الخام كما بدأ اعادة تزويدها بالاسلحة الحديثة بصعوبة ٠ كان من غير المستطاع أن تكون مستعدة للحرب الا في سنة ١٩٤٢ بل ان هذا كان « تاريخا وهميا » معناه فقط « في مستقبل بعيد » ٠ وفي ٧ يوليو قال موسوليني للسـفير البريطـاني : « أخبر تشمبرلن أنني اذا ما حاربت انجلترا في الجانب البولندي في دانزج فان ايطاليا ستحارب في جانب ألمانيـا » (٢) وبعد ذلك بأسبوعين بدأ يلف ويدور ، طلب اجتماعا مع هتلر على خط برنر واقترح الاصرار على وجوب تجنب الحرب وأن هتلر يستطيع أن يحصل على كل مايريد في مؤتمر دولي ونحى الألمـان في البداية فكرة الاجتماع ٠ ثم قالوا بعد ذلك بوجوب اجتماع واحد وذلك لمناقشة الهجوم القادم على بولندا ٠ ربما يكون موسوليني قد فقد ثقته في الوقوف أمام هتلر وعلى كل فقد قرر أن يرسل شيانو بدلا عنه ، وكانت تعليمات موسوليني واضحه ٠ يجب أن نتحاشى نزاعا مع

---

(١) مفكرة ماكينز ، ١٤ أغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجيـة المجموعة الثالثة ، سادسا ، رقم ٦٥٩ ٠

(٢) من لوبين الى هاليفاكس ، ٧ يوليو سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ٢٦١

بولندا طالما يستحيل جعله محليا ، والحرب الشاملة ستكون نكبة على الجميع (١) وتكلم شيانو بحزم عندما قابل هتلر فى ١٢ أغسطس ، ولكن ملاحظاته أزيحت جانبا وأعلن هتلر أنه يقترح مهاجمة بولندا مالم يحصل على ترضية كاملة حتى نهاية أغسطس ، وكان واثقا ثقة مطلقة أن الدول الديمقراطية الغربية ٠٠٠٠ سوف تحجم عن حرب شاملة وستتم العملية كلها حتى ١٥ أكتوبر ٠ وكانت تلك أدق من أية عبارة أخرى قالها هتلر من قبل ، ومع ذلك يظل الشك قائما ٠ كان يعلم أن أى شىء يقوله للايطاليين سيصل الى الدول الغربية ، وكان يعنيه أن يهز أعصابهم لا أن يكشف خطط الحقيقية لموسولينى ٠

وأظهرت حادثة بسيطه غريبه عن ماهيه تلك الخطط : فبينما كان تشيانو يتحدث الى هتلر « سلمت الى الفوهرر برقية من موسكو » وأخبر تشيانو بمحتوياتها : « وافق الروس على أن يرسل مفاوض سياسى ألمانى الى موسكو » واستنادا الى تشيانو ، فان الروس طلبوا ارسال سفير ألمانى مفوض الى موسكو يمكنه أن يتفاوض على عقد حلف للصداقة(٢) ولم يعثر على مثل تلك البرقية فى المحفوظات الألمانية وليس من الممكن أن يحدث ذلك لأن الروس وافقوا على ارسال المفاوض الألمانى فقط فى ١٩ أغسطس وليس فى ١٢ أغسطس(٣) ربما يكون ستالين قد أبلغ قراره لهتلر بطبيعة الحال مستخدما وسائل غير علنيه قبل أسبوع من اتخاذه ٠ ولكن هذا فرض خيالى ، ينقصه أى دليل ٠ والأكثر احتمالا لا بكثير أن البرقية كانت تلفيقا رسم ليؤثر فى تشيانو ولتهدئة شكوكه ٠ ومع ذلك وبالرغم من أنها تلفيق فلم تكن بلا أساس وكان هذا الاساس هو «احساس» هتلر ـ اعتقاده أن ما يريده أن يحدث سوف يحدث ٠ ولم تتخل عنه نظرته

---

(١) يوميات شيانو سنة ١٩٣٩ : سنة ١٩٤٣ ص ١٢٣ ٠

(٢) المحادثات بين هتلر وتشاينو ١٢ أغسطس ١٩٣٩ سياسة ألمانيا الخارجية المجموعة د ، سابعا رقم ٤٣ ، وثيقة دبلوماسية ايطالية المجموعة الثامنة ، الثالثة عشر رقم ٤ ٠

(٣) من المسلم دوليا الآن انه لم تكن هناك برقية من موسكو فى ١٢ أغسطس ولكن غالبا ما يزعم ان الموافقة على زيارة المفاوض الألمانى أعطيت بواسطة ستاكوف ، القائم بالأعمال السوفيتى فى برلين وهذا أيضا غير صحيح فقط اقتصر استاكوف على مجرد القول « أن السوفيت يروقهم مناقشة » القضايا الفردية ولم ينوه بحلف للصداقة « وترك الموضوع مفتوحا لمن كان من المتوقع أن يدير المحادثات فى موسكو سواء كان السفير أو أى فرد آخر » سياسة المانيا الخارجية المجموعة د سبعة رقم ٥٠ وكان استاكوف على الأرجح يعمل مبادرا من تلقاء نفسه كما فعل دائما من قبل ٠ وعلى أية حال فليس هناك دليل على أن المعلومات أبلغت لهتلر ٠

الثانية الى هذا الحد · وفى هذه المرة كان يخاطر بكل شيء على اساسها ، متأكدا مقدما أن المفاوضات الأنجلو ـ فرنسية ـ سوفيتية سوف تنهار وأن الدول الغربية عندئذ ستنهار أيضا ·

وفى ١٢ أغسطس لم تتحطم المفاوضات الأنجلو ـ فرنسية ـ سوفيتية والواقع أنها استؤنفت بالفعل· وأخيرا وصلت البعثة العسكرية البريطانية الفرنسية الى موسكو · وطلب دلادييه من الفرنسيين أن يحصلوا على اتفاق عسكرى بأسرع مايمكن · وفى الجانب الآخر زود الانجليز بتعليمات بأن يسيروا ببطء شديد « حتى يتم الوصول الى اتفاقية سياسية (رغم أن المناقشات من أجل ذلك أجلت فى ٢٧ يوليو حتى عقد حلف عسكرى) وأن الاتفاق على النقط الكثيرة التى أثيرت قد يستغرق شهورا لتحقيقها ، وأن الاتفاق على النقط الكثيرة التى أثيرت قد يستغرق شهورا لتحقيقها»(١) كانت الحكومة البريطانية فى الحقيقة لا ترحب بتعاون عسكرى مدعم مع روسيا السوفيتية وانما كانت تريد فقط أن ترسم بالطباشير غولا أحمر على الحائط بأمل أن يجعل هذا هتلر هادئا · ولكن سرعان ما وجد المتحدثون الانجليز أنفسهم عندما بدأت المباحثات وقد اندمجوا بواسطة الفرنسيين وفوروشيلوف القائد السوفيتى ، فى مناقشات جدية· وشرحت خطط الانجليز والفرنسيين الحربية بالتفصيل ، وبوبت مصادر الدولتين فى شيء من الكرم · وفى ١٤ أغسطس حل دور السوفيت · وعندئذ سأل فورشيلوف « هل يستطيع الجيش الاحمر أن يتحرك مخترقا شمال بولندا ·· ومخترقا غاليسيا لكى يلتقى بالعدو ؟ هل سيسمح للقوات السوفيتية باختراق الأراضى الرومانية ؟ (٢) كان السؤال الحاسم · ولم يحر الانجليز أو الفرنسيين جوابا · ووصلت المباحثات الى التوقف وفى ١٧ أغسطس أجلت ولم يقدر لها أبدا أن تستأنف ·

لماذا سأل الروس هذا السؤال بمثل تلك القسوة والفظاظة ؟ أكان لمجرد التماس عذر للتفاوض مع هتلر ؟ ربما ولكن السؤال كان حقيقيا ولا بد من أن يسأل ـ وأن تتم الاجابة عليه · فلقد أقامت بولندا ورومانيا عقبات منيعة أمام أى عميل سوفيتى فى سنة ١٩٣٨ · وكان لا بد من التغلب اذا ما كان على روسيا السوفيتية أن تعمل الآن باعتبارها شريكا على قدم المساواة ، ولم يكن فى استطاعة أحد التغلب عليها سوى الدول

---

(١) تعليمات للبعثة العسكرية الانجليزية ، اغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية « المجموعة الثالثة ؛ وسادسا الملحق » .

(٢) مضبطة الاجتماع ، ١٤ اغسطس سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق ، البند الثانى عشر الملحق الثانى .

الغربية وحدها . ولقد أثار السؤال الصراع القديم عن المبدأ فى صورة جديدة . فالدول الغربية كانت تريد الاتحاد السوفيتى باعتباره تابعا مناسبا وكان الروس مصرين على أن يعترف بهم كأقطاب . وكان هناك اختلاف أيضا فى وجهة النظر الاستراتيجية التى لم تعرف الا بشكل بسيط . كانت بريطانيا وفرنسا مازالتا تفكران على أساس الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الأولى . ولذلك بالغوا فى تقوية المواقف الدفاعية . وقيل للبعثة العسكرية : اذا ما هجمت ألمانيا فى الغرب حتى ولو كان ذلك عبر هولندا وبلجيكا ، « فيجب ان آجلا أو عاجلا أن يتم توطيد هذه الجبهة » . وفى الشرق كان يمكن بولندا أو رومانيا ابطاء التقدم الألمانى وربما - بالامدادات الروسية أمكنهما صده كلية(١) . وعلى أية حال كان يمكن أن يكون لدى الجيش الاحمر وقت طويل ليقيم خطوط دفاع بعد أن تكون الحرب قد بدأت ، وبذلك يستطيع أن يبقى الجميع آمنين فى خنادق حتى تنهار ألمانيا تحت ضغط الحصار . وبالتشبث بتلك الآراء كان فى استطاعة الدول الغربية أن ترى فى طلب روسيا باختراق بولندا مجرد مناورة سياسية فقد رغب الروس كما ظنوا اذلال بولندا أو على الأقل فى أن ينقضوا على استقلالها السياسى .

وليس فى استطاعة أحد أن يقول انه كان لدى الروس مثل تلك المخططات ولكن من الواضح أنه كانت لديهم مفهومات استراتيجية مختلفة كافية فى حد ذاتها لتفسير مطالبهم . بدأ الروس من تجاربهم فى الحروب الأهلية وحروب التدخل وليس من الحرب العالمية السابقة . وتحمل هجوم المدرعات الموقف فى كل مكان . وأكثر من هذا وباعتبارهم شيوعيين ، فضلوا أتوماتيكيا عقيدة استراتيجية أكثر فاعلية وثورية من تلك التى تتشبث بها الرأسماليات الغربية المتدهورة . فلقد تشبث الروس بأن هجمات من المدرعات فى شكل ميكانيكى فى الوقت الحالى لا تقاوم ، أو ربما لا يمكن مقاومتها الا بهجوم مماثل فقط فى جزء آخر من الجبهة . كان فى نيتهم فى حالة الحرب . أن تسير طوابير مدرعة مخترقة ألمانيا بغض النظر عن الهجمات الالمانية فى مكان آخر . وظل هذا مرماهم حتى فى سنة ١٩٤١ . وحيل بينهم وبين تنفيذه لا لشىء الا لأن هتلر هاجمهم قبل أن يستعدوا ، وكانت عقيدتهم فى حقيقة الأمر خاطئة وان لم تكن أكثر من تلك الخاصة بالدول الغربية ، وفى سنة ١٩٤١ أنقذهم هجوم هتلر المفاجىء من نكبة ربما كانت فوق العلاج ، وكانت تلك

---

(١) تعليمات البعثة العسكرية ، أغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة ، سادسا ، الملحق رقم ٥ ، الفقرة ٨٣ .

التجارب الأخيرة غير ملائمة لدبلوماسية سنة ١٩٣٩ · وعندئذ طالب الروس باختراق بولندا لأنهم إعتقدوا ، مهما يكن فى ذلك من خطأ ـ أن تلك هى الطريقة الوحيدة لكسب الحرب · ربما وجدت الأغراض السياسية كذلك ، ولكنها كانت تابعة للاحتياجات العسكرية الحقيقية ·

لم تضع الحكومتان الانجليزية والفرنسية تلك التقديرات السوفيتية موضع الاعتبار ولكنهما أدركتا أنه لابد من الرد على السؤال غير المرغوب فيه بعد أن وجه بالفعل · واتجهت الاثنتان الى وارسو وان كان ذلك بلا أمل كبير ، وكان الانجليز لا يزالون يستخدمون الحجج السياسية ـ ويتحتم وضع الاتفاق مع الاتحاد السوفييتى فى الاعتبار لارهاب هتلر من الحرب ، فاذا ما فشلت المفاوضات فان روسيا ما أن تشارك ألمانيا فى عمليات الائتلاف أو أن تمثل التهديد الرئيسى عندما تنتهى الحرب(١) وأعطى بك اجابة سياسية على المستوى نفسه : ان الاتفاق على مرور القوات الروسية عبر بولندا بعيدا عن ردع هتلر سيؤدى الى الاعلان الفورى للحرب من جانب ألمانيا(٢) كانت كلتا الحجتين السياسيتين معقولتين · وكانت كلتاهما غير ملائمتين للوضع العسكرى وفكر الفرنسيون على أسس أكثر واقعية · وكانوا لا يعنيهم شىء الا أن يقحموا الجيش الأحمر فى معركة مع هتلر ولم يهتموا أن يتم هذا على حساب بولندا · انهم لو تركوا وشأنهم لما ترددوا فى « السماح بالقاء » بولندا فى البحر وهم فرحون فى مقابل التعاون السوفيتى ، وحالت لندن دون مثل هذا التهديد وعلى ذلك كان على الفرنسيين أن يحاولوا الاستمالة · وظن بونيه أنه رأى مخرجا · وألح الروس على اتفاقية للتعاون العسكرى مع البولنديين قبل أن تبدأ الحرب · وأصر البولنديون على قبول المعاونة السوفيتية فى حالة قيام الحرب فقط ، وهنا دلل بونيه على أن اللحظة التى تبدو أمام الروس وكأنها السلم وأمام البولنديين وكأنها الحرب قد حلت · ولكن المناورة فشلت ، كان بك عنيدا : « أنه تقسيم جديد لبولندا ذلك الذى يطلب منا أن نوقعه » · وفى ٢١ أغسطس نفد صبر الفرنسيين · وقرروا أن يتجاهلوا رفض بولندا وأن يستمروا ، آملين أن يجبروا البولنديين طوعا أو كرها وأعطى دوبمانس رئيس البعثة العسكرية فى موسكو تعليمات بأن يعطى «رداً ايجابياً من ناحية المبدأ» على السؤال الروسى ، وكان عليه « أن

---

(١) من هاليفاكس الى كينارد ، ١٧ اغسطس ، ٢٠ اغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، البند سابعا ارقام ٣٨ ، ٣٩ ، ٩١ ·

(٢) من كينارد الى هاليفاكس ، ١٨ اغسطس سنة ١٩٣٩ ، المرجع السابق ، رقم ٥٢ ·

يتفاوض ويوقع أية اتفاقية مادامت تخـدم الصالح العـام على أفضل وجه وتخضع للموافقة النهائية للحكومة الفرنسية » ورفض الانجليز المشاركة في هذه الخطوة رغم أنهم لا يعترضون عليها ٠

« وعلى أية حال ضاعت الفرصة لتحالف سوفيتي الآن ، وهذا اذا ما قدر له أن يوجد » وفي ١٤ اغسطس بعد ساعات قليـلة من اثارة فور شيلوف لسؤاله المصـيرى ، كتب ريبنتروب مسـودة برقية الى سكولنبرج ، سفيره في موسكو « لا توجد أى صراعات حقيقية في المصالح بين المـانيا وروسيا ٠٠ ولا توجد قضية بين بحر البلطيق والبحر الأسود لا يمكن تسويتها الى حد الترضية الكاملة لكلا الطرفين ، وكان ريبنتروب على استعداد للحضور الى موسكو حتى يضع الأسس لاتفاقية نهـائيـة للعلاقات الألمانية الروسية (١) وكانت تلك البرقية هى الخطوة الحقيقية الاولى في العلاقات الالمانية السوفيتية ٠ كانوا حتى ذلك الحين راكدين ، ولم تكن المباحثات بين الاتباع وهى التى صنع منها الكثير فيما بعد بواسطة الكتاب الغربيين ، أكثر عمليات جس نبض ، مقترنة بالندم على مسودة باللو الذى تلاشى ، وأخيرا أصبح هتلر هو الذى أخذ المبادأة فى ذلك الحين ٠ لماذا فعل ذلك في تلك اللحظة الدقيقة ؟ أكانت قدرة سياسية فائقة أو حاسة ثانية ألهمته أن المباحثات العسكرية ستفشل بعد يومين من بدايتها ؟ أكان سؤال فورشيلوف وتقرب ريبنتروب صدفة رتبت سرا بين ستالين وهتلر من قبل ؟ هل أخبر عميل مجهـول فى الكرملين هتلر أن اللحظة المناسبة قد حلت ؟ أم كانت الصدفة مجرد فرصة سنحت ؟ لقـد أفشى هتلر خطته فى تحطيم الأعصاب الانجليزية والفرنسية فى أول الأمر عن اتفاقية معروسيا السوفييتية عندما تباهى كذبا أمام شيانو بوجود دعوة من موسكو في ١٢ أغسطس وبهذا أخمد المخاوف الايطالية وربما ابتـكر هتلر ذلك التكتيك عن وعي فى لحظة التباهى وعلى كل كان دائمـا رجل الارتجال الجرىء ، لقد اتخذ قرارات خاطفة ثم قدمها باعتبارها نتيجـة لسياسة طويلة المدى ٠ وبقى ريبنتروب فى برختسجاد حتى ١٣ أغسطس وعاد الى برلين فى ١٤ أغسطس وعلى ذلك كان هذا هو اليوم الأول الذى يمكن فيه بعث الرسالة الى موسكو ٠ ومن المحتمل أن تكون الصدفة هى الاجابة الصحيحة على أنها احدى المشاكل التى لن يكون فى امكاننا حلها مطلقا ٠

---

(١) من ريبنتروب الى سيكولينبرج ، ١٤ أغسطس سـنة ١٩٣٩ : سياسـة المانيا الخارجية المجموعة د سابعا رقم ٥٦ ٠

وسلم سيكولينبرج رسالة ريبنتروب في ١٥ أغسطس ورفض مولوتوف التعجل • وبالرغم من أنه تسلم الرسالة « بأعظم اهتمام » فانه اعتقد أن المفاوضات ستستغرق بعض الوقت ، وتساءل كيف اتجهت الحكومة الألمانية نحو فكرة عقد حلف عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتي ؟ (١) وجاء الرد في أقل من أربع وعشرين ساعة : ان ألمانيا لا تقدم حلف عدم اعتداء فحسب ، ولكن ضمانا مشتركا لدول البلطيق ووساطة بين روسيا السوفييتية واليابان• والشيء الهام كان الزيارة التي قام بها ريبنتروب (٢) وأبقى الروس الباب مفتوحا في كلا الجانبين • وفي ١٧ أغسطس اخبر فورشيلوف البعثة العسكرية البريطانية والفرنسية أنه لا جدوى في اجتماع لاحق حتى يستطيعوا اجابة سؤاله عن بولندا ، وعلى أية حال ، فبعد بعض الوخز وافق على أن يجتمع مرة ثانية في ٢١ أغسطس • وفي الوقت نفسه تقريبا أخبر مولوتوف سكولينبرج أن التحسن في العلاقات السوفيتية الألمانية سيكون مهمة طويلة الأجل • فلابد من أن وجود اتفاقية تجارية ، ثم يلي ذلك اتفاقية عدم اعتداء وعندئذ ربما يكون في استطاعتهم أن يفكروا في زيارة من ريبنتروب ، على أن الحكومة السوفيتية تفضل أن تقوم باجراء عملي دون ضوضاء (٣) •

وفي ١٨ أغسطس طرق ريبنتروب الباب السوفيتي بشدة من أكثر أي وقت مضى • يجب أن يعمل على تنقية العلاقات فورا « حتى لا تؤخذ على غرة باندلاع صراع ألماني ــ بولندي » (٤) ومرة أخرى تردد مولوتوف • أن زيارة ريبنتروب «لا يمكن تحديدها حتى ولو على وجه التقريب» وفي خلال نصف ساعة استدعى سكولينبرج ثانية الى الكرملين وافيد بأن ريبنتروب يستطيع الحضور بعد أسبوع » (٥) • وليست هناك أية وسائل لمعرفة لماذا اتخذ ذلك القرار المفاجيء • ولقد ظن سكولينبرج أن ستالين قد تدخل شخصيا • ولكن هذا كان تخمينا ككل التخمينات التي صنعت من قبل •

---

(١) من سكولينبرج الى ريبنتروب ، ١٦ أغسطس ١٩٣٩ أ المرجع السابق ، رقم ٧٠ •

(٢) من ريبنتروب الى سكولينبرج ، ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة المانيا الخارجية ، المجموعة د ، سابعا ، رقم ٧٥ •

(٣) من سكولينبرج الى ريبنتروب ، ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٩ أ المرجع السابق رقم ١٠٥ •

(٤) من سكولينبرج الى ريبنتروب ، ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ١١٣ •

(٥) من ريبنتروب الى سكولينبرج ، ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ١٣٢ •

ولم تكن الدعوة السوفييتية كافية لهتلر، كان يريد لريبنتروب أن يستقبل فورا، وربما يكون هذا هو نفاد الصبر الذى كان يتبع دائما ترددانه المطولة . وربما يكون هناك تفسير أعمق . فتاريخ ٢٦ أغسطس كان يمكن أن يكون مناسبا اذا ما كان هتلر يهدف الى مجرد تمهيد الطريق لهجوم على بولندا فى أول سبتمبر . ولكنه لم يكن كافيا لأن يعطيه وقتا لعمليتين :

أولا ـ تحطيم أعصاب الدول الغربية باتفاق مع روسيا السوفيتية .

ثانيا ـ تحطيم أعصاب البولنديين من ناحية بمساعدة الدول الغربية ـ ومن ثم فان عجلة هتلر توحى بشدة الى أنه كان يهدف الى « ميونخ » أخرى وليس الى الحرب .

وعلى أية حال فان هتلر كان يعمل فى ذلك دون وساطة دبلوماسيه وفى ٢٠ أغسطس بعث برسالة شخصية الى ستالين ، موافقا على كل المطالب السوفيينية ومطالبا بأنه يجب أن يستقبل ريبنتروب فورا (١) وكانت الرسالة « علامة مميزة » فى تاريخ العالم لقد حددت اللحظة التى عادت فيها روسيا السوفييتة الى أوربا كدولة كبرى . ولم يحدث أن خاطب أى سياسى أوربى ستالين مباشرة من قبل . عامله القادة الغربيون على أنه بعيد عن متناول أيديهم وكأنه ، عديم التأثير أو أحد بسكوات بخارى . والآن اعترف به هتلر كحاكم لدولة كبرى . وكان من المفروض فى ستالين أنه خلف حصن حصين من المشاعر الشخصية ولابد أن تقرب هتلر قد أشعره بالتملق مع كل هذا . ولقد جاءت لحظة اتخاذ القرار . وفى ٢٠ أغسطس عقدت الاتفاقية التجارية بين روسيا السوفيتية وألمانيا وتحقق الشرط الروسى الأول ـ وفى صباح ٢١ أغسطس قابل فورشيلوف البعثتين العسكريتين . ولم يكن لديهما شىء يقررانه وأجل الاجتماع الى أجل غير مسمى وفى الساعة الخامسة بعد الظهر وافق ستالين على أن ريبنتروب يستطيع الحضور الى موسكو فورا ـ فى ٢٣ أغسطس وأذيعت الاخبار فى تلك الليلة نفسها فى برلين وفى اليوم التالى فى موسكو . وكان الفرنسيون لا يزالون يحاولون انقاذ ما يمكن انقاذه . وفى ٢٣ أغسطس قابل دويمانس فورشيلوف على مسئوليته وعلى أساس تعليمات دلاديبه عرض أن يوافق على مطالب السوفييت دون انتظار لاجابة من البولنديين. ورفض فورشيلوف العرض « واننا لا نريد أن تتباهى بولندا بأنها رفضت

---

(١) من ريبنتروب الى سكوليبنرج ، ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة المانيا الخرجية ، المجموعة د سابعا ، رقم ١٤٢ .

مساعدتنا ـ التي ليس لنا فيه اجبارها على قبولها » (١) وحلت نهاية المفاوضات الأنجلو ـ فرنسية ـ سوفيتية • وفي اليوم التالي ، ٢٣ أغسطس استخلص الفرنسيون أخيرا من البولنديين صيغة تفيض بالضغينة ربما يستطيع الفرنسيون أن يقولوا للروس « لقد أخذنا تأكيدا بأنه في حالة حدوث عمل شامل ضد عدوان ألماني ، فان المشاركة في العمل بين بولندا واتحاد الجمهوريات السوفيتية لن يرفض (أو أنه ممكن) » (٢) ولم يقدر للصيغة أن تقدم للروس • وعلى أية حال فانها كانت خادعة ولم يوافق بك عليها الا عندما علم أن ريبنتروب كان في موسكو وأنه ليس هناك خطر من المساعدة السوفيتية لبولندا • وحتى هذا لم يكن يثبط من عزيمته • كان لا يزال يعتقد أن بولندا المستقلة لديها فرصة أكبر للوصول الى اتفاق مع هتلر • وكان يعتقد أن روسيا السوفييتية تنسحب من أوربا وكانت تلك أخبار طيبة بالنسبة للبولنديين • وقال بلطف : « لقد جاء دور ريبنتروب ليختبر سوء طوية السوفييت » (٣) •

ولم يكن ريبنتروب يفكر على هذا النحو ، جاء الى موسكو لكي يصل الى اتفاق وينجح في الحال • وشملت الاتفاقية العامة الموقعة في ٢٣ أغسطس عدم الاعتداء المتبادل • وأبعد بروتوكول سرى ألمانيا عن دول البلطيق وعن الأجزاء الشرقية لبولندا ـ الأراضي الشرقية لخط كورزون Curzon الذى كان آهلا بالأوكرانيين والروس البيض • وهذا ، في النهاية ، هو ما كان الروس يسعون للحصول عليه من الدول الغربية • وكانت الاتفاقية النازية السوفييتية مجرد طريقة أخرى لاتمام هذا : ليست الطريقة المثلى ، ولكنها أفضل من لا شيء • وأخيرا نقضت اتفاقية برست ـ ليتوفسك ، برضاء ألمانيا بدلا من أن تكون بتعضيد من الدول الغربية • ولقد كان أمرا شائنا بلا شك أن تعقد روسيا السوفيتية اتفاقية مع الدول الفاشية الأولى ، ولكن هذا التأنيب جاء غير سليم من الساسة الذين ذهبوا الى ميونخ والذين كانوا آنذاك مؤيدين في بلادهم بأغلبية عظمى • لم يفعل الروس في حقيقة الأمر سوى ما كان يتمنى الساسة الغربيون أن يفعلوه ، وكانت مرارة الغرب هي مرارة خيبة الأمل مختلطة بالغضب من أن محترفي الشيوعية لم يكونوا أكثر اخلاصا من محترفي الديمقراطية لديهم ، ولم يتضمن الحلف شيئا من التعبيرات الجوفاء عن

---

(١) المباحثات بين فورشيلوف ـ دوبمانس ، ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة وسابعا ، الحاشية الثانية ، رقم ١٠٠.
(٢) من كينارد الى هاليفاكس ، ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ١٧٦
(٣) نويل العدوان الألماني ص ٤٢٤ •

الصداقة والتى كان تشمبرلن قد وضعها فى البيان الأنجلو ـ ألمانى فى اليوم التالى لمؤتمر ميونخ ، وواقع الأمر أن ستالين اعترض على مثل تلك التعبيرات : « ان الحكومة السوفيتية لا تستطيع فجأة أن تقدم للرأى العام الألمانى والسوفييتى تأكيدات عن الصداقة بعد ست سنوات غمرتها فيها الحكومة النازية بسيل من الصفات غير النظيفة » •

لم يكن الحلف معاهدة أو اتفاقية لاقتسام بولندا • لقد كانت اتفاقية ميونخ تحالفا حقيقيا للتقسيم : وأملى الانجليز والفرنسيون التقسيم على التشيك • ولم تتعهد الحكومة السوفييتية بمثل هذا العمل ضد بولندا ـ وانما وعدوا فقط بان يبقوا محايدين ، وهو الشىء الذى طالب البولنديون دائما منهم أن يفعلوه والذى تضمنته أيضا الساسة الغربية • وأكثر من هذا ، كانت الاتفاقية فى مضمونها النهائى ضد ألمانيا • فقد حددت التوسع الألمانى تجاه الشرق فى حالة الحرب كما أكد تشرشل فى خطبة اذاعية مباشرة بعد نهاية الحملة البولندية • وفى أغسطس لم يكن الروس يفكرون على أساس قيام الحرب • وانما افترضوا ـ مثل هتلر ـ أن الدول الغربية لن تحارب دون معاهدة سوفيتية • وكان يجب أن تضطر بولندا للاذعان ، وبازالة العقبة البولندية بعيدا ، يمكن تحقيق المعاهدة الدفاعية مع الغرب بشروط أكثر مساواة • أما البديل لذلك أى اذا بقى البولنديون على أسلوبهم فى المناوأة فسيحاربون بمفردهم ، وفى تلك الحالة سيذعنون الى قبول المساعدة السوفيتية رغم كل شىء ، كانت التقديرات كاذبة على أساس المحصلة الواقعية • حربا شارك فيها كل من بولندا والدول الغربية • وحتى هذه كانت نجاحا للقادة السوفيت • فقد أبعدت أقصى ما كانوا يخشون هجوما رأسماليا مؤتلفا على روسيا السوفيتية • ولكن هذه لم تكن نوايا السياسة السوفيتية ، كانت أحداث أول سبتمبر و ٣ سبتمبر مما لا يمكن التنبؤ بها فى ٢٣ أغسطس ، فلقد تصور كل من هتلر وستالين أنهما قد منعا الحرب ولم يجلباها • وظن هتلر أنه يمكنه أن يحرز ميونخ أخرى فيما يختص ببولندا • وظن ستالين أنه على أية حال قد تخلص من حرب غير متكافئة فى الوقت الحاضر ، وربما أيضا تجنبها كلية •

وكيفما « أدار انسان البلورة » وحاول أن ينظر الى المستقبل من وجهة نظر ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ ، فانه من الصعب أن يرى ما هو الطريق الذى كان فى استطاعة روسيا السوفيتية أن تسلكه • كانت المفاهيم السوفيتية عن التحالف الاوربى ضد روسيا مبالغ فيها ، وان لم تكن بدون أساس • ولكن بعيدا عن هذا تماما ، واذا سلمنا بالرفض

البولندى للمساعدة السوفيتية ، وسلمنا كذلك بالسياسة البريطانية الخاصة باطالة المفاوضات فى موسكو بدون رغبة جادة للوصول الى حل ـ كان الحياد ، سواء عن طريق حلف رسمي أو بدونه ، هو أكبر ما تستطيع الدبلوماسية السوفيتية أن تناله ، وكان حصر المكاسب الالمانية في بولندا والبلطيق هو الاغراء الذى يجعل حلفا رسميا شيئا جذابا • كانت السياسة سليمة تبعا لكتب المناهج الدبلوماسية • كانت تحتوى جميعها على خطأ خطير : بعقد اتفاقية مكتوبة ، انزلق الساسة السوفيت ، مثل الساسة الغربيين قبلهم ، في التوهم بأن هتلر سوف يحتفظ بكلمته • ومن الواضح أن ستالين كانت لديه شكوك • وفى لحظة وداعه مع ريبنتروب قال : « ان الحكومة السوفيتية تأخذ الحلف الجديد بجدية تامة • وأنه يستطيع أن يضمن بكل شرف على مسئوليته أن الاتحاد السوفيتي لا يخون شريكته ، وكان هناك مضمون واضح : « وافعلوا أنتم بالمثل » ومع كل فمن الواضح كذلك أن ستالين أيضا ظن أن الحلف له قيمته ، ليس فحسب باعتباره مناورة سريعة ، ولكن كمرحلة طويلة المدى • كان هذا غريبا ، وان لم يكن غير عادى • ان الرجال ، أنفسهم بلا ريب ، يشكون مرارا عندما يخدعهم الآخرون •

وعلى كل انفجرت القنبلة • كان هتلر متألقا ، واثقا أنه قد ربح الضربة الحاسمة • وفى ٢٢ أغسطس دعا جنرالاته من القادة لأكثر أقواله حيوانية : « اغلقوا قلوبكم دون أى شفقة واعملوا بوحشية » • ولم يكن هذا اللغو توجيها جادا للعمل ــ فليس هناك تسجيل رسمى محتفظ به• كان هتلر يمجد براعته الشخصية • واللغو فى الحديث يكشف عن جوهره الحاد : « ان الاحتمال بأن الغرب لن يتدخل كبير الآن (١) وكالعادة كان هتلر يتكلم للتأثير • وفى الحال وصل تقرير عن الخطاب الى السفارة الانجليزية مباشرة فى الغالب (٢) • وسواء أكان هذا عمدا أو بدون عمد فان « المقاومة » الألمانية المزعومة قامت بعمل هتلر لمصلحته • وفى ٢٣ أغسطس خطا هتلر خطوة أخرى • فقد حدد الهجوم على بولندا فى الساعة الرابعة وأربعين دقيقة صباح يوم ٢٦ أغسطس • وكان ذلك أيضا « لعبة » للتأثير على القواد وعلى الدول الغربية من خلالهم • وكان جدول مواعيد ألمانيا لا يستطيع أن يعمل الا فى أول سبتمبر فقط • وقبل

---

(١) مفكرة عن حديث هتلر ، ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة ألمانيا الخارجية ، المجموعة د سابعا رقما ، ١٩٢ ، ١٩٣ •

(٢) من جليفى ــ فوربس الى كيرك باتريك ، ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٩ • سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة سابعا رقم ٣١٤ •

ذلك الحين فان هجوما على بولندا كان من غير الممكن الا اذا ما استسلمت هى من قبل • ولكن الاعتبارات الفنية لم تعد تبدو هامة : لقد افترض فى الاتفاقية النازية السوفيتية أنها ستمهد الطريق لانهيار ديبلوماسى من جانب الدول الغربية •

وتوصل الفرنسيون كلية قريبا من توقعات هتلر ، أو حتى الى ما دونها • وكان بونيه شغوفا دائما لأن يتخلى عن البولنديين • كان يستنكر الأسلوب الذى سلكوه خلال الأزمة التشيكية ؛ وقبل المسألة الالمانية فى دانزج ؛ ولم يكن لديه أى ثقة بالجيش البولندى ، واحتج بأن الروس زعموا بأنه فى غير استطاعتهم القتال ضد ألمانيا بدون جبهة عامة ، ان غزو ألمانيا لبولندا قد يتيح هذه الفرصة • وعندئذ يمكن أن تجدد الاتفاقية الفرنسية السوفيتية لبلوغ تأثيرها الحقيقى • وفى ٢٣ أغسطس ، وعندما أصبحت رحلة ريبنتروب الى موسكو معروفة ، طالب بونيه من دالادييه أن يستدعى مجلس الدفاع الوطنى • وهناك لمح لسياسته « أيتعين علينا أن نطبق بلا بصيرة تحالفنا مع بولندا ؟ أم يكون من الأفضل ، على العكس ، أن ندفع وارسو الى اتفاق ؟ اننا نستطيع بذلك أن نكسب الوقت لنتم تأهبنا ، ونزيد قوتنا العسكرية ، ونحسن وضعنا الديبلوماسى حتى نتمكن من مقاومة ألمانيا بفاعلية أكثر اذا ما تحولت ضد فرنسا فيما بعد » • ولكن بونيه لم يكن مقاتلا ، حتى من أجل السلام • وترك القرار للآخرين • ولم يكن الجنرالات يستطيعون الاعتراف بضعف فرنسا عسكريا وهو ما كانوا مسئولين عنه بل ربما حتى لم يقدروه • وأعلن جاملان أن الجيش الفرنسى « مستعد » (أيا كان ذلك يعنى) وقال أكثر من ذلك أن بولندا سوف تصمد حتى الربيع ، وأنه عندئذ ستكون الجبهة الغربية منيعة (١) ولم يثر أحد قضية ما اذا كان من الممكن فعلا مساعدة البولنديين • ومن الواضح أن كل هؤلاء الحاضرين افترضوا أن الجيش الفرنسى سوف يحصن خط ماجينو رغم وعد جاملان للبولنديين بالهجوم • ولم تكن هناك مناقشات عن السياسة أو اقتراح لتحذير البولنديين للخطر المحدق بهم • وترك البولنديون أحرارا لمقاومة هتلر أو للتراضى معه ، هم وما يختارونه • والشىء الأكثر استدعاء للملاحظة ، أنه لم يكن هناك تقريب من البريطانيين ، أو لقاء أنجلو ــ فرنسى على مستوى الوزراء كالذى ميز الأزمة التشيكية • وترك الانجليز أيضا احرارا لمقاومة هتلر أو للتراضى معه ، دون أية تعليمات عن رغبات فرنسا أو القوة الفرنسية • ومع ذلك فان القرار البريطانى كان سيلزم فرنسا • وكان على

---

(١) [illegible] : نهاية أوربا . صفحات ٣٠٣/٣٠٤ .

الفرنسيين اما الانعزال نهائيا فى شرق أوربا واما أن يتحملوا ـ بمفردهم فى الغالب ـ عبء حرب أوربية عظمى تبعا بشكل كامل لما تفضله لنـــدن ، كان هناك صمت تجاه الانجليز وصمت تجاه البولنديين وفى الغالب صمت تجاه الألمـان • وأرسل دلادييه خطابا فيه تحذير لهتلر • وخلافا لهذا لم يفعل الساسة الفرنسيون شيئا خلال الأسبوع الذى حدد لسنوات طويلة مصير فرنسا •

وكانت هذه سلبية غريبة ، ولكنها لم تكن أغرب من السياسة الفرنسية خلال السنوات السابقة ، لم يكن الفرنسيون يعرفون أى طريق يتحولون اليه • ولم يكن فى استطاعتهم التخلى عمدا عن اتفاقية سنة ١٩١٩ ؛ ومع ذلك كان من السهل ادراك أنهم عاجزون عن الاحتفاظ بها • لقد سلكوا مثل هذا السلوك بالنسبة لاعادة تسليح ألمانيا • رفضوا أن يسمحوا به ومع ذلك لم يستطيعوا أن يجدوا طريقا لمنعه • وكان الشىء نفسه بالنسبة للنمسا : فقد كررت « لا » حتى حدثت الوحدة • وكان من المتوقع أن تتكرر القصة نفسها مرة ثانية مع تشيكوسلوفاكيا ، لولا أن جاء الحافز من انجلترا ثم حدث بعد ذلك أن ألح الانجليز بالاذعان واستـــسلم الفرنسيون • والآن لم يأت حزف من الانجليز ، وعاد دلادييه وأعظم ممثلى الساسة الفرنســـيين الى سابق عهده من المقاومة المشاكسة • ولم يعد الفرنسيون تعنيهم دانزج بأكثر مما كانت تعنيهم الأقاليم الناطقة بالألمانية لتشيكوسلوفاكيا لكنهم لن يحطمو بأنفسهم ماسبق أن صنعوه بأيديهم ذات مرة • كانوا يريدون أن يضعوا حدا أخيرا بطريقة أو بأخرى • وكان تعبير « لابد من وضع حد » هو الروح الفرنسية الشائعة فى سنة ١٩٣٩، ولم تكن لديهم فكرة عما ستكون عليه النهاية • ونادرا ماكان هناك أى فرنسى تنبأ بهزيمة عســـكرية ، وكان الانتصار على ألمانيا شيئا بعيدا بالمثل • وهناك دليل طفيف على أن المخابرات الفرنسية بالغت فى المعارضة داخل ألمانيا • ولكن لم يكن هناك حساب قائم على العقل وراء قرار ٢٣ أغسطس • وكان الفرنسيون فى ضياع عما يفعلونه ، ولهـــذا قرروا أن يدعوا الأمور تجرى فى أعنتها •.

وهكذا تلاءم القرار بنوع خاص مـع الحـكومة البريطانيـة • كانت سياستهم أيضا تبدو مدمرة ، لقد ذهب التحالف الأنجلو ـ ســـوفيتى بلا رجعة • كان هذا سوء فهم جذرى للوضع البريطانى ـ فى الواقع سوء فهم كان له أثره كأى شىء ســـواه بسبب الحرب العالمية الثانية • وكان التحالف مع روسيا السوفيتية هو سياسة المعارضة سياسة حزب العمال

وسياسة ونستون تشرشل ولويد جورج • كانوا هم الذين أكدوا أن المقاومة غير ممكنة الا فى وجود روسيا السوفيتية فى جانب الحلفاء • ولم تشارك الحكومة فى وجهة النظر هذه • فهى لم تعلق أبدا أهمية كبرى على التحالف السوفيتى واندفعت فى المفاوضات كرها مسوقة اليه تحت تأثير الهياج فى البرلمان وفى البلاد • وارتاحت عندما تحطمت المفاوضات مبتهجة بالقدرة على القول لناقديها « وهكذا قلنا لكم » • وتحررت من الحيرة • وذهب أصحاب المقاعد الخلفية من المحافظين الى أبعد من هذا • كان الكثير منهم يقدر هتلر باعتباره حصنا أمام البلشفية ، أما الآن فقد أصبح فى أعينهم خائنا لقضية الحضارة الغربية • وفى الوقت نفسه وبينما كان المحافظون يتأرجحون ضد هتلر ، تحول العمال ، ويكاد يكون بالمرارة نفسها ضد ستالين ، عازمين على أن يظهروا أنهم على أية حال كانوا أخلص فى عدائهم للفاشية ، حتى وان كان ذلك يعنى تأييد تشمبرلن • وفى أى تقدير يقوم على العقل كان الحلف النازى السوفيتى لابد وأن يوهن عزم الشعب الانجليزى • ويكاد لويد جورج يكون الوحيد فى صنع هذا التقدير • وعلى العكس من ذلك أوجد الحلف حلا لم يظهر البريطانيون مثله منذ عشرين سنة ، فى ٢٢ أغسطس صممت الحكومة ، وسط مظاهر التأييد العام ، على أن توفى بالتزامها قبل بولندا •

ولم تجر مناقشة عن كيفية امكان انجاز هذا الالتزام ، والواقع أنه لم يكن هناك طريق للوفاء به • لم يدع الخبراء العسكريون الا لتقدير أنواع الدفاع المدنى عن لندن • والحكومة البريطانية مازالت تفكر على أساس سياسى وليس العمل وظلت سياستهم بلا تغيير • فمن ناحية : انذارات حاسمة لهتلر بأنه سيواجه حربا عامة اذا ما هاجم بولندا ، ومن الناحية الأخرى تأكيدات جادة وعلى المستوى نفسه بأنه سيلقى تنازلات اذا ما تصرف سلميا • كانوا مصممين على تلك السياسة ومن ثم لم يستشيروا الفرنسيين عما اذا كانت الحرب أمرا ممكنا من الناحية الواقعية أو يطلبون من البولنديين استفسارا عن التنازلات التى يمكن تحقيقها • حقا كانوا مصممين على تنازلات بغير علم البولنديين ، اذا ما كان هتلر معقولا • فلقد كانت الحكومة البريطانية مازالت متفقة مع هتلر بالنسبة لدانزج • ولكن حتى الآن لم يكن موضوع دانزج قد أثير رسميا • وانتظر هتلر العروض التى يمكن زيادتها ، وانتظر الانجليز مطالب يمكن العمل على الاقلال منها • وأيهما كان سيخطو الخطوة الأولى فهو الخاسر ، ومن ثم لم يخطها أحد منهما ووجدت الحكومة البريطانية طريقا وسطا : سوف

تحذر هتلر من الحرب وفى الوقت نفسه تلمح للمكاسب التي سوف يجلبها السلام عليه · وكانت نيتهم الأصلية أن يبعثوا بمبعوث خاص ــ ليس تشمبرلن هذه المرة وانما ربما الجنرال أيرنسيد Ironside ولكن على أثر النتيجة المتعجلة للحلف النازي السوفييتي كان ذلك مستحيلا · كان لا بد للرسالة أن تسلم بواسطة السفير نيفيل هندرسون الذي طار الى برختسجادن فى ٢٣ أغسطس ·

كان اختيارا سيء الحظ ، والذى لا شك فيه أن هدرسون حاول أن يتكلم بحزم ولكن قلبه لم يكن يحسسه · وفى ثبات جدير بقضية أفضل ظل مقتنعا بأن البولنديين كانوا فى الجانب الخاطيء · كان يريد اجبارهم على الاذعان كما اضطر التشيك أن يذعنوا فى العام السابق ، وكان قد كتب قبل ذلك بأيام قليلة لصديق فى وزارة الخارجية : « ان التاريخ سوف يحكم على الصحافة بشكل عام بأنها كانت السبب الرئيسى للحرب ، وصدق أو لا تصــدق ، يعتبر هتلر بين جميع الألمان أكثر المعتدين اذ ماكانت دانزج والممر هما موضع الاهتمـام ·· اننا لم نستطـع أن نقول « بو » لينبش فى السنة الماضية الا عندما كنا على حافة الحرب ولا نستطيع أن نقول « بو » الآن » (١) ولقد فشل بشكل أكيد فى أن يقول « بو » لهتلر · وبالرغم من انه أوصل الرسالة البريطانية باخــلاص فانه كان لا يزال يعرض التسوية البريطانية · وأخبر هتلر بمنتهى الصدق « أن الدليل على صداقة تشمبرلن يمكن العثور عليه ، انه رفض دخول تشرشل فى الوزارة » وقال أكثر من ذلك ان المسلك العدائى فى بريطانيا كان من عمل اليهود وأعداء النازية وهو الأمر الذى كان هتلر يؤمن به تماما (٢) · واذا واجه هتلر مثل هذا الغريم المتخاذل منذ أرغى وأزبد · وعندما عاد هندرسون الغرفة ، لطم هتلر فخذه وقال ــ « أن تشمبرلن لن يبقى ليشهد تلك المباحثات وستسقط حكومته الليلة » (٣) وكان رد الفعل عن هدرسون ما انتواه هتلر · وبسرعة وفور عودته الى برلين كتب الى هاليفاكس « لقد ثبت منذ البداية بأن البولنديين كانوا أغبياء وغير حكماء الى أقصى حد » ومرة أخرى « اننى شخصيـــا لا أرى أى أمل لتجنب الحرب ما لم يعـط

---

(١) من هندرسون الى سترانج ، ١٦ اغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة ، سابعا رقم ٣٧ ·

(٢) مذكرات بقلم ٢٤ اغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة المانيا الخارجية المجموعة د سابعا رقم ٢٠٠ ·

(٣) وزيكر ص ٢٥٢ ·

تعليمات للسفير البولندى فى أن يلتمس اليوم أو غدا على الأكثر مقابلة شخصية مع هتلر » (١) ٠

على أن الأحداث فى لندن لم تجر حسب توقعات هتلر ٠ وانما على العكس تماما اجتمع البرلمان فى ٢٤ أغسطس ، وأثنى بالأجماع ما افترض أنه موقف حازم من الحكومة وبدأت الشكوك تساور هتلر ـ كان جليا أن الأمر محتاج للكثير لأن ينتزع من الحكومة البريطانية التنازلات التى كان لا يزال يعمل حسابها ٠ وفى ٢٤ أغسطس طار هتلر الى برلين ٠ وبناء على تعليماته استدعى جورنج الى سويد داهليروس وأرسله الى لندن بدعوة غير رسمية لوساطة انجليزية ، وكان هذا فخاً صريحاً : فاذا ما رفض الانجليز فان هتلر يستطيع أن يدعى أنه لم يقم بحركة مطلقا ، واذا ما أذعنوا فانهم سيكونون ملزمين بالضغط على بولندا ـ وفى المساء نفسه عقد هتلر اجتماعا مع جورنج وريبنتروب والقادة الرئيسيين ٠ هل يستطيعون الاستمرار فى هجوم على بولندا على أن يبدأ الآن فى خلال ستة وثلاثين ساعة ؟ وأعلن هتلر أنه سيقوم بمحاولة اضافية لعزل الدول الغربية عن حلفائهم البولنديين وأخذت المحاولة شكل « العرض الأخير » وقد أبلغ لهندرسون بعد ظهر ٢٥ أغسطس بوقت قصير ـ وأعلن هتلر أن ألمانيا مصممة « على ابطال الشروط المقدونية فى جبهتها الشرقية » ٠ كان لابد أن تحل مشكلتا دانزج والممر ـ رغم أنه حتى ذلك الحين لم يقل كيف ٠ وما أن تنزاح هاتان المشكلتان من الطريق فستقدم ألمانيا « عرضا واسعا وشاملا » ،فهى ستؤمن الامبراطورية البريطانية ، وتقبل حدا متفقا عليه للتسلح وتجدد التأكيد بأن حدودها فى الغرب نهائية (٢) ٠ وكان هندرسون منفعلا كالعادة وقال فى تقريره ان هتلر كان يتكلم « باهتمام كبير واخلاص واضح » (٣) ورفض جميع الكتاب اللاحقين عرض هتلر باعتباره خداعا ، ولقد كان هكذا فى مفهوم ما ٠ كان الاعتراض العاجل هو عزل بولندا ومع ذلك فان العرض مثل أيضا سياسة هتلر الدائمة : بالرغم من أنه أراد اطلاق يده ليحطم الأوضاع فى الشرق التى بدت كذلك

---

(١) من هندرسون الى هاليفاكس ، ٢٤ اغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية الجزء الثالث سابعا رقم ٢٥٧ ورقم ٢٤١ ٠

(٢) من هندرسون الى هاليفاكس ، ٢٥ اغسطس سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ٢٨٣ ٠

(٣) من هندرسون الى هاليفاكس ، ٢٥ اغسطس سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ٢٨٤ ٠

للرأى العام الغربى المستنير غير محتملة ، لم يكن لديه أطماع موجهة ضد بريطانيا وفرنسا •

ولكن ماذا كان يـأمل هتلر أن يحقق بهـذا العرض فى الظروف المحيطة بتلك اللحظة ؟ • وعد هندرسون بالطيران الى لندن فى صباح ٢٦ أغسطس ، وفى ذلك الحين على وجه الاحتمال كان الهجوم على بولندا لا بد أن يكون قد بدأ • أكان هتلر يتكلم فقط من أجل أن يسـجل التاريخ ــ ليبدو نظيفا فى أعين الخـلف أو حتى أمام ضـميره ؟ أم أنه قد تناسي جدول مواعيده غير مستطيع أن يقدر ان الأوامر ما أن تعطى حتى تنفذ فى النهاية ؟ أن التفسير الأخير يبدو التفسير الأكثر احتمـالا وعلى مدى أمسية ٢٥ أغسطس كان هتلر يضطرم غضبا وهو يلف حول مبنى المستشارية غير مستقر عما يفعله • وفى الثالثة مساء أمر بتنفيذ الهجوم على بولندا • وبعد ذلك بثلاث ساعات وصل أتوليكو السـفير الايطالى برسالة من موسولينى : بالرغم من أن ايطاليا تقف بجانب ألمانيا بلا قيد أو شرط فانها لا تستطيع « التدخل عسكريا » ما لم تقدم ألمـانيا فورا كل حاجاتها من مواد الحرب وكانت تلك عندما جاءت القائمة ــ على حد كلمات شيانو ــ « كافية لقتل ثور اذا ما كان فى امكان الثور أن يقرأ » • ومثل موسولينى دور الرجل القوى حتى اللحظة الأخيرة ، والآن والحرب وشيكة بشكل ظاهر ، فر هاربا • وبعد هذه الضربة مباشرة جاءت أخرى • كتب ريبنتروب تقريرا ان المعاهدة الرسمية بين انجلترا وبولندا وقعت حالا فى لندن واستحضر هتلر كيتل رئيس هيئة أركان حـربه « أوقف كل شيء فورا ، أحضر بروختشى (القائد العام) فورا ، أننى فى حاجة الى وقت لاجراء مفاوضات » • وخرجت الأوامر الجديدة بعد السابعة مساء بقليل وألغى الهجوم السابق لأوانه بالتسرع نفسه الذى بدأ به •

وهنا كانت أيضا ظاهرة هامة أخرى • لماذا انسحب هتلر فى اللحظة الأخيرة ؟ هل فقد أعصابه ؟ هل أخذ حقيقة على غرة بحادثتى حياد موسولينى والتحالف الانجليزى ــ بولندى ؟ انه نفسه ، بنزعة طبيعية لدى الساسة فى وضع اللوم على الآخرين ، اشتـكى فورا أنها كانت جميعـا غلطـة موسولينى • لقد شدت أخبار القرار الايطالى بعدم القتال من عزم الانجليز وهم فى لحظة الاذعان • وكان هذا لغوا • فلم يكن الانجليز يعرفون شيئا عن قرار موسـولينى عندما وقعوا المعـاهدة مع بولنـدا رغم أنهم كانوا يستطيعون أن يعرفوه على وجه التخمين السليم عنه • ولم تكن المعاهدة أيضا محددة الميعاد حتى يؤتى تأثيرها فى لحظة بعينها • ان اتمامها كان

معروفا خلال المفاوضات مع روسيا السوفييتية ، وما أن فشلت تلك المفاوضات حتى لم يعد هناك سبب لتأجيل آخر ، ووقعه الانجليز بمجرد اتمام الرسميات . ولم يكونوا يدركون أن هتلر قد حدد ٢٥ أغسطس كيوم للأزمة وكانوا يفكرون على أساس الأسبوع الأول من سبتمبر ، كما فكر هتلر طويلا على أساس أول سبتمبر . وربما كان هذا هو تفسير تردده الظاهر فى ٢٥ أغسطس. وكان تقديم الهجوم الى هذا اليوم هو «محاولة» ، دعوة اضافية أقرب شبها بعناده المبالغ فيه فى جودسبرج فى العام السابق . وبعيدا تماما عن الأحداث الدبلوماسية ليوم ٢٥ أغسطس ، كانت هناك أسباب عسكرية قوية للعودة للتاريخ الأصلى . كانت الحدود الغربية لألمانيا فى ٢٥ أغسطس ، مازالت فعلا غير محصنة من الناحية الدفاعية . وربما واجه هتلر بعد ذلك الحقيقة بأن نوعا من الحرب مع الدول الغربية كانت شيئا فى عرض البحر . ولكن الأكثر احتمالا أنه قال الحقيقة لكيتل ، كان يحتاج لوقت للمفاوضات .

وكان البريطانيون أيضا يقصدون المفاوضات . وكان توقيع الحلف الأنجلو ـ بولندى تمهيدا لهذا وليس قرارا حاسما بالحرب . وهناك دليل واضح على أن البريطانيين لم يأخذوا الحلف بجدية تامة . كان مشروعهم قد صمم ليتناسب مع حلف أنجلو ـ سوفيتى وهو الأمر الذى تلاشى الآن . وفى خلال الهرج والمرج الذى أعقب الحلف النازى ـ السوفيتى ، أضيفت عبارات من المشروع البولندى كذلك ، وتضمنت احداها التعهد الذى تملص منه الانجليز من قبل ـ توسع كامل للمعاهدة بحيث تغطى دانزج . ومع ذلك وحتى فى لحظة توقيع المعاهدة ، كتب عضو فى مكتب وزارة الشئون الخارجية مسودة « المقترحات المضادة الممكنة للهر هتلر » والتى افترضت أن دانزج لابد أن يكون لها «الحق لتعزيز ولائها السياسى» فى حدود الاعتراف بحقوق بولندا الاقتصادية (١) . وأخبر هاليفاكس بنفسه السفير البولندى « أن الحكومة البولندية ترتكب خطأ كبيرا اذا ما سمحت لاتخاذ موقف تصبح فيه مناقشة تعديل سلمى للوضع الراهن لدانزج غير ذات موضوع » (٢) وهكذا كانت الحكومة البريطانية وهتلر قريبين للاتفاق على كيفية انهاء الأزمة ، كان البولنديون خارج هذا

---

(١) مفكرة بقلم ماكينز ، ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة ، سابعا ، رقم ٣٠٧ .

(٢) من هاليفاكس الى كينارد ، ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق ، رقم ٣٠٩ .

النطاق • وكيفما كان الأمر نان المشكلة لم تكن نى ذلك الوقت هى كيفية الوصول الى حل بالمفاوضات ، ولكن فى كيفية بدئها ، ولهـذا السبب لم يوجد أى حل •

وتقدمت الخطوات التمهيدية للمفاوضات في عنف بين ٢٦ اغسطس و ٢٩ اغسطس : فالانجليز يلمحون الى ما يعرضونه وهتلر الى ما يطلبه • وتردد كلا الطرفين فى تجاوز الحافة نحو المفـاوضات الفعليـة • وكانت هناك حيرة أبعد وهي أن عمليات جس النبض هـذه جرت على مستويين فلقد تصرف نيفيل هندرسون كوسيط رسمي ، وتردد داليروس بين برلين ولندن ولكن على نحو أكثر مثابرة • طار الى لندن فى ٢٥ اغسطس وعاد الى برلين فى ٢٦ أغسطس ؛ والى لندن ثم العودة فى ٢٧ أغسطس ، والشيء نفسه مرة أخرى فى ٣٠ أغسطس وقابل جورنج في برلين وأحيانا هتلر ، وفي لندن قوبل بكل حذر السرية وقابل تشمبرلن وهاليفاكس • وقد يحق للانجلـيز أن يؤكدوا أن ملاحظـاتهم لداليروس كانت « خارج الرسميات » وكان هتلر مجبرا على أن يشعر تماما أن ميونخ أخرى كانت تجهز له • ربما بوغت بلا تصنع بتوقيع الحلف الأنجلو ـ بولندي ، ولـكن ذلك الشعور تلاشي بمجرد أن أكثر هندرسون ودلير من بذل مجهوداتهم • ومع ذلك وفي الوقت نفسه ، تصور الانجليز وهم ينصتون الى دالايز أن موقفهم كان يتحسن • وعلق عضو في وزارة الشئون الخارجية على نشاط دالير • « ان هذا يكشف أن الحكومة الألمانية تتمايل •• وبينما يحق لنـا بل يجب علينا أن نكون مسالمين شـكلا ، لابد أن نكون حازمين بشـكل مطلق موضوعا •• ان الدلائل الأخيرة تشير الى أن قبضتنا قوية بصورة غير متوقعة » • وتحمل هذه المفكرة التعليق الأبعد مدى : « نظر بواسطة S. of. S. الذى يقول انه يتفق تمـاما معـه » (١) بل ان هاليفـاكس كان يعتقد فى براعة متناهية أن ميونخ ثانية سوف تفضح هتلر ، ورئيس الحكومة البريطانية • كتب يقول « عندما نتكلم عن ميونخ يجب علينا أن نتذكر التغيير الذى طرأ منذ ذلك الحين على قوة ذلك البلد وعلى مسلكه ، وفى اتجاهات أخرى كثيرة ، ونعنى بها ايطاليا ثم اليابان كما نأمل ـ الخ • واذا ما حمل هتلر الآن على قبول حل وسط فانه ربما لا يكون تفـكيرا

---

(١) مذكرات كيرك باتريك ، ٢٧ اغسطس سنة ١٩٣٩ : سـياسة بريطانيـا الخارجية المجموعة الثالثة ، سابعا رقم ٣٠٢ •

مرغوبا فيه أن نعتقد أن وضعه سيعانى هبوطا معينا فى ألمانيا » (١) وهكذا أخذ الجانبان يدور كلاهما حول الآخر كمصارعين يطلبان النصر قبل أن يتماسكا · وعرض البريطانيون أن يرتبوا المفاوضات مباشرة بين ألمانيا وبولندا اذا ما وعد هتلر أن يسلك سلوكا سليما ، ورد هتلر أنه لن تكون هناك حرب اذا ما أخذ طريقه نحو رانج · ودلل كتاب فيما بعد على أن رد هتلر كان غير صادق ، وأنه كان معنيا بعزل بولندا وليس بتجنب الحرب وربما يكون هذا حقيقة لا ريب فيها · ولكن العرض المقدم من الحكومة البريطانية كان غير صادق أيضا : فلم تكن هناك فرصة لانتزاع تنازلات من البولنديين بمجرد أن يزاح خطر الحرب ، وكان الانجليز يعرفون ذلك · لقد استغاث بينز فى السنة الماضية من أجل التعضيد الانجليزى · واشترطوا أن فى امكانه أن يضمن ذلك اذا توفرت فيه النزعة للوفاق بصورة كافية ، وابتلع الطعم · أما الآن فقد أصبح الانجليز ملزمين بالفعل ــ ولم تكن أيديهم مغلولة ــ بحلفهم الرسمى مع بولندا بقدر تصميم الرأى العام البريطانى · لم يكن فى استطاعتهم املاء التنازلات على البولنديين ولم يكن فى استطاعتهم السماح لهتلر بأن يمليها · ومع ذلك فانه لن تكون هناك تنازلات ما لم يكن هناك من يمليها · وفى ٢٣ أغسطس قابل سيرهوراس ويلسون ، نيابة عن تشمبرلن كيندى السفير الأمريكى Stâts Depar temen · وبعد المباحثات اتصل كيندى تليفونيا بادارة الدولة « ان الانجليز يريدون شيئا واحدا منا وشيئا واحدا فقط ألا وهو أن نضغط على البولنديين · انهم يشعرون أنهم لا يستطيعون ، وقد أعطوا ارتباطاتهم ، أن يفعلوا شيئا من هذا النوع وأن فى استطاعتنا أن نفعل ذلك » (٢) ونبذ الرئيس روزفلت هذه الفكرة وعندئذ فقد تشمبرلن ــ استنادا لكيندى مرة ثانية ــ كل أمل : « أنه يقول ان عدم النفع من هذا جميعه هو الشيء الذى يبدو مخيفا وهم بعد لا يستطيعون انقاذ البولنديين ، وانما فى استطاعتهم فحسب اشعال حرب انتقام سوف يكون معناها دمار أوربا كلها(٣) ·

وتأخرت ساعة الصفر حتى ٢٩ أغسطس وعندئذ فجرها هتلر ·

---

(١) مفكرة هاليفاكس عن رسالة من هندرسون الى هاليفاكس ، ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ٤٥٥ ·

(٢) أوراق Moffat Papers ص ٢٥٣ وضع كدردل هل اسم ويلسون ١٩١٩/١٩٤٣ (١٩٥٦) ويلسون مذكرات ص ٦٦٢) ·

(٣) من كيندى الى هل Hall ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ : علاقات الولايات المتحدة الخارجية سنة ١٩٣٩ ، عام ·

كان فى الجانب الأضعف بالرغم من أن الانجليز لم يعرفوا ذلك • ولم يكن هناك جدوى من الانتظار حتى أول سبتمبر لينتزع نجاحا دبلوماسيا • وفى السابعة والربع مساء قدم لهندرسون عرضا رسميا ومطلبا رسميا : أنه سيتفاوض مباشرة مع بولندا اذا ما وصل سفير مفوض بولندى الى برلين فى اليوم التالى • كان هذا تراجعا من هتلر عن الموقف الذى أكده بعنف منذ ٢٦ مارس ـ أنه لن يتعامل ثانية بشكل مباشر مع البولنديين • وبالرغم من أن هندرسون شكا من أن المطلب كان قريبا من الانذار النهائى بشكل خطير ، الا أنه كان متحمسا لقبوله ، انه يشكل فى رأيه « الفرصة الوحيدة لمنع الحرب ، وضغط هندرسون على حكومته لقبول الطلب ، وحث الحكومة الفرنسية بالنصح بزيارة سريعة يقوم بها بك ، وكان أشد الحاحا من كل هؤلاء السفير البولندى ليبسكى (١) ولم يبد ليبسكى اهتماما ـ والظاهر أنه حتى لم يبلغ وارسو بطلب هتلر واستجابت الحكومة الفرنسية بوضوح فى الاتجاه المضاد ـ فطلبت من بك أن يتوجه الى برلين فورا • ولكن القرار توقف مع الحكومة البريطانية ، وهنا كان الاقتراح الذى كانت تريده دائما والذى لمحت به لهتلر بشكل متكرر • المفاوضات المباشرة بين بولندا وبين ألمانيا • لقد أدى هتلر الآن دوره ولكنهم لم يستطيعوا أن يؤدوا أدوارهم • كان يساورهم شك بالغ فيما اذا كان البولنديون سيقدمون أنفسهم فى برلين على هذا النحو من مشيئة هتلر • وأبلغ كينيدى احساس تشمبرلن الى واشنجطن « بصراحة أنه أكثر قلقا لجعل البولنديين أكثر مسئولية من الألمان » (٢)• لقد ظل الانجليز يرجئون المشكلة خلال ٣٠ أغسطس • وأخيرا عثروا على حل ما • وتقدموا بمطالب هتلر لوارسو فى الساعة الثانية عشرة وخمسة وعشرين دقيقة صباحا فى يوم ٣١ أغسطس ، وهذا يعنى خمسة وعشرين دقيقة بعد انقضاء أجل الانذار الألمانى ، اذا ما كان مثل هذا الانذار صحيحا • ولقد كان الانجليز على حق فى فهمهم للعناد البولندى • ولقد أجاب بك مباشرة عندما أعلن رسميا بمطلب هتلر : « اذا ما دعى الى برلين فانه بطبيعة الحال لن يذهب ، حيث لا نية لديه

---

(١) من هندرسون الى هاليفاكس ، ٢٩ أغسطس ، ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٩ ، سياسة بريطانيا الخارجية ، المجموعة الثالثة ، سابعا رقم ٤٩٣ و ٥١٠ •

(٢) من كينيدى الى هل ، ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٩ : علاقات الولايات المتحدة الخارجية سنة ١٩٣٩ ، عام •

في أن يعامل مثل الرئيس هاشا » (١) · وهكذا يستطيع الانجليز أن يزعموا ، وقد تحركوا بشكل متأخر جدا ، أنهم قد عرضوا شيئا يعرفون أنهم لا يستطيعون اعطاءه · سفيرا مفوضا بولنديا فى برلين ·

ولم يكن هتلر يتوقع ذلك · فلقد توقع أن المفاوضات ستبدأ ، وكان ينوى أن يجعلها تتحطم على صخرة العناد البولندى · وبناء على تعليماته كان يجب تجهيز المطالب التفصيلية فى النهاية · كان هناك أساسا ، العودية الفورية الى دانزج ، واستفتاء عام فى العمر (٢) · أنها الأسس نفسها التى أيدتها الحكومتان الانجليزية والفرنسية طويلا · ولكن بالفشل فى حضور سفير مفوض بولندى · كان أمام الألمان صعوبة فى جعل شروطهم معروفة · وفى منتصف ليلة ٣٠ أغسطس حمل هندرسون الى ريبنتروب نبأ عدم حضور سفير مفوض بولندى فى ذلك اليوم · ولم يكن ريبنتروب سوى مسودة الشروط الألمانية المقترحة وقد سجلت عليها تعديلات هتلر · لم تكن فى حالة تسمح بعرضها على هندرسون وكانت لدى ريبنتروب تعليمات من هتلر الا يفعل ذلك · ولهذا قرأ الشروط ببطء ــ ولقد نشأت أسطورة بعد ذلك بأنه « ثرثر » خادعا هندرسون عمدا ، بشروط كانت من باب العرض فقط · والواقع أن هندرسون أدرك بيت القصيد بوضوح ، وتأثر · وظن وقد أخذ بقيمتها الظاهرة على السطح ، انها لم تكن « غير معقولة » وفى أثناء عودته الى السفارة الانجليزية طلب ليبسكى فى الثانية صباحا وحثه على أن يطلب مقابلة مع ريبنتروب فورا · ولم يعر ليبسكى الأمر التفاتا وعاد الى الفراش ·

وأصاب الألمان فى ذلك الوقت القلق لأن شروطهم لم تذهب مسجلة تسجيلا دقيقا مع هندرسون · ومرة أخرى استخدموا داليروس كمبعوث مفروض فيه أنه غير رسمى · وعرض جورنج ، زاعما أنه يعمل مناوئا لهتلر ، الشروط على دالير الذى نقلها بدوره تليفونيا الى السفارة الانجليزية حوالى الرابعة صباحا · وبما أن جورنج كان يعلم أن المحادثات التليفونية كانت مراقبة على الأقل من عملاء ثلاثة حكومات (وحكومة واحدة منهم) فان مناوأته لهتلر كانت وهما بطبيعة الحال · وفى اليوم

---

(١) من كينارد الى هانيفاكس ، ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة ، سابعا ، رقم ٥٧٥ .

(٢) شميدت ، رسالة دوريه : ٣٠ اغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة المانيا الخارجية ، المجموعة سابعا ، رقم ٤٥٨ .

التالى تخلى جورنج عنها · وأعطى داليروس صورة من الشروط الألمانية وحملها الى السفارة الانجليزية ومرة أخرى طلب هندرسون ليبسكى الذى رفض الحضور · وأرسل دهلير وأوجلفى فدربس المستشار البريطانى للسفارة ، ليقابلا ليبسكى ولكنه ظل ساكنا بلا حراك · ورفض أن يلقى نظرة على الشروط الألمانية · وعندما ترك دهلير الحجرة احتج ليبسكى على تقديم هذه الوساطة وقال : « انه سوف يجازف بسمعته الحسنة بأن الروح المعنوية للألمان تتداعى وان النظام الحاضر سوف يتصدع حالا ·· وهذا العرض الألمانى كان فخاً ، وانه أيضا علامة ضعف من جانب الألمان » (١) وفى محاولة أبعد للنفاذ خلال قشرة العناد السميكة تحدث داليروس تليفونيا مع هوراس ميلسون فى لندن وقال « ان الشروط الألمانية متحررة الى مدى بعيد » ولقد كان من « الواضح لنا» (داليروس ؟ جورنج ؟ هندرسون ؟ أن البولنديين كانوا يعرفون امكانيات المفاوضات وأدرك ويلسون أن الألمان كانوا يتسمعون وطلب الى دهلير أن يصمت وأن يضع السماعة (٢) ·

جاء التحذير متأخرا للغاية كانت كل خطوة فى الساعات القليلة الأخيرة علنية كما لو كانت مذاعة فى الجرائد · وكانت المكالمات التليفونية بين هندرسون وبين ليبسكى وبين داليروس وبين هندرسون والروحات والغدوات بين السفارتين الانجليزية والبولندية ــ كلها معروفة للألمان · وكانت بلا شك معروفة لهتلر · ما هى النتيجة التى كان من الممكن التوصل اليها ؟ أنها فقط الخاتمة بانه نجح فى دق أسفين بين بولندا وحلفائها الغربيين وكان هذا صحيحا بالنسبة للحكومة الفرنسية · وكان صحيحا بالنسبة لهندرسون · ولقد كتب بعد ذلك فى ٣١ أغسطس : « لقد كانت الحرب بناء على العرض الألمانى ، بلا سبب معقول تماما ·· ولابد للحكومة البولندية أن تعلن غدا على ضوء المقترحات الألمانية التى أصبحت الآن علنية ، نيتها على ارسال سفير مفوض ليناقش تلك المقترحات على أسس عامة(٣) · وما كان لهتلر أن يعلم أن هندرسون لم يعد يتحمل العبء الذى كان يتحمله السنة الماضية فى لندن · ولكن حتى الحكومة

---

(١) من هندرسون الى هاليفاكس ، ٢١ اغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة ، سابعا رقم ٥٩٧ ·

(٢) مفكرة بقلم كادوجان ، ٣١ اغسطس سنة ١٩٣٩ : سياسة بريطانيا الخارجية المجموعة الثالثة ، سابعا رقم ٥٨٩ ·

(٣) من هندرسون الى هاليفاكس أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ٦٣١ ·

البريطانية كاد ينفد صبرها مع البولنديين · وفي وقت متأخر من ليلة ٣١ أغسطس أبرق هاليفاكس لوارسو : « انني لا أدرك لماذا تجد الحكومة البولندية صعوبة في تفويض السفير البولندى لأن يقبل وثيقة من الحكومة الألمانية » (١) · وبمرور أربعة وعشرين ساعة كانت الشقة ستزداد اتساعا · على أن هتلر لم تكن لديه الأربعة والعشرين ساعة · كان سجين جدول مواعيده الخاص · ولم يكن في استطاعته ، وقادته يراقبون بشك ، أن يؤجل الهجوم مرة ثانية على بولندا ما لم يكن لديه شيء قوى يعرضه ، ولقد حرمه البولنديون الحصول عليه · ولقد أعطته اتساع الثغرة بين بولندا وحلفائها فرصة · وكان عليه أن يقامر عليها ·

وقرر هتلر في الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة مساء ليلة ٣١ أغسطس أنه لابد أن يتم الهجوم · وفي الساعة الواحدة مساء اتصل ليبسكى تليفونيا طالبا مقابلة مع ريبنتروب · وكان الألمان الذين يراقبون سلفا مالديه من تعليماته يعلمون أنه أخبر ألا يدخل في : « أية مفاوضات حقيقية » وفي الثالثة مساء اتصل وزيكر تليفونيا بليبسكى ليسأل عما اذا كان حاضرا باعتباره سفيرا مفوضا · ورد ليبسكى « لابوظيفته كسفير » وكان هذا كافيا لهتلر · فالبولنديين ، كما كان يبدو كانوا لايزالون على عنادهم ، وهو يستطيع أن يستمر في مقامرته لعزلهم الحرب · وفي الرابعة مساء كانت أوامر الحرب قد تأكدت · وفي السادسة والنصف مساء قابل ليبسكى ريبنتروب في نهاية الأمر · وقال ليبسكى ان حكومته « تقدر بكل ارتياح » الاقتراح البريطاني باجراء مفاوضات بولندية ألمانية مباشرة · وسأل ريبنتروب عما اذا كان سفيرا مفوضا · ومرة أخرى أجاب ليبسكى بالنفى · ولم يبلغ ريبنتروب الشروط الألمانية ، ولو حاول أن يفعل ذلك فان ليبسكى كان سيرفض أن يتسلمها · وهكذا انتهى الاتصال المباشر الوحيد بين ألمانيا وبولندا منذ ٢٦ مارس· ولقد احتفظ البولنديون باعصابهم هادئة حتى اللحظة الأخيرة · وفي الساعة الرابعة وخمسة وأربعين دقيقة في صباح اليوم التالي بدأ الهجوم الألماني على بولندا · وفي السادسة صباحا قذفت الطائرات الألمانية وارسو بالقنابل ·

وهنا كانت حالة اعتداء واضحة لكل من بريطانيا وفرنسا · لقد هوجمت حليفتهم بتهور ، ولم يبق أمامهما الا اعلان الحرب على المعتدى · ولم يحدث شيء من هذا القبيل ، وانما وجهت كل من الحكومتين احتجاجا

---

(١) من هاليفاكس الى كينارد أول سبتمبر ١٩٣٩ : المرجع السابق رقم ٦٣٢ ·

اليما لهتلر ، فيه تحذير بأنهما ستجدان أنفسهما مضطرتين للحرب ما لم يكف • وانتظرا في الوقت نفسه شيئا يتحول أو شيئا يحدث • واقترح موسوليني في ٣١ أغسطس ، وهو يوالى في حرص اجراء السنة الماضية ، مؤتمرا أوربيا : يجب أن يجتمع في ٥ سبتمبر ويجب أن يغطى كل أسباب النزاع الأوربي مع الاشتراط مقدما بوجوب عودة دانزج الى ألمانيا • وكانت الحكومتان الغربيتان مرتاحتين للاقتراح عندما وصلهما أولا • ولكن موسوليني قدمه في وقت غير مناسب • ففي سنة ١٩٣٨ كانت أمامه ثلاثة أيام يستطيع فيها أن يتجنب الحرب أما في سنة ١٩٣٩ فاقل من أربع وعشرين ساعة ، ولم يكن هذا كافيا • وفي أول سبتمبر عندما ردت الدول الغربية على موسوليني كان عليهم أن يفترضوا أن القتال لابد وأن يتوقف أولا في بولندا • ولم يكن هذا كل شيء ، وفي حين كان بونيه متحمسا لاقتراح موسوليني واصل الرأى العام في بريطانيا هجومه • كان مجلس العموم جموحا عندما أوضح تشمبرلن أن ألمانيا قد حذرت « فقط » وتوقع شيئا أكثر صلابة في اليوم التالى • وأكد هاليفاكس وهو يتأرجح كالعادة مع الاتجاه الوطنى أكد أن المؤتمر لن ينعقد الا اذا انسحبت ألمانيا من كل الاقليم البولندى • وكان الايطاليون يعرفون أنه من الميئوس منه أن وضع مثل هذا الطلب أمام هتلر وأهملوا المؤتمر دون مجهود آخر •

ومع ذلك فقد استمرت الحكومتان الانجليزية والفرنسية على الأخص في الايمان بمؤتمر مات قبل أن يولد • وكان هتلر قد أجاب موسوليني في البداية أنه اذا مادعى الى مؤتمر فانه سيعطى رده في ظهر وسبتمبر • وعلى ذلك فقد جاهد بونيه ومع تشمبرلن في يأس لتأجيل اعلان الحرب حتى بعد ذلك الوقت وحتى بالرغم من أن الايطاليين لم يعودوا ينوون بعد دعوة هتلر أو أى فرد سواه • وتذرع بونيه معتذرا بأن الأوضاع العسكرية الفرنسية تتطلب التريث حتى تتم التعبئة بلا تشويش من هجوم جوى ألمانى (الذى كانوا يعرفون أنه لن يحدث بأية طريقة — فالسلاح الجوى الألمانى كان مستخدما بأكمله في بولندا) • ولم يتذرع تشمبرلن بأى عذر سوى أن الفرنسيين يطلبون التريث وأنه من الصعب دائما العمل مع حلفاء • وفي مساء ٢ سبتمبر كان مازال يسلى مجلس العموم بمفاوضات نظرية : « اذا ماوافقت الحكومة الألمانية على أن تسحب قواتها فستتوفر عندئذ الرغبة لدى حكومة جلالة الملك لأن تنظر الى الوضع كما لو أنه الوضع نفسه قبل أن تخترق القوات الألمانية الحدود البولندية • وهذا

يعني أن الطريق سيكون مفتوحا لمباحثات بين الحكومتين الالمانية والبولندية على الأمور المشارة » وكان هذا فوق الاحتمال حتى بالنسبة للمحافظين الموالين • وقال ليو أمرى أرثر جرينوود القائم بزعامة المعارضة :« أن التكلم باسم انجلترا » كان عملا لا يقدر عليه تشمبرلن • وحذر الوزراء بقيادة سيمون تشمبرلن ستسقط مالم ترسل الحكومة انذارا لهتلر قبل أن يجتمع المجلس مرة ثانية وأذعن تشمبرلن • واستبعدت اعتراضات الفرنسيين • وسلم الانذار الانجليزى فى التاسعة من صباح ٣ سبتمبر • وانقضى أجله فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، وتبعت ذلك حالة حرب • وعندما علم بونيه أن الانجليز سيدخلون الحرب على أية حال كان قلقه البالغ هو أن يلحق بهم • وقدم موعد الانذار الفرنسى رغم الاعتراضات المقترحة من هيئة القيادة العامة : فقد سلم فى ظهيرة ٣ سبتمبر وانقضى أجله فى الخامسة مساء • وبتلك الطريقة الغريبة ظهر الفرنسيون الذين نصحوا بمقاومة ألمانيا لمدى عشرين عاما ، وقد سبقوا للحرب بواسطة البريطانيين الذين ظلوا ينصحون بالاتفاق لمدى عشرين عاما • ودخلت كلتا الدولتين الحرب دفاعا عن هذا الجزء من السلام الذى رأوا لمدى طويل أنه أقل مايمكن الدفاع عنه • وربما يكون هتلر قد خطط لمشروع قيام حرب عظمى طوال ذلك ، على أن الذى تبديه السجلات أنه تورط فى الحرب نتيجة مناورة دبلوماسية دبرها فى ٢٩ أغسطس فى حين كان يجب أن يبدأ بها فى ٢٨ أغسطس •

تلك كانت جذور الحرب العالمية الثانية أو بمعنى أصح جذور الحرب بين الدول الغربية الكبرى الثلاث حول معاهدة فرساى ، الحرب التى أضمرت منذ اللحظة التى انتهت فيهـا الحرب الأولى • وسوف يتناقش الناس طويلا هل كان من الممكن تجنب هذه الحرب المتجددة بحزم أكثر أو بترضية أكبر ، ولن توجد اجابة تلك التأملات النظرية • وربما كان من المحتمل أن تنجح احداهما وذلك لو أنه اتبع بطريقة مناسبة ، وكان مزج الاثنين على الصورة الذى مارسته الحكومة البريطانية عمليا هو الأكثر قابلية للفشل • ان تلك الأسئلة تبدو بعيدة بعدا شاسعا • فرغم أن هتلر أخطأ فى افتراضه بأن الدولتين الغربيتين الكبيرتين لن تدخلا الحرب نهائيا ، فان توقعه بأنهما لن تدخلا الحرب تحول بشكل خطير لأن يكون صحيحا • ولم تفعل انجلترا أو فرنسا شيئا لمساعدة البولنديين وفعلتا القليل لمساعدة نفسيهما • والصراع الأوربى الذى بدأ فى سنة ١٩١٨ عندما مثل مندوبو الهدنة الألمان أمام فوش فى عربة القطار فى رثوند

انتهى سنة ١٩٤٠ عندما مثل مندوبو الهدنة الفرنسيون أمام هتلر فى العربة نفسها • كان هناك « نظام جديد » فى أوربا ؛ كانت تسيطر عليها المانيا •

لقد عزم الشعب الانجليزى على تحدى هتلر ، بالرغم من أنه كانت تعوزه القوة لالغاء أعماله • لقد جاء هو نفسه لمساعدتهم • واعتمد نجاحه على عزل أوربا عن بقية العالم • وحطم اختياريا مصدر نجاحه • ففى سنة ١٩٤١ هاجم روسيا السوفييتية وأعلن الحرب على الولايات المتحدة فى حربين عالميتين طالبتا فقط بأن يتركا وشأنهما • وبتلك الطريقة بدأت حرب عالمية حقيقية • اننا لازلنا نعيش فى ظلها والحرب التى اندلعت فى سنة ١٩٣٩ قد أصبحت أمرا مثيرا لحب الاستطلاع التاريخى •

الخرائط

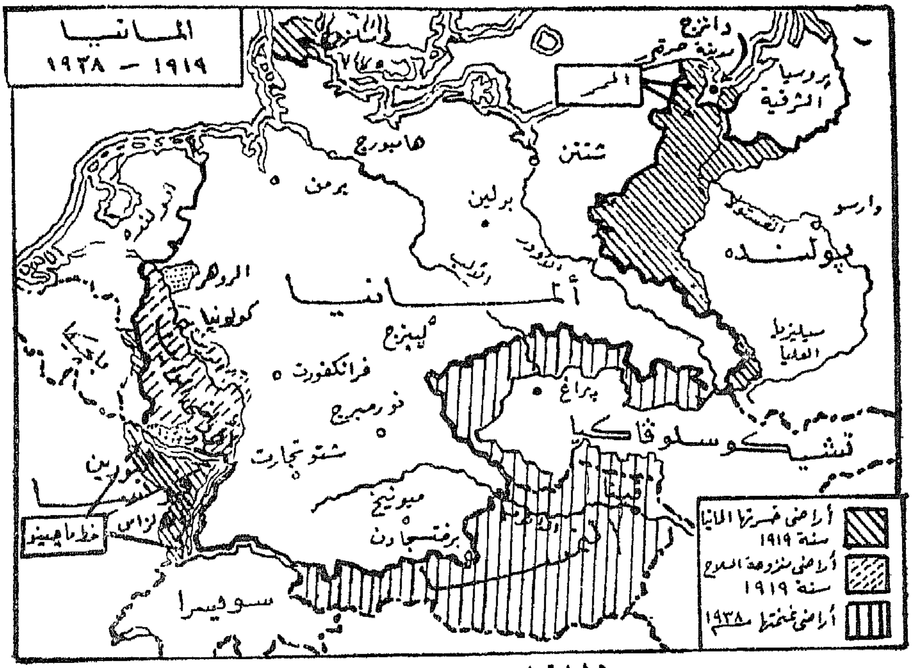

المانيا بين الحربين

(خريطة رقم ١)

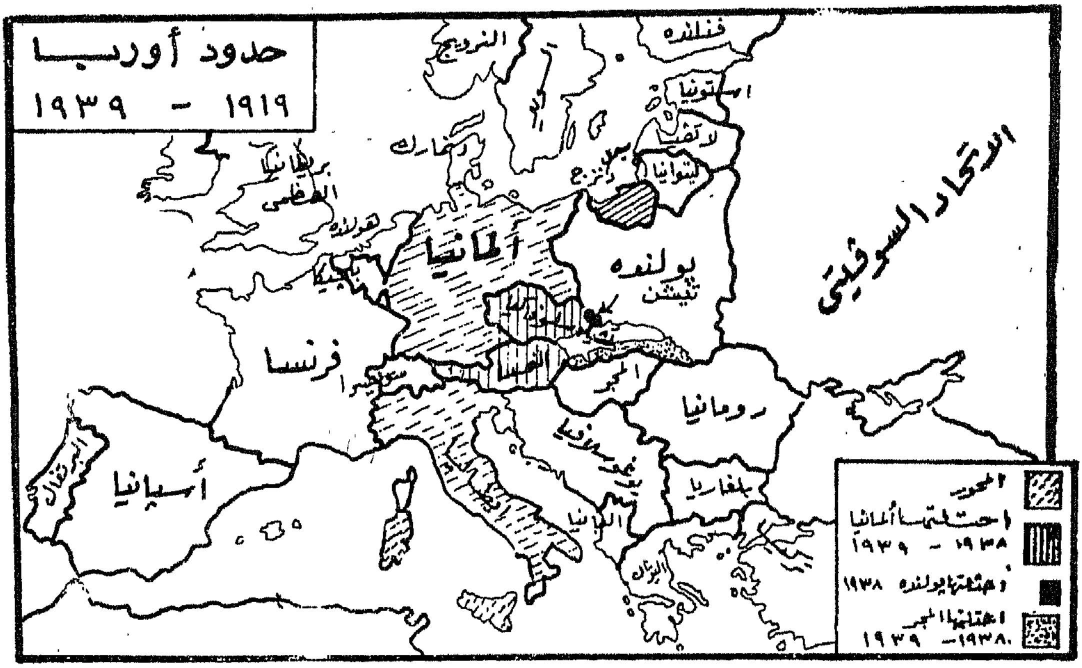

أوروبا بين الحربين

(خريطة رقم ٢)

لقد مضى ما يقرب من خمسة وأربعين عاما على نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولم تعد الحرب العالمية الثانية من أحداث اليوم ، وإنما صارت من أحداث الأمس ، وهذا يلقى بأعباء جديدة على المؤرخين . وقد كانت أصول الحرب العالمية الثانية أقل جاذبية للناس الذين بدأوا فى دراسة أصول الحرب العالمية الثالثة . ولا شك أن الحرب الجماعية فوق قدرة أى دولة كبرى ، وانه حتى يومنا هذا فإن الاستعداد لمثل هذه الحرب يهدد بدمار الدول الكبرى التى تحاول ذلك . فبالرغم من أن موضوع الدولة العظمى هو قدرتها على خوض غمار حرب كبرى ، فإن الطريق الوحيد لكى تظل دولة كبرى هى ألا تحارب دولة أخرى ، أو أن تحاربها فى نطاق محدود .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٩٠ قرشـــا